

في أصول التَّفسير

شرح رسالة السعدي

أصول وكليَّات من أصول التفسير وكلِّياته لا يستغني عنها مفسِّر القرآن

للإمام السعدي عبدالرَّحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي 1307 – 1376 هـ

الجزء الثاني

شرح

الدكتور: عصام الدِّين بن إبراهيم النُّقيلي

تمهيدُ البدايةِ

فِي أُصولِ التَّفسيرِ

شرح رسالة السعدي

أصول وكليَّات من أصول التفسير وكلِّياته لا يستغني عنها مفسِّر القرآن

للإمام السعدي عبدالرَّحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي 1307 – 1376 هـ

الجزء الثاني

شرح

الدكتور: عصام الدِّين بن إبراهيم النُّقيلي

غفر الله له ولوالديه ومشايخه والمسلمين

آمين

تمهيد البداية

في

أصول التفسير

يا ناظرًا فيمَا عمدتُ لجمعـــــــهِ * عذرًا فإنَّ أخَا البصيرةِ يعـــــــذرُ

واعلمْ بأنَّ المرءَ لوْ بلغَ المـــدَى * في العُمرِ لاقَى الموتَ وهوَ مقصِّرُ

فإذا ظفرتَ بزلَّةٍ فافْتحْ لــــــــهَا * بابَ التَّجاوزِ فالتَّجاوزُ أجـــــدرُ

ومنَ المحالِ بأن نرَى أحدًا حوَى * كُنهَ الكَمالِ وذَا هوَ المتعــــــذِّرُ[1]

(1) عَلَمُ الدِّينِ الْقَاسِمُ بْنُ أَحْمَدَ الأَنْدَلُسِيُّ ، كتاب "أسنى المقاصد وأعذب الموارد".


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}

[النساء: 82]

الحمدُ للهِ العليمِ يسَّـــــــــرَا * فهمَ الكتابِ للَّذِي تبصَّـرَا

وأكملُ الصَّلاةِ والسَّـــــلامِ * علَى النَّبيِّ صفوةِ الأنـــامِ

والآلِ والصَّحبِ وكلِّ مقتــدِ * بهمْ وللدِّينِ الحنيفِ مهتدِ[1].

---

(1) الأرجوزة المنظَّمة لخلاصة المقدِّمة لأبي سهيل أنور عبد الله بن عبد الرَّحمن الفضفري.

مقدِّمةٌ

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسنَا ومنْ سيّئاتَ أعمالنَا، منْ يهدهِ اللهُ فلَا مضلَّ لهُ ومنْ يضللْ فلَا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنَّ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولهُ ﷺ.

{يَا أَيُّهَا الذّينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[آل عمرن: 102].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَذِي خَلَقَكُمْ مَنْ نَّفسٍ وَّاحدةٍ وَّخلقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كثيرًا وَّنِسَاءً وَّاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَائَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[النّساء: 1].

{يَا أَيَّهَا الذّينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَولاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوزًا عَظِيمًا}[الاحزاب: 71].

أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ، وخيرُ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرُّ الأمورِ محدثاتهَا، وكلَّ محدثةٍ بدعةٍ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٍ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ.

وبعد:

فهذا الجزء الثاني من شرح رسالة الإمام السعدي { أصول وكليَّات من أصول التفسير وكلِّياته لا يستغني عنها مفسِّر القرآن} وأسأل الله تعالى أن يجعل في هذا الشرح القبول والنفع آمين.

ثمَّ قالَ الإمامُ السَّعديُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: معيَّةُ اللهِ التِي ذكرهَا فِي كتابهِ، نوعانِ:

معيَّةُ العلمِ والإحاطةِ، وهيَ: المعيَّةُ العامَّةُ، فإنَّهُ معَ عبادهِ أينمَا كانُوا.

ومعيَّةٌ خاصَّةٌ، وهيَ: معيَّتهُ معَ خواصِّ خلقهِ بالنُّصرةِ، واللُّطفِ، والتَّأييدِ.

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

قد ذكرَ اللهُ تعالَى معيَّتهُ فِي كتابهِ العزيزِ علَى قسميهَا العامةِ والخاصَّةِ فِي عديدٍ منَ المواضعِ وقالَ تعالَى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد: 4].

وقالَ سبحانهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة: 7].

وقالَ جلَّ جلالهُ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾[النساء: 108].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 40].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء: 62].
~~~~~~~~~~~

المعنَى اللُّغوِي للمعيَّةِ:

المعيَّةُ نسبةً إلَى لفظِ: (مع)، وهوَ لفظٌ يقتضِي الاجتماعَ فِي المكانِ، أوِ الزَّمانِ، أوِ الشَّرفِ أوِ الرُّتبةِ، كمَا يقتضِي النُّصرةَ.

يقولُ الرَّاغبُ الأصفهانِي: (مع) يقتضِي الاجتماعَ إمَّا فِي المكانِ نحوَ همَا معًا فِي الدَّارِ، أوْ فِي الزَّمانِ نحوَ ولدَا معًا، أوْ فِي المعنَى كالمتضايفينِ نحوَ الأخُ... فإنَّ أحدهمَا صارَ أخًا للآخرِ فِي حالِ صارَ الآخرُ أخاهُ، وإمَّا فِي الشَّرفِ والرُّتبةِ نحوَ: همَا معًا فِي العلوِّ[1].

المعنَى الاصطلاحِي للمعيَّةِ:

تُستعملُ (مع) للمصاحبةِ بينَ أمرينِ لَا يقعُ بينهمَا مصاحبةٌ واشتراكٌ إلَّا فِي حكمٍ يجمعُ بينهمَا، ولذلكَ لَا تكونُ الواوُ التِي بمعنَى معَ إلَّا بعدَ فعلٍ لفظًا أوْ تقديرًا لتصحَّ المعيَّةُ.

وكمالُ معنَى المعيَّةِ الاجتماعُ فِي الأمرِ الذِي بِهِ الاشتراكُ...

فالأوَّلُ: يكثرُ فِي أفعالِ الجوارحِ والعلاجِ نحوَ دخلتُ معَ زيدٍ وانطلقتُ معَ عمرٍو وقمنَا معًا ومنهُ قولهُ تعالَى:﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[يوسف: 36].

والثَّانِي: يكثرُ فِي الأفعالِ المعنويَّةِ نحوَ آمنتُ معَ المؤمنينَ وتبتُ معَ التَّائبينَ وفهمتُ المسألةَ معَ منْ فهمهَا، ومنهُ قولهُ تعالَى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[آل عمران: 43][2]، وقولهُ تعالَى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[النمل: 44].

---

(1) المفردات ص 470.

(2) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص 771 – وبصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي 372/3.

المعيَّةُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ الأداةُ (مع) فِي القرآنِ الكريمِ (164) مرَّةً[3]، والمواضعُ التِي وردتْ متعلِّقةً بالمعيَّةِ الإلهيَّةِ بلغَ عددَ ورودهَا (38) مرَّةً.

وليسَ لهَا إلَّا صيغةٌ واحدةٌ (مع).

وجاءتْ معيَّةُ اللهِ تعالَى فِي القرآنِ علَى ثلاثةِ وجوهٍ [4]:

الأوَّلُ: العلمُ والإحاطةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى:﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾[النساء: 108]، يعنِي: عالمٌ بهمْ ومحيطٌ بفعلهمْ.

الثَّانِي: النَّصرُ والرِّعايةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾[التوبة: 40]، يعنِي: ينصرنَا ويحفظنَا ويرعانَا.

الثَّالثُ: الاقترانُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُذَّبِينَ﴾[الشعراء: 213].

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ:

الحفظُ لغةً:

دارتْ كلمةُ الحفظِ علَى معانِي الرِّعايةِ، وعدمِ النِّسيانِ، والتَّعهُّدِ، وقلَّةِ الغفلةِ، وعدمِ الضَّياعِ، والضَّبطِ، والمواظبةِ، تقولُ كتبُ اللُّغةِ: الحاءُ والفاءُ والظَّاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ علَى مراعاةِ الشَّيءِ، يقالُ: حفظتُ الشَّيءَ حفظًا، قالَ اللَّيثُ: الحفظُ: نقيضُ النِّسيانِ، وهوَ التَّعاهدُ وقلَّةُ الغفلةِ[5].

(3) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص772،- والمعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الياء ص1437 – 1439.

(4) انظر: الوجوه والنظائر، للدامغاني، ص 428 – 429، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص562.

(5) انظر: العين، الفراهيدي 3/ 199، تهذيب اللغة، الأزهري 4/ 265، مقاييس اللغة، ابن فارس 2/ 87.

الحفظُ اصطلاحًا:

يقالُ: تارةً لهيئةِ النَّفسِ التِي بهَا يثبتُ مَا يؤدِّي إليهِ الفهمُ، وتارةً لضبطِ الشَّيءِ فِي النَّفسِ، ويضادهُ النِّسيانُ، وتارةً لاستعمالِ تلكَ القوَّةِ، فيُقالُ: حفظتُ كذَا حفظًا، ثمَّ يُستعملُ فِي كلِّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورعايةٍ[6].

أوْ هوَ كمَا عرَّفهُ الجرجانيُّ: ضبطُ الصُّورِ المُدركةِ[7].

أوْ هوَ: رعايةُ العملِ علمًا وهيئةً ووقتًا وإقامةً بجميعِ مَا يحصلُ بهِ أصلهُ، ويتمُّ بهِ عملهُ وينتهِي إليهِ كمالهُ[8].

الصِّلةُ بينَ الحفظِ والمعيَّةِ:

واضحٌ منْ خلالِ التَّتبُّعِ للمادةِ اللُّغويَّةِ ودوارنهَا فِي اللِّسانِ العربيِّ العلاقةُ بينهَا وبينَ المعيَّةِ، فالحفظُ يشتركُ معَ المعيَّةِ فِي الرِّعايةِ والتَّعهُدِ والمصاحبةِ والضَّبطِ، وهيَ معانٍ موجودةٌ فِي المعيَّةِ فِي جانبهَا الاصطلاحيِّ.

(6) المفردات، الراغب الأصفهاني ص 244.

(7) التعريفات ص 79.

(8) التوقيف على مهمات التعاريف ص 297.

المصاحبةُ:

المصاحبةُ لغةً:

المصاحبةُ والصُّحبةُ تدلُّ علَى معانِي الحفظِ والملازمةِ، والموافقةِ والمشاركةِ، فالمصاحبةُ: الموافقةُ والمشاركةُ فِي الشَّيءِ، يقالُ: صحبهُ اللهُ وأصحبهُ وصاحبهُ أي: حفظهُ، وقالَ أبُو عبيدةَ: وقولهُ جلَّ ثناؤهُ: ﴿وَلَاهُم مِّنَّا يُصْحَبُوْنَ﴾[الأنبياء: 43].

أي: لَا يُحفظونَ ومنهُ قولهمْ: لَا صَحبهُ اللهُ، أي: لَا حفظهُ. ويقالُ: بأهلهِ صحبةُ اللهِ وصاحبهُ أي: حفظهُ، وتقولُ: أصحبتُ الرَّجلَ إذَا اتَّبعتهُ منقادًا فأنَا مصحِبٌ والرَّجلِ مصحَبٌ، وصاحبتهُ إذَا رافقتهُ فهوَ مصحوبٌ[9].

كمَا تدلُّ علَى المنعةِ، والحمايةِ[10].

المصاحبةُ اصطلاحًا:

الموافقةُ والمشاركةُ فِي الشَّيءِ، فإنْ تتابعُوا معَ ملاقاةٍ واجتماعٍ، فأصحابٌ حقيقةً، وإنْ لَا فمجازٌ[11].

الصِّلةُ بينَ المصاحبةِ والمعيَّةِ:

المصاحبةُ واضحٌ فيهَا معنَى المعيَّةِ، كمَا أنَّ المشاركةَ فيهَا شيءٌ منَ الدَّلالةِ علَى العونِ والنُّصرةِ، وهيَ المعانِي ذاتهَا التِي دارتْ عليهَا مفردةُ المعيَّةِ.

---

(9) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد 1/280 – التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص 307.

(10) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري 4/ 154 – الصحاح، الجوهري 1/ 162.

(11) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص 307.

أنواعُ معيَّةِ اللهِ تعالَى لعبادهِ:

الرَّاصدُ لآياتِ القرآنِ الكريمِ فِي المعيَّةِ والمتتبِّعِ لهَا يجدُ أنَّهَا تدورُ حولَ قطبينِ أساسيينِ أوْ محورينِ رئيسينِ وهمَا: معيَّةٌ عامَّةٌ، ومعيَّةٌ خاصَّةٌ، فالمعيَّةُ العامَّةُ لعمومِ الخلقِ، والمعيَّةُ الخاصَّةُ يتميَّزُ بهَا بعضُ عبادِ اللهِ تعالَى بشروطٍ محدَّدةٍ، مقرونةٍ بصفاتٍ مبيَّنةٍ.

والمعيَّةُ لهَا دلالتانِ، معيَّةٌ بالذَّاتِ، ومعيَّةٌ بالصِّفاتِ، ومعيَّةُ اللهِ تعالَى لعبادهِ المقصودةُ معيَّةٌ بالصِّفاتِ لإجماعِ المسلمينَ سلفًا وخلفًا علَى أنَّ معيَّةَ الذَّاتِ غيرُ مرادةٍ، وإنَّمَا المرادُ معيَّتهُ تعالَى بصفاتهِ اللَّائقةِ بمعنَى المعيَّةِ، كالعلمِ والحفظِ والنُّصرةِ ونحوهَا[12].

ويمكننَا أنْ نتتبَّعَ هذينِ النَّوعينِ علَى النَّحوِ الآتِي:

أوَّلًا: معيَّةٌ عامَّةٌ:

والمعيَّةُ العامَّةُ تكونُ لعمومِ الخلقِ وهيَ بالرِّزقِ والعلمِ والتَّدبيرِ، ممَّا يليقُ بهِ تعالَى ويصلحُ للخلقِ عامَّةً، وقدْ وردتْ آياتٌ كريمةٌ تؤكِّدُ هذَا المعنَى، ومنهَا قولهُ تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة: 7].

والمعنَى: أنَّهُ لَا يتناجَى ثلاثةٌ فيمَا بينهمْ، ولَا يتكلَّمونَ فيمَا بينهمْ بكلامِ الشَّرِّ إلَّا هوَ رابعهمْ، لأنَّهُ يعلمُ مَا يقولونَ فيمَا بينهمْ، ﴿ولَا خمسةٌ إلَّا هوَ سادسهمْ﴾ يعنِي: كانَ هوَ سادسهمْ، لأنَّهُ يعلمُ مَا يقولونَ فيمَا بينهمْ، ولَا أدنَى منْ ذلكَ ولَا

---

(12) انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبدالستار سعيد ص 29.

أكثرَ إلَّا هوَ معهمْ يعنِي: عالمٌ بهمْ وبأحوالهمْ أينَ مَا كانُوا فِي الأرضِ، ﴿ثمَّ ينبِّئهمْ بمَا عملُوا﴾ يعنِي: يخبرهمْ بمَا عملُوا يومَ القيامةِ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ[13].

ويسمعُ سرَّهمْ ونجواهمْ، لَا يخفَى عليهِ شيءٌ منْ أسرارهمْ (وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ) يقولُ: ولَا يكونُ منْ نجوَى خمسةٌ إلَّا هوَ سادسهمْ كذلكَ (وَلَآ أَدْنَى مِن ذَلِكَ) يقولُ: ولَا أقلَّ منْ ثلاثةٍ (وَلَآ أَكْثَرَ) منْ خمسةٍ (إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ) إذَا تناجُوا (أَيْنَ مَا كَانُوا) يقولُ: فِي أيِّ موضعٍ ومكانٍ كانُوا، وعنَى بقولهِ: (هُوَ رَابِعُهُمْ) بمعنَى أنَّهُ مشاهدهمْ بعلمهِ، وهوَ علَى عرشهِ[14].

وقالَ أهلُ المعانِي: يريدُ قربهُ بالعلمِ[15] لَا بالذَّاتِ.

ومعنَى كونهُ معهمْ: أنَّهُ يعلمُ مَا يتناجونَ بهِ ولَا يخفَى عليهِ مَا همْ فيهِ، فكأنَّهُ مشاهدهمْ ومحاضرهمْ، وقدْ تعالَى عنِ المكانِ والمشاهدةِ[16].

ومنْ لطائفِ الشَّيخِ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى ربطهُ البديعُ بينَ صدرِ الآيةِ وعجزهَا، واستنباطهِ لهذَا المعنَى اللَّطيفِ فِي المعيَّةِ وهيَ أنَّ هذهِ المعيَّةَ، معيَّةُ العلمِ والاطِّلاعِ، ولهذَا توعَّدَ ووعدَ علَى المجازاةِ بالأعمالِ بقولهِ: (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلونَ بَصِيرٌ) أيْ: هوَ تعالَى بصيرٌ بمَا يصدرُ منكمْ منَ الأعمالِ، ومَا صدرتْ عنهُ تلكَ الأعمالُ، منْ برٍّ وفجورٍ، فمجازيكمْ عليهَا، وحافظهَا عليكمْ[17].

فمعيَّةُ اللهِ تعالَى العامَّةُ للنَّاسِ معيَّةُ علمٍ واطِّلاعٍ وانكشافٍ ومشاهدةٍ.

---

(13) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٤١٦، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين 3/ 359.

(14) جامع البيان، الطبري 22/ 468.

(15) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي 1/ 284 – أنوار التنزيل، البيضاوي 5/ 194 – تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 845.

(16) انظر: الكشاف، الزمخشري 4/ 490 زاد المسير، ابن الجوزي 4/ 245.

(17) تيسير الكريم الرحمن ص 838.

ثانيًا: معيَّةٌ خاصَّةٌ.

فإنْ كنَّا قدْ عرَّفنَا المعيَّةَ العامَّةَ التِي تعنِي العلمَ والإحاطةَ، والرِّزقَ والتَّدبيرَ والرِّعايةَ، فإنَّ هناكَ معيَّةٌ أخرَى خاصَّةٌ يمنحهَا اللهُ تعالَى لعبادهِ المؤمنينَ الذينَ استجمعُوا صفاتٍ يحبُّهَا اللهُ تعالَى ويدعُو إليهَا، وهيَ عندئذٍ تعنِي النَّصرَ، والمعونةَ، والتَّأييدَ، والرِّعايةَ، والرَّحمةَ، والعنايةَ، أوْ رفعَ الدَّرجاتِ أوْ تكفيرَ السَّيِّئاتِ، أوِ الإكرامَ فِي الحياةِ، ونحوِ ذلكَ ممَّا يمنُّ بهِ اللهُ تعالَى علَى عبادهِ الصالحينَ، وتنوَّعَ ورودُ هذَا اللَّونِ منَ المعيَّةِ فِي القرآنِ الكريمِ، كمَا سيأتِي، كمَا أنَّ هؤلاءِ المكرمينَ المُنعمِ عليهمْ بهذهِ المعيَّةِ الخاصَّةِ أصنافٌ عدَّةٌ، منهَا:

معيَّتهُ تعالَى للملائكةِ عليهمُ الصَّلاةُ السَّلامُ.

معيَّتهُ تعالَى لعبادهِ المؤمنينَ.

معيَّتهُ تعالَى للأنبياءِ عليهمْ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

1) معيَّةُ اللهِ تعالَى للملائكةِ.

والمعيَّةُ هنَا معيَّةُ الإعانةِ والنَّصرِ والتَّثبيتِ والتَّأييدِ، كمَا قالَ تعالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال: 12].

يعنِي: أَلْهَمَ ربُّكَ الملائكةَ، (أَنِّي مَعَكُمْ) أيْ: معينكمْ وناصركمْ، (فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) يعنِي: بشِّرُوا المؤمنينَ بالنُّصرةِ، فكانَ الملكُ يمشِي أمامَ الصفِّ فيقولُ: أبشرُوا فإنكمْ كثيرٌ وعدوُّكمْ قليلٌ، واللهُ تعالَى ناصركمْ(18).

وإيحاءُ الملائكةِ إلَى المؤمنينَ، إمَّا أنْ يكونَ عنْ طريقِ الظُّهورِ المباشرِ فِي صورةِ رجالٍ، وإمَّا عنْ طريقِ الإلهامِ، يقولُ القشيريُّ فِي لطائفهِ: قيلَ كانُوا يظهرونَ للمسلمينَ فِي صورِ الرِّجالِ يخاطبونهمْ بالإخبارِ عنْ قلَّةِ عددِ المشركينَ واستيلاءِ المسلمينَ عليهمْ، وهمْ لَا يعرفونَ أنَّهمْ ملائكةٌ.

وقيلَ: تثبيتهمْ إيَّاهمْ بأنْ كانُوا يلقونَ فِي قلوبهمْ ذلكَ منْ جهةِ الخواطرِ، ثمَّ إنَّ اللهَ يخلقُ لهمْ فيهَا ذلكَ، فكمَا يوصلُ الحقُّ سبحانهُ وساوسَ الشَّيطانِ إلَى القلوبِ يوصلُ خواطرَ الملكِ، وأيَّدهمْ بإلقاءِ الخوفِ والرُّعبِ فِي قلوبِ الكفَّارِ(19).

وإلقاءِ الرُّعبِ فِي نفوسِ المشركينَ فيهِ نصرٌ للمؤمنينَ وتأييدٌ لهمْ، فلَا معونةَ أعظمُ منْ إلقاءِ الرُّعبِ فِي قلوبِ الكفرةِ ولَا تثبيتَ أبلغُ منْ ضربِ أعناقهمْ، واجتماعهمَا غايةُ النُّصرةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ غيرَ تفسيرٍ، وأنْ يرادَ بالتَّثبيتِ أنْ يُخطِرُوا ببالهمْ مَا تقوَى به

(18) تفسير السمرقندي 2/ 11.

(19) انظر: طائف الإشارات، القشيري 1/ 607 – زاد المسير، ابن الجوزي 2/ 193.

قلوبهمْ وتصحَّ عزائمهمْ ونيَّاتهمْ فِي القتالِ، وأنْ يظهرُوا مَا يتيقَّنونَ بهِ أنَّهمْ ممدُّونَ بالملائكةِ[20].

أوْ يكونَ التَّثبيتُ بحضورهمْ معهمُ الحربَ وتكثيرِ سوادهمْ، أوْ محاربتهمْ معهمْ، أوْ طمأنتهمْ وقولهمْ لَا بأسَ عليكمْ ولَا خوفَ منْ عدوِّكمْ، فكانَ الملكُ يسيرُ أمامَ الصفِّ فِي صورةِ الرَّجلِ ويقولُ: سيرُوا فإنَّ اللهَ ناصركمْ؛ ويظنُّ المسلمونَ أنَّهُ منهمْ[21].

2) معيَّةُ اللهِ تعالَى للمؤمنينَ:

وقدْ وردتْ آياتُ القرآنِ الكريمِ تبيِّنُ معيَّةَ اللهِ تعالَى الخاصَّةِ لعبادهِ المؤمنينَ الذينَ لهمْ صفاتٌ تؤهِّلهمْ لهذهِ المعيَّةِ مثلَ الصَّبرِ والإحسانِ والتَّقوَى ونحوِ ذلكَ منَ الصِّفاتِ التِي تعينهمْ علَى أنْ يكونُوا أهلًا لمعيَّةِ الملكِ سبحانهُ، ومنْ هذهِ الآياتِ قولهُ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة: 153].

ومعنَى المعيَّةِ هنَا النَّصرُ والمعونةُ، والمظاهرةُ، فإنَّ منْ كانَ اللهُ تعالَى معهُ فهوَ ناصرهُ وظهيرهُ وراضٍ بفعلهِ، كقولِ القائلِ: ﴿افعلْ يَا فلانَ كذَا وأنَا معكَ﴾، يعنِي: إنِّي ناصركَ علَى فعلكَ ذلكَ ومعينكَ عليهِ[22].

---

(20) انظر: الكشاف، الزمخشري 2/ 204 – معالم التنزيل، البغوي 3/ 3330

(21) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 7/378.

(22) جامع البيان 3/ 214.

وعلَى الرُّغمِ منْ أنَّ اللهَ تعالَى معَ كلِّ أحدٍ معيَّةً عامَّةً إلَّا أنَّهُ معَ الصَّابرينَ معيَّةً خاصَّةً، وقدْ خصَّهمْ بالمعيَّةِ حتَّى يعلمُوا أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالَى بمعيَّتهِ لهمْ يفرِّجُ عنهمْ، وينصرهمْ، لقدِ استوجبُوا نهايةَ الذُّخرِ، وعلُوِّ القدرِ حيثُ نالُوا معيَّةَ اللهِ تعالَى[23].

قالَ الإمامُ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي شرحِ حديثِ النُّزولِ: لفظُ المعيَّةِ فِي كتابِ اللهِ جاءَ عامًّا كمَا فِي قولهِ تعالَى:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد: 4]، وفِي قولهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة: 7]، إلَى قولهِ: ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُواْ ﴾.

وجاءَ خاصًّا كمَا فِي قولهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[النحل: 128].

وقولهِ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه: 46].

وقولهِ: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا

(23) انظر: تفسير السمرقندي 1/ 105 – الكشف والبيان، الثعلبي 2/ 21 – لطائف الإشارات، القشيري 1/ 138.

وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 40].

فلوْ كانَ المرادُ بذاتِهِ معَ كلِّ شيءٍ لكانَ التَّعميمُ يناقضُ التَّخصيصَ، فإنَّهُ قدِ علمَ أنَّ قولهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ أرادَ بِهِ تخصيصَ نفسهِ وأبَا بكرٍ دونَ عدوِّهمْ منَ الكفَّارِ. وكذلكَ قولهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ خصَّهمْ بذلكَ دونَ الظَّالمينَ والفجَّارِ.

وأيضًا فلفظُ المعيَّةِ ليستْ فِي لغةِ العربِ ولَا فِي شيءٍ منَ القرآنِ أنْ يرادَ بهَا اختلاطَ إحدَى الذَّاتينِ بالأخرَى، كمَا فِي قولهِ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[الفتح: 29]، وقولهِ: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[النساء: 146]، وقولهِ: ﴿اِتَّقُوا اللهَ وَكُوْنُوا مَعَ اُلْصَّادِقِينَ﴾[التوبة: 119]، وقوله: ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾[الأنفال: 75].

ومثلُ هذَا كثيرٌ، فامتنعَ أنْ يكونَ قولهُ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يدلُّ علَى أنْ تكونَ ذاتهُ مختلطةٌ بذواتِ الخلقِ وقدْ بسطَ الكلامُ عليهِ فِي موضعٍ آخرَ وبيَّنَ أنَّ لفظَ المعيَّةِ فِي اللُّغةِ، وإنِ اقتضَى المجامعةَ والمصاحبةَ والمقارنةَ، فهوَ إذَا كانَ معَ العبادِ لمْ ينافِ ذلكَ علوَّهُ علَى عرشهِ، ويكونُ حكمُ معيَّتهِ فِي كلِّ موطنٍ بحسبهِ، فمعَ الخلقِ كلِّهمْ بالعلمِ والقدرةِ والسُّلطانِ، ويخصُّ بعضهمْ بالإعانةِ والنُّصرةِ والتَّأييدِ[24].

---

(24) محاسن التأويل 1/ 437.

وهذهِ المعيَّةُ المقتضيةُ للنَّصرِ والعونِ والإمدادِ، معيَّةٌ خاصَّةٌ كمَا سبقَ، "فاللهُ ناصرهمْ ومجيبُ دعوتهمْ، ومنْ كانَ اللهُ ناصرهُ فلَا غالبَ لهُ، أمَّا الجازعُ فقلبهُ لاهٍ عنْ ذكرِ اللهِ، والقلبُ اللَّاهِي ممتلئٌ بهمومِ الدُّنيَا وأكدارهَا، وإنْ حازَ الدُّنيَا بحذافيرهَا.

وقدْ جرتْ سنَّةُ اللهِ أنَّ الأعمالَ العظيمةَ لَا تنجحُ إلَّا بالثَّباتِ والدأبِ عليهَا، ومدارُ ذلكَ كلِّهِ الصَّبرُ، فمنْ صبرَ فهوَ علَى سنَّةِ اللهِ تعالَى واللهُ معهُ، فيسهلُ لهُ العسيرُ منْ أمرهِ، ويجعلُ لهُ فرجًا منْ ضيقهِ، ومنْ لمْ يصبرْ فليسَ اللهُ معهُ، لأنَّهُ تنكَّبَ عنْ سنَّتهِ، فلنْ يبلغَ قصدهُ وغايتهُ"[25].

وكمَا أنَّ اللهَ تعالَى معَ الصَّابرينَ والمحسنينَ فهوَ كذلكَ معَ المتَّقينَ.

قالَ تعالَى: ﴿واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: 194].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: "يريدُ معَ أوليائهِ الذينَ يخافونهُ فيمَا كلَّفهمْ منْ أمرهِ ونهيهِ"، وقالَ الزَّجاجُ: "تأويلهُ أنَّهُ ضامنٌ لهمْ النَّصرَ"[26].

وكمَا تكونُ المعيَّةُ بالتَّأييدِ تكونُ كذلكَ منَ الظُّلمِ بالنُّصرةِ والظَّفرِ بالمعونةِ والحفظِ والعلمِ[27].

---

(25) تفسير المراغي 2/ 23.

(26) انظر: التفسير البسيط 10/ 417.

(27) انظر: تفسير السمعاني 2/ 308 – المحرر الوجيز، ابن عطية 3/ 31 – التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي 1/ 439.

3) معيَّةُ الرُّسلِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ وهيَ علَى أقسامٍ:

منْ صورِ المعيَّةِ الواردةِ فِي القرآنِ الكريمِ معيَّةُ المرسلينَ عليهمُ السَّلامُ، ويُقصدُ بهَا جانبانِ: معيَّةُ الرُّسلِ للنَّاسِ، ومعيَّةُ النَّاسِ للرُّسلِ.

أوَّلًا: معيَّةُ الرُّسلِ للنَّاسِ، وهيَ علَى أقسامٍ:

وقدْ جمعهَا بعضهمْ علَى التَّالِي:

أ) معيَّةُ التَّربُّصِ والانتظارِ:

وهيَ فِي جانبِ المدعوِّينَ بعدَ إقامةِ الحجَّةِ عليهمْ وتنكُّرهمْ للبرهانِ واعتسافهمْ للدَّليلِ، ومنهُ مَا حدثَ معَ نبيِّ اللهِ هودٍ عليهِ السَّلامُ معَ قومهِ، إذْ قالَ اللهُ تعالَى فيهمْ: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾[الأعراف: 71].

والمعنَى كمَا قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: وجبَ ونزلَ عليكمْ عذابٌ وسخطٌ[28].

وهذَا تهديدٌ ووعيدٌ منَ الرَّسولِ لقومهِ ولهذَا عقبهُ بقولهِ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: 72].

وقدْ ذكرَ اللهُ سبحانه صفةَ إهلاكهمْ فِي أماكنَ أخرَى منَ القرآنِ[29]، وقالَ تعالَى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[الذَّاريات: 41 – 42].

(28) انظر: النكت والعيون، الماوردي 2/ 234 – زاد المسير، ابن الجوزي 2/ 134.

(29) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 3/390.

ومنهُ مَا وردَ علَى لسانِ شعيبٍ عليهِ السَّلامُ: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[هود:٩٣].

يعنِي: اعملُوا فِي هلاكِي وفِي أمرِي، إنِّي عاملٌ فِي أمركمْ ومكانتكمْ، ثمَّ قالَ: (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) وهذَا وعيدٌ لهمْ، ستعلمونَ منْ هوَ كاذبٌ، وقالَ: (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) يعنِي: يهلكهُ ويهينهُ، وقالَ (وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) يعنِي: ستعلمونَ منْ هوَ كاذبٌ.

ويقالُ معناهُ: منْ يأتيهِ عذابٌ يخزيهِ، ويخزِي أمرهُ، منْ هوَ كاذبٌ علَى اللهِ تعالَى بأنَّ معهُ شريكًا، (وَارْتَقِبُوا) يعنِي: انتظرُوا بِي العذابَ (إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) يعنِي: منتظرٌ بكمْ العذابَ فِي الدُّنيَا[30].

والمعنَى: (اعملُوا) علَى تؤدتكمْ[31] وتمكُّنكمْ فإنِّي علَى تمكنِّي، فسوفَ تعلمونَ أيُّنَا الجانِي علَى نفسهِ، والمخطئُ فِي فعلهِ، فذلكَ قولهُ: (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) يذلهُ (وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) وانتظرُوا العذابَ إنِّي معكمْ منتظرٌ(32).

ب) معيَّةُ الصَّبرِ والالتزامِ، معَ ضعفاءِ المؤمنينَ:

ومنهُ قولهُ تعالَى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[الكهف: 28].

---

(30) انظر: جامع البيان، الطبري 15/ 263 – تفسير السمرقندي 2/ 168.

(31) تؤدت: إذا اختالت المرأة، ينظر فقه اللغة وسر العربية للثعالبي.

(32) انظر: معالم التنزيل، البغوي 4/ 197 – تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين 2/ 307.

وفِي الآيةِ الكريمةِ يأمرُ اللهُ تعالَى نبيَّهُ ﷺ بالصَّبرِ معَ هذهِ الفئةِ المؤمنةِ حتَّى يبلِّغهمْ رسالتهُ، وألَّا يرفعَ بصرهُ عنهمْ، وعدمِ الانشغالِ بمنْ غفلَ عنْ ذكرِ اللهِ تعالَى، واتَّبعَ هوَى نفسهِ.

يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: (وَاصْبِرْ) يا محمَّدُ (نَفْسَكَ مَعَ) أصحابكَ (الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) بذكرهمْ إيَّاهُ بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ والتَّهليلِ والدُّعاءِ والأعمالِ الصَّالحةِ منَ الصَّلواتِ المفروضةِ وغيرهَا (يُرِيدُونَ) بفعلهمْ ذلكَ (وَجْهَهُ) لَا يريدونَ عرضًا منْ عرضِ الدُّنيَا.

وقولهُ تعالَى: (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ ﷺ: لَا تعدُ عيناكَ عنْ هؤلاءِ المؤمنينَ الذينَ يدعونَ ربَّهمْ إلَى أشرافِ المشركينَ، تبغِي بمجالستهمُ الشَّرفَ والفخرَ[33].

ومنْ روائعِ الآيةِ الكريمةِ ولطائفهَا أنَّهُ تعالَى قالَ: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ) ولمْ يقلْ: "قلبكَ" لأنَّ قلبهُ كانَ معَ الحقِّ، فأمرهُ بصحَّتهِ جهرًا بجهرٍ، واستخلصَ قلبهُ لنفسهِ سرًّا بسرٍّ.

وقالَ: (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ): معناهَا مريدينَ وجههُ أيْ فِي معنَى الحالِ، وذلكَ يشيرُ إلَى دوامِ دعائهمْ ربِّهمْ بالغداةِ والعشيِّ وكونِ الإرادةِ علَى الدَّوامِ[34].

(33) جامع البيان، الطبري 18/ 6.

(34) لطائف الإشارات، القشيري 2/ 391.

ثانيًا: معيَّةُ النَّاسِ للرُّسلِ:

والمتأمِّلُ للآياتِ التِي تناولتْ معيَّةَ النَّاسِ للرُّسلِ يمكنُ أنْ يقسمهَا إلَى قسمينِ:

معيَّةٌ لهَا اتِّصالٌ غيرُ مباشرٍ بالدِّينِ، مثلَ معيَّةَ صاحبَيْ يوسفَ ليوسفَ فِي السِّجنِ، ومعيَّةُ إسماعيلَ لإبراهيمَ عليهمَا السَّلامُ عندمَا بلغَ معهُ السَّعيَ.

ومعيَّةٌ لهَا اتِّصالٌ مباشرٌ بالدِّينِ وهيَ التِي تعنِي الاتِّباعَ ويعبِّرُ عنهَا القرآنُ الكريمُ بالاستجابةِ والإسلامِ، والطَّاعةِ، والنُّصرةِ، والجهادِ، والعبادةِ، والتَّوبةِ، ونحوهَا.

وقدْ سلكَ القرآنُ الكريمُ فِي بيانِ معيَّةِ النَّاسِ للرُّسلِ مسلكينِ، مسلكٌ عامٌّ ومسلكٌ خاصٌّ، فالعامُّ هوَ مَا ذُكرتْ فيهِ المعيَّةُ بصفةٍ عامَّةٍ دونَ تحديدِ صاحبِ المعيَّةِ، وتأتِي هذهِ الآياتُ فِي صورةٍ سننيَّةٍ قاعديةٍ مطَّردةٍ، كقولهِ تعالَى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران: 146].

وكمَا نلاحظُ فِي الآيةِ الكريمةِ أنَّ لفظةَ: (نَبِي) وردتْ نكرةً بمَا يفيدُ عمومهَا وشيوعهَا، ومنهُ قولهُ تعالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۖ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة: 214].

وفِي هاتينِ الآيتينِ تبدُو صورةُ المعيَّةِ فِي أقوَى مراحلهَا وفِي أدقِّ خصائصهَا إذْ هيَ فِي مرحلةِ الابتلاءِ والاختبارِ والجهادِ ومسِّ البأساءِ والضرَّاءِ والزَّلزلةِ.

والمعنَى وكأيِّن منْ نبيٍّ قاتلَ معهُ جماعاتٌ كثيرةٌ ربَّانيونَ علماءُ أتقياءُ، أوْ عابدونَ لربِّهمْ، فمَا وهنُوا لمَا أصابهمْ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى، ومَا فترُوا ولمْ ينكسرْ جدُّهمْ لمَا أصابهمْ منْ قتلِ النَّبيِّ أوْ بعضهمْ، ومَا ضعفُوا عنِ العدوِّ أوْ فِي الدِّينِ، ومَا استكانُوا ومَا خضعُوا للعدوِّ بلْ صبرُوا وثبتُوا، وشجَّعُوا أنفسهمْ، هذَا تسليةٌ للمؤمنينَ، وحثٌّ علَى الاقتداءِ بهمْ، والفعلِ كفعلهمْ، وأنَّ هذَا أمرٌ قدْ كانَ متقدِّمًا، لمْ تزلْ سنَّةُ اللهِ تعالَى جاريةٌ بذلكَ[35].

ثالثًا: معيَّةُ الرُّسلِ الخاصَّةِ:

وأمَّا المسلكُ الخاصُّ فقدْ بدَا فِي حديثِ القرآنِ الكريمِ عنِ الرُّسلِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ بذكرهمْ صراحةً، فقدْ حفلتْ آياتُ القرآنِ ببيانِ هذهِ المعيَّةِ، ويمكنُ أنْ نتتبَّعهَا علَى النَّحوِ الآتِي:

---

(35) انظر: جامع البيان، الطبري 6/ 111 – معالم التنزيل، البغوي 2/ 116.

معيَّةُ نوحٍ عليهِ السَّلامُ:

أوَّلُ مَا نلمحُ فِي الآياتِ التِي وردتْ عنِ المعيَّةِ فِي حقِّ نوحٍ والذينَ آمنُوا معهُ، يبدُو لنَا أنَّهَا منْ أكثرِ المواطنِ التِي تكرَّرَ فيهَا لفظُ المعيَّةِ، معَ نبيٍّ منَ الأنبياءِ، فقدْ وردتْ ثمانِي مرَّاتٍ وكأنَّ فِي ذلكَ تأسيسًا لأنَّ معيَّةَ الصَّالحينَ أصلٌ فِي قيامِ الحضارةِ وبقاءِ الإنسانيَّةِ أصلًا، كمَا أنَّ فِي ذلكَ بيانًا وإشارةً إلَى أنَّ قيامَ الجماعةِ المؤمنةِ أصلٌ قديمٌ فِي دعوةِ الأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ، كمَا نلاحظُ أنَّ معيَّةَ نوحٍ والإيمانُ باللهِ سببٌ فِي النَّجاةِ والفوزِ، فقدْ فصلتِ الآياتُ الكريمةُ بينَ معسكرينِ، معسكرُ الخيرِ والحقِّ وهمْ منْ ركبُوا معَ نوحٍ فِي الفلكِ، ومعسكرِ الشَّرِّ والباطلِ وهمُ المغرقونَ، ولذلكَ دعَا نوحٌ عليهِ السَّلامُ ابنهُ ليركبَ معهمْ وقالَ: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾[هود: 42].

كمَا تلمّحُ الآياتُ الكريمةُ أنَّ منْ تمامِ نعمةِ اللهِ تعالَى علَى المؤمنينَ معهُ أنْ أهلكَ عدوَّهمْ، وتكرَّرَ هذَا فِي آياتٍ متعدِّدةٍ، حيثُ قالَ سبحانهُ:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾[الأعراف: 64].

وقالَ تعالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾[يونس: 73].

معيَّةُ صالحٍ عليهِ السَّلامُ:

وفِي حقِّ صالحٍ عليهِ السَّلامُ مَا زالَ التَّأكيدُ أنَّ المعيَّةَ والإيمانَ سببُ النَّجاةِ والعصمةِ، فقدْ وردَ التَّلازمُ بينَ الإيمانِ والمعيَّةِ كذلكَ، فقالَ تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾[هود: 66].

معيَّةُ شعيبٍ عليهِ السَّلامُ:

وفِي حقِّ شعيبٍ عليهِ السَّلامُ يستمرُّ الأمرُ علَى تباعدِ الزَّمانِ والمكانِ، بلْ تتَّضحُ تلازميَّةُ النَّصرِ بالمؤمنينَ منْ خلالِ معرفةِ الكافرينَ بهذَا، فلمْ يقتصرْ التَّهديدُ هنَا لشعيبٍ فقطْ بلْ هوَ والذينَ معهُ، وهنَا قالَ تعالَى: ﴿۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾[الأعراف: 88].

بلْ تبدُو سنَّةً منْ سننِ اللهِ تعالَى فِي الدَّعواتِ وأصحابهَا إلَى الإخراجِ والإبعادِ، وهيَ سنَّةٌ تتكرَّرُ، شأنُ السُّننِ الماضيةِ؛ فقدْ هدَّدُوا شعيبًا والذينَ آمنُوا معهُ بالطَّردِ والإبعادِ حتَّى يعودُوا فِي ملَّتهمْ مرَّةً أخرَى، والزَّمنُ يعيدُ نفسهُ وسننهُ الماضيةَ، والجوابُ علَى تراخِي الزَّمنِ وتباعدِ المكانِ فقدْ قالَ تعالَى: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[الأعراف: 89].

ويستمرُّ الجوابُ علَى نفسِ السُّؤالِ حتَّى يقضِي اللهُ تعالَى بالحقِّ وينتصرَ الصِّدقُ ورسالةُ الإسلامِ.

معيَّةُ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ:

وتستمرُّ النَّماذجُ الرَّائدةُ فِي المعيَّةِ معَ الأنبياءِ والمرسلينَ علَى تباعدِ المكانِ وتطاولِ الزَّمانِ، فنصلُ إلَى إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ، وتستمرُّ آياتُ المعيَّةِ فِي التَّأكيدِ علَى أهميَّةِ الأمَّةِ الجديدةِ وضرورةِ صلابتهَا فِي مقارعةِ الباطلِ ومنازلةِ الشِّركِ إلَى آخرِ مدَى، ويبدُو منَ الآيةِ الكريمةِ مصارعةُ الذينَ آمنُوا للكافرينَ مصارعةً فكريَّةً واضحةً بانَ فيهَا إعلانُ البراءةِ منهمْ، وكفرهمْ بهمْ، وبدوِّ العداوةِ والبغضاءِ أبدًا حتَّى يؤمنُوا باللهِ تعالَى وحدهُ، وهذهِ نقلةٌ فِي الخطابِ لمْ تكنْ منْ قبلُ، تبدُو فيهَا المفاصلةُ والمباينةُ حتَّى يظهرَ معنَى الولاءِ والبراءِ، ثمَّ الالتجاءُ إلَى اللهِ تعالَى والتوكُّلِ عليهِ والإنابةِ إليهِ، والوعيِ العمليِّ بأنَّ الكلَّ صائرٌ إليهِ.

فيقولونَ فِي وضوحٍ وشموخٍ: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۖ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[الممتحنة: 4].

ولأمرٍ حكيمٍ صُدِّرَتِ الآيةُ بندبِ المؤمنينَ إلَى التأسِّي بهذهِ الصِّفاتِ التِي لَا بدَّ منهَا فِي المقارعةِ، ثمَّ كرَّرَ القرآنُ الكريمُ لفتَ أنظارِ المؤمنينَ إلَى هذهِ الأسوةِ الحسنةِ بعدَ آيةٍ واحدةٍ فقالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[الممتحنة: 6].

معيَّةُ موسَى وهارونَ عليهمَا السَّلامُ:

ومنْ جمعِ الآياتِ التِي تتحدَّثُ عنْ معيَّةِ موسَى عليهِ السَّلامُ يمكننَا أنْ نستبينَ بعضَ المفاهيمِ منهَا:

إنَّ المعيَّةَ كانتْ منْ بدايةِ الدَّعوةِ، وهيَ معيَّةُ هارونَ أخيهِ لهُ، قالَ تعالَى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[القصص: 43].

وأنَّ المعيَّةُ أمرٌ منَ اللهِ تعالَى منْ بدايةِ الدَّعوةِ، قالَ تعالَى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[الأعراف: 105].

وهذَا مبنِي علَى أنَّ الأمرَ بالمعيَّةِ كانَ منْ بدايةِ الدَّعوةِ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[الشعراء: 16 – 17].

فالإرسالُ مقيَّدٌ بالمعيَّةِ فِي الآياتِ جميعًا، وليسَ مجرَّدَ إرسالٍ مطلقٍ يتحرَّرُ بهِ بنُو إسرائيلَ منْ بطشِ فرعونَ فقطْ، وإنَّمَا هوَ دخولٌ فِي معيَّةِ الجماعةِ المسلمةِ الجديدةِ، التِي تتميَّزُ بهَا عنْ معيَّةِ فرعونَ وقومهِ[36].

معيَّةُ موسَى وموقفِ أتباعِ فرعونَ منهَا:

وهذهِ المعيَّةُ كمَا كانتْ أمرًا منْ بدايةِ الدَّعوةِ، وطلبًا منْ موسَى وهارونَ لفرعونَ حينَ طلبَا أنْ يرسلَ معهمْ بنِي إسرائيلَ، أدركهَا أتباعُ فرعونَ حينَ أرادُوا وأْدَ الدَّعوةِ منَ البدايةِ،

(36) المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبدالستار سعيد ص 149 – بتصرُّف.

فاطيَّرُوا بهَا وبهِ وبهمْ فكانُوا كمَا وصفَ القرآنُ الكريمُ: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: 131].

وكذلكَ كانتْ نظرةُ أتباعِ فرعونَ إلَى موسَى وهارونَ وقومهمَا حينَ ظهرتْ دعوتهمْ، وبدأَ النَّاسُ يقتنعونَ بهَا، كمَا وصفَ القرآنُ الكريمُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[غافر: 25].

استنقاذُ بنِي إسرائيلَ منْ فرعونَ:

كمَا كانتِ المعيَّةُ واضحةً فِي نجاةِ هؤلاءِ المؤمنينَ، قالَ تعالَى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾[الشعراء: 65].

والمعنَى: وأنجينَا موسَى ممَّا أتبعنَا بهِ فرعونَ وقومهِ منَ الغرقِ فِي البحرِ ومنْ معَ موسَى منْ بنِي إسرائيلَ أجمعينَ[37].

---

(37) جامع البيان، الطبري 19/ 360.

معيَّةُ عيسَى عليهِ السَّلامُ:

وأمَّا نبيُّ اللهِ عيسَى عليهِ السَّلامُ فأظنُّهُ لمْ يكنْ مؤسِّسًا لأمَّةٍ جديدةٍ، بلْ متمِّمًا مَا بدأهُ أخوهُ موسَى عليهِ السَّلامُ فإنَّ الحديثَ عنْ معيَّتهِ قدْ وردَ علَى لسانِ الحواريينَ كمَا قالَ تعالَى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[آل عمران: 52 – 53].

أي: نحنُ أنصارُ اللهِ تعالَى ومنْ ينصرِ الرَّسولَ فقدْ نصرَ اللهَ تعالَى لقولهِ تعالَى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[النساء: 80].

أي: نحنُ أنصارُ اللهِ تعالَى آمنَّا بهِ إيمانًا صادقًا واتَّبعنَا رسلهُ واشهدْ بأنَّا مسلمونَ؛ إذِ الإسلامُ هوَ دينُ كلِّ الأنبياءِ والرُّسلِ معَ اختلافِ شرائعهمْ.

ثمَّ قالَ الحواريونَ: ربَّنا آمنَّا وصدَّقنَا بمَا أنزلتَ فِي كتابكَ واتَّبعنَا الرَّسولَ عيسَى ابنَ مريمَ عليهِ السَّلامُ، فاكتبنَا مع الشَّاهدينَ الذينَ يشهدونَ لأنبيائكَ بالصِّدقِ[38].

---

(38) التفسير الواضح، محمد حجازي 1/ 236.

معيَّةُ محمَّدٍ رسولُ اللهِ ﷺ:

لمَّا انتقلنَا إلَى النَّبيِّ ﷺ وبيانِ المعيَّةِ فِي حقِّهِ فاجأنَا أنَّ آياتِ المعيَّةِ فِي حقِّهِ هيَ أكثرُ المواطنِ ورودًا فِي القرآنِ الكريمِ، وأكثرهَا تفصيلًا بينَ خاصٍّ وعامٍّ، والخاصُّ فيهِ تفصيلاتٌ دقيقةٌ يأتِي بيانهَا، لكنِ الإشارةُ الواضحةُ هنَا فِي الآياتِ أنَّهُ كمَا أنَّ الأمَّةَ الخاتمةَ تحتاجُ إلَى جهدٍ فِي تأسيسهَا وبنائهَا، فهيَ كذلكَ تحتاجُ إلَى طولِ معيَّةٍ وصحبةٍ للرَّسولِ ﷺ فِي حياتهِ، وبعدَ وفاتهِ لسنَّتهِ ومنهاجهِ، وكلَّمَا اقتربتِ الأمَّةُ منْ سنَّتهِ ودخلتْ فِي معيَّتهِ كلَّمَا اقتربتْ منَ النَّجاةِ والفلاحِ، والعزِّ والنَّجاحِ، وكلَّمَا ابتعدتْ عنْ منهاجهِ كلَّمَا ضلَّتْ سبيلهَا وتنكَّبتْ طريقهَا.

قالَ تعالَى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[التوبة: 88].

وهنَا ربطَ اللهُ تعالَى حصولهمْ علَى الخيراتِ والفلاحِ بالإيمانِ والمعيَّةِ والجهادِ بالأموالِ والأنفسِ.

وإذَا حصرنَا الآياتَ التِي تناولتْ تلكَ المعيَّةَ المباركةَ وجدنَا أنَّهَا سارتْ فِي محورينِ رئيسينِ، محورٌ عامٌّ وآخرَ خاصٌّ.

فالمعيَّةُ العامَّةُ هيَ التِي تناولتْ أمورَ الدِّينِ والرِّسالةِ جملةً، وفيهَا حديثٌ إلَى المدعوِّينَ عامَّةً كقولهِ تعالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الملك: 28].

وقولهُ سبحانهُ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[الأنبياء: 24].

وقدْ كانتْ هذهِ المعيَّةُ واضحةً وظاهرةً حتَّى فِي أذهانِ المشركينَ إذْ قالُوا: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾[القصص: 57].

والمعيَّةُ الخاصَّةُ وهيَ التِي بدَا فيهَا معيَّةُ النَّبيِّ ﷺ للمؤمنينَ، وتنوَّعتْ هذهِ المعيَّةُ وكثرتْ صورهَا فمرَّةً تكونُ فِي الجهادِ، كقولهِ تعالَى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[التوبة: 88].

ومرَّةً فِي عتابِ المنافقينَ المخلفينَ عنِ الجهادِ كقولهِ: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[التوبة: 86].

ولذَا أرشدَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ إلَى حرمانهِمْ منْ هذهِ المعيَّةِ، فقالَ: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾[التوبة: 83].

ومرَّةً تكونُ فِي صلاةِ الخوفِ كقولهِ تعالَى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾[النساء: 102].

ومرَّةً تكونُ فِي الهجرةِ، كقولهِ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾[الأحزاب: 50].

ومرَّةً فِي تعليمِ المسلمينَ منهجيَّةَ التَّعاملِ معَ النَّبيِّ ﷺ وعدمِ تركهِ إلَّا بإذنٍ، تربيةً لهمْ علَى الأخلاقِ الحميدةِ، وأخذًا بأيديهمْ إلَى طرقِ الرَّبَّانيَّةِ كيْ يكونُوا ربَّانيينَ، فيقولُ سبحانهُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[النور: 62].

المعيَّةُ الممنوعةُ المنهيُّ عنهَا:

والنَّهيُ فيهَا علَى قسمينِ:

الأوَّلُ: فِي النَّهيِ عنِ الجلوسِ معَ المعاندينَ والمستهزئينَ حالَ خوضهمْ فِي آياتِ اللهِ تعالَى، وتقعُ هذهِ المعيَّةُ دائمًا بعدَ نهيٍ عنهَا وأمرٍ بمفارقةِ أصحابهَا وعدمِ شهودِ مجالسهمْ، ومنهُ قولهُ تعالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الأنعام: 68].

يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: وإذَا رأيتَ يَا محمَّدُ المشركينَ الذينَ يخوضونَ فِي آياتنَا التِي أنزلناهَا إليكَ، ووحينَا الذِي أوحيناهُ إليكَ، و"خوضهمْ فيهَا"، كانَ استهزاءهمْ بهَا، وسبُّهمْ منْ أنزلهَا وتكلَّمَ بهَا، وتكذيبهمْ بهَا (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) يقولُ: فصدَّ عنهمْ بوجهكَ، وقمْ عنهمْ، ولَا تجلسْ معهمْ (حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) يقولُ: حتَّى يأخذُوا فِي حديثٍ غيرِ الاستهزاءِ بآياتِ اللهِ منْ حديثهمْ بينهمْ وإنْ أنساكَ الشَّيطانُ نهينَا إيَّاكَ عنِ الجلوسِ معهمْ والإعراضِ عنهمْ فِي حالِ خوضهمْ فِي آياتنَا، ثمَّ ذكرتَ ذلكَ، فقمْ عنهمْ، ولَا تقعدْ بعدَ ذكركَ ذلكَ معَ القومِ الظالمينَ الذينَ خاضُوا فِي غيرِ الذِي لهمْ الخوضُ فيهِ بمَا خاضُوا بهِ فيهِ(39).

---

(39) انظر: جامع البيان، الطبري 11/ 436 – معالم التنزيل، البغوي 2/ 301 – زاد المسير، ابن الجوزي 31/2.

وهؤلاءِ المرادُ بهمْ المشركونَ أوِ اليهودُ أوْ أصحابُ الأهواءِ كمَا منعهُ اللهُ تعالَى منْ شهودهمْ ومخالطتهمْ عقوبةً لهمْ بالحرمانِ، وإبعادًا لهمْ عنْ أسبابِ التَّوفيقِ جزاءَ فعلهمْ، فقالَ تعالَى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام: 150].

والمعنَى: (فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ) أيْ: لأنَّهمْ إنَّمَا يشهدونَ والحالةَ هذهِ كذبًا وزورًا (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) أي: يشركون به ويجعلون له عديلا[40].

والثَّاني: فِي جعلِ آلهةٍ معَ اللهِ تعالَى:

فقدْ تعدَّدتْ أساليبُ القرآنِ الكريمِ فِي بيانِ نفيِ أنْ يكونَ معَ اللهِ آلهةٌ أخرَى، فمرَّةً يأتِي البيانُ فِي صورةِ النَّفيِ ومرَّةً فِي صورةِ النَّهيِ، وثالثةً فِي صورةِ الخبرِ التهديدِي، وأخرَى فِي صورةِ الشَّرطِ، وخامسةً فِي صورةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ.

أوَّلًا: النَّفيُ الصَّريحُ:

وقدْ وردتْ آياتٌ كثيرةٌ فِي القرآنِ الكريمِ تنهَى نهيًا صريحًا عنِ اتِّخاذِ آلهةٍ معَ اللهِ تعالَى، ومنَ المواطنِ التِي وردَ فيهَا ذلكَ فِي مقامِ بيانِ وعدِ اللهِ تعالَى بالاستخلافِ للمؤمنينَ

(40) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 322/3.

قولهُ تعالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور: 55].

وفيهَا بيانٌ للعلاقةِ بينَ عدمِ الشِّركِ باللهِ والاستخلافِ فِي الأرضِ كمَا هوَ واضحٌ فِي الآيةِ، ووردَ كذلكَ فِي مقامِ بيانِ صفاتِ المؤمنينَ قولهِ تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون: 59].

ومنهَا قولهُ تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[الفرقان: 68].

والمعنَى: لَا يشركونَ بهِ شيئًا، بلْ يوحِّدونهُ ويخلصونَ لهُ العبادَةَ والدعوةَ[41].

وقدْ وردَ فِي السُّنَّةِ فِي هذَا المعنَى: عنْ عمرٍو بنِ شرحبيلَ، عنْ عبدِ اللهِ، قالَ: "قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الذَّنبِ أعظمُ؟ قالَ: أنْ تجعلَ للهِ ندًّا وهوَ خلقكَ، قلتُ: ثمَّ أي؟ قالَ: أنْ تقتلَ ولدكَ خشيةَ أنْ يأكلَ معكَ، قلتَ: ثمَّ أي؟ قالَ: أنْ تزانِي حليلةَ جاركَ"[42] فأُنزلَ تصديقُ قولِ النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[الفرقان: 68].

---

(41) فتح القدير، الشوكاني 4/ 102.

(42) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، 8/ 8.

كمَا وردَ النَّفيُ فِي موضعٍ آخرَ فِي قولهِ تعالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون: 91].

ونلمحُ فِي سياقِ الآيةِ الكريمةِ معَ النَّفيِّ ترتيبًا عجيبًا يغرِي العقلَ بالتفكُّرِ، والذِّهنَ بالعملِ، وهوَ ترتيبُ الانفصامِ والانفصالِ بينَ هذهِ الآلهةِ المزعومةِ إنْ وجدتْ! وبينَ وجودهَا، وهذَا مَا اعتمدهُ علماءُ العقيدةِ فِي أدلَّةِ وبراهينِ نفيِ الشُّركاءِ والآلهةِ عنِ اللهِ تعالَى.

ثانيًا: النَّهيُ الصَّريحُ:

ومنْ أساليبِ القرآنِ فِي نفيِ المعيَّةِ عنِ اللهِ تعالَى: النَّهيُ الصَّريحُ، وهذَا أشدُّ فِي نفيِ المعيَّةِ وأقوَى، ومنْ هذهِ المواضعِ التِي وردَ فيهَا النَّهيُ قولهُ تعالَى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾[الإسراء: 22].

والمعنَى لَا تتَّخذْ معَ اللهِ إلهًا آخرَ فتصيرَ إلَى الذمِّ لأنَّكَ أسندتَ النِّعمةَ إلَى غيرِ منعمهَا وحمدتَ منْ لَا يستحقُّ الحمدَ وغمطَّ صاحبَ الفضلِ والنِّعمةِ، وساعتهَا تصيرُ مذمومًا لاختلالِ النَّظرِ لديكَ وفسادِ الحكمِ في ناظريكَ، ومخذولًا لأنَّ صاحبَ النِّعمةِ والمنَّةِ سيكلكَ إلَى منْ تألَّهتَ لهُ وتعبَّدتَ فيهِ، وليسَ هوَ.

وقولهُ: (تَقْعُدَ) منْ قولهمْ شحذَ الشفرةَ حتَّى قعدتْ، كأنَّهَا حربةٌ بمعنَى صارتْ، يعنِي: فتصيرَ جامعًا علَى نفسكَ الذمَّ ومَا يتبعهُ منَ الهلاكِ منْ إلهكَ، والخذلانَ والعجزَ عنِ النصرةِ ممَّنْ جعلتهُ شريكًا لهُ.

ويبيِّنُ الإمامُ الرَّازِي سببَ هذهِ العقوبةِ الشديدةِ والجزاءَ الوفاقَ الذِي يتناسبُ معَ هذهِ الجريمةِ النُّكراءِ والعملَ الكالحَ بصورةٍ منطقيَّةٍ عقليَّةٍ فيرَى أنَّ منْ أشركَ باللهِ كانَ مذمومًا مخذولًا، والذِي يدلُّ علَى أنَّ الأمرَ كذلكَ وجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ المشركَ كاذبٌ والكاذبُ يستوجبُ الذمَّ والخذلاَن.

الثَّانِي: أنَّهُ لمَّا ثبتَ بالدَّليلِ أنَّهُ لَا إلهَ ولَا مدبِّرَ ولَا مقدِّرَ إلَّا الواحدُ الأحدُ، فعلَى هذَا التَّقديرِ تكونُ جميعُ النِّعمِ حاصلةً منَ اللهِ تعالَى، فمنْ أشركَ باللهِ فقدْ أضافَ بعضَ تلكَ النِّعمِ إلَى غيرِ اللهِ تعالَى، معَ أنَّ الحقَّ أنَّ كلَّهَا منَ اللهِ تعالَى، فحينئذٍ يستحقُّ الذَّمَّ، لأنَّ الخالقَ تعالَى استحقَّ الشُّكرَ بإعطاءِ تلكَ النِّعمِ فلمَّا جحدَ كونهَا منَ اللهِ تعالَى، فقدْ قابلَ إحسانَ اللهِ تعالَى بالإساءةِ والجحودِ والكفرانِ فاستوجبَ الذَّمَّ وإنَّمَا قلنَا إنَّهُ يستحقُّ الخذلانَ، لأنَّهُ لمَّا أثبتَ شريكًا للهِ تعالَى استحقَّ أنْ يفوِّضَ أمرهُ إلَى ذلكَ الشَّريكِ، فلمَّا كانَ ذلكَ الشَّريكُ معدومًا بقيَ بلَا ناصرٍ ولَا حافظٍ ولَا معينٍ، وذلكَ عينُ الخذلانِ.

الثَّالثُ: أنَّ الكمالَ فِي الوحدةِ والنُّقصانَ فِي الكثرةِ، فمنْ أثبتَ الشَّريكَ فقدْ وقعَ فِي جانبِ النُّقصانَ واستوجبَ الذمَّ والخذلانَ، واعلمْ أنَّهُ لمَّا دلَّ لفظُ الآيةِ علَى أنَّ المشركَ مذمومٌ مخذولٌ وجبَ بحكمِ الآيةِ أنْ يكونَ الموحِّدُ ممدوحًا منصورًا[43].

---

(43) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي 20/ 320 – تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 5/ 64.

ومنْ لطائفِ البيانِ القرآنيِّ هنَا، أنَّ الأمرَ علَى الرُّغمِ منْ عمومهِ وأنَّهُ موجَّهٌ إلَى كلِّ الخلائقِ إلَّا أنَّ التَّكليفَ والتَّوجيهَ أتَى بصيغةٍ الفرديَّةِ ووجِّهَ إلَى المفردِ ليحسَّ كلُّ أحدٍ أنَّهُ أمرٌ خاصٌّ بهِ، صادرٌ إلَى شخصهِ، فالاعتقادُ مسألةٌ شخصيَّةٌ مسؤولٌ عنهَا كلُّ فردٍ بذاتهِ، والعاقبةُ التِي تَنتظرُ كلَّ فردٍ يحيدُ عنِ التَّوحيدِ أنْ "يَقْعُدَ" "مَذْمُومًا" بالفعلةِ الذَّميمةِ التِي أقدمَ عليهَا، "مَخْذُولًا" لَا ناصرَ لهُ، ومنْ لَا ينصرهُ اللهُ تعالَى فهوَ مخذولٌ وإنْ كثرَ ناصروهُ، ولفظُ: "فَتَقْعُدَ" يصوِّرُ هيئةَ المذمومِ المخذولِ وقدْ حطَّ بهِ الخذلانُ فقعدَ، ويلقِي ظلَّ الضَّعفِ فالقعودُ هوَ أضعفُ هيئاتِ الإنسانِ وأكثرهَا استكانةً وعجزًا، وهوَ يلقِي كذلكَ ظلَّ الاستمرارِ فِي حالةِ النَّبذِ والخذلانِ، لأنَّ القعودَ لَا يوحِي بالحركةِ ولَا تغيُّرِ الوضعِ، فهوَ لفظٌ مقصودٌ فِي هذَا المكانِ.

وهذَا التذييلُ هوَ بيانٌ لاختلافِ أحوالِ المسلمينَ والمشركينَ، فإنَّ خلاصةَ أسبابِ الفوزِ تركُ الشِّركِ لأنَّ ذلكَ هوَ مبدأُ الإقبالِ علَى العملِ الصَّالحِ فهوَ أوَّلُ خطواتِ السَّعيِ لمريدِ الآخرةِ، لأنَّ الشِّركَ قاعدةُ اختلالِ التَّفكيرِ وتضليلِ العقولِ[44].

ومنْ هذهِ المواضعِ التِي نفَى فيهَا سبحانهُ المعيَّةَ بصورةِ النَّهيِ قولهُ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾[الإسراء: 39].

(44) التحرير والتنوير 15/ 64.

والمعنَى: احذرْ أيُّهَا المكلَّفُ أنْ تتَّخذَ معَ اللهِ إلهًا غيرهُ: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[النحل: 51].

إنْ فعلتَ ذلكَ فقدْ حقَّ عليكَ أنْ تُرمَى وتُطرحَ فِي نارِ جهنَّمَ فِي مهانةٍ وذلَّةٍ، وأنتَ معلومٌ منْ نفسكَ علَى مَا اقترفتَ وملومٌ منَ الملائكةِ خزنةِ جهنَّمَ حينَ تعنِّفكَ[45].

ولَا يحتاجُ إلَى بيانٍ هنَا أنَّ الخطابَ وإنْ كانَ واردًا للنَّبيِّ ﷺ إلَّا أنَّ المرادَ بهِ أمَّتهُ لاستحالةِ صدورِ ذلكَ منهُ فهوَ المعصومُ ﷺ[46].

ويلاحظُ أنَّ الآياتِ الكريمةِ السَّابقةِ صدرتْ بالنَّهيِ عنِ الشِّركِ وبيانِ أنَّ اللهَ تعالَى قضَى بأنْ لَا يُعبدَ إلَّا إيَّاهُ، وكرَّرَ النَّهيَ هنَا للتَّنبيهِ علَى أنَّ التَّوحيدَ مبدأُ الأمرِ ومنتهاهُ، فإنَّ منْ لَا قصدَ لهُ بطلَ عملهُ ومنْ قصدَ بفعلهِ أوْ تركهِ غيرهُ ضاعَ سعيهُ، وأنَّهُ رأسُ الحكمةِ وملاكهَا، ورتَّبَ عليهِ أوَّلًا مَا هوَ عائدهُ الشِّركَ فِي الدُّنيَا وثانيًا مَا هوَ نتيجتهُ فِي العقبَى فقالَ تعالَى: (فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلوْمًا) تلومَ نفسكَ[47].

ومنْ لطائفِ النَّصِّ القرآنيِّ البديعِ مَا ذكرهُ الإمامُ الشَّوكانيُّ بأنَّ القرآنَ راعَى فِي هذَا التَّأكيدِ دقيقةً فرتَّبَ علَى الأوَّلِ كونهُ مذمومًا مخذولًا، وذلكَ إشارةٌ إلَى حالِ الشِّركِ فِي الدُّنيَا، ورتَّبَ علَى الثَّانِي أنَّهُ يُلقَى فِي جهنَّمَ ملومًا مدحورًا وذلكَ إشارةٌ إلَى حالهِ فِي

(45) انظر: جامع البيان، الطبري 18/ 452 – التفسير الوسيط، الواحدي 5/ 758.
(46) تفسير السمعاني 3/ 243 – معالم التنزيل، البغوي 3/ 135.
(47) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 5/ 77.

الآخرةِ، وفِي القعودِ هناكَ، والإلقاءُ هنَا، إشارةٌ إلَى أنَّ للإنسانِ فِي الدُّنيَا صورةُ اختيارٍ بخلافِ الآخرةِ[48].

ومنهَا قولهُ تعالَى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء: 213].

ونلاحظ هنا شدة النهي وترتب العذاب على الاتخاذ إن وجد، مع ذكرنا منهجية القرآن في خطاباته للنبي ﷺ والتي غالبا ما تصدر بما يشعر بأنها ليست عتابا مثل قولهِ تعالَى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾[التوبة: 43] وقولهِ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾[عبس: 1].

بصيغةِ الغائبِ، والخطابُ هنَا واردٌ علَى تحذيرِ غيرهِ مبالغةً بذكرهِ هوُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، كأنَّ القرآنَ يقولُ: إذَا كانَ هذَا تهديدنَا ووعيدنَا لكَ فكيفَ يكونُ لغيركَ.

كمَا قالَ الإمامُ القرطبيُّ: المعنَى قلْ لمنْ كفرَ هذَا القولَ تهديدًا لهُ بالتَّعذيبِ، وقيلَ: هوَ مخاطبةٌ لهُ عليهِ الصَّلاةُ السَّلامُ وإنْ كانَ لَا يفعلُ هذَا، لأنَّهُ معصومٌ مختارٌ ولكنَّهُ خوطبَ بهذَا والمقصودُ غيرهُ، ودلَّ علَى هذَا قولهُ تعالَى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: 214].

أيْ: لَا يتَّكلونَ علَى نسبهِمْ وقرابتهمْ فيدعونَ مَا يجبُ عليهمْ[49].

---

(48) فتح القدير، الشوكاني 3/ 272.

(49) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 13/ 142 – مدارك التنزيل، النسفي 2/ 586.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا يحذِّرُ بِهِ غيرهُ، يقولُ: أنتَ أكرمُ الخلقِ عليَّ، ولوِ اتَّخذتَ إلهًا غيري لعذَّبتكَ[50].

وورِدَ التَّركيبُ بهذهِ الصُّورةِ فخوطبَ بهِ النَّبيُّ ﷺ معَ ظهورِ استحالةِ صدورِ المنهيِّ عنهُ منهُ ﷺ تهييجًا وحثًّا علَى ازديادِ الإخلاصِ ولطفًا لسائرِ المكلَّفينَ ببيانِ أنَّ الإشراكَ منَ القبحِ والسُّوءِ بحيثُ ينهَى عنهُ منْ لَا يمكنُ صدورهُ عنهُ فكيفَ بمنْ عداهُ[51].

ثالثا: الاستفهامُ الإنكاريُّ:

ومنْ أساليبِ القرآنِ فِي إنكارِ الآلهةِ معَ اللهِ تعالَى، استعمالُ الاستفهامِ الإنكاريِّ:

وقدْ وردَ هذَا فِي مواطنَ متعدِّدةٍ منَ القرآنِ الكريمِ، كقولهِ تعالَى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُلْ لَا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: 19].

والمعنَى: يقولُ تعالَى ذكرهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: قلْ لهؤلاءِ المشركينَ، الجاحدينَ نبوَّتكَ، العادلينَ باللهِ، ربًّا غيرهُ: (أَئِنَّكُمْ) أيُّهَا المشركونَ (لَتَشْهَدُوْنَ أَنَّ مَعَ اللهِ ءاَلِهَةً ألإخْرَى) يقولُ: تشهدونَ أنَّ معهُ معبوداتٍ غيرهُ منَ الأوثانِ والأصنامِ، (أوِ الأشخاصِ والحيواناتِ).

---

(50) انظر: معالم التنزيل، البغوي 3/ 380 – تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 598.

(51) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود 267/6 – التحرير والتنوير، ابن عاشور 200/19.

ثمَّ قالَ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: (قُلْ) يَا محمَّدُ (لَا أَشْهَدُ) بمَا تشهدونَ: أنَّ معَ اللهِ آلهةً أخرَى، بلْ أجحدُ ذلكَ وأنكرهُ فإنَّمَا هوَ معبودٌ واحدٌ، لَا شريكَ لهُ فيمَا يستوجبُ علَى خلقهِ منَ العبادةِ، وقلْ: (وَإِنَّنِي بَرِيءٌ) منْ كلِّ شريكٍ تدعونهُ للهِ، وتضيفونهُ إلَى شركتهِ، وتعبدونهُ معهُ، لَا أعبدُ سوَى اللهِ شيئًا، ولَا أدعُو غيرهُ إلهًا[52].

إنَّهُ لمَّا بيَّنَ تعالَى شهادتهُ التِي هيَ أكبرُ الشَّهاداتِ علَى توحيدهِ قالَ: قلْ لهؤلاءِ المعارضينَ لخبرِ اللهِ تعالَى والمكذِّبينَ لرسلهِ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ أي: إنْ شهدُوا فلَا تشهدْ معهمْ.

فوازنْ بينَ شهادةَ أصدقِ القائلينَ وربِّ العالمينَ وشهادةَ أزكَى الخلقِ المؤيّدةِ بالبراهينِ القاطعةِ والحججِ السَّاطعةِ علَى توحيدِ اللهِ تعالَى وحدهُ لَا شريكَ لهُ وشهادةُ أهلِ الشِّركِ الذينَ مرجتْ عقولهمْ وأديانهمْ وفسدتْ آراؤهمْ وأخلاقهمْ وأضحكُوا علَى أنفسهمْ العقلاءَ.

بلْ خالفُوا بشهادةِ فطرهمْ وتناقضتْ أقوالهمْ علَى إثباتِ أنَّ معَ اللهِ تعالَى آلهةً أخرَى معَ أنَّهُ لَا يقومُ علَى مَا قالوهُ أدنَى شبهةٍ فضلًا عنِ الحججِ، واخترْ لنفسكَ أيُّ الشَّهادتينِ إنْ كنتَ تعقلُ ونحنُ نختارُ لأنفسنَا مَا اختارهُ اللهُ تعالَى لنبيِّهِ ﷺ الذِي أمرنَا اللهِ تعالَى

(52) جامع البيان، الطبري 11/ 292.

بالاقتداءِ بِهِ فقالَ: (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) أي: منفردٌ لَا يستحقُّ العبوديَّةَ والإلهيَّةَ سواهُ كمَا أنَّهُ المنفردُ بالخلقِ والتَّدبيرِ[53](والملكِ).

وهذَا تقريرٌ لهمْ معَ إنكارٍ واستبعادٍ، قلْ لَا أشهدُ شهادتكمْ[54] ففيهِ إنكارٌ عليهمْ وتوبيخٌ وتقريعٌ[55].

رابعا: الخبرُ التَّهديدِي:

ولقدْ تنوَّعتْ أساليبُ القرآنِ فِي نفيِ وجودِ آلهةً معَ اللهِ تعالَى، ومنْ هذهِ الأساليبِ: الخبرُ التَّهديديُّ، وتكرَّرَ هذَا فِي القرآنِ الكريمِ مرَّاتٍ عديدةٍ، ومنْ هذَا قولهُ تعالَى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[الحجر: 95 – 96].

وواضحٌ فِي الآيةِ الكريمةِ بلاغةُ التَّهديدِ، وشدَّةِ الوعيدِ خاصَّةً فِي قولهِ تعالَى: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

والمعنَى أنَّ اللهَ تعالَى يقولُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: إنَّا كفيناكَ المستهزئينَ يَا محمَّدُ، الذينَ يستهزئونَ بكَ ويسخرونَ منكَ، فاصدعْ بأمرِ اللهِ، ولَا تخفْ شيئًا سوَى اللهِ، فإنَّ اللهَ كافيكَ منْ ناصبكَ وآذاكَ كمَا كفاكَ المستهزئينَ[56].

---

(53) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 253.
(54) انظر: الكشاف، الزمخشري 2/ 11 – زاد المسير، ابن الجوزي 2/ 15.
(55) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 6/ 399.
(56) جامع البيان، الطبري 17/ 153.

وفِي الآيةِ تسليةٌ لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتهوينًا للخطبِ عليهِ، بأنَّهمْ أصحابُ تلكَ الجريمةِ العظمَى، التِي هيَ أكبرُ الكبائرِ، التِي سيُخذلونَ بسببهَا، كمَا قالَ: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) أي: عاقبةَ أمرهمْ، وفِي الآيةِ وعيدٌ شديدٌ لمنْ جعلَ معهُ تعالَى معبودًا آخرَ، وقدْ أشارَ كثيرٌ منَ المفسِّرينَ إلَى أنَّ قولهُ تعالَى: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) عنَى بهِ مَا عجَّلهُ منْ إهلاكِهمْ[57].

ومنَ الآياتِ التِي حملتْ الخبرَ التَّهديدِي لمنْ يجعلْ معَ اللهِ آلهةً أخرَى، قولهُ تعالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[المؤمنون: 117].

والمعنَى: ومنْ يدعُ معَ اللهِ إلهًا آخرَ لَا برهانَ لهُ بهِ، أي: لَا حجَّةَ ولَا بيِّنةَ لهُ، بهِ لأنَّهُ لَا حجَّةَ فِي دعوَى الشِّركِ (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ)، جزاؤهُ عندَ ربِّهِ يجازيهِ بعملهِ[58].

والمعنَى الذِي لهُ عندَ ربِّهِ، أنَّهُ لَا يفلحُ (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) فيجازيهِ عليهِ كمَا قالَ:(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)[الغاشية: 26][59].

وفِي الآيةِ إنذارٌ لكلِّ منْ يدعُو معَ اللهِ إلهًا آخرَ ويشركهُ معهُ فِي الاتِّجاهِ والعبادةِ بدونِ برهانٍ، فحسابهُ عندَ ربِّهِ ولنْ يلقَى فلاحًا[60].

---

(57) محاسن التأويل، القاسمي 6/ 346.
(58) معالم التنزيل، البغوي 3/ 378.
(59) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج 4/ 25.
(60) التفسير الحديث، محمد عزت 5/ 338.

خامسا: أسلوبُ الشَّرطِ:

ومنْ أساليبِ القرآنِ الكريمِ فِي النَّهيِ عنِ اتِّخاذِ آلهةٍ معَ اللهِ، وبيانِ أنَّهَا شركٌ: أسلوبُ الشَّرطِ، قالَ تعالَى فِي موضعٍ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[المؤمنون: 117].

وفِي الآيةِ الكريمةِ منَ التَّهديدِ والوعيدِ مَا فيهِ، ومنَ التَّعبيرِ القرآنيِّ البديعِ: (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) غايةٌ فِي التَّهديدِ والوعيدِ، واختيارِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ التِي تُشعرُ باللَّومِ والعتابِ علَى عدمِ رعايةِ العبدِ لهذهِ الرُّبوبيَّةِ، وخلطهَا بغيرهَا، وعدمِ عرفانِ العبدِ بهَا مبيَّنٌ أيْ بيانٌ عنْ عدمِ توفيقِ هذَا الذِي يستجلبُ علَى نفسهِ غضبَ ربِّهِ والرَّبُّ بصفاتهِ يعمُّ بفضلهِ مخلوقاتهِ، ويشملُ بفيضهِ جميعَ الكائناتِ، فالمحرومُ منْ حُرِمَ هذهِ الرَّحمةَ علَى سعتهَا، والمغبونُ منْ جانبهُ هذَا الفضلَ علَى اتِّساعهِ وعمومهِ، والمخذولُ منْ خلاهُ هذَا التَّوفيقُ الرَّبَّانيُّ.

وقولهُ: (لَا بُرْهَانَ لهُ) معَ أنَّهُ معلومٌ أنَّهُ لَا يمكنُ أنْ يكونَ لهُ برهانٌ مشعرٌ بأنَّهُ ليسَ لديهِ أيَّ دليلٍ ولوْ كانَ الدَّليلُ وهميًّا علَى اتِّخاذِ هذَا معَ اللهِ تعالَى، فهوَ لَا حجَّةَ لهُ بالكفرِ ولَا عذرٍ يومَ القيامةِ، كمَا أنَّ تركيبَ الجملةِ بهذهِ الصُّورةِ، وورودِ الخاتمةِ: (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) هذَا الورودُ مشعرٌ بأنَّهُ جوابٌ لسؤالٍ سابقٍ أوْ مستترٍ كأنَّهُ قيلَ: لمَ كلُّ هذَا؟ فقيلَ: لأنَّهُ لَا يفلحُ الكافرونَ.

يقولُ الإمامُ البيضاويُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ) يعبدهُ إفرادًا أوْ إشراكًا (لَل بُرْهَانَ لهُ بِهِ) صفةٌ أخرَى لـ (إِلَهًا) لازمةٌ لهُ فإنَّ الباطلَ لَا برهانَ بهِ، جيءَ بهَا للتَّأكيدِ وبناءِ الحكمِ عليهِ تنبيهًا علَى أنَّ التَّديُّنَ بمَا لَا دليلَ عليهِ ممنوعٌ فضلًا عمَّا دلَّ الدَّليلُ علَى خلافهِ، أوِ اعتراضٍ بينَ الشَّرطِ والجزاءِ لذلكَ: (فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) فهوَ مُجازٌ لهُ مقدارُ مَا يستحقُّه(61).

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلً﴾[الإسراء: 42].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: قلْ لأهلِ مكَّةَ لوْ كانَ معهُ آلهةٌ كمَا يقولونَ منَ الأوثانِ، إذًا لابتغَوا إلَى ذِي العرشِ سبيلًا، أي: طريقًا وكانُوا كهيئتهِ، وقالَ قتادةُ: أي يعرفُوا فضلَ ذِي العرشِ ومرتبتهُ عليهِمْ، ويقالُ: ابتغُوا طريقًا للوصولِ إليهِ، وقالَ مقاتلٌ: لطلبُوا سبيلًا ليقهروهُ كفعلِ الملوكِ بعضهِمْ بعضًا، ثمَّ نزَّهَ نفسهُ عنِ الشَّريكِ، فقالَ تعالَى: سبحانهُ، أي:تنزيهًا لهُ وتعالَى عمَّا يقولونَ، أي: عمَّا يقولُ الظَّالمونَ إنَّ معهُ شريكًا، علوًّا كبيرًا، أي: بعيدًا عمَّا يقولُ الكفَّارُ(62).

وهذَا تنزيهٌ منَ اللهِ تعالَى ذكرهُ نفسهُ عمَّا وصفهُ بهِ المشركونَ، الجاعلونَ معهُ آلهةً غيرهُ، المضيفونَ إليهِ البناتَ، فقالَ: تنزيهًا للهِ وعلوًّا لهُ عمَّا تقولونَ أيُّهَا القومُ، منَ الفريةِ

---

(61) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي 3/ 97 – محاسن التأويل، القاسمي 7/ 306.

(62) انظر: تفسير السمرقندي 2/ 312.

والكذبِ، فإنَّ مَا تضيفونَ إليهِ منْ هذهِ الأمورِ ليسَ منْ صفتهِ، ولَا ينبغِي أنْ يكونَ لهُ صفةٌ[63].

وهكذَا تتنوَّعُ أساليبُ القرآنِ الكريمِ فِي نفيِ وجودِ آلهةٍ معَ اللهِ تعالَى، وسبحانَ منْ عزَّ عنِ النَّظيرِ والشَّبيهِ وتعالَى عنِ الندِّ والمثيلِ.

آثارُ المعيَّةِ الإلهيَّةِ:

للمعيَّةِ أثرٌ لَا يُنكرهُ عاقلٌ، وفضلٌ لَا يخفَى علَى متدبِّرٍ، فمعيَّةُ اللهِ تعالَى سرُّ النَّجاحِ ولبُّ الفلاحِ، ومدارُ الهدايةِ والتَّوفيقِ، والنَّصرِ والتَّأييدِ، والحفظِ والرِّعايةِ والحياطةِ والعنايةِ، فمنْ كانَ اللهُ تعالَى معهُ فمنْ يكونُ عليهِ، ومنْ كانَ اللهُ تعالَى عليهِ فمنْ يكونُ معهُ.

وقدْ قالَ قتادةُ: منْ يتَّقِ اللهَ يكنْ معهُ، ومنْ يكنِ اللهُ معهُ فمعهُ الفئةُ التِي لَا تُغلبُ، والحارسُ الذِي لَا ينامُ، والهادِي الذِي لَا يضلُّ[64].

---

(63) انظر: جامع البيان، الطبري 17/ 453 – التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي 1/ 447.

(64) انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم 2/340.

فمنْ آثارِ المعيَّةِ، أوَّلًا: المراقبةُ:

فالمراقبةُ منْ أهمِّ آثارِ المعيَّةِ، سواءٌ كانتِ المراقبةُ منْ قِبَلِ العبدِ لربِّهِ أمْ منَ اللهِ تعالَى لعبدِهِ، وإنْ كانَ الأغلبُ فيهَا مراقبةُ العبدِ لربِّهِ ونظرِهِ لهُ ومشاهدتهِ إيَّاهُ فِي أعمالهِ وسلوكهِ، والمقصودُ منَ المراقبةِ: استدامةُ علمِ العبدِ باطِّلاعِ الربِّ عليهِ فِي جميعِ أحوالهِ[65].

وهوَ حينَ يتحقَّقُ بهذهِ الصِّفةِ ويتحلَّى بهذَا الخلقِ، يصلُ إلَى معانٍ تملأُ عليهِ نفسهُ بالخيرِ والرِّضَا واليقينِ والثَّباتِ، فهوَ فِي معيَّةِ اللهِ تعالَى يشعرُ بمراقبةِ اللهِ تعالَى لهُ فَيَجِّلُهُ عنْ أنْ يراهُ علَى غيرِ مَا يرضيهِ، أوْ يتفقدهُ فيمَا يرضيهِ، وهذَا المعنَى هوَ الواردُ فِي حديثِ الإيمانِ، إذْ يقولُ الرَّسولُ لجبريلَ عليهمَا الصَّلاةُ والسَّلامُ حينمَا سألهُ عنِ الإحسانِ: "أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ[66].

وقدْ غرستْ آياتُ المعيَّةِ الواردةِ فِي القرآنِ الكريمِ هذَا المعنَى فِي نفوسِ المؤمنينَ بصورٍ شتَّى، وألوانٍ متعدِّدةٍ، ومنْ هذهِ الآياتِ الكريمةِ قولهُ تعالَى لموسَى وهارونَ: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[طه: 43 – 46].

---

(65) التعريفات، الجرجاني ص 210.

(66) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل، 1/19، رقم 50 – ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، 1/ 39، رقم 9.

أي: إنَّنِي معكمَا بحفظِي وكلاءتِي ونصرِي وتأييدِي فلَا تخافَا منهُ، فإنَّنِي معكمَا أسمعُ كلامكمَا وكلامهُ، وأرَى مكانكمَا ومكانهُ، لَا يخفَى عليَّ منْ أمركمْ شيءٌ، واعلمَا أنَّ ناصيتهُ بيدِي، فلَا يتكلَّمُ ولَا يتنفَّسُ ولَا يبطشُ إلَّا بإذنِي وبعدَ أمرِي، وأنَا معكمَا بحفظِي ونصرِي وتأييدِي[67].

وفِي هذَا طمأنةٌ لهمَا بأنَّ فرعونَ ليسَ بالذِي يصلُ إلَى قتلهمَا حتَّى يبلِّغَا الرسالةَ، وأرادَ بذلكَ سبحانهُ تقويةَ قلوبهمَا وأنَّهُ متولٍّ لحفظهمَا وكلاءتهمَا[68].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ فِي معنَى الآيةِ الكريمةِ: أسمعُ دعاءكمَا فأجيبهُ، وأرَى مَا يرادُ بكمَا فأمنعهُ[69].

ولذَا قالَ موسَى عليهِ السَّلامُ: الآنَ لَا أبالِي بعدمَا أنتَ معِي[70].

قالَ: (لَا تَخَافَا) أي: منْ فرطهِ وطغيانهِ (إِنَّنِي مَعَكُمَا) أي: بالحفظِ والنُّصرةِ (أَسْمَعُ وَأَرَى) أي: مَا يجرِي بينكمَا وبينهُ، فأرعاكمَا بالحفظِ[71].

وقدْ دلَّ اللهُ تعالَى عبادهُ علَى تصوُّرِ هذهِ المعيَّةِ منْ خلالِ تعريفهمْ أنَّ عليهمْ حافظينَ، كرامًا كاتبينَ، فليكرموهمْ وليراقبُوا أنفسهمْ فِي ضوءِ معرفةِ هؤلاءِ الكرامِ بهمْ.

---

(67) انظر: تفسير القرآن العظيم 6/ 124 – 5/261.

(68) انظر: تفسير يحيى بن سلام 1/ 261 – فتح القدير، الشوكاني 4/ 111.

(69) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي، معالم التنزيل، البغوي 5/ 276.

(70) لطائف الإشارات، القشيري 2/ 458.

(71) محاسن التأويل، القاسمي 7/ 127.

ولذَا قالَ صاحبُ لطائفِ الإشاراتِ: حشمتهمْ منِ اطِّلاعِ الحقِّ، ولوْ علمُوا ذلكَ حقَّ العلمِ لكانَ توقِّيهمْ عنِ المخالفاتِ لرؤيتهِ سبحانهُ، واستحياؤهمْ منِ اطِّلاعهِ – أتمُّ منْ رؤيةِ الملائكة[72].

ثانيًا: النَّصرُ والتَّأييدُ:

ومنْ آثارِ المعيَّةِ نصرُ اللهِ تعالَى لعبدهِ الذِي يكونُ فِي معيَّتهِ، وتأييدهِ لهُ، وقدْ نصَّتْ آياتُ القرآنِ الكريمِ علَى هذَا الأثرِ منْ آثارِ المعيَّةِ، فاللهُ تعالَى يمدُّ عبيدهُ بنصرهِ ويؤيِّدهمْ بهِ، ومنْ هنَا دعاهمْ إلَى عدمِ الهوانِ أوِ التَّفريطِ والتَّسليمِ والتَّنازلِ والتَّخاذلِ، فهمْ أُولُو المعيَّةِ وأصحابِ نصرِ اللهِ تعالَى وتأييدهِ.

قالَ تعالَى آمرًا عبادهُ بمراعاةِ أثرِ هذهِ المعيَّةِ منَ النَّصرِ والتَّأييدِ: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾[محمد: 35].

والمعنَى: أنتمُ الأعلونَ بالنُّصرةِ، وهوَ تعالَى معكمُ بالحفظِ، والمعونةِ[73] والتَّأييدِ والتَّسديدِ، ومنْ كانَ اللهُ تعالَى معهُ بنصرهِ فمنْ يغلبهُ، ومنْ كانَ معهُ بتأييدهِ فمنْ يعلوهُ، ومنْ كانَ معهُ بتسديدهِ فمنْ يصرفهُ عنْ طريقِ الهدَى، أوْ يشغبَ علَى منهاجهِ المستقيمِ؟ كمَا أنَّ فِي ذلكَ لكلِّ منْ غُلبَ علَى حقِّهِ، وأوذيَ فِي اللهِ تعالَى أنْ يستصحبَ معيَّةَ اللهِ تعالَى ويتحقَّقَ بهَا، ففيهَا بشارةٌ عظيمةٌ بالنَّصرِ والظَّفرِ علَى الأعداءِ، وقدْ قالَ تعالَى فِي

(72) لطائف الإشارات 3/ 698.

(73) انظر: تفسير السمعاني 5/ 185 – زاد المسير 4/ 123.

الآيةِ نفسهَا: (وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ)، أي: ولنْ يحبطهَا ويبطلهَا ويسلبكمْ إيَّاهَا بلْ يوفِّيكمْ ثوابهَا ولَا ينقصكمْ منهَا شيئًا[74].

وشعورهمْ بأنَّ اللهَ تعالَى معهمْ بالعونِ، والنَّصرِ، والتَّأييدِ، موجبٌ لقوَّةِ قلوبهمْ، وإقدامهمْ علَى عدوِّهمْ[75].

ولذلكَ رأينَا رؤوسَ المصلحينَ والدُّعاةِ الصادقينَ علَى تباعدِ المكانِ وتطاولِ الزَّمانِ فِي أتونِ المحنةِ يهشونَ للعطاءِ ويستروحونَ نسائمَ المنحِ، فنسمعُ شيخَ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي محنتهِ يقولُ: مَا يصنعُ أعدائِي بِي؟ أنَا جنَّتِي وبستانِي فِي صدرِي، إنْ رحتَ فهيَ معِي لَا تفارقنِي، إنَّ حبسِي خلوةٌ، وقتلِي شهادةٌ، وإخراجِي منْ بلدِي سياحةٌ.

وكانَ يقولُ فِي محبسهِ فِي القلعةِ: لوْ بذلتُ لهمْ ملءَ هذهِ القلعةِ ذهباً مَا عدلَ عندِي شكرَ هذهِ النِّعمةِ، وكانَ يقولُ فِي سجودهِ وهوَ محبوسٌ: اللَّهمَّ أعنِّي علَى ذكركَ وشكركَ وحسنِ عبادتكَ، وقالَ مرَّةً: المحبوسُ منْ حبسَ قلبهُ عنْ ربِّهِ تعالَى، والمأسورُ منْ أسرهُ هواهُ[76].

وفِي اشتدادِ الصِّراعِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وهوَ سنَّةٌ منْ سننِ اللهِ الجاريةِ، والتِي لَا تتبدَّلُ ولَا تتحوَّلُ ينبِّههمْ سبحانهُ علَى معيَّتهِ لهمْ المقتضيةِ للنَّصرِ والعونِ والتَّأييدِ والتَّسديدِ،

---

(74) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 7/ 299.

(75) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 790.

(76) المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية 1/ 135 – الوابل الصيب ص 48.

فيقولُ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: 36].

وفِي حلقةٍ منْ حلقاتِ الصِّراعِ بينَ الحقِّ والباطلِ، يُبيِّنُ عزَّ وجلَّ أنَّ معيَّتهُ ونصرهُ وتأييدهُ معَ عبادهِ الصَّابرينَ فيقولُ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤٩].

وهذَا إعلامٌ منهُ تعالَى ذكرهُ عبادهُ المؤمنينَ بهِ أنَّ بيدهِ النَّصرُ والظَّفرُ والخيرُ والشَّرُّ[77].

وأنَّ هذَا النَّصرَ ليسَ بهمْ بلْ بإذنِ اللهِ تعالَى، بمشيئتهِ وعونهِ ونصرتهِ، واللهُ معَ الصَّابرينَ بالنُّصرةِ والتَّأييدِ والقوَّةِ والمعونةِ[78].

وأعظمُ جالبٍ لمعونةِ اللهِ تعالَى صبرُ العبدِ للهِ، فوقعتْ موعظتهُ فِي قلوبهمْ وأثرتْ معهمْ[79].

(77) جامع البيان، الطبري 5/ 316.

(78) انظر: لطائف الإشارات، القشيري 1/ 194.

(79) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 108.

وقدْ تكرَّرَ هذَا المعنَى فِي القرآنِ الكريمِ، ومنهُ فِي مقامِ دفعِ الكفَّارِ والحملةِ عليهِمْ يَرِدُ قولهُ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: 123].

وقدْ قالَ بعضُ الصَّحابةِ: إنَّمَا تقاتلونَ النَّاسَ بأعمالكمْ وأهلهَا همُ المجدُّونَ فِي طرقِ الحقِّ، فوعدَ تعالَى أنَّهُ معَ أهلِ التَّقوَى ومنْ كانَ اللهُ معهُ فلنْ يُغلبَ(80).

ومنْ روائعِ صاحبِ تفسيرِ المنارِ وبدائعهِ؛ أنْ يربطَ معنَى التَّقوَى للهِ تعالَى بالسُّننِ، فيرَى أنَّ تقواهُ تعنِي أيضًا مراعاتهُ فِي أحكامهِ وسننهِ، حتَّى يستجلبَ نصرهُ وتُستدعَى معونتهُ، فيرَى أنَّ المتَّقينَ هنَا همُ المتَّقونَ لهُ فِي مراعاةِ أحكامهِ وسننهِ بالمعونةِ والنَّصرِ، وأهمِّهَا مَا يجبُ اتِّقاؤهُ فِي الحربِ، منَ التَّقصيرِ فِي أسبابِ النَّصرِ والغلبِ التي بيَّنهَا فِي كتابهِ، والتِي تُعرفُ بالعلمِ والتَّجاربِ، كإعدادِ مَا يُستطاعُ منْ قوَّةٍ، والصَّبرِ والثَّباتِ، والطَّاعةِ والنِّظامِ، وتركِ التَّنازعِ والاختلافِ، وكثرةِ ذكرِ اللهِ تعالَى، والتوكُّلِ عليهِ فيمَا وراءَ الأسبابِ(81).

وفِي معيَّتهِ تعالضى للملائكةِ يؤيِّدهمْ وينصرهمْ، ويعينهمْ ويثبِّتهمْ، ويأمرهمْ بتثبيتِ المؤمنينَ ونصرهمْ إذْ يقولُ تعالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الأنفال: 12 – 13].

---

(80) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية 3/ 98 – فتح القدير، الشوكاني 2/ 484.

(81) تفسير المنار، محمد رشيد رضا 11/ 66.

وفِي هذَا تعهُّدٌ منَ اللهِ تعالَى بإعانةِ أهلِ الإيمانِ الحقِّ، وبنصرتهمْ علَى غيرهمْ ولوْ كانُوا ثلَّةً قليلةً، مَا تمسَّكُوا بإيمانهمْ وثبتُوا علَى دينهمْ، وكانتْ صلتهمْ باللهِ تعالَى موصولةً غيرَ مقطوعةٍ[82].

والمعنَى: إنِّي أعينكمْ علَى تنفيذِ مَا آمركمْ بهِ منْ تثبيتهمْ علَى قلوبهمْ، حتَّى لَا يفرُّوا منْ أعدائهمْ علَى كونهمْ يفوقونهمْ عَدَدًا وعُدَدًا ومَدَدًا – إعانةَ حاضرٍ معكمْ لَا يخفَى عليهِ ولَا يعجزهُ شيءٌ منْ إعانتكمْ، والوعدُ بالإعانةِ وحدهُ لَا يفيدُ هذَا المعنَى كلِّهِ، ففِي المعيَّةِ معنَى زائدٌ علَى أصلِ الإعانةِ نعقلُ منهُ مَا ذُكِرَ، ولَا نعقلُ كنْهَهُ[83] وصفتهُ[84].

ومعنَى ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بالعونِ والنَّصرِ والتَّأييدِ، ﴿فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءامَنُوا﴾ أي: ألقُوا فِي قلوبهمْ، وألهموهمْ الجراءةَ علَى عدوِّهمْ، ورغِّبوهمْ فِي الجهادِ وفضلهِ[85].

---

(82) التيسير في أحاديث التفسير 2/ 314.

(83) الكنه: جوهر الشيءِ وحقيقتهُ (معجم المعاني)

(84) تفسير المنار 10/ 107.

(85) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص 316.

ثالثًا: التَّوفيقُ والمحبَّةُ:

ومنْ ثمراتِ المعيَّةِ: التَّوفيقُ والمحبَّةُ، والدَّلالةُ علَى سبلِ الرَّشادِ، وطرقِ الهدايةِ، وتلكَ لهَا مقدِّماتها التِي تفضِي إلَى نتائجهَا، وأسبابهَا التِي تعينُ علَى الوصولِ إليهَا.

وقدْ قالَ تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: 29].

إنَّ هذهِ المعيَّةِ التِي أدَّتْ إلَى الهدايةِ والتَّوفيقِ والمحبَّةِ ليستْ منْ فراغٍ، بلْ بُنيتْ علَى جهادٍ ومجاهدةٍ، وصبرٍ ومصابرةٍ، ودلالة قولهِ تعالَى (فِينَا) علَى جهةِ الجهادِ وصدقِ النيَّةِ فيهِ وتمحُّضِ المقصودِ بهِ مَا فيهِ، ومعنَى المعيَّةِ هنَا: بالعونِ والنَّصرِ والهدايةِ[86].

وإذَا تتبَّعنَا أقوالَ المفسِّرينَ فِي دلالةِ المعيَّةِ هنَا وجدنَا أكثرهمْ يركِّزُ علَى أنَّ المقصودَ بهَا هوَ النَّصرُ، والمقامُ هنَا ليسَ مقامَ صراعٍ بينَ فئتينِ، بلْ صراعٌ بينَ النَّفسِ البشريَّةِ ومتطلِّباتهَا، أوْ صراعٌ بينَ المحبوبِ والمكروهِ، والنَّصرُ هنَا هوَ نصرُ الهدايةِ والتَّوفيقِ والدَّلالةِ علَى سلامةِ المنحَى وصحَّةِ الطَّريقِ.

ولذَا قالَ الإمامُ الشَّوكانيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: المعيَّةُ هنَا بالنَّصرِ والعونِ، ومنْ كانَ معهُ لمْ يُخذلْ[87].

---

(86) المصدر السابق ص 636.

(87) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل 15/ 380.

رابعًا: الحفظُ والرِّعايةُ:

ومنْ ثمراتِ المعيَّةِ كذلكَ حفظُ اللهِ تعالَى ورعايتهُ لمنْ كانَ فِي معيَّتهِ.

وتبدُو هذهِ المعيَّةُ وتظهرُ آثارهَا فِي الحفظِ والرِّعايةِ فِي مقامِ الدَّعوةِ فيبيِّنُ لهمْ تعالَى أنَّهُ حافظهمْ وراعيهمْ؛ حتَّى يطمئنَّ أصحابُ الدَّعواتِ والذينَ يكونونَ فِي معيَّتهِ تعالَى أنَّهمْ محفوظونَ ومراعونَ منْ قبلِ ربِّهمْ، فهو ناصرهمْ ومعينهمْ ومؤيِّدهمْ ومثبِّتهمْ، كمَا قالَ تعالَى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[النحل: 127 – 128].

والمقصودُ منْ معيَّتهِ تعالَى هنَا أنَّهُ سبحانهُ يعينهمْ ويحفظهمْ منْ مكرِ الأعداءِ بهمْ، وينصرهمْ عليهمْ، فهيَ معيَّةُ رعايةٍ وحفظٍ[88].

ودلَّتْ آياتٌ كثيرةٌ علَى هذَا المعنَى منهَا قولهُ تعالَى فِي حقِّ النَّبيِّ ﷺ وصاحبهِ إذْ همَا فِي الغارِ: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 40].

(88) انظر: معاني القرآن، الزجاج 3/ 224 – التفسير الوسيط، الواحدي 5/ 708.

وأيُّ فضلٍ أعظمُ منْ هذهِ المعيَّةِ التِي يُنالُ بهَا صاحبهَا السَّكينةُ والتَّأييدُ وعلوِّ الكلمةِ وأصبحَ فِي جوارِ العزيزِ الحكيمِ، ومعنى (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا): أي: بالنَّصرِ والرِّعايةِ والحفظِ والكلاءةِ[89].

والمعنَى: (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) أي: إنْ لمْ تنصروهُ فسينصرهُ اللهُ كمَا نصرهُ، (إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ) ولمْ يكنْ معهُ إلَّا رجلٌ واحدٌ، أوْ إنْ لمْ تنصروهُ فقدْ أوجبَ اللهُ تعالَى لهُ النَّصرَ حتَّى نصرهُ فِي مثلِ ذلكَ الوقتِ فلنْ يخذلهُ فِي غيرهِ، (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ) وهوَ أبُو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) بالعصمةِ والمعونةِ[90].

وتلكَ سنَّةُ اللهِ تعالَى فِي رسلهِ وأنبيائهِ، وهيَ ماضيةٌ معَ عبادهِ المؤمنينَ الذينَ نالُوا شرفَ معيَّتهُ عزَّ وجلَّ، فكمَا كانَ للمعيَّةِ أثرُ الحفظِ والرِّعايةِ معَ رسولنَا ﷺ وصاحبهِ، كانَ لهَا نفسُ الأثرِ معَ موسَى وهارونَ منْ قبلُ، حينمَا أمرهمَا اللهُ تعالَى بالذَّهابِ إلَى فرعونَ لبلاغِ الرِّسالةِ، واستخلاصِ بنِي إسرائيلَ منْ قهرهِ وسخرتهِ، قالَ تعالَى حاكيًا عنهمَا: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه: 45 – 46].

والمرادُ بـ (لَا تَخَافَا) ممَّا عرضَ فِي قلبكمَا منَ الإفراطِ والطُّغيانِ؛ لأنَّ ذلكَ هوَ المفهومُ منَ الكلامِ، يبيِّنُ ذلكَ أنَّهُ تعالَى لمْ يؤمِّنهمَا منَ الردِّ ولَا منَ التَّكذيبِ بالآياتِ ومعارضةِ

(89) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 8/ 146.

(90) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير 136/4 – محاسن التأويل، القاسمي 5/ 419.

السَّحرةِ، وقولهُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ عبارةٌ عنِ الحراسةِ والحفظِ، وأكدَّ ذلكَ بقولهِ تعالَى: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ فبيَّنَ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ معهمَا بالحفظِ والعلمِ فِي جميعِ مَا ينالهمَا، وذلكَ هوَ النِّهايةُ فِي إزالةِ الخوفِ.

قالَ القفَّالُ: قولهُ: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ يحتملُ أنْ يكونَ مقابلًا لقولهِ: ﴿أَن يَّفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أن يَّطْغَى﴾ والمعنَى: يفرطَ علينَا بأنْ لَا يسمعَ منَّا: أوْ أنْ يطغَى بأنْ يقتلنَا، فقالَ اللهُ تعالَى: إنَّنِي معكمَا أسمعُ كلامهُ معكمَا فأسخِّرهُ للاستماعِ منكمَا، وأرَى أفعالهُ فلَا أتركهُ حتَّى يفعلَ بكمَا مَا تكرهانهِ، واعلمَا أنَّ ناصيتهُ بيدِي، فلَا يتكلَّمُ ولَا يتنفَّسُ ولَا يبطشُ إلَّا بإذنِي وبعدَ أمرِي، وأنَا معكمَا بحفظِي ونصرِي وتأييدِي[91].

وهذَا مَا كانَ، فقدْ تحقَّقَ وعدهُ عزَّ وجلَّ، سواءٌ فِي بلاغِ الرِّسالةِ أوْ فِي حفظِ موسَى وهارونَ منْ فرعونَ وجندهِ، وتيقَّنَ موسَى منْ هذَا حتَّى معَ مَا كانَ فِي قلبهِ فِي بدايةِ الدَّعوةِ منْ خوفٍ بشريٍّ فطريٍّ جعلهُ يقولُ مَا يقولُ.

إلَّا أنَّنَا نراهُ فِي موقفٍ أشدَّ وأحدَّ فِي موقفِ عبورِ النَّهرِ وهوَ يقولُ لقومهِ رادعًا لهمْ وزاجرًا عنْ أوهامهمْ عندمَا قالُوا: إنَّا لَمُدْرَكُونَ: ﴿قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء: 62].

فنبَّههمْ موسَى أنْ ليسَ الأمرُ كمَا ذكرتمْ، كلَّا لنْ تُدركُوا إنَّ معيَ ربِّي سيهدينِي، يقولُ: سيهدينِي لطريقٍ أنجُو فيهِ منْ فرعونَ وقومهِ وسيكفينِي، أي: للنَّجاةِ، وقدْ وعدنِي ذلكَ، ولَا خلفَ لموعودهِ[92].

وفِي بيانِ موسَى عليهِ السَّلامُ وردِّهِ علَى قومهِ بهذهِ الشدَّةِ (كَلَّا) مَا فيهِ منْ توكيدٍ ويقينٍ وثقةٍ واطمئنانٍ إلَى قدرةِ اللهِ الحافظِ ونصرتهِ وهوَ المعينُ (كَلَّا) فِي شدَّةٍ وَتوكيدٍ، كلَّا لنْ

(91) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي 22/ 54 – اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل 258/13.

(92) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٥٦، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١١٨.

نكونَ مدركينَ، كلَّا لنْ نكونَ هالكينَ، كلَّا لنْ نكونَ مفتونينَ، كلَّا لنْ نكونَ ضائعينَ، كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِي.

نعمْ، بهذَا الجزمِ والتَّأكيدِ واليقينِ.

ثمَّ فِي اللَّحظةِ الأخيرةِ ينبثقُ الشُّعاعُ المنيرُ فِي ليلِ اليأسِ والكربِ، وينفتحُ طريقُ النَّجاةِ منْ حيثُ لَا يحتسبونَ[93].

(93) كل الباب مقتبس من موقع: موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: الدُّعاءُ والدَّعوةُ، يشملُ دعاءَ العبادةِ، فيدخلُ فيهِ كلُّ عبادةٍ أمرَ اللهُ بهَا ورسولهُ ﷺ.

ودعاءُ المسألةِ، وهوَ: سؤالُ اللهِ جلبَ المنافعِ، ودفعَ المضارِّ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

فقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بالدُّعاءِ فِي كتابهِ الكريمِ وحثَّ عليهِ ومدحَ الدَّاعينَ وأنذرَ المعرضينَ عنْ دعائهِ سبحانهُ فِي مواقعَ كثيرةٍ وقالَ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[البقرة: 186].

وقالَ تعالَى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[الأعراف: 55].

وقالَ سبحانهُ: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[غافر: 60].

وقالَ فِي النَّهي عنْ دعاءِ غيرِ اللهِ تعالَى: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[القصص: 88].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}[الحج: 73].

وقدْ شرحَ الشَّيخُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى هذهِ القاعدةَ فِي كتابهِ القواعدُ الحسانُ بقولهِ: كلُّ مَا وردَ فِي القرآنِ منْ الأمرِ بالدُّعاءِ، والنَّهي عنْ دعاءِ غيرِ اللهِ، والثَّناءِ علَى الدَّاعينَ، تناولَ دعاءَ المسألةِ ودعاء العبادةِ.

وهذهِ قاعدةٌ نافعةٌ، فإنَّ أكثرَ النَّاسِ إنَّمَا يتبادرُ لهمْ منْ لفظِ الدُّعاءِ والدَّعوةِ: دعاءُ المسألةِ فقطْ، ولَا يظنُّونَ دخولَ جميعَ العباداتِ فِي الدُّعاءِ.

ويدلُّ علَى عمومِ ذلكَ: قولهُ تعالَى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}[غافر: 60]، أيْ أستجبْ طلبكمْ، وأتقبَّلُ عملكمْ ثمَّ قالَ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[غافر: 60]، فسمَّى ذلكَ عبادةً، وذلكَ لأنَّ الدَّاعِي دعاءَ المسألةِ يطلبُ مسئولهُ بلسانِ المقالِ، والعابدُ يطلبُ منْ ربِّهِ القبولَ والثَّوابَ، ومغفرةَ ذنوبهِ بلسانِ الحالِ[1].

الدُّعاء لغةً:

كلمةُ الدُّعاءِ فِي الأصلِ مصدرٌ منْ قولكَ: دعوتُ الشَّيءَ أدعوهُ دعاءً، وهوَ أنْ تُميلَ الشَّيءَ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ[2].

قالَ ابنُ منظورٍ: "دعَا الرجلَ دعوًا ودعاءً: ناداهُ، والاسمُ: الدَّعوةُ، ودعوتُ فلانًا: أيْ صِحتُ بهِ واستدعيتهُ"[3].

(1) القواعد الحسان.
(2) انظر: مقاييس اللغة (2/279).
(3) لسان العرب مادة (د ع و).

الدُّعاءُ اصطلاحًا (شرعًا):

عُرِّفَ بعدَّةِ تعريفاتٍ:

فقالَ الخطابيُّ: "معنَى الدُّعاءِ استدعاءُ العبدِ ربَّهُ عزَّ وجلَّ العنايةَ، واستمدادُهُ منهُ المعونةَ، وحقيقتهُ: إظهارُ الافتقارِ إلَى اللهِ تعالَى، والتبرُّؤِ منَ الحولِ والقوّةِ، وهوَ سمةُ العبوديَّةِ، واستشعارُ الذلَّةِ البشريَّةِ، وفيهِ معنَى الثَّناءِ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ، وإضافةُ الجودِ والكرمِ إليهِ"[1].

وقالَ ابنُ منظورٍ: "هوَ الرَّغبةُ إلَى اللهِ عزَّ وجلَّ"[2].

معانِي الدُّعاءِ فِي القرآنِ الكريمِ:

وردَ الدُّعاءُ فِي القرآنِ الكريمِ علَى وجوهٍ، منهَا:

1) العبادةُ: كمَا فِي قولهِ تعالَى: {وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ}[الكهف: 28]، وقولهُ تعالَى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ}[الأعراف: 194].

2) الطلبُ والسؤالُ منَ اللهِ سبحانهُ: كمَا فِي قولهِ تعالَى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}[البقرة: 186]، وقولهُ تعالَى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ}[غافر:60].

3) الاستغاثةُ: كمَا فِي قولهِ تعالَى: {قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ}[الأنعام: 40،41]، وقولهُ تعالَى: {وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَٱدْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ}[البقرة: 23].

---

(1) شأن الدعاء (ص4).

(2) لسان العرب مادة (د ع و).

4) **النِّداءُ:** كمَا فِي قولِهِ تعالَى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ}[الإسراء: 52]، وقوله تعالى: {إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}[القصص: 25].

5) **توحيدُ اللهِ وتمجيدهُ والثَّناءُ عليهِ:** كمَا فِي قولِهِ تعالَى: {قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ}[الإسراء: 110].

6) **الحثُّ علَى الشَّيءِ:** كمَا فِي قولِهِ تعالَى: {قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}[يوسف: 33]، وقولهُ تعالَى: {وَٱللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ}[يونس: 25].

7) **رفعةُ القدرِ:** كمَا فِي قولِهِ تعالَى: {لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلاَ فِي ٱلآخِرَةِ}[غافر: 43].

8) **القولُ:** كمَا فِي قولِهِ تعالَى: {فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُم بَأْسُنَا إِلا أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ}[الأعراف: 5].

9) **سؤالُ الاستفهامِ:** كمَا فِي قولِهِ تعالَى: {ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ}[البقرة: 68].

10) **التَّسميةُ:** كمَا فِي قولِهِ تعالَى: {لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَاء ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُمْ بَعْضاً}[النور: 63]، وقولهُ تعالَى: {قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلأَسْمَاء ٱلْحُسْنَىٰ}[الإسراء: 110]، قالَ ابنُ القيِّمِ: "ليسَ المرادُ مجرَّدَ التَّسميةِ الخاليةِ عنِ العبادةِ والطَّلبِ، بلِ التَّسميةُ الواقعةُ فِي دعاءِ الثَّناءِ والطَّلبِ، فعلَى هذَا المعنَى يصحُّ أنْ يكونَ فِي (تَدْعُوا) معنَى (تُسَمُّوا) فتأملهُ، والمعنَى: أيَّا مَا تُسمُّوا فِي ثنائكمْ ودعائكمْ وسؤالكمْ"[1].

11) وقيلَ: وردَ بمعنَى العذابِ: كمَا فِي قولِهِ تعالَى: {تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ}[المعارج: 17]، قالَ المبردِ: "تدعُو أيْ: تعذِّبَ"، وقالَ غيرهُ: "تناديهمْ واحدًا واحدًا بأسمائهمْ"، قالَ السَّمعانِي: "وهوَ الأظهرُ"[2].

تعريفُ دعاءِ العبادةِ، ودعاءُ المسألةِ:

الدُّعاءُ الذِي حثَّ اللهُ تعالَى عليهِ فِي كتابهِ، ووعدَ المخلصينَ فيهِ بجزيلِ ثوابهِ، نوعانِ:

1 – دعاءُ المسألةِ.

2 – ودعاءُ العبادةِ[3].

– فدعاءُ المسألةِ هوَ: طلبُ مَا ينفعُ الدَّاعِي، وطلبُ كشفِ مَا يضرهُ ودفعهُ[4].

– وأمَّا دعاءُ العبادةِ فهوَ: التَّقرُّبُ إلَى اللهِ تعالَى بجميعِ أنواعِ العبادةِ، الظَّاهرةِ والباطنةِ، منَ الأقوالِ والأعمالِ، والنيَّاتِ والتُّروكِ، التِي تملأُ القلوبَ بعظمةِ اللهِ وجلالهِ[5].

الفرقُ بينَ دعاءِ العبادةِ ودعاءُ المسألةِ:

أوَّلًا: دعاءُ المسألةِ: هوَ طلبُ مَا ينفعُ، أوْ طلبُ دفعِ مَا يضرُّ، بأنْ يسألَ اللهَ تعالَى مَا ينفعهُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، ودفعَ مَا يضرُّهُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ.

(1) انظر بدائع الفوائد (5/3).
(2) تفسير السمعاني (47/6).
(3) انظر: النبوات (ص136).
(4) انظر: مجموع الفتاوى (10/15)، بدائع الفوائد (2/3).
(5) انظر: تصحيح الدعاء (ص17).

كالدُّعاءِ بالمغفرةِ والرَّحمةِ، والهدايةِ والتَّوفيقِ، والفوزِ بالجنَّةِ، والنَّجاةِ منَ النَّار، وأنْ يؤتيهِ اللهُ حسنةً فِي الدُّنيَا، وحسنةً فِي الآخرةِ ... إلخ.

ثانيًا: دعاءُ العبادةِ: والمرادُ بهِ أنْ يكونَ الإنسانُ عابداً للهِ تعالَى، بأيٍّ نوعٍ منْ أنواعِ العباداتِ، القلبيَّةِ أوِ البدنيَّةِ أوِ الماليَّةِ، كالخوفِ منَ اللهِ ومحبَّةِ رجائهِ والتوكُّلِ عليهِ، والصَّلاةِ والصِّيامِ والحجِّ، وقراءةِ القرآنِ والتَّسبيحِ والذِّكرِ، والزَّكاةِ والصَّدقةِ والجِّهادِ فِي سبيلِ اللهِ، والدَّعوةِ إلَى اللهِ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكرِ ... إلخ.

فكلُّ قائمٍ بشيءٍ منْ هذهِ العباداتِ فهوَ داعٍ للهِ تعالَى[1].

فدعاء المسألة باللسان والقلب، ودعاء العبادة يكون باللسان والقلب، ويكون باللسان والقلب والبدن.

ويكون دعاء العبادة أحياء مقدمة لدعاء المسألة، كمن تصدَّق قبل الدعاء بُغية قبول مسألته.

والغالبُ أنَّ كلمةَ (الدُّعاءِ) الواردةِ فِي آياتِ القرآنِ الكريمِ يرادُ بهَا المعنيانِ معاً؛ لأنَّهمَا متلازمانِ، فكلُّ سائلٍ يسألُ اللهُ بلسانهِ فهوَ عابدٌ له، فإنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ، وكلُّ عابدٍ يصلِّي للهِ أوْ يصومُ أوْ يحجُّ فهوَ يفعلُ ذلكَ يريدُ منَ اللهِ تعالَى الثَّوابَ والفوزَ بالجنَّةِ والنَّجاةِ منَ العقابِ، فهو سائل له.

قالَ الشَّيخُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى:

كلُّ مَا وردَ فِي القرآنِ منَ الأمرِ بالدُّعاءِ، والنَّهي عنْ دعاءِ غيرِ اللهِ، والثَّناءِ علَى الدَّاعينَ، يتناولُ دعاءَ المسألةِ، ودعاءَ العبادةِ[2]. انتهى

وقدْ يكونُ أحدَ نوعي الدُّعاءِ أظهرَ قصدًا منَ النَّوعِ الآخرِ فِي بعضِ الآياتِ.

(1) انظر: "القول المفيد" (264/1)، "تصحيح الدعاء" (ص 15– 21).

(2) القواعد الحسان للسعدي.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي قولِ اللهِ عزّ وجلّ: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[الأعراف: 55 – 56]، هاتانِ الآيتانِ مشتملتانِ علَى آدابِ نوعَيِ الدُّعاءِ: دعاءُ العبادةِ، ودعاءُ المسألةِ.

فإنّ الدُّعاءَ فِي القرآنِ يرادُ بِهِ هذَا تارةً وهذَا تارةً، ويرادُ بِهِ مجموعهمَا؛ وهمَا متلازمانِ؛ فإنّ دعاءَ المسألةِ: هوَ طلبُ مَا ينفعُ الدّاعِي، وطلبُ كشفِ مَا يضرُّهُ ودفعِهُ،... فهوَ يدعُو للنَّفعِ والضرِّ دعاءَ المسألةِ، ويدعُو خوفاً ورجاءً دعاءَ العبادةِ؛ فعُلِمَ أنَّ النَّوعانِ متلازمانِ؛ فكلُّ دعاءِ عبادةٍ مستلزمٌ لدعاءِ المسألةِ، وكلُّ دعاءِ مسألةٍ متضمنٌ لدعاءِ العبادةِ.

وعلَى هذَا فقولهُ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فإنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذَا دَعَانِ} يتناولُ نوعي الدُّعاءِ ... وبكلٍّ منهمَا فُسِّرتِ الآيةُ، قيلَ: أُعطيهِ إذَا سألنِي، وقيلَ: أُثيبهُ إذَا عبدنِي، والقولانِ متلازمانِ.

وليسَ هذَا منِ استعمالِ اللَّفظِ المشتركِ فِي معنييهِ كليهمَا، أوِ استعمالِ اللَّفظِ فِي حقيقتهِ ومجازهِ؛ بلْ هذَا استعمالهُ فِي حقيقتهِ المتضمِّنةِ للأمرينِ جميعاً[1].

---

(1) مجمع الفتاوى.

العلاقةُ بينَ النَّوعينِ:

دعاءُ المسألةِ ودعاءُ العبادةِ متلازمانِ؛ وذلكَ منْ وجهينِ:

الأوَّلُ: منْ جهةِ الدَّاعِي: فإنَّ دعاءَهُ بنوعيهِ مبنِي علَى الخوفِ والرَّجاءِ.

قالَ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله تعالى: وكلُّ سائلٍ راغبٌ وراهبٌ، فهوَ عابدٌ للمسؤولِ، وكلُّ عابدٍ لهُ فهوَ أيضًا راغبٌ وراهبٌ، يرجُو رحمتهُ ويخافُ عذابهُ، فكلُّ عابدٍ سائلٍ، وكلُّ سائلٍ عابدٍ، فأحدُ الاسمينِ يتناولُ الآخرَ عندَ تجرُّدهِ عنهُ، ولكنْ إذَا جمعَ بينهمَا فإنَّهُ يرادُ بالسَّائلِ الذِي يطلبُ جلبَ المنفعةِ ودفعَ المضرَّةِ بصيغِ السُّؤالِ والطَّلبِ، ويرادُ بالعابدِ منْ يطلبُ ذلكَ بامتثالِ الأمرِ، وإنْ لمْ يكنْ فِي ذلكَ صيغُ سؤالٍ، والعابدُ الذِي يريدُ وجهَ اللهِ والنَّظرِ إليهِ، هوَ أيضًا راجٍ خائفٌ راغبٌ راهبٌ، يرغبُ فِي حصولِ مرادهِ، ويرهبُ منْ فواتهِ، قالَ تعالَى: {إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَبا}[الأنبياء:90]، وقالَ تعالَى: {تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً}[السجدة:16]، ولَا يتصوَّرُ أنْ يخلُو داعٍ للهِ (دعاءَ عبادةٍ أوْ مسألةٍ) منَ الرَّغبِ والرَّهبِ، ومنَ الخوفِ والطمعِ[1].

---

(1) مجموع الفتاوى (10/239-240).

والثَّانِي: منْ جهةِ المدعُو: فإنَّهُ لَا بدَّ أنْ يكونَ مالكًا للنَّفعِ والضرِّ.

قالَ ابنُ القيِّمِ: كلُّ منْ يملكُ الضرَّ والنَّفعَ، فإنَّهُ هوَ المعبودُ حقًّا، والمعبودُ لَا بدَّ أنْ يكونَ مالكًا للنَّفعِ والضرِّ، ولهذَا أنكرَ اللهُ تعالَى علَى منْ عبدَ منْ دونهِ مَا لَا يملكُ ضرًّا ولَا نفعًا، وذلكَ كثيرٌ فِي القرآنِ، كقولهِ تعالَى: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ}[يونس:18]، وقولهِ تعالَى: {وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ}[يونس:106]، وقولهِ تعالَى: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ}[المائدة: 76]، فنفَى سبحانهُ عنْ هؤلاءِ المعبودينَ منْ دونهِ النَّفعَ والضرَّ، القاصرَ والمتعدِّي، فلَا يملكونهُ لأنفسهمْ ولَا لعابديهمْ، وهذَا فِي القرآنِ كثيرٌ، بيْدَ أنَّ المعبودَ لَا بدَّ أنْ يكونَ مالكًا للنَّفعِ والضرِّ، فهوَ يُدعَى للنَّفعِ والضرِّ دعاءَ المسألةِ، ويُدعَى خوفًا ورجاءً دعاءَ العبادةِ، فعُلمَ أنَّ النَّوعينِ متلازمانِ، فكلُّ دعاءِ عبادةٍ مستلزمٌ لدعاءِ المسألةِ، وكلُّ دعاءِ مسألةٍ متضمِّنٌ لدعاءِ العبادةِ[1].

---

(1) بدائع الفوائد (3/2-3).

حكمُ الدُّعاءِ:

حكمُ الدُّعاءِ: هوَ الوجوبُ وجوبًا عينيًّا، والدَّليلُ علَى ذلكَ:

قالَ أهلُ السنَّةِ والجماعةِ: الدُّعاءُ واجبٌ، ولَا يستجابُ منهُ إلاّ مَا وافقَ القضاءَ المُبرمَ، ويُستجابُ حتَّى إنْ لمْ يوافقْ القضاءَ المعلَّقَ بإذنِ اللهِ تعالَى، لقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " لا يردُّ القضاءَ إلَّا الدُّعاءُ، ولا يزيدُ في العمرِ إلَّا البرُّ"[1].

فالقضاءُ قضاءانِ:

1 – قضاءٌ مبرمٌ.

2 – وقضاءٌ معلَّقٌ.

فالقضاءُ الأول: القضاء المبرمُ: هوَ مَا قضاهُ اللهُ تعالَى منْ غيرِ أنْ يعلِّقهُ بفعلٍ، وهوَ نافذٌ لَا يتغيَّرُ، وهوَ الواردُ فِي قولِ اللهِ تعالَى: "وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ"[الرعد:11]، وأشارَ إليهِ النَّبيُّ ﷺ فِي حديثٍ طويلٍ وفيهِ: "... وإنَّ ربِّي قالَ: يَا محمَّدُ، إنِّي إذَا قضيتُ قضاءً فإنَّهُ لَا يُردُّ ..."[2].

والقضاءُ الثَّانِي: القضاءُ المعلَّقُ: وهوَ مَا قضاهُ اللهُ تعالَى وقضَى أنَّهُ يندفعُ أوْ يتغيَّرُ بفعلٍ منَ العبدِ، وعليهِ يُحملُ الحديثُ الأوَّلُ وهوَ: "لَا يردُّ القضاءَ إلَّا الدُّعاءَ"، فمثالهُ: أنَّ الإنسانَ ميتٌ لامحالةَ فهذَا قضاءٌ مبرمٌ لَا يتغيَّرُ بحالٍ، ومدَّةُ حياتهِ هيَ قضاءٌ أيضًا، ولكنَّ المدَّةَ معلَّقةٌ بفعلِ العبدِ مصداقًا لقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "ولَا يزيدُ فِي العمرِ إلَّا البرُّ" وهوَ القضاءُ المعلَّقُ،

---

(1) حديث حسن رواه الترمذي عن سلمان الفارسي، وحسَّنه الألباني.

(2) رواه مسلم (2889).

والمسلمُ مطالبٌ وجوبا بالدُّعاءِ، فقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بهِ، وحضَّ عليهِ، فقالَ سبحانهُ: {ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ}[غافر:60]، وقالَ: {ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}[الأعراف:55]، وقالَ: {قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ}[الفرقان:77]، والآياتُ فِي البابِ كثيرةٌ، ولمَّا ذكرَ اللهُ تعالَى جملةَ مَا أمرَ بهِ ذكرَ منْ بينِ ذلكَ الدُّعاءَ فقالَ تعالَى: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}[الأعراف: 29].

قالَ الخطَّابِي: "فأمَّا منْ ذهبَ إلَى إبطالِ الدُّعاءِ، فمذهبهُ فاسدٌ... ومنْ أبطلَ الدُّعاءَ فقدْ أنكرَ القرآنَ وردَّهُ، ولَا خفاءَ بفسادُ قولهِ، وسقوطِ مذهبِهِ"[1].

وقالَ الشَّوكانِي: إنَّهُ سبحانهُ وتعالَى أمرَ عبادهُ أنْ يدعوهُ، ثمَّ قالَ: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى}[غافر:60]، فأفادَ ذلكَ أنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ، وأنَّ تركَ دعاءِ الربِّ سبحانهُ استكبارٌ, ولَا أقبحَ منْ هذَا الاستكبارِ"[2].

وعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ لمْ يسألِ اللهَ يغضبْ عليهِ"[3].

---

(1) شأن الدعاء (ص8–9).

(2) تحفة الذاكرين (ص 28).

(3) أخرجه أحمد (442/2)، والترمذي (3373)، وابن ماجه (3827)، وصححه الحاكم (491/1)، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (512).

وقالَ المناوِي: "لأنَّ تاركَ السُّؤالِ إمَّا قانطٌ وإمَّا متكبِّرٌ، وكلُّ واحدٍ منَ الأمرينِ موجبُ الغضبِ"، ثمَّ نقلَ عنِ ابنِ القيِّمِ قولهُ: "هذَا يدلُّ علَى أنَّ رضاهُ فِي مسألتهِ وطاعتهِ، وإذَا رضيَ الربُّ تعالَى فكلُّ خيرٍ فِي رضاهُ، كمَا أنَّ كلُّ بلاءٍ ومصيبةٍ فِي غضبهِ... فهوَ تعالَى يغضبُ علَى منْ لمْ يسألهُ، كمَا أنَّ الآدميَّ يغضبُ علَى منْ يسألهُ"[1].

وقالَ المباركفورِي: "لأنَّ تركَ السُّؤالَ تكبَّرٌ واستغناءٌ وهذَا لَا يجوزُ للعبدِ"، ونقلَ عنِ الطَّيِبِي قولهُ: "وذلكَ لأنَّ اللهَ يحبُّ أنْ يُسألَ منْ فضلهِ، فمنْ لمْ يسألِ اللهَ يبغضهُ, والمبغوضُ مغضوبٌ عليهِ لَا محالةَ"[2].

ونختمُ هذَا المبحثَ بحديثِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ، رضيَ اللهُ عنهُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "إنَّ الدُّعاءَ هوَ العبادةُ، ثمَّ قرأَ: "{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عنْ عِبَادَتِي}[غافر: 60]"[3].

وإنْ أردتَ أنْ تعرفَ فضلَ الدُّعاءِ وفوائدهِ، اعرفْ فضلَ الشَّهادتينِ وفضلهمَا.

---

(1) فيض القدير (12/3).

(2) تحفة الأحوذي (221/9).

(3) رواه "أحمد" في "المسند" (18352)، و"البخاري" في "الأدب المفرد" (714).

ثمَّ قالَ الإمامُ السَّعدي رحمهُ اللهُ تعالَى: الطيِّباتُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ طيِّبٍ نافعٍ، منَ العقائدِ، والأخلاقِ، والأعمالِ، والمآكلِ، والمشاربِ والمكاسبِ، والخبيثُ ضدُّ ذلكَ.

وقدْ يُرادُ بالخبيثِ: الرَّديءُ، وبالطيِّبِ: الخيارُ كقولهِ تعالَى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ}.

~~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~~

قدْ ذكرَ اللهُ تعالَى لفظَ الطيِّباتِ فِي القرآنِ فِي كثيرٍ منَ المواضعِ وقالَ سبحانهُ: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ}[المائدة: 4].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}[فاطر: 10].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا}[المؤمنون: 51].

وقالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ}[البقرة: 267].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: {قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}[آل عمران: 38].

وقالَ: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ}[إبراهيم: 24].

وقالَ: {حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ}[يونس: 22].

وقالَ: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ}[الأعراف: 58].

وقالَ: {وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ}[النور: 26].
~~~~~~~~~~~~

وقدْ ذُكرَ اللهُ سبحانهُ الطيِّباتِ عمومًا وذكرهَا خصوصًا منْ أقوالٍ وأعمالٍ وعقائدَ وأماكنَ وأشخاصٍ، وذكرَ سبحانهُ الطَّيِّباتَ ومعهَا نقيضهَا وهيَ الخبائثُ، عمومًا وخصوصًا كذلكَ.

فقالَ جلَّ جلالهُ: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ}[الأعراف: 157].

وقالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[البقرة: 267].

وقالَ سبحانهُ: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ}[النور: 26].

وقال تعالى: {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ}[إبراهيم: 26].

وقال تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ}[الأنبياء: 74].

وقال تعالى: {مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}[آل عمرانَ: 179].

الطَّيِّباتُ لغةً:

جمعُ طيِّبٍ، والطيِّبِ خلافُ الخبيثِ، إلَّا أنَّهُ قدْ تتَّسعُ معانيهِ، فيُقالُ: أرضٌ طيِّبةٌ للَّتِي تصلحُ للنَّباتِ، وريحٌ طيِّبةٌ إذَا كانتْ ليِّنةً ليستْ شديدةً، وطعمةٌ طيِّبةٌ إذَا كانتْ حلالًا، وامرأةٌ طيِّبةٌ إذَا كانتْ حصانًا عفيفةً، وكلمةٌ طيِّبةٌ إذَا لمْ يكنْ فيهَا مكروهٌ، وبلدةٌ طيِّبةٌ، أيْ: آمنةٌ كثيرةُ الخيرِ، ونكهةٌ طيِّبةٌ إذَا لمْ يكنْ فيهَا نتنٌ، وإنْ لمْ يكنْ فيهَا ريحٌ طيِّبةٌ كرائحةِ العودِ وغيرهَا، وطعامٌ طيِّبٌ للذِي يستلذُّ الآكلُ طعمهُ، والكلمةُ الطيِّبةُ: شهادةُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ ﷺ[1].

والطّيّبُ: الحلالُ، والطيِّبُ: مَا يُتطيَّبُ بهِ، وقدْ تطيَّبَ بالشَّيءِ، وطيِّبَ الثَّوبَ وطابهُ، والطيِّبُ منْ كلِّ شيءٍ: أفضلهُ، واستطبناهمْ: سألناهمْ ماءً عذبًا[2].

وبهذَا يتَّضحُ أنَّ كلمةَ الطَّيبِ ليسَ لهَا معنًى ثابتٌ فِي اللُّغةِ، وإنَّمَا هيَ علَى حسبِ السِّياقِ الذِي تردُ فيهِ.

والطيِّباتُ اصطلاحًا:

لَا يوجدُ هناكَ تعريفٌ اصطلاحيٌّ خاصٌّ بالطيِّبِ، ولكنْ تختلفُ دلالتهُ الاصطلاحيَّةُ بحسبِ المضافِ إلَى الطيِّبِ، فمثلًا الرِّزقُ الطيِّبُ هوَ الحلالُ[3]، وهكذَا.

---

(1) انظر: الصحاح، للجوهري – مقاييس اللغة لابن فارس – تاج العروس للزبيدي.

(2) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير – لسان العرب لابن منظور.

(3) انظر: مفاتيح الغيب للرازي.

وأصلُ الطّيّبِ: مَا تستلذّهُ الحواسُّ، ومَا تستلذّهُ النّفسُ، والطّعامُ الطّيّبُ فِي الشّرعِ: مَا كانَ متناولًا منْ حيثُ مَا يجوزُ، ومنَ المكانِ الذِي يجوزُ، فإنّهُ متَى كانَ كذلكَ كانَ طيّبًا عاجلًا وآجلًا لَا يستوخمُ، وإلَّا فإنَّهُ وإنْ كانَ طيّبًا عاجلًا لمْ يطبْ آجلًا[1].

وقالَ الحسنُ: الحلالُ الطّيّبُ: هوَ مَا لَا يُسألُ عنهُ يومَ القيامةِ، وقالَ ابنُ عبّاسٍ: الحلالُ الذِي لَا تبعةَ فيهِ فِي الدّنيَا، ولَا وبالَ فِي الآخرةِ، وقيلَ: الحلالُ مَا يجوّزهُ المفتِي، والطّيّبُ مَا يشهدُ لهُ القلبُ بالحلّ[2].

واسمُ الطَّيِّبِ: هوَ منْ أسماءِ اللهِ الحسنَى، فعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "أيُّهَا النَّاسُ إنَّ اللهَ طيِّبٌ ولَا يقبلُ إلَّا طيِّباً..."[3].

قالَ النَّوويُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي شرحِ الحديثِ: قالَ القاضِي عياضُ: الطيِّبُ فِي صفةِ اللهِ تعالَى بمعنَى المنزَّهِ عنِ النَّقائصِ وهوَ بمعنَى القدُّوسِ، وأصلُ الطيِّبِ: الزَّكاةُ والطَّهارةُ والسَّلامةُ منَ الخبثِ[4].

وقالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي شرحهِ لقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "والصَّلواتُ والطيِّباتُ" وذلكَ فِي دعاءِ التَّشهُّدِ: وكذلكَ قولهُ: (والطيِّباتُ) هيَ صفةُ الموصوفِ المحذوفِ أيِ: الطيِّباتُ منَ الكلماتِ والأفعالِ والصِّفاتِ والأسماءِ للهِ وحدهُ، فهوَ طيِّبٌ وأفعالهُ طيِّبةٌ، وصفاتهُ أطيبُ شيءٍ، وأسماؤهُ

---

(1) المفردات للراغب الأصفهاني.

(2) البحر المحيط لأبي حيان.

(3) رواه مسلم (1015).

(4) ((شرح مسلم للنووي)) (100/7).

أطيبُ الأسماءِ، واسمهُ سبحانه (الطيِّبُ)، ولَا يصدرُ عنهُ إلَّا طيِّبٌ، ولَا يصعدُ إليهِ إلَّا طيِّبٌ، ولَا يقربُ منهُ إلَّا طيِّبٌ، وإليهِ يصعدُ الكلمُ الطيِّبُ وفعلهُ طيِّبٌ، والعملُ الطيِّبُ يعرجُ إليهِ، فالطيِّباتُ كلُّهَا لهُ ومضافةٌ إليهِ وصادرةٌ عنهُ ومنتهيةٌ إليهِ... فإذَا كانَ هوَ سبحانهُ الطيِّبُ علَى الإطلاقِ فالكلماتُ الطيِّباتُ، والأفعالُ الطيِّباتُ، والصِّفاتُ الطيِّباتُ، والأسماءُ الطيِّباتُ كلُّهَا لهُ سبحانهُ لَا يستحقُّهَا أحدٌ سواهُ، بلْ مَا طابَ شيءٌ قطُّ إلَّا بطيبتهِ سبحانهُ فطيبُ كلِّ مَا سواهُ منْ آثارِ طيبتهِ، ولَا تصلحُ هذهِ التَّحيَّةُ الطيِّبةُ إلَّا لهُ[1].

وقدْ وردتْ مادَّةً (طيِّبٌ) فِي القرآنِ بصيغٍ متعدِّدةٍ، بلغتْ خمسينَ مرَّةً[2].

وقدْ أطلقتِ الطّيِّباتُ فِي الاستعمالِ القرآني علَى عدَّةِ أمورٍ، نذكرُ منهَا "علَى وجهِ الاختصارِ".

الأوَّلُ: الذِّكرُ والدُّعاءُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}[فاطر: 10].

قالَ الطبريُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: و(الكلمُ الطيِّبُ) هوَ التَّوحيدُ الصَّادرُ عنْ عقيدةٍ طيِّبةٍ وقيلَ: هوَ التَّحميدُ والتَّمجيدُ، وذكرُ اللهِ ونحوهِ[3].

(1) ((الصلاة وحكم تاركها)) (ص: 214، 215).
(2) المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم.
(3) تفسير الطبري.

الثَّانِي: الرِّزقُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[الإسراء: 70] يعنِي: جميعَ رزقِ بنِي آدمَ: الخبزُ والعسلُ والسَّمنُ، ونحوهِ منَ أطايبِ الطَّعامِ، وجعلَ رزقهمْ أطيبَ منْ رزقِ البهائمِ والدَّوابِ والطَّيرِ.

الثَّالثُ: الحلالُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا}[النساء: 160] وقدْ كانتْ لهمْ حلالًا فِي التَّوراةِ[1].

وقدْ أطلقَ لفظُ الطَّيِّباتِ علَى غيرِ ذلكَ...

(1) الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٢٠-٣٢٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤١٨-٤١٩.

الخبائث لغةً:

جمعُ خبيثٍ، قالَ ابنُ فارسٍ: الخاءُ والباءُ والثَّاءُ أصلٌ واحدٌ يدلّ علَى خلافِ الطّيّب، يقالُ خبيثٌ، أيْ ليسَ بطيّبٍ، وأخبث: إذَا كانَ أصحابهُ خبثاءٌ، ومنْ ذلكَ التعوّذُ منَ الخبيثِ المخبثِ فالخبيثُ فِي نفسهِ والمخبثُ الذِي أصحابهُ وأعوانهُ خبثاءٌ[1].

الخبائثُ اصطلاحًا:

قالَ الرَّاغبُ: الخبثُ والخبيثُ: مَا يكرهُ رداءةً وخساسةً، محسوسًا كانَ أوْ معقولًا[2].

الصِّلةُ بينَ الخبائثِ والطيِّباتِ:

لَا شكَّ أنَّ العلاقةَ بينهمَا علاقةُ تضادٍّ، فالطيِّبُ خلافُ الخبيثِ، والخبيثُ خلافُ الطَّيِّبِ.

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالطَّيِّباتِ:

الحلالُ:

الحلالُ لغةً:

ضدُّ الحرامِ، وهوَ منْ: حلّ يحلّ حِلًّا، بالكسرِ. وأحلّهُ اللهُ، وحلّلهُ، واستحلّهُ: اتّخذهُ حلالًا، أوْ سألهُ أنْ يحلّهُ لهُ[3].

الحلالُ اصطلاحًا:

هوَ مَا أطلقَ الشَّرعُ فعلهُ، أوْ هوَ كلُّ شيءٍ لَا يعاقبُ عليهِ باستعمالهِ[4].

---

(1) مقاييس اللغة، ٢/١٩٤.

(2) المفردات، ص٢٧٢.

(3) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٨٦.

(4) التعريفات، الجرجاني، ص٩٢.

الصِّلةُ بينَ الحلالِ والطيِّباتِ:

الطيِّبُ: مَا هوَ طيِّبٌ فِي ظاهرِ الشَّرعِ سواءٌ كانَ طيِّبًا فِي الواقعِ أمْ لَا،

والحلالُ: مَا هوَ حلالٌ وطيِّبٌ فِي الواقعِ لمْ تعرضهُ النَّجاسةُ والخباثةُ قطعًا، ولمْ تتناولهُ أيدِي المتغلِّبةِ أصلًا[1].

المحرَّماتُ:

المحرَّماتُ لغةً:

الحرامُ لغةً:

الحرامُ منْ حرمَ، فالحاءُ والرَّاءُ والميمُ أصلٌ واحدٌ، وجمعُ الحرامِ حرُمٌ، والحرامُ ضدُّ الحلالِ، والحرامُ هوَ المنعُ والتَّشديدُ[2].

المحرَّماتُ اصطلاحًا:

الحرامُ: هوَ مَا طلبَ الشَّارعُ منَ المكلَّفِ تركهُ علَى وجهِ الإلزامِ، بحيثُ يعاقبُ فاعلهُ ويثابُ تاركهُ[3].

أوْ تقولُ: يستحقُّ العقابَ فاعلهُ، ويستحقُّ الثَّوابَ تاركهُ.

الصِّلةُ بينَ المحرَّماتِ والطيِّباتِ:

منَ الواضحِ أنَّ هناكَ فرقًا شاسعًا بينهمَا، فكلٌّ منهمَا ضدُّ الآخرِ.

(1) الفروق اللغوية، العسكري، ص١٦٩.

(2) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/٤٥.

(3) انظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف ص١١٣.

الحثُّ علَى ابتغاءِ الطيِّبِ فِي القرآنِ:

تنوَّعتْ أساليبُ القرآنِ فِي الحثِّ علَى ابتغاءِ الطَّيِّبِ:

أولًا: أسلوبُ الطَّلبِ:

جاءَ الأمرُ فِي القرآنِ بابتغاءِ الطيِّباتِ فِي الحياةِ الدُّنيَا، وأكَّدَ ربُّنَا سبحانهُ وتعالَى علَى ذلكَ فِي مواضعَ، نذكرُ منهَا:

جاءَ الأمرُ بابتغاءِ الصَّعيدِ الطيِّب للتيمُّمِ، فقالَ تعالَى: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا}[النساء: ٤٣].

وقالَ تعالَى: {وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[المائدة: 6].

ففِي آيةِ سورةِ النِّساءِ، عنَى سبحانهُ: وإنْ كنتمْ جرحَى أوْ بكمْ قروحٌ أوْ كسرٌ، أوْ علَّةٌ لَا تقدرونَ معهَا علَى الاغتسالِ منَ الجنابةِ، وأنتمْ مقيمونَ غيرُ مسافرينَ، أوْ إنْ كنتمْ مسافرينَ وأنتمْ أصحاءُ جنبٍ، أوْ جاءَ أحدٌ منكمْ منَ الغائطِ، قدْ قضَى حاجتهُ وهوَ مسافرٌ صحيحٌ، أوْ لامستمْ النِّساءَ (وهوَ مختلفٌ فِي تأويلهِ بينَ الجماعِ أوْ مجرَّدِ اللَّمسِ، والصَّحيحُ الرَّاجحُ أنَّهُ الجماعُ أوِ اللَّمسُ بشهوةٍ، يعني قصد اللمسَ ووجد الشهوة، أو لم يقصدُ اللمس

ووجد الشهوة،، وإنْ لم يقصد اللمس ولم يجد الشهوة فلا شيء عليه، وقالَ ابنُ بازٍ: ... فالصَّوابُ أنَّهُ لَا ينقضُ الوضوءَ (أيِ اللَّمسُ) إذَا لمْ يخرجْ منهُ شيءٌ، إذَا لمْ يُنزلْ منيًّا ولَا مذياً، فإنَّ مجرَّدَ اللَّمسِ لَا ينقضُ الوضوءَ، إذَا لمْ يكنْ معهُ خروجُ شيءٍ؛ لأنَّهُ ﷺ ثبتَ عنهُ أنَّهُ قبَّلَ بعضَ نسائهِ ثمَّ صلَّى ولمْ يتوضَّأْ[1]، ولأنَّ ابنَ عباسٍ وجماعةٌ فسَّرُوا الملامسةَ بالجماعِ، فالصَّوابُ أنَّ الملامسةَ المرادُ بهَا الجماعُ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وعلَا نبَّهَ علَى الحدثِ الأصغرِ بقولهِ: {أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ}[المائدة: 6][2].

(فقولهُ رحمهُ اللهِ تعالَى "ولَا مذيًا" فالمعلومُ أنَّ المذيَ لَا يخرجُ إلَّا بشهوةٍ، ونخرجُ بهذَا أنَّ معنَى اللَّمسِ المرادَ فِي الأيةِ هوَ الجماعُ أوِ اللَّمسُ بشهوةٍ.)

فطلبتمُ الماءَ لتتطهَّرُوا بهِ فلمْ تجدوهُ بثمنٍ ولَا غيرِ ثمنٍ، فاقصدُوا صعيدًا طيِّبًا لتتيمَّموا بهِ.

والصَّعيدُ: هوَ وجهُ الأرضِ الخاليةِ منَ النَّباتِ والغروسِ والبناءِ، المستويةِ[3].

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى فِي آخرِ الآيةِ بشكرهِ علَى تصييرهِ الصَّعيدَ طيِّبًا، وعلَى نعمهِ.

---

(1) سنن النَّسائي – ص 170 – حديث صحيح.

(2) موقع الإمام ابن باز.

(3) انظر: جامع البيان، الطبري ٤٠٨/٨.

فقالَ الطَّبريُّ: وقولهُ: {وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ}[المائدة: 6] فإنّهُ يقولُ: ويريدُ ربّكمْ معَ تطهيركمْ منْ ذنوبكمْ بطاعتكمْ إيّاهُ فيمَا فرضَ عليكمْ منَ الوضوءِ والغسلِ إذَا قمتمْ إلَى الصّلاةِ بالماءِ إنْ وجدتموهُ، وتيمّمكمْ إذَا لمْ تجدوهُ، أنْ يتمّ نعمتهُ عليكمْ بإباحتهِ لكمُ التّيمّمَ، وتصييرهِ لكمْ الصّعيدَ الطّيّبَ طهورًا، رخصةً منهُ لكمْ فِي ذلكَ معَ سائرِ نعمهِ التِي أنعمَ بهَا عليكمْ أيّهَا المؤمنونَ {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[المائدة: 6] يقولُ: تشكرونَ اللهَ علَى نعمهِ التِي أنعمهَا عليكمْ بطاعتكمْ إيّاهُ فيمَا أمركمْ ونهاكمْ[1].

ثانيا: الأمرُ بأكلِ الطيِّبِ منَ الرِّزقِ:

فقدْ أمرَ اللهُ تعالَى الرُّسلَ وقالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[المؤمنون: 51].

وأمرَ المؤمنينَ بمَا أمرَ بهِ المرسلينَ، فقالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[البقرة: 172].

وأمرَ اللهُ تعالَى النَّاسَ جميعًا بذلكَ، فقالَ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}[البقرة: 168].

والمرادُ بالطّيّبِ هنَا: مَا تستطيبهُ النّفوسُ بالإدراكِ المستقيمِ السّليمِ منَ الشّذوذِ، وهيَ النّفوسُ التِي تشتهِي الملائمَ الكاملَ أوِ الرّاجحَ بحيثُ لَا يعودُ تناولهُ بضرٍّ جثمانيٍّ أوْ روحانيٍّ، منْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ}[المائدة: 4].

---

(1) المصدر السابق ٨/٢١٨.

وفِي هذَا الوصفِ معنًى عظيمٌ منَ الإيماءِ إلَى قاعدةِ الحلالِ والحرامِ؛ فلذلكَ قالَ أهلُ العلمِ: إنّ حكمَ الأشياءِ التِي لمْ ينصَّ الشّرعُ فيهَا بشيءٍ: إنَّ أصلَ المضارِّ منهَا التّحريمُ، وأصلُ المنافعِ الحلُّ، وهذَا بالنّظرِ إلَى ذاتِ الشّيءِ، بقطعِ النّظرِ عنْ عوارضهِ، كتعلّقِ حقِّ الغيرِ بهِ الموجبِ تحريمهِ؛ إذِ التّحريمُ حينئذٍ حكمٌ للعارضِ لَا للمعروضِ[1].

ثالثا: الثَّناءُ علَى الطيِّبينَ فِي القرآنِ:

جاءَ الثَّناءُ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ فِي قرآنهِ علَى عبادهِ الطيِّبينض، فقالَ تعالَى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[النحل: 31 – 32].

يقولُ تعالَى ذكرهُ: كذلكَ يجزِي اللهُ المتَّقينَ الذينَ تقبضُ أرواحهمْ ملائكةُ اللهِ، وهمْ طيِّبونَ بتطييبِ اللهِ إياهمْ بطهرِ الإيمانِ، ونظافةِ الإسلامِ فِي حالِ حياتهمْ وحالِ مماتهمْ.

فالملائكةُ تقبضُ أرواحَ هؤلاءِ، وهمْ يقولونَ لهمْ: سلامٌ عليكمْ صيرُوا إلَى الجنَّةِ، بشارةً منَ اللهِ تعالَى تبشِّرهمْ بهَا الملائكةُ.

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠٢/٢.

وفِي معنَى طيّبينَ ستَّةُ أقوالٍ:

أحدهَا: مؤمنينَ.

والثَّانِي: طاهرينَ منَ الشِّركِ (كبيرِهِ وصغيرِهِ).

والثَّالثُ: زاكيةً أفعالهمْ وأقوالهمْ.

والرَّابعُ: أنْ تكونَ وفاتهمْ طيّبةً سهلةً لَا صعوبةَ فيهَا ولَا ألمَ، بخلافِ مَا تقبضُ بهِ روحُ الكافرِ والمخلطِ.

والخامسُ: طيّبةً أنفسهمْ بالموتِ، ثقةً بالثَّوابِ.

والسَّادسُ: طيّبةً نفوسهمْ بالرُّجوعِ إلَى اللهِ تعالَى.

والآيةُ هنَا تحتملُ كلَّ هذهِ المعانِي[1].

رابعا: امتنانُ اللهِ تعالَى علَى عبادهِ بالطيّباتِ فِي القرآنِ:

فقدِ امتنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ علَى عبادهِ فِي القرآنِ أنْ رزقهمْ بالطيِّباتِ، وأحلَّهَا لهمْ:

وامتنَّ اللهُ تعالَى علَى النَّاسِ جميعًا صالحهمْ وطالحهمْ.

فقالَ تعالَى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} [النحل: 72].

(1) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/٢٧٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٥.

وقالَ تعالَى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[الإسراء: 70].

قالَ ابنُ كثيرٍ: أيْ: منْ زروعٍ وثمارٍ، ولحومٍ وألبانٍ، منْ سائرِ أنواعِ الطّعومِ والألوانِ، المشتهاةِ اللّذيذةِ، والمناظرِ الحسنةِ، والملابسِ الرّفيعةِ منْ سائرِ الأنواعِ، علَى اختلافِ أصنافهَا وألوانهَا وأشكالهَا، ممّا يصنعونهُ لأنفسهمْ، ويجلبهُ إليهمْ غيرهمْ منْ أقطارِ الأقاليمِ والنّواحِي[1].

وامتنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ علَى بنِي إسرائيلَ.

وقالَ تعالَى: {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}[يونس: 93].

وقالَ تعالَى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}[الجاثية: 16].

قالَ ابنُ عاشورٍ: وأمّا رزقهمْ منَ الطّيّباتِ فبأنْ يسّرَ لهمْ امتلاكَ بلادِ الشّامِ التِي تفيضُ لبنًا وعسلًا كمَا فِي التّوراةِ فِي وعدِ إبراهيمَ والتِي تجبَى إليهَا ثمراتُ الأرضينَ المجاورةِ لهَا، وتردُ عليهَا سلعُ الأممِ المقابلةِ لهَا علَى سواحلِ البحرِ، فتزخرُ مراسيهَا بمختلفِ الطّعامِ واللّباسِ والفواكهِ والثّمارِ والزّخارفِ؛ وذلكَ بحسنِ موقعِ البلادِ منْ بينِ المشرقِ برًّا والمغربِ بحرًا، والطّيّباتُ: هيَ التِي تطيبُ عندَ النّاسِ، وتحسنُ طعمًا ومنظرًا ونفعًا وزينةً[2].

(1) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩٨/١٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٥٥٨/٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠١/١٠ – تفسير القرآن العظيم، ٩٧/٥.

(2) التحرير والتنوير ٣٤٥/٢٥.

وقالَ تعالَى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[الأعراف: 157].

وللطيِّباتِ فِي هذهِ الآيةِ أربعةُ أقوالٍ:

أحدهَا: أنَّهَا الحلالُ، والمعنَى: يحلُّ لهمُ الحلالَ.

والثَّانِي: أنَّهَا مَا كانتِ العربُ تستطيبهُ.

والثَّالثُ: أنَّهَا الشُّحومُ المحرَّمةُ علَى بنِي إسرائيلَ.

والرَّابعُ: مَا كانتِ العربُ تحرِّمهُ منَ البحيرةِ والسَّائبةِ والوصيلةِ والحامِ.

يقولُ الإمامُ ابنُ القيِّمِ: "وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ" فهذَا صريحٌ فِي أنَّ الحلالَ كانَ طيِّبًا قبلَ حلِّهِ، وأنَّ الخبيثَ كانَ خبيثًا قبلَ تحريمهِ، ولمْ يستفدْ طيبُ هذَا وخبثُ هذَا منْ نفسِ التَّحليلِ والتَّحريمِ لوجهينِ اثنينِ:
أحدهمَا: أنَّ هذَا علمٌ منْ أعلامِ نبوَّتهِ التِي احتجَّ اللهُ بهَا علَى أهلِ الكتابِ، فقالَ: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ" فلوْ كانَ الطيِّبُ والخبيثُ إنَّمَا استفيدَ منَ التَّحريمِ والتَّحليلِ لمْ يكنْ فِي ذلكَ دليلٌ، فإنَّهُ بمنزلةِ أنْ يُقالَ:

يحلُّ لهمْ مَا يحلُّ، ويحرِّمُ عليهمْ مَا يحرِّمُ، وهذَا أيضًا باطلٌ، فإنَّهُ لَا فائدةَ فيهِ وهوَ الوجهُ الثَّانِي[1].

فثبتَ أنَّهُ أحلَّ مَا هوَ طيِّبٌ فِي نفسهِ قبلَ الحلِّ، فكساهُ بإحلالهِ طيبًا آخرَ، فصارَ منشأُ طيبهِ منَ الوجهينِ معًا[2].

ونقلَ ابنُ كثيرٍ أنَّ بعضَ العلماءِ قالَ: كلّ مَا أحلّ اللهُ تعالَى فهوَ طيّبٌ نافعٌ فِي البدنِ والدّينِ، وكلّ مَا حرّمهُ فهوَ خبيثٌ ضارٌّ فِي البدنِ والدّينِ[3].

وقدْ بيَّنَ اللهُ تعالَى الواجبَ علَى عبادهِ تُجاهَ الطيِّباتِ التِي امتنَّ بهَا عليهمْ: فأمرَ سبحانهُ وتعالَى الصَّحابةَ أنْ يقابلُوا فضلهُ عليهمْ بالطيِّباتِ، بأنْ يحقِّقُوا شكرهَا، فقالَ تعالَى: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[الأنفال: 26].

والمقصودُ بالطيِّباتِ فِي هذهِ الآيةِ قولانِ:

أحدهمَا: أنَّهَا الغنائمُ التِي أحلَّهَا لهمْ، قالهُ السدِّي.

والثَّانِي: أنَّهَا الخيراتُ التِي مكنَّهمْ منهَا، ذكرهُ الماوردِي[4].

وذكرَ أنَّهُ امتنَّ عليهمْ بهذهِ النِّعمِ لشكرهِ والقيامِ بعبادتهِ.

---

(1) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/١٦٠.

(2) التفسير القيم ص٢٨٩.

(3) تفسير القرآن العظيم ٣/٤٨٨.

(4) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/٢٠٢.

قالَ الطَّبرِي فِي تفسيرِ قولهِ تعالَى: (وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) يقولُ: وأطعمكمْ غنيمتهمْ حلالًا طيّبًا (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) يقولُ: لكيْ تشكرُوا علَى مَا رزقكمْ، وأنعمَ بهِ عليكمْ منْ ذلكَ وغيرهِ منْ نعمهِ عندكمْ[1].

وقالَ تعالَى: {فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[النحل: 114].

يقولُ الطَّبرِي: يقولُ تعالَى ذكرهُ: فكلُوا أيّهَا النّاسُ ممّا رزقكمُ اللهُ منْ بهائمِ الأنعامِ التِي أحلّهَا لكمْ حلالًا طيّبًا مذكّاةً غيرِ محرّمةً عليكمْ.

(وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّه) يقولُ: واشكرُوا اللهِ علَى نعمهِ التي أنعمَ بهَا عليكمْ فِي تحليلهِ مَا أحلّ لكمْ منْ ذلكَ، وعلَى غيرِ ذلكَ منْ نعمهِ.

(إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) يقولُ: إنْ كنتمْ تعبدونَ اللهَ، فتطيعونهُ فيمَا يأمركمْ وينهاكمْ[2].

والشُّكرُ يكونُ بالاعترافِ بهَا بالقلبِ، والثَّناءِ علَى اللهِ بهَا، وصرفهَا فِي طاعةِ اللهِ[3].

وحالُ الشُّكرِ حالُ كلِّ العباداتِ القلبيَّةِ، أنْ تكونَ قولًا باللِّسانِ وتصديقًا بالجنانِ وعملًا بالجوارحِ.

وإظهارُ اسمِ الجلالةِ فِي قولهِ: (وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ) معَ أنّ مقتضَى الظّاهرِ الإضمارُ؛ لزيادةِ التّذكيرِ[4].

---

(1) جامع البيان، ١١/١١٧.

(2) المصدر السابق ١٤/٣٨٧.

(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥١.

(4) التحرير والتنوير ١٤/٣٠٩.

وللطيِّباتِ صورٌ حسيَّةٌ، صورٌ معنويَّةٌ:

- أمَّا الحسيَّةُ فعلَى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسمُ الأوَّلُ: الاعتقادُ:

فقدْ أخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ يختبرُ العبادَ ليتبيَّنَ طيِّبُ القلبِ والاعتقادِ منْ خبيثهِ، فقالَ تعالَى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ}[آل عمران: 179].

يقولُ تعالَى ذكرهُ: يحشرُ اللهُ هؤلاءِ الذينَ كفرُوا بربّهمْ، وينفقونَ أموالهمْ للصَّدّ عنْ سبيلِ اللهِ إلَى جهنّمَ؛ ليفرّقَ بينهمْ وهمْ أهلُ الخبثِ، كمَا قالَ وسمّاهمْ (الخبيثَ) وبينَ المؤمنينَ باللهِ وبرسولهِ، وهمُ الطّيّبونَ، كمَا سمّاهمْ جلّ ثناؤهُ، فميّزَ جلّ ثناؤهُ بينهمْ بأنْ أسكنَ أهلَ الإيمانِ بهِ وبرسولهِ جنّاتهِ، وأنزلَ أهلَ الكفرِ نارهُ[1].

وفِي آيةٍ أخرَى يشيرُ سبحانهُ إلَى أنَّهُ وإنْ لمْ يفتضحْ ويتميَّزَ هؤلاءِ الذينَ يحملونَ خبيثَ الاعتقادِ فِي الدُّنيَا، ففِي الآخرةِ لَا بدَّ أنْ يميزَ اللهُ الخبيثَ منَ الطيِّبَ بأنْ يحشرَ هؤلاءِ الكافرونَ إلَى النَّارِ فقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُون

(1) جامع البيان، الطبري ١١/١٧٥.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[الأنفال: 36 – 37].

وفِي معنَى الآيةِ ثلاثةُ أقوالٍ: أحدهَا: ليميزَ أهلَ السَّعادةِ منْ أهلِ الشَّقاءِ، رواهُ ابنُ أبِي طلحةَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا، وقالَ السدِّي، ومقاتلٌ: يميِّزُ المؤمنَ منَ الكافرِ، والثَّانِي: ليميزَ العملَ الطيِّبَ منَ العملِ الخبيثِ، قالهُ أبُو صالحٍ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا، والثَّالثُ: ليميِّزَ الإنفاقَ الطيِّبَ فِي سبيلهِ، منَ الإنفاقِ الخبيثِ فِي سبيلِ الشَّيطانِ، قالهُ ابنُ زيدٍ والزجَّاجُ[1].

القسمُ الثَّانِي: الأعمالُ:

أكَّدَ سبحانهُ أنَّهُ مهمَا ارتفعَ خبيثُ الأعمالِ، ومهمَا كثرَ فلَا بدَّ أنْ يخزيهِ اللهُ تعالَى، ويتميَّزَ أهلُ العملِ الطيِّبِ، قالَ تعالَى: {قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[المائدة: ١٠٠].

(قلْ) للنَّاسِ محذِّرًا عنِ الشرِّ، ومرغِّبًا فِي الخيرِ (لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ) منْ كلِّ شيءٍ، فلَا يستوِي الإيمانُ والكفرُ، ولَا الطَّاعةُ والمعصيةُ، ولَا أهلُ الجنَّةِ وأهلُ النَّارِ، ولَا الأعمالُ الخبيثةُ والأعمالُ الطيِّبةُ، ولَا المالُ الحرامُ بالمالِ الحلالِ.

---

(1) زاد المسير لابن الجوزي.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فإنَّهُ لَا ينفعُ صاحبهُ شيئًا، بلْ يضُرُّهُ فِي دينهِ ودنياهُ.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فأمرَ أولِي الألبابِ، أيْ: أهلَ العقولِ الوافيةِ، والآراءِ الكاملةِ، فإنَّ اللهَ تعالَى يوجِّهُ إليهمُ الخطابَ، وهمُ الذينَ يؤبهُ لهمْ، ويرجَى أنْ يكونَ فيهمْ خيرٌ.

ثمَّ أخبرَ أنَّ الفلاحَ متوقِّفٌ علَى التَّقوَى التِي هيَ موافقةُ اللهِ تعالَى فِي أمرهِ ونهيهِ، فمنْ اتَّقاهُ أفلحَ كلَّ الفلاحِ، ومنْ تركَ تقواهُ حصلَ لهُ الخسرانُ، وفاتتهُ الأرباحُ[1].

وقالَ صاحبُ ظلالِ قرآنِ: ... إنَّ المناسبةَ الحاضرةَ لذكرِ الخبيثِ والطيِّبِ فِي هذَا السِّياقِ، هيَ مناسبةُ تفصيلِ الحرامِ والحلالِ فِي الصَّيدِ والطَّعامِ، والحرامُ خبيثٌ، والحلالُ طيِّبٌ، ولَا يستوِي الخبيثُ والطيِّبُ، ولوْ كانتْ كثرةُ الخبيثِ تغرُّ وتعجبُ، ففِي الطيِّبِ متاعٌ بلَا معقِّباتٍ منْ ندمٍ أوْ تلفٍ، وبلَا عقابيلَ[2] منْ ألمٍ أوْ مرضٍ، ومَا فِي الخبيثِ منْ لذَّةٍ إلَّا وفِي الطيِّبِ مثلهَا علَى اعتدالٍ، وأمنٍ منَ العاقبةِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، والعقلُ حينَ يتخلَّصُ منَ الهوَى بمخالطةِ التَّقوَى لهُ ورقاقةُ القلبِ لهُ، يختارُ الطيِّبَ علَى الخبيثِ، فينتهِي الأمرُ إلَى الفلاحِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٥.

(2) العقبول: الشّديد من الأمور، وبقيّة العلّة، والعداوة والعشق، وما يخرج على الشّفة على أثر الحمى، جمعه عقابيل، والعقابيل الدّواهي. انظر: المعجم الوسيط ٢/٦١٣.

(3) في ضلال القرآن للسيد قطب.

القسمُ الثَّالثُ: الأقوالُ:

ضربَ اللهُ عزَّ وجلَّ مثلًا للأقوالِ الطيِّبةِ والأقوالِ الخبيثةِ، فقالَ سبحانهُ: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ}[إبراهيم: 24 – 26].

يقولُ سبحانهُ: ألمْ ترَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلًا كلمةً طيِّبةً، وهيَ شهادةُ أن لَّا إلهَ إلَّا اللهُ وفروعهَا، كشجرةٍ طيِّبةٍ، وهيَ النَّخلةُ، أصلهَا ثابتٌ فِي الأرضِ، وفرعهَا منتشرٌ فِي السَّماءِ، وهيَ كثيرةُ النَّفعِ دائمًا، تؤتِي ثمرتهَا كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّهَا، فكذلكَ شجرةُ الإيمانِ، أصلهَا ثابتٌ فِي قلبِ المؤمنِ، علمًا واعتقادًا، وفرعهَا منَ الكلمِ الطيِّبِ، والعملِ الصالحِ، والأخلاقِ المرضيَّةِ، والآدابِ الحسنةِ، فِي السَّماءِ دائمًا يصعدُ إلَى اللهِ تعالَى منهُ منَ الأعمالِ والأقوالِ التِي تخرجهَا شجرةُ الإيمانِ مَا ينتفعُ بِهِ المؤمنُ، وينفعُ غيرهُ، ويضربُ اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ لعلَّهمْ يتذكَّرونَ مَا أمرهمْ بهِ، ونهاهمْ عنهُ، فهذهِ صفةُ كلمةِ التَّوحيدِ وثباتهَا فِي قلبِ المؤمنِ.

ثمَّ ذكرَ ضدَّهَا وهيَ كلمةُ الكفرِ وفروعهَا، فقالَ: ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةِ المأكلِ والمطعمِ، وهيَ: شجرةُ الحنظلِ ونحوهَا، اجتثَّتْ هذهِ الشَّجرةُ منْ فوقِ الأرضِ مَا لهَا منْ ثبوتٍ، فلَا عروقَ تمسكهَا، ولَا ثمرةً صالحةً تنتجهَا، بلْ إنَّ وجدَ فيهَا ثمرةٌ فهيَ ثمرةٌ خبيثةٌ؛ كذلكَ كلمةُ الكفرِ والمعاصِي، ليسَ لهَا ثبوتٌ نافعٌ فِي القلبِ، ولَا تثمرُ إلَّا كلَّ قولٍ خبيثٍ وعملٍ خبيثٍ، يستضرُّ بهِ صاحبهُ، ولَا ينتفعُ، فلَا يصعدُ إلَى اللهِ تعالَى منهُ عملٌ صالحٌ، ولَا ينفعُ نفسهُ، ولَا ينتفعُ بهِ غيرهُ[1].

(1) التفسير القيم.

قالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ: شبَّهَ سبحانهُ الكلمةَ الطيِّبةَ بالشَّجرةِ الطيِّبةِ؛ لأنَ الكلمةَ الطيِّبةَ تثمرُ العملَ الصالحَ، والشَّجرةَ الطيِّبةَ تثمرُ الثَّمرَ النَّافعَ، وهذَا ظاهرٌ علَى قولِ جمهورِ المفسِّرينَ الذينَ يقولونَ: الكلمةُ الطيِّبةُ: هيَ شهادةُ أن لَّا إلهَ إلَّا اللهُ، فإنَّهَا تثمرُ جميعَ الأعمالِ الصَّالحةِ، الظَّاهرةِ والباطنةِ، فكلُّ عملٍ صالحٍ مُرْضٍ للهِ فهوَ ثمرةُ هذهِ الكلمةِ.

وفِي تفسيرِ عليٍّ بنِ أبِي طلحةَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا قالَ: كلمةٌ طيبةٌ: شهادةُ أن لَّا إلهَ إلَّا اللهُ، كشجرةٍ طيِّبةٍ وهوَ المؤمنُ، أصلهَا ثابتٌ قولُ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ فِي قلبِ المؤمنِ، وفرعهَا فِي السّماءِ يقولُ: يرفعُ بهَا عملُ المؤمنِ إلَى السَّماءِ.

وقالَ الرَّبيعُ بنُ أنسٍ: كلمةٌ طيِّبةٌ: هذَا مثلُ الإيمانِ، فإنَّ الإيمانَ: الشَّجرةَ الطيِّبةَ، وأصلهَا الثَّابتُ الذِي لَا يزولُ: الإخلاصُ فيهِ، وفرعهَا فِي السَّماءِ: خشيةَ اللهِ، والتَّشبيهُ علَى هذَا القولِ أصحُّ وأظهرُ وأحسنُ، فإنَّهُ سبحانهُ شبَّهَ شجرةَ التَّوحيدِ فِي القلبِ بالشَّجرةِ الطيِّبةِ الثَّابتةِ الأصلِ، الباسقةِ الفرعِ فِي السَّماءِ علوًّا، التِي لَا تزالُ تؤتِي ثمرتهَا كلَّ حينٍ.

وإذَا تأمَّلتَ هذَا التَّشبيهَ رأيتهُ مطابقًا لشجرةِ التَّوحيدِ الثَّابتةِ الرَّاسخةِ فِي القلبِ التِي فروعهَا منَ الأعمالِ الصَّالحةِ صاعدةً إلَى السَّماءِ، ولَا تزالُ هذهِ الشَّجرةُ تثمرُ الأعمالَ الصَّالحةِ كلَّ وقتٍ، بحسبِ ثباتهَا فِي القلبِ، ومحبَّةُ القلبِ لهَا، وإخلاصهُ فيهَا، ومعرفتهُ بحقيقتهَا، وقيامهِ بحقوقهَا، ومراعاتهَا حقَّ رعايتهَا، فمنْ رسختْ هذهِ الكلمةُ فِي قلبهِ بحقيقتهَا التِي هيَ حقيقتهَا، واتَّصفَ قلبهُ بهَا، وانصبغَ بهَا بصبغةِ اللهِ التِي لَا أحسنَ صبغةً منهَا، فعرَفَ

حقيقةَ إلهيَّتهِ التِي يثبتهَا قلبهُ للهِ، ويشهدُ بهَا لسانهُ، وتصدِّقهَا جوارحهُ، ونفيُ تلكَ الحقيقةِ ولوازمهَا عنْ كلِّ مَا سوَى اللهِ وواطأَ قلبهُ لسانهُ فِي هذَا النَّفيِ والإثباتِ، وانقادتْ جوارحهُ لمنْ شهدَ لهُ بالوحدانيَّةِ طائعةً سالكةً سبلَ ربِّهِ ذللًا غيرَ ناكبةً عنهَا، ولَا باغيةً سواهَا بدلًا، كمَا لَا يبتغِي القلبُ سوَى معبودَه الحقَّ بدلًا، فلَا ريبَ أنَّ هذهِ الكلمةَ منْ هذَا القلبِ علَى هذَا اللِّسانِ لَا تزالُ تؤتِي ثمرتهَا منَ العملِ الصَّالحِ الصَّاعدِ إلَى اللهِ كلَّ وقتٍ، فهذهِ الكلمةُ الطيِّبةُ هيَ التِي رفعتْ هذَا العملَ الصَّالحَ إلَى الربِّ تعالَى.

وهذهِ الكلمةُ الطيِّبةُ تثمرُ كلمًا كثيرًا طيِّبًا، يقارنهُ عملٌ صالحٌ، فيرفعُ العملُ الصالحُ الكلمَ الطيِّبَ، كمَا قالَ تعالى: {يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}[فاطر: 10].

فأخبرَ سبحانهُ أنَّ العملَ الصَّالحَ يرفعُ الكلمَ الطيَّبَ، وأخبرَ أنَّ الكلمةَ الطيِّبةَ تثمرُ لقائلهَا عملًا صالحًا كلَّ وقتٍ.

والمقصودُ: أنَّ كلمةَ التَّوحيدِ إذَا شهدَ بهَا المؤمنُ عارفًا بمعناهَا وحقيقتهَا نفيًا وإثباتًا، ومتصِّفًا بموجبهَا، قائمًا قلبهِ ولسانهِ وجوارحهِ بشهادتهِ، فهذهِ الكلمةُ الطيِّبةُ هيَ التِي رفعتْ هذَا العملَ منْ هذَا الشَّاهدِ أصلهاَ ثابتٌ راسخٌ فِي قلبهِ، وفروعهَا متَّصلةٌ بالسَّماءِ، وهيَ مخرجةٌ ثمرتهَا كلَّ وقتٍ[1].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٤.

صورُ الطيِّباتِ الحسيَّةِ:

ذكرَ القرآنُ الكريمُ صورًا للطيِّباتِ الحسيَّةِ نذكرُ منهَا:

أولًا: المطعوماتُ:

لقدْ بَيَّنَ الحقُّ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ أحلَّ لعبادهِ منَ المطعوماتِ الطيِّباتِ فقطْ، فقالَ سبحانهُ: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ۖ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[المائدة: 4-5]

يقولُ اللهُ تعالَى لنبيه ﷺ: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ) منَ الأطعمةِ؟ (قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ) وهيَ كلُّ مَا فيهِ نفعٌ أوْ لذَّةٌ، من غيرِ ضررٍ بالبدنِ ولَا بالعقلِ، فدخلَ فِي ذلكَ جميعُ الحبوبِ والثِّمارِ التِي فِي القُرَى والبرارِي، ودخلَ فِي ذلكَ جميعُ حيواناتِ البحرِ وجميعُ حيواناتِ البرِّ، إلَّا مَا استثناهُ الشَّارعُ، كالسِّباعِ والخبائثِ منهَا.

ولهذَا دلَّتِ الآيةُ بمفهومهَا علَى تحريمِ الخبائثِ، كمَا صرَّحَ بهِ فِي قولهِ تعالَى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ

وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}[الأعراف: 157].

وأصلُ معنَى الطيِّبِ الطَّهارةُ والزَّكاءُ، والوقعُ الحسنُ فِي النَّفسِ عاجلًا وآجلًا، فالشَّيءُ المستلذُّ إذَا كانَ وخمًا لَا يسمَّى طيِّبًا؛ لأنَّهُ يعقبُ ألمًا أو ضرًّا؛ ولذلكَ كانَ طيُّب كلِّ شيءٍ: أنْ يكونَ منْ أحسنِ نوعهِ وأنفعهِ.

والطيِّباتُ هنَا هيَ الحلالُ، وكلُّ حرامٍ فليسَ بطيِّبٍ، وقيلَ: مَا التذَّهُ آكلهُ وشاربهُ، ولمْ يكنْ عليهِ فيهِ ضررٌ فِي الدُّنيَا، ولَا فِي الآخرةِ، وقيلَ: الطيِّباتُ الذَّبائحُ؛ لأنَّهَا طابتْ بالتَّذكيةِ[1].

ثانيًا الأموالُ:

جاءَ الحديثُ عنِ الأموالِ الطيِّبةِ فِي مواضعَ منَ القرآنِ:

أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الصَّحابةَ أنْ يتمتَّعُوا بالأموالِ التِي غنموهَا، والتِي أحلَّهَا اللهُ تعالَى، وجعلهَا طيِّبةً لهمْ بعدَ أنْ كانتْ محرَّمةً علَى الأممِ السَّابقةِ.

فقالَ تعالَى: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[الأنفال: 69].

يقولُ تعالَى ذكرهُ للمؤمنينَ منْ أهلِ بدرٍ: فكلُوا أيُّهَا المؤمنونَ ممَّا غنمتمْ منْ أموالِ المشركينَ حلالًا بإحلالهِ لكمْ طيِّبًا، وخافُوا اللهَ أنْ تعودُوا، أنْ تفعلُوا فِي

---

(1) التفسير القيم.

دينكمْ شيئًا بعدَ هذهِ منْ قبلِ أنْ يعهدَ فيهِ إليكمْ، كمَا فعلتمْ فِي أخذِ الفداءِ، وأكلِ الغنيمةِ، وأخذتموهمَا منْ قبلِ أنْ يَحِلَّا لكمْ، إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

قالَ بعضهمْ: قولهُ: (حَلَالًا طَيِّبًا) واحدٌ، كلُّ حلالٍ طيِّبٌ، وكلُّ حرامٍ خبيثٌ، وإنَّمَا يطيبُ إذَا حلَّ، ويخبثُ إذَا حرمَ، ولكنْ يحتملُ قولهُ: (حلالًا) بالشَّرعِ، (طيِّبًا) فِي الطبعِ، وكذلكَ الحرامُ هوَ حرامٌ بالشَّرعِ، وخبيثٌ بالطَّبعِ، وإنَّمَا يتكلَّمُ بالحلِّ والحرمةِ منْ جهةِ الشَّرعِ، والطيِّبُ والخبيثُ بالطَّبعِ.

والطيِّبُ: هوَ الذِي يتلذَّذُ بهِ ولَا تبعةَ فيهِ؛ لأنَّ خوفَ التَّبعةِ ينغصُّ عليهِ، ويذهبُ بطيبهِ ولذَّتهِ، وجائزٌ مَا ذكرَ منَ الطِّيِّبِ (هَا هنَا) لمَا أنَّ أهلَ الشِّركِ كانُوا يأخذونَ الأموالَ ويجمعونهَا منْ وجهٍ لَا يحلُّ، وبأسبابٍ فاسدةٍ، فيكرهونَ التَّناولَ منهَا إذَا غنموهَا لتلكَ الأسبابِ الفاسدةِ، فطيَّبَ قلوبهمْ بقولهِ: "طيِّبًا"[1].

هذَا عنِ الغنائمِ، كذلكَ مهرُ المرأةِ إذَا تنازلتْ عنهُ يكونُ مالًا طيِّبًا قال تعالى: {وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا}[النساء: 4].

فإنْ طبنَ لكمْ عنْ شيءٍ منْ الصَّداقِ بأنْ سمحنَ لكمْ عنْ رضًا واختيارٍ بإسقاطِ شيءٍ منهُ، أوْ تأخيرهِ، أوِ المعاوضةِ عنهُ فلَا حرجَ عليكمْ فِي ذلكَ ولَا تبعةَ[2].

---

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/٦٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/١١١، تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص٢٢١.

(2) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/٧٢، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٥/٢٦٤.

هذَا عنِ المالِ الطيِّبِ الذِي يتحصَّلُ عليهِ الإنسانُ منْ طريقٍ حلالٍ، ومنْ هذهِ الطُّرقِ الحلالِ: الغنائمُ، وتنازلُ المرأةِ عنْ مهرهَا.

وأمَّا مَا يخرجهُ الإنسانُ منْ مالٍ صدقةً للهِ عزَّ وجلَّ، فقدْ نهانَا اللهُ سبحانهُ أنْ نختارَ أخبثَ مَا عندنَا نخرجهُ، وأمرنَا أنْ نتصدَّقَ منْ أطيبِ الأموالِ، فقالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[البقرة: 267].

يأمرُ تعالَى عبادهُ المؤمنينَ بالنَّفقةِ منْ طيِّباتِ مَا يسَّرَ لهمْ منَ المكاسبِ، وممَّا أخرجَ لهمْ منَ الأرضِ، فكمَا منّ عليكمْ بتسهيلِ تحصيلهِ، فأنفقُوا منهُ شكرًا للهِ تعالَى، وأداءً لبعضِ حقوقِ إخوانكمْ عليكمْ، وتطهيرًا لأموالكمْ، واقصدُوا فِي تلكَ النَّفقةِ الطيِّبَ الذِي تحبُّونهُ لأنفسكمْ، ولَا تيمَّموا الرَّديءَ الذِي لَا ترغبونهُ، ولَا تأخذونهُ إلَّا علَى وجهِ الإغماضِ والمسامحةِ.

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) فهوَ غنيٌّ عنكمْ، ونفعُ صدقاتكمْ وأعمالكمْ عائدٌ إليكمْ، ومعَ هذَا فهوَ حميدٌ علَى مَا يأمركمْ بهِ منَ الأوامرِ الحميدةِ، والخصالِ السَّديدةِ، فعليكمْ أنْ تمتثلُوا أوامرهُ لأنَّهَا قوتُ القلوبِ، وحياةُ النُّفوسِ، ونعيمُ الأرواحِ.

وفِي المرادِ بالطيِّبِ هنَا، قولانِ:

أحدهمَا: أنَّهُ الجيّدُ الأنفسُ، قالهُ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا.

والثَّانِي: أنَّه الحلالُ، قالهُ أبُو معقلٍ فِي آخرينَ[1].

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٣.

ثالثًا: الأزواجُ:

فإنَّ أساسَ اختيارِ الرَّجلِ لزوجتهِ أنْ تكونَ المرأةُ منَ الطيِّباتِ، وأساسُ قبولِ المرأةِ للرجلِ أنْ يكونَ الرَّجلَ منَ الطيِّبين.

قالَ تعالَى: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[النور: 26].

وفِي معنَى الخبيثِ والطيِّبِ أربعةُ أقوالٍ:

أحدهَا: الكلماتُ الخبيثاتُ لَا يتكلَّمُ بهَا إلَّا الخبيثُ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ، والكلماتُ الطيِّباتُ لَا يتكلَّمُ بهَا إلَّا الطيِّبونَ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ.

والثَّانِي: الكلماتُ الخبيثاتُ إنَّمَا تلصقُ بالخبيثينَ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ، فأمَّا الطيِّباتُ والطيِّبونُ فلَا يصلحُ أنْ يقالَ فِي حقِّهمْ إلَّا الطيِّباتُ.

والثَّالثُ: الخبيثاتُ منَ الأعمالِ للخبيثينَ منَ النَّاسِ، والخبيثونَ منَ النَّاسِ للخبيثاتِ منَ الأعمالِ، وكذلكَ الطيِّباتُ.

والرَّابعُ: الخبيثاتُ منَ النِّساءِ للخبيثينَ منَ الرِّجالِ، والطيِّباتُ منَ النِّساءِ للطيِّبينَ منَ الرِّجالِ[1].

(1) زاد المسير، ابن الجوزي ١/٢٤١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/١١٥.

والآيةُ تحتملُ كلَّ هذهِ المعانِي، لكنَّ الآيةَ واردةٌ فِي وسطِ سياقِ تبرئةِ أمِّ المؤمنينَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا فِي حادثةِ الإفكِ، فأقربُ المعانِي: هوَ أنْ يكونَ حديثُ الآيةِ عنِ الطيِّبِ والخبيثِ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ.

والمقصودُ بالطيِّباتِ منَ النِّساءِ: هيَ صاحبةُ الدِّينِ، كمَا قالَ النَّبيُّ ﷺ: تُنكحُ المرأةُ لأربعٍ: لمالهَا، ولحسبهَا، ولجمالهَا، ولدينهَا، فاظفرْ بذاتِ الدِّينِ، تربتْ يداكَ"[1].

رابعًا: المسكنُ:

فقدِ امتنَّ اللهُ تعالَى علَى أهلِ سبأٍ؛ بأنْ رزقهمْ البلدةَ الطيِّبةَ، والمسكنَ الطيِّبَ. قالَ تعالَى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}[سبأ: 15].

يقولُ تعالَى ذكرهُ: لقدْ كانَ لولدِ سبأٍ فِي مسكنهمْ علامةٌ بيِّنةٌ، وحجَّةٌ واضحةٌ علَى أنَّهُ لَا ربَّ لهمْ إلَّا الذِي أنعمَ عليهمْ النِّعمَ التِي كانُوا فيهَا، حيثُ آتاهمْ اللهُ عزَّ وجلَّ بستانينِ كانَا بينَ جبلينِ، عنْ يمينِ منْ أتاهمَا وشمالهِ، ثمَّ أمرهمْ سبحانهُ: كلُوا منْ رزقِ ربِّكمْ الذِي يرزقكمْ منْ هاتينِ الجنَّتينِ منْ زروعهمَا وأثمارهمَا، واشكرُوا لهُ علَى مَا أنعمَ بهِ عليكمْ منْ رزقهِ ذلكَ.

ثمَّ ابتدأَ الخبرَ عنِ البلدةِ فقالَ: هذهِ بلدةٌ طيِّبةٌ، وربٌّ غفورٌ لذنوبكمْ إنْ أنتمْ أطعتموهُ.

---

(1) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/٢٨٧.

يحتملُ مَا ذكرَ منْ طيبهَا: هوَ سعتهَا، وكثرةُ ريعهَا ومياههَا وألوانِ ثمارهَا وفواكههَا، وقيلَ: غيرَ سبخةٍ، وقيلَ: طيِّبةٌ ليسَ فيهَا هوامٌ لطيبِ هوائهَا، وقيلَ: طاهرةٌ عنِ المؤذياتِ لَا حيَّةَ فيهَا ولَا عقربٌ ولَا وباءٌ ولَا وخمٌ[1].

ولقدْ ضربَ اللهُ عزَّ وجلَّ المثلَ فِي الدُّنيَا بالمسكنِ الطَّيِّبِ والبلدةُ الطيِّبةُ.

قالَ تعالَى: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ}[الأعراف: 58].

يقولُ سبحانهُ: والبلدُ الطيِّبُ، أيْ: طيِّبُ التُّربةُ والمادَّةُ إذَا نزلَ عليهِ مطرٌ يخرجُ نباتهُ الذِي هوَ مستعدٌّ لهُ بإرادةِ اللهِ تعالَى ومشيئتهِ، فليستِ الأسبابُ مستقلَّةً بوجودِ الأشياءِ حتَّى يأذنَ اللهُ تعالَى بذلكَ[2].

هذَا عنِ المسكنِ الطيِّبِ فِي الدُّنيَا، أمَّا فِي الآخرةِ فقدْ بشَّرَ اللهُ عزَّ وجلَّ أهلَ الإيمانِ بالمساكنِ الطيِّبةِ فِي الجنَّةِ.

قالَ تعالَى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[التوبة: 72].

وقالَ تعالَى: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[الصف: 12].

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، ٧/٧، رقم ٥٠٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، ٢/١٠٨٦، رقم ١٤٦٦.

(2) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/٣٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/٢٨٤.

والمساكنُ الطيِّبةُ الواردةُ فِي الآيتينِ تفسَّرُ بأنَّهَا مساكنٌ قدْ زخرفتْ وحسِّنتْ، وأعدَّتْ لعبادِ اللهِ المتَّقينَ، قدْ طابَ مرآهَا، وطابَ منزلهَا ومقيلهَا، وجمعتْ منْ آلاتِ المساكنِ العاليةِ مَا لَا يتمنَّى فوقهُ المتمنُّونَ، حتَّى إنَّ اللهَ تعالَى قدْ أعدَّ لهمْ غرفًا فِي غايةِ الصَّفاءِ والحسنِ، يرَى ظاهرهَا منْ باطنهَا، وبَاطنهَا منْ ظاهرهَا.

فهذهِ المساكنُ الأنيقةُ التِي حقيقٌ بأنْ تسكنَ إليهَا النُّفوسُ، وتنزعُ إليهَا القلوبُ، وتشتاقُ لهَا الأرواحُ؛ لأنَّهَا فِي جنَّاتِ عدنٍ، أيْ: إقامةً لَا يظعنونَ عنهَا، ولَا يتحوَّلونَ منهَا[1].

قالَ ابنُ كثيرٍ: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }[التوبة: 72].

يخبرُ تعالَى بمَا أعدّهُ للمؤمنينَ بهِ والمؤمناتِ منَ الخيراتِ والنّعيمِ المقيمِ فِي (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أي: حسنةُ البناءِ، طيّبةُ القرارِ، (خَالِدِينَ فِيهَا) أيْ: ماكثينَ فيهَا أبدًا، كمَا قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: "جنّتانِ منْ ذهبٍ آنيتهمَا ومَا فيهمَا، وجنّتانِ منْ فضّةٍ آنيتهمَا ومَا فيهمَا، ومَا بينَ القومِ وبينَ أنْ ينظرُوا إلَى ربّهمْ إلّا رداءُ الكبرياءِ علَى وجههِ فِي جنّةِ عدنٍ"[2].

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٢.

(2) انظر المصدر السابق ص٣٤٣.

وبهِ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "إنّ للمؤمنِ فِي الجنّةِ لخيمةً منْ لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوّفةٍ، طولهَا ستّونَ ميلًا فِي السّماءِ، للمؤمنِ فيهَا أهلونَ يطوفُ عليهمْ، لا يرَى بعضهمْ بعضًا"(1).

وفِي الصّحيحينِ أيضًا عنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ آمنَ باللهِ ورسولهِ، وأقامَ الصّلاةَ، وصامَ رمضانَ، فإنّ حقًّا علَى اللهِ أنْ يدخلهُ الجنّةَ، هاجرَ فِي سبيلِ اللهِ، أوْ جلسَ فِي أرضهِ التِي ولدَ فيهَا.

قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، أفلَا نخبرُ النّاسَ؟

قالَ: (إنّ فِي الجنّةِ مائةُ درجةٍ، أعدّهَا اللهُ للمجاهدينَ فِي سبيلهِ، بينَ كلّ درجتينِ كمَا بينَ السّماءِ والأرضِ، فإذَا سألتمْ اللّهَ فاسألوهُ الفردوسَ، فإنّهُ أعلَى الجنّةِ، وأوسطُ الجنّةِ، ومنهُ تفجّرُ أنهارُ الجنّةِ، وفوقهُ عرشُ الرّحمنِ"(2)(3).

خامسًا: الذريَّةُ:

قالَ تعالَى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}[آل عمران: 38].

عندَ رؤيةِ زكريَّا مَا رأَى عندَ مريمٍ منْ رزقِ اللهِ الذِي رزقهَا، وفضلهُ الذِي آتاهَا منْ غيرِ تسبُّبِ أحدٍ منَ الآدميينَ فِي ذلكَ لهَا، ومعاينتهُ عندهَا الثَّمرةَ الرَّطبةَ التِي لَا تكونُ فِي حينِ رؤيتهِ إيَّاهَا عندهَا فِي الأرضِ؛ طمعَ بالولدِ، معَ كبرِ

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/١٤٥، رقم ٤٨٧٨، ومسلم في صحيحه، ١/١٦٣، رقم ١٨٠.

(2) أخرجه البخاري، ٦/١٤٥، رقم ٤٨٧٩، ومسلم في صحيحه، ٤/٢١٨٢، رقم ٢٨٣٨.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، ٤/١٦، رقم ٢٧٩٠.

سنِّهِ، منَ المرأةِ العاقرِ فرجًا أنْ يرزقهُ اللهُ تعالَى منهَا الولدَ، معَ الحالِ التِي همَا بهَا، كمَا رزقَ مريمَ علَى تخلِّيهَا منَ النَّاسِ مَا رزقهَا منْ ثمرةِ الصَّيفِ فِي الشِّتاءِ، وثمرةِ الشِّتاءِ فِي الصَّيفِ، وإنْ لمْ يكنْ مثلهُ ممَّا جرتْ بوجودهِ فِي مثلِ ذلكَ الحينِ العاداتُ فِي الأرضِ، بلِ المعروفُ فِي النَّاسِ غيرُ ذلكَ، كمَا أنَّ ولادةَ العاقرِ غيرُ الأمورِ الجاريةِ بهِ العاداتُ فِي النَّاسِ، فرغبَ إلَى اللهِ جلَّ ثناؤهُ فِي الولدِ، وسألهُ الذريَّةَ الطيِّبةَ، وهيَ المباركةُ طاهرةُ الأخلاقِ، طيِّبةَ الآدابِ، لتكملَ النِّعمةُ الدينيَّةُ والدنيويَّةُ بهمْ[1].

سادسًا: الرِّيحُ:

قالَ تعالَى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [يونس: 22].

فِي الآيةِ التِي قبلهَا ذكرَ تعالَى القاعدةَ العامَّةَ فِي أحوالِ النَّاسِ عندَ إصابةِ الرَّحمةِ لهمْ بعدَ الضرَّاءِ، واليسرِ بعدَ العسرِ، ثمَّ يذكرُ حالةً تؤيِّدُ ذلكَ، وهيَ حالهمْ فِي البحرِ عندَ اشتدادهِ، والخوفِ منْ عواقبهِ، فقالَ: هوَ الذِي يسيِّركمْ فِي البرِّ والبحرِ بمَا يسَّرَ لكمْ منَ الأسبابِ المسيَّرةِ لكمْ فيهَا، وهداكمْ إليهَا، حتَّى إذَا كنتمْ فِي السُّفنِ البحريَّةِ، وجرينَ بهمْ بريحٍ طيِّبةٍ موافقةٍ لمَا يهوونهُ، منْ غيرِ انزعاجٍ ولَا مشقَّةٍ.

(1) تفسير القرآن العظيم ٤/١٧٥.

وفرحُوا بهَا، واطمأنُّوا إليهَا، فبينمَا همْ كذلكَ إذْ جاءتهمْ ريحٌ عاصفٌ شديدةُ الهبوبِ، وجاءهمُ الموجُ منْ كلِّ مكانٍ، وعرفُوا أنَّهُ الهلاكُ، فانقطعَ حينئذٍ تعلُّقهمْ بالمخلوقينَ، وعرفُوا أنَّهُ لَا ينجيهمْ منْ هذهِ الشدَّةِ إلَّا اللهُ وحدهُ، فدعوهُ مخلصينَ لهُ الدِّينَ، ووعدُوا منْ أنفسهمْ علَى وجهِ الإلزامِ، فقالُوا: لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا منْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فلمَّا أنجاهمْ نسُوا تلكَ الشدَّةِ وذلكَ الدُّعاءِ، ومَا ألزموهُ أنفسهمْ، فأشركُوا باللهِ، منِ اعترفُوا بأنَّهُ لَا ينجيهمْ منَ الشَّدائدِ، ولَا يدفعُ عنهمْ المضايقَ، فهلَّا أخلصُوا للهِ العبادةَ فِي الرَّخاءِ، كمَا أخلصوهَا فِي الشدَّةِ؟

والطيِّبُ: الموصوفُ بالطيِّبِ الشَّديدِ، وأصلُ معنَى الطيِّبِ: الملاءمةُ فيمَا يرادُ منَ الشَّيءِ، ويقالُ: طابَ لهُ المقامُ فِي مكانِ كذَا، ومنهُ سميَّ الشَّيءُ الذِي لهُ ريحٌ وعرفٌ طيِّبًا.

وكأنَّهُ سبحانهُ يتكلَّمُ هنَا عنِ السُّفنِ الشِّراعيَّةِ التِي تسيرُ بالهواءِ المتجمّعِ فِي أشرعتهَا، وإذَا كانَ التقدُّمِ فِي صناعةِ السُّفنِ قدْ تعدّى الشِّراعَ، وانتقلَ إلَى البخارِ، ثمَّ الكهرباءِ، فإنَّ كلمةَ الحقِّ سبحانهُ: (بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) تستوعبُ كلَّ مراحلِ الارتقاءِ، خصوصًا وأنَّ كلمةَ (الرِّيحِ) قدْ وردتْ فِي القرآنِ الكريمِ بمعنَى القوَّةِ أيًّا كانتْ: منْ هواءٍ، أوْ محرِّكٍ يسيرُ بأيَّةِ طاقةٍ[1].

(1) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٥٩/٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٩.

سابعًا: الحياةُ:

بشَّرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الذينَ آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ، فقالَ: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النحل: 97].

يقولُ تعالَى ذكرهُ: منْ عملَ بطاعةِ اللهِ، وأوفَى بعهودِ اللهِ إذَا عاهدَ منْ ذكرٍ أوْ أنثَى منْ بنِي آدمَ (أوْ منَ الجنِّ)، وهوَ مصدّقٌ بثوابِ اللهِ الذِي وعدَ أهلَ طاعتهِ علَى الطَّاعةِ، وبوعيدِ أهلِ معصيتهِ علَى المعصيةِ، فلنحيينَّهُ حياةً طيِّبةً، ويجزيهمْ أجرهمْ فِي الآخرةِ بأحسنِ مَا كانُوا يعملونَ[1].

قالَ الطَّبرِي رحمهُ اللهُ تعالَى: فلنحيينَّهُ حياةً طيِّبةً بالقناعةِ؛ وذلكَ أنَّ منْ قنَّعهُ اللهُ بمَا قسمَ لهُ منْ رزقٍ لمْ يكثرْ للدُّنيَا تعبهُ، ولمْ يعظمْ فيهَا نصبهُ، ولمْ يتكدّرْ فيهَا عيشهُ باتباعهِ بغيةَ مَا فاتهُ منهَا، وحرصهُ علَى مَا لعلَّهُ لَا يدركهُ فيهَا...[2].

فهذهِ الحياةُ الطيِّبةُ أساسهَا وقوامهَا علَى أمرينِ اثنينِ، أمرينِ عظيمينِ جليلينِ يسيرينِ علَى منْ يسَّرهمَا اللهُ عليهِ:

الأمرُ الأوَّلُ: الإيمانُ باللهِ تباركَ وتعالَى.

والأمرُ الثَّانِي: عملُ الصَّالحاتِ وفقَ مَا شرعهُ اللهُ تباركَ وتعالَى، ومَا جاءِ عنْ رسولهِ ﷺ[3]، وللهِ درُّ منْ قالَ:

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣٧/١١، تفسير السعدي ص٣٦١، تفسير الشعراوي ٥٨٥١/١٠.

(2) جامع البيان، الطبري ٢٨٩/١٧.

(3) جامع البيان، ٢٩١/١٧.

إنَّ السَّعادةَ أنْ تعيـــــشَ * لفكرةِ الحقِّ التَّليـــــدِ
لعقيدةٍ كبرَى تحـــــــلُّ * قضيَّةَ الكونِ العتيـــــدِ
هذِي العقيدةُ للسَّعيـــــدِ * هيَ الأساسُ هيَ العمودُ
منْ عاشَ يحملهَا ويهتفُ * باسمهَا فهوَ السَّعيــــدُ[1].

فالحياةُ الطيِّبةُ هيَ التِي يحقِّقُ المرءُ فيهَا السَّعادةَ الحقيقيَّةَ، والتِي يمثلهَا قولُ النَّبيِّ ﷺ: "منْ أصبحَ منكمْ آمنًا فِي سربِهِ، معافًى فِي جسدهِ، عندهُ قوتُ يومهِ، فكأنّمَا حيزتْ لهُ الدّنيَا بحذافيرِهَا"[2].

ومَا السَّعادةُ فِي الدُّنيَا لذِي أملٍ * إنّ السَّعيدَ الذِي ينجُو منَ النَّارِ[3].

- آثارُ ابتغاءِ الطيِّباتِ المعنويَّةِ:

بيَّنَ لنَا الجبَّارُ سبحانهُ فِي القرآنِ بعضًا منْ آثارِ ابتغاءِ الطيِّباتِ المعنويَّةِ، فمنْ ذلكَ:

1) ابتغاءُ الطيِّباتِ سببٌ فِي القوْلِ الطيِّب:

قالَ سبحانهُ: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ}[الحج: 24].

جائزٌ أنْ يكونَ هذَا فِي الدُّنيَا والآخرةِ، أمَّا فِي الدُّنيَا: هوَ قولُ التَّوحيدِ، وشهادةُ الإخلاصِ.

وأمّا فِي الآخرةِ كقولهِ تعالَى: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[يونس: 10].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، ٢٢٩٥/٤، رقم ٢٩٩٩.
(2) هذه أبيات من قصيدة السعادة، ليوسف القرضاوي، من ديوانه نفحات ولفحات ص١٠٥.
(3) أخرجه الترمذي ١٥٢/٤، رقم ٢٣٤٦، وابن ماجه، ١٣٨٧/٢، رقم ٤١٤١.

فهوَ القولُ الطيِّبُ الذِي هدُوا إليهِ.

و(الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ) هوَ كلُّ قولٍ حسنٍ[1].

وهذَا القولُ الطيِّبِ الذي يهدِي اللهُ تعالَى المؤمنينَ إليهِ هوَ الذِي يُرفعُ إلَى اللهِ عزَّ وجلَّ، ويقبلهُ ويثنِي علَى صاحبهِ.

2) ابتغاءُ الطيِّباتِ سببٌ فِي الثَّباتِ والتَّوفيقِ:

قالَ سبحانهُ: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} [إبراهيم: 24 – 26].

يقولُ سبحانهُ: ألمْ ترَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلًا كلمةً طيِّبةً (وهيَ شهادةُ أن لَّا إلهَ إلَّا اللهُ وفروعهَا) كشجرةٍ طيِّبةٍ (وهيَ النَّخلةُ) أصلهَا ثابتٌ فِي الأرضِ، وفرعهَا منتشرٌ فِي السَّماءِ، وهيَ كثيرةُ النَّفعِ دائمًا، تؤتِي ثمرتهَا كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّهَا، فكذلكَ شجرةُ الإيمانِ، أصلهَا ثابتٌ فِي قلبِ المؤمنِ، علمًا واعتقادًا، وفرعهَا منَ الكلمِ الطيِّبِ والعملِ الصَّالحِ والأخلاقِ المرضيَّةِ، والآدابِ الحسنةِ فِي السَّماءِ دائمًا يصعدُ إلَى اللهُ منهُ منَ الأعمالِ والأقوالِ التِي تخرجهَا شجرةُ الإيمانِ مَا ينتفعُ بهِ المؤمنُ وينفعُ غيرَهُ، ويضربُ اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ لعلَّهمْ يتذكَّرونَ مَا أمرهمْ بهِ ونهاهمْ عنهُ، فهذهِ صفةُ كلمةِ التَّوحيدِ وثباتهَا، فِي قلبِ المؤمنِ[2].

---

(1) البيت لجحدر بن معاوية العكلي. انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، محمد بن المبارك البغداي ١١٣.

(2) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/٤٠٣.

هذهِ هيَ صفةُ المؤمنِ الذِي يبتغِي الطيِّبَ، ضربَ اللهُ تعالَى لهُ مثلًا بالشَّجرةِ الثَّابتةِ الأركانِ والأصولِ.

ويكونُ جزاؤهُ حينهَا التَّوفيقُ والتَّثبيتُ كمَا قالَ تعالَى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}[إبراهيم: 28].

- آثارُ ابتغاءِ الطيِّباتِ الحسيَّةِ:

بيَّنَ ربُّنَا العظيمُ سبحانهُ وتعالَى أنَّ ابتغاءَ الطيِّباتِ سببٌ للمغفرةِ فِي الدُّنيَا، ودخولِ الجنَّةِ فِي الآخرةِ.

قالَ سبحانهُ: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[النور: 26].

سبقَ ذكرُ شيءٍ منَ الآثارِ فِي المطلبِ السَّابقِ، ونقولُ:

إنَّ الآثارَ الحسيَّةَ والمعنويَّةَ لطلبِ الطيِّباتِ كثيرةٌ معروفةٌ، وهيَ متداخلةٌ أيضًا.

يقولُ سيد قطبٍ: العملُ الصَّالحُ معَ الإيمانِ جزاؤهُ حياةٌ طيِّبةٌ فِي هذهِ الأرضِ.

لَا يهمُّ أنْ تكونَ ناعمةً رغدةً ثريَّةً بالمالِ، فقدْ تكونُ بهِ، وقدْ لَا يكونَ معهَا.

وفِي الحياةِ أشياءٌ كثيرةٌ غيرُ المالِ الكثيرِ تطيبُ بهَا الحياةُ فِي حدودِ الكفايةِ:

فيهَا الاتصالُ باللهِ، والثِّقةُ بهِ، والاطمئنانُ إلَى رعايتهِ وسترهِ ورضاهُ.

وفيهَا الصحَّةُ والهدوءُ، والرضَّا والبركةُ، وسكنُ البيوتِ، وموداتُ القلوبِ.

وفيهَا الفرحُ بالعملِ الصَّالحِ وآثارهِ فِي الضَّميرِ، وآثارهِ فِي الحياةِ.

وليسَ المالُ إلَّا عنصرًا واحدًا يكفِي منهُ القليلُ، حينَ يتَّصلُ القلبُ بمَا هوَ أعظمُ وأزكَى وأبقَى عندَ اللهِ تعالَى[1].

والخبيثُ عكسُ كلِّ مَا سبقَ فِي هذَا البابِ.

(1) في ظلال القرآن ٤/٢١٩٣.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: النَّفقةُ، تشملُ النَّفقةَ الواجبةَ: كالزَّكاةِ، والكفَّارةِ، ونفقةِ النَّفسِ، والعائلةِ، والمماليكِ.

والنَّفقةُ المستحبَّةُ: كالنَّفقةِ فِي جميعِ طرقِ الخيرِ.

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

قدْ ذكرَ اللهُ تعالَى النَّفقاتِ الواجبةِ والمستحبَّةِ فِي كثيرٍ منَ الآياتِ فِي القرآنِ الكريمِ وحثَّ عليهَا، ومدحَ المنفقينَ فِي سُبُلِ الخيرِ وتوعَّدَ أهلَ البخلِ والإقتارِ والمسرفينَ بالعذابِ الشَّديدِ، فقالَ تعالَى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[البقرة: 110].

وقالَ سبحانهُ: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[البقرة: 195].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[البقرة: 254].

ثمَّ جاءَ الحثُّ علَى النَّفقاتِ ووعدُ المنفقينَ بالخيراتِ العاجلةِ والآجلةِ ونصحهمْ وضربِ الأمثالِ لهمْ فِي قولهِ جلَّ وعلَا: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: 261 – 274] .

ثمَّ جاءَ الوعيدُ لأهلِ البخلِ فِي قولهِ تعالَى: "وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"[آل عمران: 180].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: "الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ويَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا"[النساء: 37].

الإنفاقُ لغةً:

الإنفاقُ مصدرٌ للفعلِ الرُّباعيِّ أنفقَ، فيُقالُ: أنفقَ ينفقُ إنفاقًا، فهوَ منفقٌ، والمفعولُ مُنْفَقٌ (للمتعدِّي)، أنفقَ مالًا: صرفهُ وأنفدهُ، وهوَ بذلَ المالَ ونحوهِ فِي وجهٍ منْ وجوهِ الخيرِ، ويأتِي بمعنَى الفقرِ والإملاقِ؛ لأنَّ الإنفاقَ سببٌ للافتقارِ منَ الشَّيءِ المنفقِ[1].

ومنهُ (النَّفقةُ): وهيَ اسمٌ لمَا يُنفَقُ منَ الدَّراهمِ والزَّادِ ونحوهمَا، ومَا يُفرضُ للزَّوجةِ علَى زوجهَا منْ مالٍ للطَّعامِ والكساءِ والسُّكنَى والحضانةِ ونحوهَا، والجمعُ: نفقاتٌ، ونِفَاقٌ[2]، (وهوَ ليسَ إبطانُ الكفرِ وإظهار الإسلام)

---

(1) عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢٠٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٤٢، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر ٣/ ٢٢٦٠.

(2) المعجم الوسيط ٢/٨٠٦.

الإنفاقُ اصطلاحًا:

لَا يوجدُ كبيرُ فرقٍ بينَ المعنَى اللُّغوِي والمعنَى الاصطلاحِي للإنفاقِ، وقدْ عرَّفهُ الجرجانيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى بقولهِ:

هوَ صرفُ المالِ فِي الحاجةِ[1].

واختارَ الرَّاغبُ: أنَّهُ يكونُ فِي المالِ وغيرهِ[1].

فهوَ علَى هذَا: بذلُ المالِ ونحوهِ فِي أوجهِ الخيرِ، ويُطلقُ أيضًا علَى مَا ينفقهُ الرَّجلُ علَى نفسهِ وعلى أهلهِ.

ويشملُ كلَّ مَا أمرَ اللهُ تعالَى بهِ فِي دينهِ منَ الإنفاقِ، سواءٌ كانَ إنفاقًا فِي حجٍّ أوْ عمرةٍ، أوْ كانَ جهادًا بالنَّفسِ، أوْ تجهيزًا للغيرِ، أوْ كانَ إنفاقًا فِي صلةِ الرَّحمِ، أوْ فِي الصَّدقاتِ، أوْ علَى العيالِ، أوْ فِي الزَّكواتِ والكفَّاراتِ، أوْ عمارةِ السَّبيلِ وغيرِ ذلكَ.

والتَّعريفُ المختارُ للإنفاقِ هوَ: إخراجُ المالِ منَ ملكيَّةِ صاحبهِ، فِي سبيلِ تحصيلِ منفعةٍ صحيحةٍ، عينيَّةٍ أوْ معنويَّةٍ، لهُ أوْ لغيرهِ.

الإنفاقُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ مادَّةُ (نفق) فِي القرآنِ (73) مرةً[3].

وجاءَ الإنفاقُ فِي القرآنِ علَى أربعةِ أوجهٍ[4]:

---

(1) التعريفات ١/٥٧.

(2) المفردات ص ٨١٩.

(3) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧١٥، ٧١٦.

(4) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٣٥، ٤٣٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/١٦٠.

الأوَّلُ: الصَّدقةُ والزَّكاةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[البقرة: 3]، يعنِي: يتصدَّقونَ ويؤدُّونَ الزَّكاةَ.

الثَّانِي: النَّفقةُ الواجبةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}[الطلاق: 6]، يعنِي: علَى الزَّوجاتِ.

الثَّالثُ: الإعمارُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا}[الكهف: 42]، يعنِي: مَا عمَّرَ فيهَا.

الرَّابعُ: الرِّزقُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}[المائدة: 64]، يعنِي: يرزقُ كيفَ يشاءُ.

ألفاظ ذات الصلة:

الزَّكاةُ:

الزَّكاةُ لغةً:

النَّماءُ، يقالُ: زكَى الزَّرعُ يزكُو، أي: نمَا، وهيَ الطَّهارةُ والبركةُ والمدحُ(1).

الزَّكاةُ اصطلاحًا:

إيجابُ طائفةٍ منَ المالِ فِي مالٍ مخصوصٍ لمالكٍ مخصوصٍ، معتبرًا فيهِ الحولُ والنِّصابُ(2). وغيرِ ذلكَ منَ التَّعاريفِ الصَّحيحةِ.

---

(1) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٣٠٧، طلبة الطلبة، نجم الدين النسفي ص ١٦.

(2) التعريفات ص ١١٤.

الصِّلةُ بيَن الإنفاقِ والزَّكاةِ:

الإنفاقُ أعمُّ منَ الزَّكاةِ منْ حيثُ أحكامِ الشَّرعِ وأصنافِ المالِ، فالإنفاقُ يكونُ فِي عمومِ أنواعِ المالِ، ويكونُ علَى سبيلِ الوجوبِ والاستحبابِ والإباحةِ، وأمَّا إذَا أنفقَ المرءُ فِي المكروهاتِ والمحرَّماتِ لمْ تعدْ تحملُ اسمَ النَّفقةِ، بلْ هوَ منَ الإسرافِ، بينمَا الزَّكاةُ فهيَ مقدَّرةٌ فِي مالٍ مخصوصٍ، ولهَا حكمُ الوجوبِ فقطْ.

التصدُّقُ:

التصدُّقُ لغةً:

إعطاءُ الصَّدقةِ، تصدَّقَ بـ، يتصدَّقُ، تصدُّقًا، فهوَ مُتصدِّقٌ، والمفعولُ مُتصدَّقٌ عليهِ.

تَصَدَّقَ عَلَى الفُقَرَاءِ فِي يَوْمِ عِيدٍ: أَعْطَاهُمْ صَدَقَاتٍ، تقولُ: تصدَّقَ الأجيرُ بالأجرةِ: أيْ جعلَ أجرتهُ صدقةً يتصدَّقُ بهَا علَى الفقراءِ تقرُّبًا إلَى اللهِ تعالَى[1].

التَّصدُّقُ اصطلاحًا:

مَا يخرجهُ الإنسانُ (المسلمُ) منْ مالهِ علَى وجهِ القربةِ[2].

(1) قاموس المعاني مادَّة "تصدَّق".

(2) تاج العروس ٢٦/ ١٢، معجم لغة الفقهاء ص ٢٧٢.

الصِّلةُ بينَ الإنفاقِ والتصدُّقِ:

الإنفاقُ أعمُّ منَ التصدُّقِ منْ حيثُ أحكامِ الشَّرعِ، فالإنفاقُ يكونُ علَى سبيلِ الوجوبِ والاستحبابِ والإباحةِ، أمَّا التصدُّقُ فلهُ حكمُ الاستحبابِ فقطْ.

الإقراضُ:

الإقراضُ لغةً:

مصدرٌ منْ أقرضتهُ المالَ إقراضًا، ومنهُ القرضَ، والجمعُ قروضٌ[1].

الإقراضُ اصطلاحًا:

هوُ إعطاءُ غيركَ منْ مالكَ لتقضاهُ[2].

الصِّلةُ بينَ الإنفاقِ والإقراضِ:

أنَّ الإنفاقَ فيهِ إخراجٌ للمالِ منَ الملكيَّةِ، بينمَا الإقراضُ يبقَى فيهِ المالُ ملكًا لمخرجهِ فِي ذمَّةِ غيرهِ؛ ليردَّهُ إليهِ.

الإيتاءُ:

الإيتاءُ لغةً:

الإعطاءُ، آتَى يؤاتِي إيتاءً، وآتاهُ إيتاءً، أيْ: أعطاهُ، ويقالُ: آتاهُ الشَّيءَ، أيْ: أعطاهُ إيَّاهُ[3].

(1) المطلع على ألفاظ المقنع، شمس الدين البعلي ص ٢٩٥، المصباح المنير، الحموي ٢/ ٤٩٨.

(2) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٧١، المصباح المنير، الحموي ٢/ ٤٩٨.

(3) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥١، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٧.

الإيتاءُ اصطلاحًا:

إعطاءُ المالِ للغيرِ علَى سبيلِ التَّمليكِ وحريَّةِ التَّصرُّفِ.

الصِّلةِ بينَ الإيتاءِ والإنفاقِ:

الإنفاقُ أعمُّ منَ الإيتاءِ، فالإنفاقُ قدْ يكونُ علَى سبيلِ التَّمليكِ المفضِي إلَى حريَّةِ التَّصرُّفِ، وقدْ يكونُ التصرُّفُ فِي المالِ مشروطًا، أوْ يكونُ لهُ مقابلٌ، بينمَا الإيتاءُ لَا يكونُ إلَّا علَى سبيلِ التَّمليكِ، ولَا يكونُ مشروطًا، أوْ لهُ مقابلٌ، وإنْ لمْ يكنْ كذلكَ فليسَ بإيتاءٍ[1].

الإعطاءُ:

الإعطاءُ لغةً:

المناولةُ، أعطاهُ الشَّيءَ أيْ: ناولهُ إيَّاهُ.

الإعطاءُ اصطلاحًا:

هوَ مناولةُ الشَّيءَ للآخرِ علَى سبيلِ تصرُّفٍ مأذونٍ فيهِ منَ المناولِ[2].

الصِّلةُ بينَ الإنفاقِ والإعطاءِ:

الإنفاقُ هوَ إخراجُ المالِ منَ الملكِ، والإعطاءُ لَا يقتضِي إخراجَ المعطِي المالَ منَ الملكِ[3]، فالإعطاءُ أعمُّ فهوَ يشملُ كلَّ عطاءٍ.

---

(1) دستور العلماء، الأحمد نكري ١/ ١٨.

(2) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص ١٦٧.

(3) المصدر السابق.

البخلُ:

البخلُ لغةً:

منعُ الفضلِ والإمساكِ عنِ البذلِ، منعَ الرَّجلُ القادرِ العطاءِ بالمعروفِ منْ مالهِ[1].

البخلُ اصطلاحًا:

هوَ إمساكُ المالِ وعدمُ صرفهِ فِي الوجوهِ المعتبرةِ حرصًا علَى بقائهِ وزيادتهِ وخوفًا منْ نفادهِ[2].

الصِّلةُ بينَ الإنفاقِ والبخلِ:

بينهمَا تضادٌّ واضحٌ، فالإنفاقُ هوَ البذلُ تلبيةً لسدِّ الحاجةِ، والبخلُ الإمساكُ عنِ البذلِ وإنْ دعتْ إليهِ الحاجةُ.

---

(1) معجم لغة الفقهاء، قلعجي، قنيبي ص ١٠٤.

(2) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، أبو الفضل البستي ٢/ ٢٤٥.

الأساليبُ القرآنيَّةُ فِي عرضِ الإنفاقِ:

تنوَّعتْ أساليبُ القرآنِ فِي الحديثِ عنِ الإنفاقِ، وهذَا مَا سنتناولهُ بالبيانِ فيمَا يأتِي:

أوَّلًا: الأمرُ بالإنفاقِ:

جاءَ الأمرُ بالإنفاقِ، وبذلِ المالِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى صريحًا فِي القرآنِ الكريمِ، فقالَ تعالَى: {وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[البقرة: 195].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[البقرة: 254].

ثانيًا: الثَّناءُ علَى المنفقينَ، وخاصَّةً عندَ الحاجةِ:

فمنْ أساليبِ القرآنِ الكريمِ فِي الحثِّ علَى الإنفاقِ والتَّرغيبِ فِي البذلِ والعطاءِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى أنَّهُ امتدحَ المنفقينَ، ورفعَ منْ مكانةِ المحسنينَ، وجعلهمْ مهتدينَ مفلحينَ، قالَ تعالَى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[البقرة: 3، 4، 5].

فالإشارةُ بِـ (أولئكَ) فِي قولهِ تعالَى: {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} إلَى منْ سبقتْ أوصافهمْ، وهمُ المتَّقونَ، أصحابُ الصِّفاتِ الخمسِ وهيَ:

1 – الإيمانُ بالغيبِ.

2 – وإقامةِ الصَّلاةِ.

3 – والإنفاقُ.

4 – والإيمانُ بمَا أُنزلَ علَى النَّبيِّ ﷺ ومَا أُنزلَ علَى إخوانهِ منَ الأنبياءِ منْ قبلهِ.

5 – والإيمانُ باليومِ الآخرِ إيمانًا يقينيًّا.

والتِي منهَا الإنفاقُ ممَّا رزقهمْ اللهُ تعالَى، ويشيرُ اسمُ الإشارةِ (أولئكَ) إلَى علوِّ مرتبتهمْ، والعنايةِ التامَّةِ بهمْ، كأنَّهمْ حضرُوا بينَ يديْ المتكلِّمِ، وفيهِ الفصلُ بينَ الغايةِ والوسيلةِ، فالغايةُ: الفلاحُ، ووسيلتهُ: مَا سبقَ – ذكرهُ منَ الصِّفاتِ –، والفلاحُ: هوَ الفوزُ بالمطلوبِ، والنَّجاةُ منَ المرهوبِ، فهيَ كلمةٌ جامعةٌ لانتفاءِ جميعِ الشُّرورِ، وحصولِ جميعِ الخيرِ[1].

ثالثًا: الوعدُ بالإخلافِ علَى المنفقينَ والأجرِ الكبيرِ فِي الآخرةِ:

أمرَ اللهُ تعالَى عبادهُ بالإنفاقِ فِي أوجهِ الطَّاعاتِ منَ المالِ الذِي أعطاهمْ إيَّاهُ، وجعلهُ بينَ أيديهمْ علَى سبيلِ الأمانةِ، أوِ الإعارةِ، ووعدهمْ بالخلفِ، أيْ: العوضِ المضاعفِ، فقالَ: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}[سبإ: 39].

(1) انظر: تفسير العثيمين الفاتحة والبقرة ١/ ٣٢.

أيْ: مهمَا أنفقتمْ منْ شيءٍ فيمَا أمركمْ بهِ اللهُ، وأباحهُ لكمْ، فهوَ يخلفهُ عليكمْ فِي الدُّنيَا بالبدلِ، وفِي الآخرةِ بالجزاءِ والثَّوابِ.

وقولهُ تعالَى: (وَمَا أَنْفَقْتُمْ) (مَا) هنَا تفيدُ العمومَ، يعنِي: سواءٌ كانَ المُنْفَقُ صغيرًا أوْ كبيرًا. ومعنَى: (فَهُوَ يُخْلِفُهُ) أيْ: يخلفهُ عليكمْ، يقالُ: أخلفَ لهُ، وأخلفَ عليهِ، إذَا أعطاهُ عوضهُ وبدلهُ، وذلكَ البدلُ إمَّا فِي الدُّنيَا وإمَّا فِي الآخرةِ، والمقصودُ: لَا تتوَّهمُوا أنَّ الإنفاقَ ممَّا ينقصُ الرِّزقَ، بلْ وعدَ بالخلفِ للمنفقِ، الذِي يبسطُ الرِّزقَ لمنْ يشاءُ ويقدرُ.

وقدْ جاءَ فِي الحديثِ: "عنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ فِي مَا يُخبرُ عنْ ربِّهِ: (قالُ اللهُ: أَنْفِقْ يَا ابنَ آدمَ أُنْفِقُ عليكَ)"[1].

رابعًا: الوعيدُ الشَّديدُ لمنْ يكنزُ الذَّهبَ والفضَّةَ والمالَ عمومًا ولَا ينفقهُ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى:

توعَّدَ اللهُ تعالَى كلَّ منْ يكنزُ الذَّهبَ والفضَّةَ ولَا ينفقهَا فِي سبيلِ اللهِ بعذابٍ أليمٍ، فقالَ سبحانهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ}[التوبة: 34، 35].

(1) رواهُ البخاري وسلم – وأخرجه أحمد ٢/٢٤٢، ٧٢٩٦، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

وهذَا إخبارٌ منَ اللهِ تعالَى عنِ الكنوزِ وأصحابهَا يومَ القيامةِ، ومَا يتعلَّقُ بعذابهِمْ فِي اليومِ الآخرِ.

فقولهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ يحتمل فِي ظاهرِ الآيةِ أنْ يرادَ بهمْ: أولئكَ الأحبارُ والرُّهبانُ السَّابقِ ذكرهمْ فِي الآيةِ، فيكونُ قدْ وصفهمْ بالحرصِ الشَّديدِ علَى أخذِ أموالِ النَّاسِ، بقولهِ تعالَى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ ووصفهمْ أيضًا بالبخلِ الشَّديدِ والامتناعِ منْ إخراجِ الواجباتِ عنْ أموالِ أنفسهمْ، بقولهِ تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ويُحتملُ أنْ يرادَ بهمُ: المسلمونَ الذينَ يجمعونَ المالَ ولَا يؤدُّونَ حقَّهُ، ويكونُ اقترانهمْ بالمرتشينَ منَ اليهودِ والنَّصارَى تغليظًا، ودلالةً علَى أنَّ منْ يأخذْ منْ أهلِ الكتابِ السحتَ، ومنْ لَا يعطِي منَ المسلمينَ زكاةَ مالهِ سواءٌ فِي استحقاقِ البشارةِ بالعذابِ الأليمِ، واحتمالُ أنْ يرادَ بذلكَ الجميعَ وهوَ الرَّاجحُ، وهوَ كلُّ منْ كنزَ المالَ ولمْ يخرجْ منهُ الحقوقَ الواجبةَ، سواءٌ كانَ منَ الأحبارِ والرهبانِ أوْ كانَ منَ المسلمينَ.

والكنزُ بفتحِ الكافِ مصدرُ (كنزَ) إذَا ادَّخرَ مالًا، وكلُّ شيءٍ غمزتهُ فِي وعاءٍ أوْ أرضٍ فقدْ كنزتهُ، واكتنزَ: اجتمعَ وامتلأَ[1]، يقالُ: هذَا جسمٌ مكتنزُ الأجزاءِ إذَا كانَ مجتمعُ الأجزاءِ، ويُطلقُ علَى المالِ منَ الذَّهبِ والفضَّةِ الذِي يخزَّنُ، وعلَى كلِّ شيءٍ ثمينٍ، سواءٌ دُفنَ فِي باطنِ الأرضِ أوْ لمْ يُدفنْ، ولكنْ شاعَ

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٦٣/١.

استعمالهُ فيمَا يدفنُ فِي باطنِ الأرضِ، ولكنْ شيوعهُ لَا يمنعَ أصلَ إطلاقهِ، ولَا يمنعُ الشُّيوعَ منْ أنْ يُطلقَ علَى الأصلِ اللُّغوي، ولقدْ قالَ شيخُ المفسِّرينَ الطَّبرِي: الكنزُ: كلُّ شيءٍ مجموعٌ بعضهُ إلَى بعضٍ فِي بطنِ الأرضِ كانَ أوْ علَى ظهرهَا[1].

والمعنَى: أنَّهمْ يجمعونهمَا ويحفظونهمَا سواءٌ كانَ ذلكَ بالدَّفنِ، أوْ بوجهٍ آخرَ، وسمِّي الذَّهبُ ذهبًا لأنَّهُ يذهبُ ولَا يبقَى، وسمِّيتِ الفضَّةُ فضَّةً لأنَّهَا تُنفضُ، أيْ: تتفرَّقُ ولَا تبقَى، وحسبكَ بالاسمينِ دلالةً علَى فنائهمَا، وأنَّهُ لَا بقاءَ لهمَا[2].

وخُصَّ الذَّهبُ والفضَّةُ بالذِّكرِ لأنَّهمَا الأصلُ الغالبُ فِي الأموالِ، ولأنَّهمَا مقياسُ التَّقديرِ لكلِّ الأموالِ، ولأنَّهمَا اللَّذانِ يُقصدانِ بالكنزِ أكثرَ منْ غيرهمَا، وقدْ قالَ فِي ذلكَ الزَّمخشرِي: إنَّهمَا قانونُ التَّمولِ، وأثمانُ الأشياءِ، ولَا يكنزهمَا إلَّا منْ فَضُلَا عنْ حاجتهِ، ومنْ كَثُرَا عندهُ حتَّى يكنزهمَا لمْ يعدمْ سائرَ أجناسِ المالِ، فكانَ ذكرُ كنزهمَا دليلًا علَى مَا سواهمَا[3].

وأمَّا منِ امتنعَ عنِ الإنفاقِ فحسبهُ حديثُ رسولِ اللهِ ﷺ: "فعنِ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (مَا منْ صاحبِ ذهبٍ ولَا فضَّةٍ لَا يؤدِّي منهَا حقَّها إلَّا إذَا كانَ يومُ القيامةِ صفِّحتْ لهُ صفائحَ منْ نارٍ فأحمِيَ

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤٦/٣.
(2) القاموس المحيط ٦٧٣/١.
(3) جامع البيان، الطبري ٢٢٥/١٤.

عليهَا منْ نارِ جهنَّمَ فيُكوَى بهَا جنبهُ وجبينهُ وظهرهُ كلَّمَا بردتْ أعيدتْ لهُ فِي يومٍ كانَ مقدارهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ حتَّى يُقضَى بينَ العبادِ فيرَى سبيلهُ إمَّا إلَى الجنَّةِ وإمَّا إلَى النَّارِ قيلَ: يَا رسولَ اللهِ فالإبلُ قالَ: ولَا صاحبَ إبلٍ لَا يؤدِّي منهَا حقَّهَا ومنْ حقِّهَا حلبهَا يومَ وردهَا إلَّا إذَا كانَ يومُ القيامةِ بُطحَ لهَا بقاعٍ أوفرَ مَا كانتْ لَا يفقدُ منهَا فصيلًا واحدًا تطأهُ بأخفافهَا وتعضُّهُ فأفواههَا كلَّمَا مرَّ عليهِ أوَّلاهَا أعيدَ عليهِ أخراهَا فِي يومٍ كانَ مقدارهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ حتَّى يُقضَى بينَ العبادِ فيرَى سبيلهُ إمَّا إلَى الجنَّةِ وإمَّا إلَى النَّارِ قيلَ يَا رسولَ اللهِ فالبقرُ والغنمُ قالَ ولَا صاحبَ بقرٍ وغنمٍ لَا يؤدِّي منهَا حقَّهَا إلَّا إذَا كانَ يومُ القيامةِ بُطحَ لهَا بقاعٍ قرقرَ لَا يفقدُ منهَا شيئًا ليسَ فيهَا عفصاءُ ولَا جلحاءُ ولَا عضباءُ تنطحهُ بقرونهَا وتطأهُ بأظلافهَا كلَّمَا مرَّ عليهِ أولاهَا رُدَّ عليهِ أُخراهَا فِي يومٍ كانَ مقدارهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ حتَّى يُقضَى بينَ العبادِ فيرَى سبيلهُ إمَّا إلَى الجنَّةِ وإمَّا إلَى النَّارِ ...[1].

---

(7) صحيح رواه مسلم 987.

أنواعُ الإنفاقِ ومجالاتهِ:

تعدَّدتْ أنواعُ الإنفاقِ ومجالاتهُ التِي تحدَّثَ عنهَا القرآنُ، وهيَ علَى أقسامٍ:

أولًا: الإنفاقُ الواجبُ:

ذكرَ القرآنُ الكريمُ أنواعًا منَ الإنفاقِ الواجبِ، وبيَّنتهُ السنَّةُ المطهَّرةُ، وينحصرُ الإنفاقُ الواجبُ فِي الأنواعِ الآتيةِ:

1) الزَّكاةُ المفروضةُ:

والزَّكاةُ لغةً:

النَّماءُ والزِّيادةُ، وفِي الشَّرعِ: هيَ دفعُ مالٍ مخصوصٍ، لطائفةٍ مخصوصةٍ، تعبُّدًا للهِ عزَّ وجلَّ، وسمِّيتْ زكاةً لأنَّهَا تزكِّي الإنسانَ ومالهُ[1]، تُنمِّيهِ.

وهيَ ركنٌ منْ أركانِ الإسلامِ، ومبانيهِ العظامِ، وقدْ قُرنتْ بالصَّلاةِ، وأمرَ اللهُ تعالَى بأدائهَا فِي آياتٍ كثيرةٍ، ومنْ تلكَ الآياتِ قولهُ تعالَى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[التوبة: 103].

والخطابُ فِي قولهِ: (خُذْ) للرَّسولِ ﷺ، ولمنْ جاءَ بعدهُ منَ خلفاءِ الإسلامِ، وفِي الآيةِ إشارةٌ إلَى أنَّ الأئمَّةَ بعدهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ همْ نوَّابهُ، وقائمينَ بمَا كانَ يقومُ بهِ، فيتناولهمْ حكمُ الخطابِ الواردِ لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وظاهرُ الآيةِ للوجوبِ، فدلَّ هذَا النصُّ علَى أنَّ أخذهَا واجبٌ.

---

(1) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ٢٧٦/٥.

وفِي الآيةِ دلالةٌ علَى أنَّ هذهِ الزَّكاةَ يتولَّى أخذهَا وتفرقتهَا الإمامُ، ومنْ يُولَّى منْ قِبَلِهِ، والدَّليلُ عليهِ: أنَّ اللهَ تعالَى جعلَ للعاملينَ عليهَا سهمًا فيهَا؛ وذلكَ يدلُّ علَى أنَّهُ لابدَّ فِي أداءِ هذهِ الزَّكواتِ منْ عاملٍ، والعاملُ هوَ الذِي نصَّبهُ الإمامُ لأخذِ الزكواتِ، فدلَّ هذَا النصُّ علَى أنَّ الإمامَ هوَ الذِي يأخذُ هذهِ الزكواتِ، وتأكَّدَ هذَا النصُّ بقولهِ تعالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[1].

وقالَ: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ولمْ يقلْ: خذْ أموالهمْ؛ لأنَّ المرادَ بعضَ المالِ لَا كلِّهِ، فَ ﴿مِنْ﴾ للتَّبعيضِ، ممَّا يدلُّ علَى أنَّ القدرَ المأخوذَ بعضُ تلكَ الأموالِ لَا كلَّهَا. ومقدارُ ذلكَ البعضُ غيرُ مذكورٍ هنَا بصريحِ اللَّفظِ، بلْ المذكورُ قوله: ﴿صَدَقَةً﴾ ومعلومٌ أنَّهُ ليسَ المرادُ منهُ التَّنكيرُ حتَّى يكفيَ أخذُ أيِّ جزءٍ كانَ وإنْ كانَ فِي غايةِ القلَّةِ، مثلَ الحبَّةِ الواحدةِ منَ الحنطةِ، أوِ الجزءُ الحقيرُ منَ الذَّهبِ، بلِ المرادُ صدقةٌ معلومةُ الصِّفةِ والكيفيَّةِ والكميَّةِ عندهمْ، حتَّى يكونُ قولهُ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ أمرًا بأخذِ تلكَ الصَّدقةِ المعلومةِ، فحينئذٍ يزولُ الإجمالُ، ومعلومٌ أنَّ تلكَ الصَّدقةِ ليستْ إلَّا الصَّدقاتِ التِي وصفهَا رسولُ اللهِ ﷺ، وبيَّنَ كيفيِّتهَا[2] فعنْ أنسٍ أنَّ أبَا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهمَا كتبَ لهُ هذَا الكتابَ لمَّا وجَّههُ إلَى البحرينِ: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ هذهِ فريضةُ الصَّدقةِ التِي فرضَ رسولُ اللهِ ﷺ علَى المسلمينَ والتِي أمرَ اللهُ بهَا رسولهُ ﷺ فمنْ سُئلهَا منَ المسلمينَ علَى وجههَا فليعطهَا ومنْ سُئلَ فوقهَا فلَا يعطِ: فِي أربعٍ وعشرينَ

(1) الكشف والبيان للثعلبي ٣/٤١٢.

(2) انظر: التعريفات للجرجاني ١/١٥٢، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ١/٣٨٧.

منَ الإبلِ فمَا دونهَا منَ الغنمِ منْ كلِّ خمسٍ شاةٍ، إذَا بلغتْ خمسًا وعشرينَ إلَى خمسٍ وثلاثينَ ففيهَا بنتُ مخاضٍ أنثَى، فإذَا بلغتْ ستًّا وثلاثينَ إلَى خمسٍ وأربعينَ ففيهَا بنتُ لبونٍ أنثَى فإذَا، بلغتْ ستًّا وأربعينَ إلَى ستِّينَ ففيهَا حقَّةٌ طروقةُ الجملِ، فإذَا بلغتْ واحدةً وستِّينَ إلَى خمسٍ وسبعينَ ففيهَا جذعةٌ، فإذَا بلغتْ يعنِي ستًّا وسبعينَ إلَى تسعينَ ففيهَا بنتَا لبونٍ، فإذَا بلغتْ إحدَى وتسعينَ إلَى عشرينَ ومائةٍ ففيهَا حقَّتانِ طروقتَا الجملِ فإذَا زادتْ علَى عشرينَ ومائةٍ ففِي كلِّ أربعينَ بنتُ لبونٍ وفِي كلِّ خمسينَ حقَّةٌ ومنْ لمْ يكنْ معهُ إلَّا أربعَ منَ الإبلِ فليسَ فيهَا صدقةٌ إلَّا أنْ يشاءَ ربُّهَا، فإذَا بلغتْ خمسًا منَ الإبلِ ففيهَا شاةٌ، وفِي صدقةِ الغنمِ فِي سائمتهَا إذَا كانتْ أربعينَ إلَى عشرينَ ومائةٍ شاةٌ، فإذَا زادتْ علَى عشرينَ ومائةٍ إلَى مائتينِ شاتانِ، فإذَا زادتْ علَى مائتينِ إلَى ثلاثَ مائةٍ ففيهَا ثلاثُ شياهٍ فإذَا زادتْ علَى ثلاثِ مائةٍ ففِي كلِّ مائةٍ شاةٌ، فإذَا كانتْ سائمةُ الرَّجلِ ناقصةٌ منْ أربعينَ شاةً واحدةً فليسَ فيهَا صدقةٌ إلَّا أنْ يشاءَ ربُّها، وفِي الرقَّةِ ربعُ العشرِ فإنَ لمْ تكنْ إلَّا تسعينَ ومائةٍ فليسَ فيهَا شيءٌ إلَّا أنْ يشاءَ ربُّهَا[1].

وقولهُ: (وفي الرِّقةِ) بكسرِ الرَّاء وتخفيفِ القافِ: الفضَّةُ الخالصةُ سواءٌ كانتْ مضروبةً أوْ غيرُ مضروبةٍ – أيْ فِي سبائكَ أو حليٍّ–، وقيلَ: أصلهَا الوِرقُ، فحذفتْ الواوُ وعوِّضتِ الهاءُ، وقيلَ: يطلقُ علَى الذَّهبِ والفضَّةِ بخلافِ

(1) فتح الباري ص: 372.

الورقِ فعلَى هذَا قيلَ: إنَّ الأصلَ فِي زكاةِ النَّقدينِ نصابُ الفضَّةِ، فإذَا بلغَ الذَّهبُ ماَ قيمتهُ مائتَا درهمٍ فضَّةً خالصةً وجبتْ فيهِ الزَّكاةُ وهوَ ربعُ العشرِ، وهذَا قولُ الزُّهري، وخالفهُ الجمهورُ.

وقولهُ: (فإذَا لمْ تكنْ) أيِّ الفضَّةُ (إلَّا تسعينَ ومائةٍ) يُوهمُ أنَّهَا إذَا زادتْ علَى التِّسعينَ ومائةٍ قبلَ بلوغِ المائتينِ أنَّ فيهَا صدقةً، وليسَ كذلكَ، وإنَّمَا ذكرَ التِّسعينَ لأنَّهُ آخرُ عقدٍ قبلَ المائةِ، والحسابُ إذَا جاوزَ الآحادَ كانَ تركيبهُ بالعقودِ كالعشراتِ والمئينَ والألوفِ، فذكرَ التِّسعينَ ليدلَّ علَى أنَّ لَا صدقةَ فيمَا نقصَ عنِ المائتينِ، ويدلُّ عليهِ قولهُ الماضِي: ليسَ فيمَا دونَ خمسِ أواقٍ صدقةٍ.

وقولهُ: (إلَّا أنْ يشاءَ ربُّهَا فِي المواضعِ الثَّلاثةِ) أيْ: إلَّا أنْ يتبرَّعَ متطوِّعًا[1].

فيكونُ المرادُ بالصَّدقةِ حينهَا فِي الآيةِ: الزَّكاةُ المفروضةُ، فالصَّدقةُ تطلقُ علَى الفرضِ والنَّفلِ، كمَا فِي قولهِ تعالَى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[التوبة: 60].

بينمَا الزَّكاةُ لَا تُطلقُ إلَّا علَى الفرضِ فقطْ، ومنِ امتنعَ عنْ أداءِ الزَّكاةِ أخذهَا الإمامُ كرهًا، ووضعهَا موضعهَا.

---

(1) السَّابق.

والظاهرُ فِي قولهِ: (أَمْوَالِهِمْ) العمومُ، فتجبُ الزَّكاةُ فِي جميعِ المالِ حتَّى فِي الدُّيونِ، وفِي مالِ الرِّكازِ، وفِي مالِ الضَّمانِ.

وقولهُ: (تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ) معنَى التَّطهيرُ: إذهابُ مَا يتعلَّقُ بهمْ منْ أثرِ الذُّنوبِ، ومعنَى التَّزكيةُ: المبالغةُ فِي التَّطهيرِ، والمقصودُ أنَّ الزَّكاةَ تزكِّي الإنسانَ فِي أخلاقهِ وعقيدتهِ، وتطهِّرهُ منَ الرَّذائلِ؛ لأنَّهَا تخرجهُ منْ حظيرةِ البخلاءِ إلَى حظيرةِ الأجوادِ والكرماءِ، وتكفِّرُ سيِّئاتهِ، فهيَ تطهِّرُ ظاهرهُ وباطنهُ، يتزكَّى أوَّلًا منَ الشِّركِ بالنِّسبةِ لمعاملةِ اللهِ، فيعبدُ اللهَ تعالَى مخلصًا لهُ الدَّينَ، لَا يُرائِي وَلَا يطلبُ جاهًا ولَا رئاسةً، فيمَا يتعبَّدُ بهِ اللهَ عزَّ وجلَّ، وإنَّمَا يريدُ بهذَا وجهَ اللهِ تعالَى والدَّارَ الآخرةَ، ويتزكَّى فِي اتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ، بحيثُ لَا يبتدعُ فِي شريعتهِ لَا بقليلٍ ولَا كثيرٍ، لَا فِي الاعتقادِ ولَا فِي الأقوالِ ولَا فِي الأفعالِ[1]، وكونَ إخراجِ الزَّكاةِ فيهَا تطهيرًا لهمْ وتزكيةٌ لأنَّ المالَ مادَّةُ الشَّهواتِ، فأمرَ – اللهُ تعالَى –النَّبيَّ ﷺ بالأخذِ منْ ذلكَ ليكونَ أوَّلَ حالهمُ التَّجرُّدُ لتنكسرَ قوَى النَّفسُ، وتضعفَ أهواؤهَا وصفاتهَا، فتتزكَّى منَ الهيئاتِ المظلمةِ، وتتطهَّرَ منْ خبثِ الذُّنوبِ، ورجسِ دواعِي الشَّيطانِ[2].

(1) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٧٧.

(2) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/١٣٦.

2) النَّفقةُ فِي الجهاد:

ومنَ النَّفقاتِ الواجبةِ، النَّفقةُ فِي الجهادِ، حيثُ أمرَ اللهُ بالإنفاقِ فيهِ فِي جميعِ الأوقاتِ، وبأنواعِ الصَّدقاتِ المتعدِّدةِ، سواءٌ كانَ منَ الزَّكاةِ المفروضةِ أوْ منْ غيرهَا، ووعدَ علَى ذلكَ الأجرَ العظيمَ، قالَ تعالَى: {انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}[التوبة: 41].

فقولهُ تعالَى: (وَجَاهِدُوا) أمرٌ بالجهادِ، وحقيقتهُ: بذلُ الجهدِ والطَّاقةِ، وهوَ قسمانِ، جهادٌ بالنَّفسِ وجهادٌ بالمالِ، أمَّا الجهادُ بالنَّفسِ فمعلومٌ، وهوَ منْ فروضِ الكفاياتِ، إلَّا عندَ هجومِ العدوِّ فيصيرُ متعيِّنًا.

وأمَّا بالمالِ فبزادهِ وراحلتهِ إذَا قدرَ علَى الجهادِ بنفسهِ، فإنْ عجزَ عنهُ بنفسهِ فببذلِ المالِ بدلًا عنهُ، فمنِ استطاعَ الجهادَ بالمالِ والنَّفسِ وجبَ عليهِ الجهادُ بهمَا، ومنْ قدرَ علَى أحدهمَا دونَ الآخرِ وجبَ عليهِ مَا كانَ فِي قدرتهِ منهمَا، إلَى هذَا ذهبَ كثيرٌ منَ العلماءِ، وقيلَ: هوَ إيجابٌ للقسمِ الأوَّلِ فقطْ[1].

وقولهُ تعالَى: (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أيْ: فِي سبيلِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالَى ونصرةِ دينهِ ورسولهِ ﷺ، قالَ الشَّوكانيُّ: فيهِ الأمرُ بالجهادِ بالأنفسِ والأموالِ، وإيجابهِ علَى العبادِ، فالفقراءُ يجاهدونَ بأنفسهمْ، والأغنياءُ بأموالهمْ وأنفسهمْ، والجهادُ منْ

---

(1) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٦٧.

آكدِ الفرائضِ وأعظمهَا، وهوَ فرضُ كفايةٍ مهمَا كانَ البعضُ يقومُ بجهادِ العدوِّ وبدفعهِ، فإنْ كانَ لَا يقومُ بالعدوِّ إلَّا جميعُ المسلمينَ فِي قطرٍ منَ الأرضِ، أوْ أقطارٍ وجبَ عليهمْ ذلكَ وجوبَ عينٍ[1].

3) الإنفاقُ علَى الزَّوجةِ:

النَّفقةُ علَى الزَّوجةِ بالمعروفِ واجبةٌ بنصِّ القرآنِ، قالَ تعالَى: {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[البقرة: 233].

أيْ: وعلَى والدِ الطِّفلِ نفقةُ الوالداتِ، وكسوتهنَّ بالمعروفِ، أيْ: بمَا جرتْ بهِ عادةُ أمثالهنَّ فِي بلدهنَّ منْ غيرِ إسرافٍ ولَا إقتارٍ، بحسبِ قدرتهِ فِي يسارهِ وتوسُّطهِ وإقتارهِ[2].

قالَ ابنُ رشدٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: واتفقُوا علَى أنَّ منْ حقوقِ الزَّوجةِ علَى الزَّوجِ: النَّفقةُ والكسوةُ؛ لقولهِ تعالَى: (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) ولمَا ثبتَ منْ قولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "ولهنَّ عليكمْ رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروفِ"[3]، ولقولهِ لهندٍ: "خذِي مَا يكفيكِ وولدكِ بالمعروفِ"[4][5].

---

(1) فتح القدير ٢/ ٥٢٧.

(2) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٣٤.

(3) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ٤/٣٩، ٣٠٠٩.

(4) أخرجه البخاري في كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ٥٠٧/٩، ومسلم في كتاب الأقضية، باب قضية هند ٧/١٢.

(5) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٤٤/٢.

فقولهُ تعالَى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أيِ: الأبُ، وظاهرُ الآيةِ أنَّهُ لَا فرقَ بينَ أنْ تكونَ الزَّوجةُ فِي حبالهِ أوْ بائنًا منهُ، فإنْ كانتْ فِي حبالهِ فلوجوبِ الإنفاقِ عليهَا سببانِ: الزَّوجيَّةُ والإرضاعُ، وإنْ لمْ تكنْ فِي حبالهِ فلهَا سببٌ واحدٌ وهوَ الإرضاعُ، ولَا يمتنعُ أنْ يكونَ للحكمِ الواحدِ سببانِ، كمَا فِي الزَّوجِ يكونُ ابنَ عمٍّ فيرثُ بالزَّوجيَّةِ والقرابةِ[1].

وقولهُ تعالَى: ﴿بِالمَعْرُوفِ﴾ أيْ: أنَّهُ يُرجعُ إلَى العرفِ فِي نوعِ الرِّزقِ وكمِّيتهِ وكيفيَّتهِ وكذلكَ الكسوةُ.

ومنَ المعلومِ أنَّ الكفايةَ بالمعروفِ تتنوَّعُ بحالِ الزَّوجةِ فِي حاجتهَا، وبتنوُّعِ الزَّمانِ والمكانِ، وبتنوُّعِ حالِ الزَّوجِ فِي يسارهِ وإعسارهِ، فليستْ كسوةُ القصيرةِ الضَّئيلةِ ككسوةِ الطَّويلةِ الجسيمةِ، ولَا كسوةُ الشِّتاءِ ككسوةُ الصَّيفِ، ولَا كفايةُ طعامِ الشِّتاءِ مثلَ طعامِ الصَّيفِ، ولَا طعامُ البلادِ الحارَّةِ كالباردةِ، ولَا المعروفُ فِي بلادِ التَّمرِ والشَّعيرِ كالمعروفُ فِي بلادِ الفاكهةِ والخبزِ، فيطعمهَا فِي كلِّ بلدٍ ممَّا هوَ عادةُ أهلِ البلدِ والعرفِ عندهمْ.

وقالَ بعضهمْ: هيَ مقدَّرةٌ بالشَّرعِ نوعًا وقدرًا، مدًّا منْ حنطةٍ، أوْ مدًّا ونصفًا، أوْ مدَّينِ قياسًا علَى الإطعامِ الواجبِ فِي الكفارةِ.

والصَّوابُ المقطوعُ بِهِ مَا عليهِ الأمَّةُ علمًا وعملًا قديمًا وحديثًا أنَّ تقديرهَا بالعرفِ لَا بالشَّرعِ؛ لقولهِ فِي هذهِ الآيةِ: ﴿بِالمَعْرُوفِ﴾ ولقولهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لهندٍ: "خذِي مَا يكفيكِ وولدكِ بالمعروفِ[2] ولمْ يقدِّرْ لهَا نوعًا ولَا

(1) تفسير القرآن للعثيمين ١١٧/٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١٠٤/١.

(2) أخرجه البخاري في كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ٥٠٧/٩، ومسلم في كتاب الأقضية، باب قضية هند ٧/١٢.

قدرًا، ولوْ كانَ ذلكَ مقدَّرًا بشرعٍ لبيَّنهُ لهَا قدرًا ونوعًا، كمَا بيَّنَ فرائضَ الزكواتِ والدِّيَّاتِ[1].

والنَّفقةُ التِي تجبُ للمرأةِ علَى زوجهَا هذهِ الأربعةُ: الطَّعامُ والشَّرابُ والكسوةُ والمسكنُ، فإذَا أعطاهَا هذهِ الأربعةَ فقدْ خرجَ إليهَا منْ نفقتهَا، فإنْ تفضَّلَ بعدَ ذلكَ فهوَ مأجورٌ، فأمَّا هذهِ الأربعةُ فلابدَّ لهَا منهَا؛ لأنَّ بهَا إقامةُ المهجةِ[2].

وهذهِ النَّفقةُ تسقطُ إذَا كانتِ الزَّوجةُ ناشزًا، أيْ: عاصيةً لزوجهَا، كخروجهَا بدونِ إذنهِ، وامتناعهَا عنْ إعطائهِ حقِّهِ، وتلزمُ نفقةُ المطلَّقةِ طلاقًا رجعيًا خلالَ العدَّةِ، فإنْ طلَّقهَا وهيَ حاملٌ فعدَّتهَا إلَى وضعِ الحملِ، فيلزمهُ النَّفقةُ عليهَا والسُّكنَى خلالَ حملهَا، ولوْ طلَّقهَا بائنًا، وذلكَ باتِّفاقِ الفُقهاءِ؛ لقولهِ تعالَى: {وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}[الطلاق: 6].

وأمَّا المطلَّقةُ قبلَ الدُّخولِ فلأنَّهُ لَا عدَّةَ عليهَا فالنَّفقةُ ساقطةٌ بلَا ريبٍ، وكذلكَ السُّكنَى، والمتعةُ المذكورةُ لهَا فِي القرآنِ هيَ عوضٌ عنِ المهرِ، والملاعنةُ لَا نفقةَ لهَا ولَا سُكنَى؛ لأنَّهَا إنْ كانتْ المطلَّقةُ بائنًا كانتْ مثلهَا فِي ذلكَ، وإنْ كانتِ المتوفَّى عنهَا زوجهَا فكذلكَ، ولَا ريبَ أنَّ فرقتهَا أشدُّ منْ فرقةِ المطلَّقةِ بائنًا؛ لأنَّ هذهِ يجوزُ نكاحهَا فِي حالٍ منَ الأحوالِ بخلافِ تلكَ.

والمقصودُ أنَّ الآيةَ تدلُّ علَى فرضيةِ الإنفاقِ للزَّوجةِ، والمقصودُ بالنَّفقةِ هوَ تأمينُ الحاجاتِ الضَّروريَّةِ التِي لابدَّ منهَا للإنسانِ؛ كيْ لَا يحتاجَ إلَى الغيرِ،

---

(1) انظر: اللباب في علوم الكتاب ١٥/٣٣٧.

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/٢٥٣.

والحاجاتُ الأساسيَّةُ التِي لَا يستغنِي عنهَا الإنسانُ فِي حياتهِ هيَ: الغذاءُ والكساءُ والمسكنُ، فأمَّا الغذاءُ ففيهِ قوامُ حياةِ الإنسانِ وبقاءُ بنيتهِ الأساسيَّةِ، فالغذاءُ يقيمُ بناءهُ، ويديمُ وجودهُ فِي الدَّاخلِ، وأمَّا اللِّباسُ أوِ الكساءُ ففيهِ حمايتهُ منَ الخارجِ، وأمَّا المسكنُ فيأوِي إليهِ، ويرتاحُ فيهِ، ويحتمِي بهِ منْ عواديِّ الدَّهرِ، فالنَّفقةُ الواجبةُ علَى الزَّوجِ لزوجتهِ لَا تتعدَّى هذهِ الثَّلاثةَ، ومَا يتبعهَا منَ الخدمةِ، ومَا تتضرَّرُ بتركهِ.

ومنْ أدلَّةِ القرآنِ علَى وجوبِ نفقةِ الزَّوجةِ أيضًا: قولهُ تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ}[النساء: 34].

أيْ: قائمونَ علَى شؤنهنَّ بسببِ تفضيلهِ الرِّجالَ علَى النِّساءِ بالحزمِ والعزمِ والقوَّةِ والفتوَّةِ وغيرهَا منَ الشَّمائلِ الشَّاملةِ، وبسببِ إنفاقهمْ منْ أموالهمْ فِي نكاحهنَّ كالمهرِ والنَّفقةِ، وهذَا أدلُّ علَى وجوبِ النَّفقاتِ علَى الزَّوجاتِ منَ الأزواجِ.

قالَ ابنُ كثيرٍ: أي: منَ المهورِ والنَّفقاتِ والكلفِ التِي أوجبهَا اللهُ عليهمْ لهنَّ فِي كتابهِ، وسنَّةِ نبيِّهِ ﷺ، فالرَّجلُ أفضلُ منَ المرأةِ فِي نفسهِ، ولهُ الفضلُ عليهَا والإفضالُ، فناسبَ أنْ يكونَ قيِّمًا عليهَا، كمَا قالَ اللهُ تعالَى: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}...الآية[البقرة: ٢٢٨] [1].

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٢٩٢.

وقالَ القرطبيُّ: قدْ جعلَ الإنفاقَ عليهنَّ منْ شرطِ القوامةِ، فمتَى مَا عجزَ عنْ نفقتهَا لمْ يكنْ قوامًا عليهَا، وإذَا لمْ يكنْ قوامًا عليهَا كانَ لهَا فسخُ العقدِ؛ لزوالِ المقصودِ الذِي شُرعَ لأجلهِ النِّكاحُ[1].

وأخذَ بعضُ العلماءِ وجوبَ نفقةِ الزَّوجةِ علَى زوجهَا منْ قولهِ تعالَى: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ}[طه: ١١٧].

حيثُ جاءَ الخطابُ شاملًا لآدمَ وحوَّاءَ، ثمَّ خصَّ آدمَ بالشَّقاءِ دونهَا فِي قولهِ تعالَى: (فَتَشْقَىٰ) فدلَّ ذلكَ علَى أنَّهُ هوَ المكلَّفُ بالكدِّ عليهَا، وتحصيلِ لوازمِ الحياةِ الضَّروريَّةِ لهَا، منْ مطعمٍ ومشربٍ وملبسٍ ومسكنٍ.

قالَ القرطبيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ هذهِ الآيةِ الكريمةِ مَا نصَّهُ: وإنَّمَا خصَّهُ بذكرِ الشَّقاءِ ولمْ يقلْ: فتشقيَا، يعلِّمنَا أنَّ نفقةَ الزَّوجةِ علَى الزَّوجِ، فمِنْ يومئذٍ جرتْ نفقةُ النِّساءِ علَى الأزواجِ، فلمَّا كانتْ نفقةُ حوَّاءَ علَى آدمَ كذلكَ نفقاتُ بناتهَا علَى بنِي آدمَ بحقِّ الزوجيَّةِ[2].

4) النَّفقةُ علَى الوالدينِ:

ومنَ النَّفقاتِ الواجبةِ نفقةُ الوالدِ (الأبُ أوِ الأمُّ) الفقيرِ الذِي لَا مالَ لهُ ولَا كسبَ علَى ولدهِ الغنيِّ، ذكرًا كانَ أوْ أنثَى، وتقدَّرُ النَّفقةُ بالكفايةِ وسدِّ الحاجةِ، فإذَا كانَا غنيَّينِ أوْ لهمَا مالٌ خاصٌّ انتفَى سببُ وجوبِ النَّفقةِ لهمْ.

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٦٩.
(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/٢٥٣.

قالَ ابنُ المنذرِ: أجمعَ أهلُ العلمِ علَى وجوبِ نفقةِ الوالدينِ اللَّذينِ لَا كسبَ لهمَا ولَا مالَ، سواءٌ أكانَ الوالدينِ مسلمينِ أوْ كافرينِ، وسواءٌ كانَ الفرعُ ذكرًا أوْ أنثَى[1]؛ لقولهِ تعالى: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}[البقرة: 38].

وقولهُ سبحانهُ: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}[لقمان: 15].

فإنَّ منْ إكرامِ الوالدينِ والإحسانِ إليهمَا أنْ يقدِّمَ لهمَا مَا يحتاجانِ إليهِ منْ مالٍ وغيرهِ، وخاصَّةً حينَ يصبحانِ غيرَ قادرينِ علَى العملِ، وليسَ منَ الإحسانِ ولَا منَ المصاحبةِ بالمعروفِ أنْ يموتَ الوالدانِ جوعًا والولدُ فِي سعةٍ منَ العيشِ، ولَا ينفقُ عليهمَا!

ولقولهِ سبحانهُ وتعالَى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}[البقرة: 215].

أي: يسألونكَ عنِ النَّفقةِ، وهذَا يعمُّ السُّؤالَ عنِ المنفقِ والمنفَقِ عليهِ، فأجابهمْ عنهمَا، فقالَ: (قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ) أي: مالٍ قليلٍ أوْ كثيرٍ، فأولَى النَّاسِ بهِ وأحقُّهمْ بالتَّقديمِ أعظمهمْ حقًّا عليكَ، وهمُ الوالدانِ الواجبُ برُّهمَا، والمحرَّمِ عقوقهمَا، ومنْ أعظمِ برِّهمَا النَّفقةُ عليهمَا، ومنْ أعظمِ العقوقِ تركُ الإنفاقِ عليهمَا؛ ولهذَا كانتِ النَّفقةُ عليهمَا واجبةٌ علَى الولدِ الموسرِ، ومنْ بعدِ

---

(1) المغني، ابن قدامة ٨/ ٢١٢.

الوالدينِ الأقربونَ علَى اختلافِ طبقاتهمْ، الأقربُ فالأقربِ، علَى حسبِ القربِ والحاجةِ، فالإنفاقُ عليهمْ صدقةٌ وصلةٌ، ولقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمنْ جاءَ يشكُو أباهُ الذِي يريدُ أنْ يجتاحَ مالهُ، فقالَ: أنتَ ومالكَ لأبيكَ[1].

5) النَّفقةُ علَى الأبناءِ:

وتجبُ نفقةُ الطفلِ الحرِّ الفقيرِ علَى أبيهِ[2] للإجماعِ علَى ذلكَ[3]، ويؤيِّدهُ قولهُ تعالَى: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}[الطلاق: 6].

وهوَ أمرٌ للأزواجِ يقضِي بوجوبِ إعطاءِ المرأةِ أجرةَ الرَّضاعِ المستلزمةِ وجوبَ المؤونةِ عمومًا منْ رضاعٍ وغيرهِ[4].

ولقولهِ تعالَى: {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[البقرة: 233].

فلفظُ "المَوْلُودِ لَهُ" يعمُّ الوالدَ وسيِّدَ العبدِ، ويبيِّنُ أنَّ الولدَ لأبيهِ لَا لأمِّهِ، والآيةُ توجبُ رزقَ الرَّضيعِ علَى أبيهِ دونَ غيرهِ[5].

وقدْ دلَّتِ السنَّةُ علَى ذلكَ فِي كثيرٍ منَ الأحاديثِ، منهَا: مَا رُويَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنهُ قالَ لهندٍ: "خذِي مَا يكفيكِ وولدكِ بالمعروفِ[6].

وهذَا يقتضِي لزومَ نفقةِ الولدِ علَى أبيهِ وإلَّا لمَا كانَ لهَا الأخذُ بالمعروفِ.

(1) أخرجه ابن ماجه ٧٦٩/٢، ٢٢٩٢، وصححه الألباني في الإرواء ٨٣٨.

(2) انظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ٤٩٦/١، وحاشية ابن عابدين ٦١٢/٣، ٧٥١/٦، وتبيين الحقائق للزيلعي ٦٢/٣، ٦٤، والمبسوط للسرخسي ٢٢٢/٥، وفتح القدير، ابن الهمام ٢١٧/٤، ٢٢٠، والقوانين الفقهية، ابن جزي ص١٤٨، ومغني المحتاج ٤٤٨/٣، ٤٥١، والمجموع شرح المهذب ١٧٢/١٧، ١٧٨، ١٨٠، والمغني، ابن قدامة ٥٨٢/٧، ٥٨٤، ٦٢٧.

(3) انظر: مجمع الأنهار في شرح ملتقى الأبحر ٤٩٦/١، وبدائع الصنائع ٣٢/٤، والمغني، ابن قدامة ٥٨٣/٧.

(4) انظر: مغني المحتاج ٤٤٧/٣.

(5) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠٥/٣٤.

(6) أخرجه البخاري في النفقات، ٥٠٧/٩، ومسلم في الأقضية، باب قضية هند ٧/١٢.

ولمَا روَى أبُو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رجلًا جاءَ إلَى النبيِّ ﷺ فقالَ: يَا رسولَ اللهِ: عندِي دينارٌ؟ فقالَ: "أنفقهُ علَى نفسكَ، قالَ: عندِي آخرُ؟ فقالَ: أنفقهُ علَى ولدكَ... الحديث"[1].

ففِي هذَا الحديثِ أمرَ ﷺ بالإنفاقِ علَى الولدِ بمَا فضُلَ عنْ كفايةِ النَّفسِ، والأمرُ للوجوبِ، ممَّا يدلُّ علَى وجوبِ إنفاقِ الأبِ علَى أولادهِ.

وسببُ وجوبِ هذهِ النَّفقةِ هوَ الولادةُ؛ لأنَّ بهِ تثبتُ الجزئيَّةُ والبعضيَّةُ، والإنفاقُ علَى المحتاجِ إحياءٌ لهُ، ويجبُ علَى الإنسانِ إحياءَ كلِّهِ وجزئهِ، ولأنَّهَا قرابةٌ يحرمُ قطعهَا، وإذَا حرُمَ القطعُ حرمَ كلُّ سببٍ مفضٍ إليهِ، وتركُ الإنفاقِ منْ ذِي الرَّحمِ المحرَّمِ معَ قدرتهِ وحاجةِ المنفَقِ عليهِ، تُفضِي إلَى قطعِ الرَّحمِ فيحرمُ التَّركُ.

وإذَا حرمَ التَّركُ وجبَ الفعلُ[2]، ممَّا يدلُّ علَى وجوبِ الإنفاقِ علَى الأولادِ، ولأنَّ للأبَ ولايةٌ علَى ابنهِ، ممَّا يدلُّ علَى استحقاقهِ النَّفقةَ منْ أبيهِ[3]، ولأنَّ ولدَ الإنسانِ بعضهُ، فكمَا يجبُ علَى الإنسانِ أنْ ينفقَ علَى نفسهِ، فيجبُ عليهِ أنْ ينفقَ علَى ولدهِ[4].

(1) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب في صلة الرحم ١١٠/٥، والنسائي في الزكاة، باب أي الصدقة أفضل ٧٠/٥، وأحمد ٢٥١/٢، والحاكم في الزكاة، باب الإعطاء للأقرباء أعظم الأجر ٤١٥/١، وصححه الألباني في المشكاة ١٩٤٠.

(2) انظر: بدائع الصنائع ٣١/٤.

(3) انظر: المجموع شرح المهذب ١٧٢/١٧.

(4) انظر: المغني، ابن قدامة ٥٨٣/٧.

6) النَّفقةُ علَى القريبِ غيرِ الأبوينِ والأبناءِ:

أمَّا نفقةُ الأقاربِ غيرِ الأبوينِ والأبناءِ: فلَا تجبُ النَّفقةُ علَى القريبِ لقريبِهِ إلَّا منْ بابِ صلةِ الرَّحِمِ؛ لعدمِ ورودِ دليلٍ يخصُّ ذلكَ، بلْ جاءتْ أحاديثُ صلةُ الرَّحِمِ وهيَ عامَّةٌ، والرَّحِمُ المحتاجُ إلَى نفقةٍ أحقُّ الأرحامِ بالصِّلةِ، (ومنْ قالَ هذَا نراهُ يرَى النَّفقَ علَى القريبِ مندوبٌ مؤكَّدٌ).

وقيلَ: بلْ تجبُ؛ لأنَّ سببَ وجوبِ هذهِ النَّفقةِ هيَ القرابةُ[1] المحرَّمةُ للقطعِ؛ لأنَّهُ إذَا حرمَ قطعهَا حرمَ كلُّ سببٍ مفضٍ إليهِ، وتركُ الإنفاقِ منْ ذِي الرَّحِمِ المحرَّمِ[2]، معَ قدرتهِ وحاجتهِ تفضِي إلَى قطعِ الرَّحِمِ، فيحرمُ التَّركُ، وإذَا حرمَ التَّركُ وجبَ الفعلُ ضرورةً[3].

وهذَا هوَ الصَّوابُ؛ لقولِهِ تعالَى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ}[الإسراء: 26].

فقدْ أمرَ اللهُ سبحانهُ بالإحسانِ إلَى القرابةِ، وإيتائهِ حقِّهَا، ولَا ريبَ أنَّ منْ كانَ يتقلَّبُ فِي النِّعمِ وقريبهُ قدْ أضرَّ بهِ الجوعُ أوْ العريُ فهوَ غيرُ محسنٍ إليهِ ولَا قائمٍ بحقِّهِ، ولمَا جاءَ عندَ أبِي داودَ أنَّ رجلًا سألَ النَّبيَّ ﷺ: منْ أبرُّ؟ قالَ: "أمُّكَ وأباكَ، وأختكَ وأخاكَ، ومولاكَ الذِي يلِي ذلكَ، حقٌّ واجبٌ، ورحمٌ موصولةٌ"[4].

---

(1) انظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ٤٨٤/١، وحاشية ابن عابدين ٥٧٢/٣، وتبيين الحقائق للزيلعي ٥٠/٣، والمبسوط للسرخسي ١٨٠/٥، وفتح القدير، ابن الهمام ١٩٣/٤، ومغني المحتاج ٤٢٥/٣، وحاشية الشرقاوي على تحفة الطلاب ٣٤٥/٢، والمغني، ابن قدامة ٥٨٤/٧، وكشاف القناع عن متن الإقناع ٤٦٠/٥، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ٥٢٥/١.

(2) الرحم المحرم: هو من لا يحل مناكحته على التأبيد، مثل الأخوة والأخوات وأولادهما. مجمع الأنهر ٥٠٠/١.

(3) انظر: بدائع الصنائع ١٦/٤، ٣١.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، ٣٣٦/٤، ٤٥، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر ص ٣٢.

7) النَّفقةُ علَى الرَّقيقِ.

ومنَ النَّفقاتِ الواجبةِ أنْ ينفقَ السيِّدُ علَى مملوكهِ ذكورًا أوْ إناثًا بالمعروفِ، سواءٌ أكانَ المملوكُ صحيحًا أمْ سقيمًا، أوْ أعمَى، أوْ زمنًا، أوْ مدبَّرًا، أوْ مستولدًا، أوْ مستأجرًا، أوْ معارًا، أوْ قنًّا، أوْ مشتركًا، أو مبعَّضًا، أوْ صغيرًا أوْ كبيرًا، بخلافِ المكاتبِ فنفقتهُ لَا تجبُ علَى سيِّدهِ؛ لاستقلالهِ بالكسبِ[1].

وسببُ وجوبِ هذهِ النَّفقةِ: الملكُ[2] الموجبُ للاختصاصِ بالمملوكِ انتفاعًا وتصرُّفًا؛ ليكونَ بهِ صلاحهُ ودوامهُ، ومنْ ملكَ منفعةَ شيءٍ لزمتهُ مؤنتهُ؛ إذِ "الخراجُ بالضَّمانِ يجبُ"[3] ولأنَّ الرَّقيقَ لَا مالَ لهُ ومَا فِي يدهِ لمولاهُ، فلَا يجوزُ للرَّقيقِ أنْ ينفقَ علَى نفسهِ منْ مالِ غيرهِ، ممَّا يجعلُ الإنفاقَ واجبًا علَى سيِّدهِ[4].

وقدْ دلَّ الكتابُ علَى ذلكَ، قالَ تعالَى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}[النساء: 36].

---

(1) انظر: المبسوط ٥/١٩٩، وبلغة السالك ١/٥٢٥، وحاشية الدسوقي ٢/٥٢٢، وحاشية العدوي ٢/١٢٤، ومغني المحتاج ٣/٤٦٠، ونهاية المحتاج ٧/٢٣٦، وقليوبي وعميرة ٤/٩٢.

(2) انظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١/٤٨٤، وحاشية ابن عابدين ٣/٥٧٢، وتبيين الحقائق للزيلعي ٣/٥٠، والمبسوط للسرخسي ٥/١٨٠، وفتح القدير لابن الهمام ٤/١٩٣، ومغني المحتاج ٣/٤٢٥، والمغني لابن قدامة ٧/٥٨٤، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ١/٥٢٥.

(3) منظومة القواعد الفقهية لعثمان بن سند المالكي.

(4) انظر: بدائع الصنائع ٤/٣٩، والمغني لابن قدامة ٧/٥٨٥.

فَفِي هذهِ الآيةِ أمرٌ بالإحسانِ علَى المماليكِ، ومطلقُ الأمرِ يُحملُ علَى الوجوبِ؛ لأنَّ الإنفاقَ عليهِم منَ الإحسانِ بهمْ، فكانَ واجبًا، غيرَ أنَّهُ قدْ يردُ أنَّ الأمرَ ليسَ للوجوبِ حيثُ يكونُ للنَّدبِ.

ويجابُ علَى ذلكَ بأنَّهُ لوْ سلمَ بذلكَ لكانَ الأمرُ بالإحسانِ إليهمْ علَى وجهِ النَّدبِ؛ لغرضِ توسيعِ النَّفقةِ بعدَ وجوبِ أصلهَا؛ لأنَّ المرءَ لَا يتركَ أصلَ النَّفقةِ علَى مملوكهِ إشفاقًا، ومحافظةً علَى بقاءِ ملكهِ، وقدْ أُمرَ بالإنفاقِ عليهِ حتَّى لَا يقترَ النَّفقةَ عليهِ؛ لكونهِ مملوكًا فِي يدهِ، فأمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ السَّاداتَ بتوسيعِ النَّفقةِ علَى مماليكهمْ شكرًا لمَا أنعمَ عليهمْ منْ جعلِ منْ هوَ فِي جوهرهمْ وأمثالهمْ فِي الخلقةِ يقومونَ بخدمتهمْ[1].

وأمَّا منَ السنَّةِ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "إخوانكمْ خولكمْ، جعلهمْ اللهُ تحتَ أيديكمْ، فمنْ كانَ أخوهُ تحتَ يدهِ فليطعمهُ ممَّا يأكلُ، وليلبسهُ ممَّا يلبسُ، ولَا تكلِّفوهمْ مَا يغلبهمْ، فإنْ كلَّفتموهمْ فأعينوهمْ"[2].

فَفِي هذَا الحديثِ أمرٌ بالإنفاقِ علَى الرَّقيقِ واضحٌ، والأمرُ يقتضِي الوجوبَ، ممَّا يدلُّ علَى وجوبِ نفقةِ الرَّقيقِ علَى مالكهِ.

تمَّ الإنفاقُ الواجبُ.

---

(1) انظر: بدائع الصنائع ٤/٣٩.

(2) أخرجه البخاري في الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ١/٨٤، ومسلم في الإيمان، باب صحبة المماليك ١١/١٣٣، ١٣٤.

ثانيًا: الإنفاقُ المندوبُ:

ومنْ أنواعِ الإنفاقِ المذكورةِ فِي القرآنِ الكريمِ الإنفاقُ المندوبُ، فقدْ دعَا الإسلامُ إلَى البذلِ وحثَّ عليهِ، فِي أسلوبٍ يبعثُ فِي النَّفوسِ بواعثَ الخيرِ، ويثيرُ فيهَا معانِي البرِّ والإحسانِ، وجاءَ مَا يدلُّ علَى عظمِ الأجرِ والثَّوابِ لمنْ يعوِّدُ نفسهُ الإنفاقَ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى بشتَّى أنواعهِ وأحوالهِ وزمانهِ ومكانهِ، بلْ لمْ تقتصرِ الصَّدقةُ فِي نظرِ الشَّرعِ علَى نوعٍ معيَّنٍ منْ أعمالِ البرِّ، وإنَّمَا القاعدةُ العامَّةُ: أنَّ كلَّ معروفٍ صدقةٌ.

ومنَ الأدلةِ علَى ذلكَ فِي القرآنِ: قولهُ تعالَى: {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}[البقرة: 177].

فهذهِ الآيةُ قدِ اشتملتْ علَى خمسةَ عشرَ نوعًا منْ أنواعِ البرِّ الذِي يهدِي إلَى الحياةِ السَّعيدةِ فِي الدُّنيَا، وإلَى رضَا اللهِ تعالَى فِي الآخرةِ، وقدْ أرشدتْ إلَى أنَّ البرَّ أنواعٌ ثلاثةٌ، جامعةٌ لكلِّ خيرٍ، برٌّ فِي العقيدةِ، وبرٌّ فِي العملِ، وبرٌّ فِي الخلقِ، فأمَّا برُّ العقيدةِ فقدْ بيَّنتهُ أكملَ بيانِ الآيةُ فِي قولهِ تعالَى: (وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) وأمَّا برُّ العملِ فقدْ بيَّنتهُ فِي قولهِ: (وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ) وأمَّا برُّ الخلقِ

فقدْ بيَّنتهُ فِي قولهِ تعالَى: (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ) ولَا شكَّ أنَّ إنفاقَ المالِ فِي تلكَ الوجوهِ منْ شأنهِ أنْ يُسعدَ الأفرادَ والجماعاتِ والأممِ، ويكونُ مظهرًا منْ أفضلِ مظاهرِ العملِ الصَّالحِ الذِي يرضِي اللهَ تعالَى.

ومعنَى الآيةُ: ليسَ الخيرُ عندَ اللهِ تعالَى فِي التوجُّهِ فِي الصَّلاةِ إلَى جهةِ المشرقِ والمغربِ إنْ لمْ يكنْ عنْ أمرِ اللهِ تعالَى وشرعهِ، وإنَّمَا الخيرُ كلُّ الخيرِ هوَ إيمانُ منَ آمنَ باللهِ تعالَى وصدقَ بهِ معبودهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وآمنَ بيومِ البعثِ والجزاءِ وبالملائكةِ جميعًا، وبالكتبِ المنزلةِ كافَّةً، وبجميعِ النَّبيينَ منْ غيرِ تفريقٍ، وأعطَى المالَ تطوُّعًا ذوِي القربَى واليتامَى المحتاجينَ الذينَ ماتَ آباؤهمْ وهمْ دونَ سنِّ البلوغِ، والمساكينِ الذينَ أرهقهمْ الفقرُ، والمسافرينَ المحتاجينَ الذينَ بعدُوا عنْ أهلهمْ ومالهمْ، والسَّائلينَ الذينَ اضطرُّوا إلَى السُّؤالِ لشدَّةِ حاجتهمْ، وأنفقَ فِي تحريرِ الرَّقيقِ والأسرَى، وأقامَ الصَّلاةَ، وأدَّى الزَّكاةَ المفروضةَ.

والضَّمير فِي قولهِ تعالَى: (عَلَى حُبِّهِ) يعودُ إلَى المالِ، أي: أعطَى المالَ وبذلهُ عنْ طيبِ خاطرهِ حالَ كونهِ محبًّا لهُ راغبًا فيهِ؛ لأنَّ الإعطاءَ والبذلَ فِي هذهِ الحالةِ يدلُّ علَى قوَّةِ الإيمانِ، وصفاءِ الوجدانِ، ويسمُو بصاحبهِ إلَى أعلَى الدَّرجاتِ، كمَا قالَ تعالَى: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ"[آل عمران: 92].

وكقوله تعالى: "وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا"[الإنسان: 8].

وقدْ بيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّ أفضلَ الصَّدقةَ مَا كانَ فِي حالِ الصحَّةِ؛ لأنَّ الإنسانَ فِي هذهِ الحالةَ يكونُ مظنَّةَ الحاجةِ إلَى المالِ، فقدْ جاءَ رجلٌ إلَى النبيِّ ﷺ فقالَ:

يَا رسولَ اللهِ أيُّ الصَّدقةُ أعظمُ أجرًا؟ قالَ: "أنْ تصَّدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ، تخشَى الفقرَ وتأملَ الغنَى، ولَا تمهلَ حتَّى إذَا بلغتِ الحلقومَ قلتَ: لفلانٍ كذَا وكذَا، وقدْ كانَ لفلانٍ[1].

وحثَّ سبحانهُ وتعالَى علَى إطعامِ الأيتامِ والمساكينِ، ويزدادُ ذلكَ فضلًا بكونهِ فِي يومٍ ذِي مجاعةٍ؛ لأنَّ إخراجَ المالَ فِي وقتِ القحطِ أثقلُ علَى النَّفسِ، وأوجبَ لجزيلِ الأجرِ، قالَ تعالَى: {فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ}[البلد: **13، 14، 15، 16**].

فِفي هذهِ الآياتِ بيانٌ لفضيلةٍ منَ الفضائلِ التِي تؤدِّي إلَى اقتحامِ العقبةِ، تتمثَّلُ فِي فكِّ الرِّقابِ، وإطعامِ المحتاجينَ، فِي يومٍ يشتدُّ فيهِ جوعهمْ، والمسغبةُ: المجاعةُ، وهوَ مصدرٌ ميميٌّ، بمعنَى السَّغبِ، يقالُ: سغبَ الرَّجلَ كفرحَ ونصرَ إذَا أصابهُ الجوعُ، ووصفَ اليومَ بذلكَ علَى سبيلِ المبالغةِ، كمَا فِي قولهمْ: نهارهُ صائمٌ، وقيَّدَ سبحانهُ اليتيمَ بكونهِ ذَا مقربةٍ؛ لأنَّهُ فِي هذهِ الحالةَ يكونُ لهُ حقَّانِ: حقُّ القرابةِ وحقُّ اليتمِ، ومنْ كانَ كذلكَ فهوَ أولَى بالمساعدةِ منْ غيرهِ.

---

(1) أخرجه البخاري في الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح الصحيح ٢/١١٠، ١٤١٩، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح رقم ١٠٣٢.

تنوُّعُ الإنفاقِ فِي وجوهِ الخيرِ:

الإنفاقُ فِي وجوهِ الخيرِ بابٌ واسعٌ، وصدقاتُ التطوُّعِ أنواعٌ متعدِّدةٌ، فمنهَا مَا يسمَّى بالصَّدقةِ الجاريةِ، أوِ الوقفِ الخيريِّ الدَّائمِ الإنتاجِ لصالحِ منْ وقفَ عليهِمْ، ومنْ ذلكَ الواجبُ الاجتماعيُّ كمدِّ يدِ المساعدةِ لكلِّ محتاجٍ، وكإنشاءِ دورِ المعوقينَ، وإغاثةِ الملهوفينَ، وإشباعِ الجائعينَ، وكسوةِ العارينَ، وبناءِ المساجدِ لعامَّةِ المسلمينَ، وتشييدَ المستشفياتِ لمرضاهمْ، وحفرِ الآبارِ لهمْ فِي أيِّ مكانٍ يوجدُ فيهِ منْ يقولُ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ، وقدْ جاءَ أنَّ علَى المسلمِ فِي مالهِ حقوقًا عظيمةَ غيرَ الزَّكاةِ المفروضةِ.

وكمَا أنَّ الإنفاقَ فِي الخيرِ متنوِّعٌ، فكذلكَ المستفيدينَ منْ صدقةِ التطوُّعِ أيضًا شرائحُ متنوِّعةٌ، بينهمْ قاسمٌ مشتركٌ ألَا وهوَ الحاجةُ والعوزُ والفقرُ، والمرضُ والعجزُ، واليتمُ والترمُّلُ، وكبُر السنِّ، حتَّى بهيمةُ الأنعامِ يمكنُ أنْ تستفيدَ منَ صدقةِ التطوُّعِ، وهيَ أيضًا لهَا إنفاقٌ واجبٌ إنْ لهَا مالكٌ.

ثالثًا: الإنفاقُ المذمومُ:

ومنْ أنواعِ الإنفاقِ المذكورةِ فِي القرآنِ الكريمِ الإنفاقُ المذمومُ، ومنهُ إنفاقُ الأموالِ فِي الصدِّ عنْ سبيلِ اللهِ تعالَى، كمَا وقعَ منْ كفَّارِ قريشٍ يومَ بدرٍ ويومَ أحدٍ ويومَ الأحزابِ، فإنَّ الرُّؤساءَ كانُوا ينفقونَ أموالهمْ علَى الجيشِ لقتالِ الرَّسولِ ﷺ، والصدِّ عنْ سبيلِ اللهِ تعالَى.

قالَ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ}[الأنفال: 36].

أيْ: إنَّ الذينَ جحدُوا وحدانيَّةَ اللهِ تعالَى، وعصُوا رسولهُ ﷺ، ينفقونَ أموالهمْ فيعطونهَا أمثالهمْ منَ المشركينَ وأهلِ الضَّلالِ؛ ليصدُّوا عنْ سبيلِ اللهِ تعالَى، ويمنعُوا المؤمنينَ عنِ الإيمانِ باللهِ ورسولهِ، فينفقونَ أموالهمْ فِي ذلكَ، ثمَّ تكونُ عاقبةُ نفقتهمْ تلكَ ندامةً وحسرةً عليهمْ؛ لأنَّ أموالهمْ تذهبُ ولَا يظفرونَ بمَا يأملونَ منْ إطفاءِ نورِ اللهِ تعالَى، والصدِّ عنْ سبيلهِ، ثمَّ يهزمهمُ المؤمنونَ آخرَ الأمرِ، والذينَ كفرُوا إلَى جهنَّمَ يحشرونَ فيعذبُّونَ فيهَا.

والآيةُ وإنْ نزلتْ فِي أهلِ بدرٍ إلَّا أنَّهَا كمَا قالَ ابنُ كثيرٍ عامَّةٌ، وإنْ كانَ سببُ نزولهَا خاصًّا، فقدْ أخبرَ تعالَى أنَّ الكفَّارَ ينفقونَ أموالهمْ ليصدُّوا عنِ اتِّباعِ طريقِ الحقِّ، فسيفعلونَ ذلكَ، ثمَّ تذهبُ أموالهمْ (ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً) أيْ: ندامةً؛ حيثُ لمْ تجدْ شيئًا؛ لأنَّهمْ أرادُوا إطفاءَ نورِ اللهِ، وظهورِ كلمتهمْ علَى كلمةِ الحقِّ، واللهُ متمٌّ نورهُ ولوْ كرهَ الكافرونَ، وناصرٌ دينهُ ومعلنٌّ كلمتهُ، ومظهرٌ دينهُ علَى كلِّ دينٍ، فهذَا الخزيُ لهمْ فِي الدُّنيَا، ولهمْ فِي الآخرةِ عذابُ النَّارِ، فمنْ عاشَ منهمْ رأَى بعينهِ وسمعَ بأذنهِ مَا يسوءهُ، ومنْ قتلَ منهمْ أوْ ماتَ فإلَى الخزيِ الأبديِّ والعذابِ السرمديِّ[1].

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٥٣.

والآيةُ واردةٌ فِي مقامِ الإنذارِ لمنْ هذَا حالهُ منَ الذينَ ينفقونَ أموالهمْ ليصدُّوا عنْ سبيلِ اللّهِ تعالَى، فأخبرَ اللّهُ تعالَى أنَّهَا ستعودُ عليهمْ بالحسرةِ، وأنَّهمْ سينفقونهَا لتضيعَ فِي النِّهايةِ وليغلبُوا همْ، وينتصرُ الحقُّ فِي هذهِ الدُّنيَا، وسيحشرونَ فِي الآخرةِ إلَى جهنَّمَ فتتمُّ الحسرةُ الكبرَى، حيثُ يجمعُ اللّهُ تعالَى الخبيثَ علَى الخبيثِ فيلقِي بهِ فِي جهنَّمَ، وتلكَ غايةُ الخسرانِ.

والتَّعبيرُ القرآنيُّ يجسِّمُ الخبيثَ حتَّى لكأنَّهُ جرمٌ ذُو حجمٍ، وكأنَّمَا هوَ كومةٌ منَ الأقذارِ، يقذفُ بهَا فِي النَّارِ دونَ اهتمامٍ ولَا اعتبارٍ.

فمَا أعظمهَا منْ حسرةٍ، فإنفاقُ الأموالِ هدرًا، وانقلابهَا حسرةً وغلبةً منْ دواعِي الهمِّ والغمِّ أنْ ينفقَ الإنسانُ مالهُ لهدفٍ منَ الأهدافِ، ثمَّ يكونُ الفشلُ بضياعِ المالِ دونَ تحقيقِ الغايةِ، وممَّا يزيدُ الأمرَ مرارةً أنْ ينقلبَ هذَا الإنفاقُ حسرةً عليهمْ، ليسَ ذلكَ فحسبُ، بلْ تكونُ الهزيمةُ والغلبةُ عليهمْ أيضًا، بالإضافةِ إلَى العذابِ الأخرويِّ، وهوَ الحشرُ إلَى جهنَّمَ ليذوقُوا العذابَ، فاعتبرُوا يَا أولِي الألبابِ.

فهذَا وعيدٌ يتلوهُ وعيدٌ، أربعةُ تهديداتٍ متتاليةٍ لأولئكَ الذينَ ينفقونَ الأموالَ لأجلِ الصدِّ عنْ سبيلِ اللّهِ وإماتةِ سنَّةَ رسولهِ ﷺ، فإنَّهَا قضيَّةٌ قديمةٌ وحديثةٌ، فالكفَّارُ والضلَّالُ فِي زماننَا ومنْ والاهمْ ينفقونَ الأموالَ والثَّرواتِ لأجلِ محاربةِ الإسلامِ والمسلمينَ، وإماتةِ مظاهرِ السنَّةِ منَ الوجودِ، فسينفقونهَا وقدْ أنفقوهَا ثمَّ تكونُ عليهمْ حسرةً ثمَّ يغلبونَ، ثمَّ إلَى جهنَّمَ يحشرونَ، هكذَا أخبرَ اللّهُ تعالَى.

والإنفاقُ فِي الصدِّ عنْ سبيلِ اللهِ تعالَى مستمرٌّ فِي كلِّ زمانٍ، ومنهُ الإنفاقُ علَى الفتنةِ والفسادِ والكبائرِ كلِّهَا، وإغواءِ عبادِ اللهِ بأنواعٍ منَ الفتنِ، كمنْ يطلقُ قنواتٍ فضائيَّةٍ غنائيَّةٍ وغيرَ غنائيَّةٍ، فيهَا الفُحشُ والتعرِّي، أوْ فيهَا الدَّعوةُ إلَى تقليدِ أعداءِ الدِّينِ، والسَّيرِ فِي ركابهمْ، وفيهَا تخديرُ العقولِ، وتعطيلُ الطَّاقاتِ، والإعجابُ بالأعداءِ وبعاداتهمْ وتقاليدهمْ، ونزعِ حاجزِ العداوةِ الذِي بيننَا وبينهمْ واللهث تعالَى يقولُ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}[الممتحنة: 4]، أوْ ينفقونَ أموالهمْ فِي نشرِ البدعِ والضَّلالاتِ والسحرِ والشَّعوذةِ والخرافاتِ، فكلُّ منْ أنفقَ هذهِ الأموالَ فِي هذهِ المنابرِ هوَ منَ الصادِّينَ عنْ سبيلِ اللهِ تعالَى، وكذلكَ منْ يقومونَ بالدِّعايةِ لهَا، أوِ التَّرويجِ لهَا، ببيعٍ أوْ تسويقٍ ونحوهَا فمنْ شاركَ فِي العصيانِ فهوَ عاصٍ وقسْ علَى ذلكَ، نسألُ اللهَ تعالَى أنْ يكفَّ أذاهمْ عنِ المسلمينَ.

ونلحظُ فِي هذهِ الآيةِ أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالَى أخبرَ عنِ الغيبِ علَى وجهِ الإعجازِ، فقالَ تعالَى: (فَسَيُنْفِقُونَهَا) أيْ: سيقعُ منهمْ هذَا الإنفاقُ (ثمَّ تَكُونُ) كمَا وعدَ اللهُ بهِ، فِي مثلِ قولهِ: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}[المجادلة: 21].

كمَا أنَّ ظاهرَ قولهِ: (إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرونَ) يفيدُ أنَّهُ لَا يكونُ حشرهمْ إلَّا إلَى جهنَّمَ؛ لأنَّ تقديمَ الخبرَ يفيدُ الحصرَ، ومعنَى: (ثُمَّ) فِي الموضعينِ إمَّا التَّراخِي

فِي الزَّمانِ لمَا بينَ الإنفاقِ المذكورِ وبينَ ظهورِ دولةِ الإسلامِ منَ الامتدادِ، وإمَّا التَّراخِي فِي الرُّتبةِ لمَا بينَ بذلِ المالِ وعدمِ حصولِ المقصودِ منَ المباينةِ.

وأتَى بصيغةِ المضارعِ فِي قولهِ تعالَى ﴿يُنْفِقُونَ﴾ للإشارةِ إلَى أنَّ ذلكَ دأبهمْ، وأنَّ الإنفاقَ مستمرٌّ لإعدادِ العددِ لغزوِ المسلمينَ وصرفهمِ عنْ دينهمْ، فإنفاقهمْ حصلَ فِي الماضِي ويحصلُ فِي الحالِ والتَّنفيسِ، وأشعرتْ لامُ التَّعليلِ بأنَّ الإنفاقَ مستمرٌّ؛ لأنَّهُ منوطٌ بعلَّةٍ ملازمةٍ لنفوسهمْ وهيَ بغضُ الإسلامِ، وصدِّهمُ النَّاسَ عنهُ.

و﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ جمعٌ مضافٌ، يجعلهُ منْ صيغِ العمومِ، فكأنَّهُ قيلَ: ينفقونَ أموالهمْ كلَّهَا مبالغةً، وإلَّا فإنَّهمْ ينفقونَ بعضَ أموالهمْ، والفاءُ فِي ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ تفريعٌ علَى العلَّةِ؛ لأنَّهمْ لمَّا كانَ الإنفاقُ دأبهمْ لتلكَ العلَّةِ المذكورةِ كانَ ممَّا يتفرَّعُ علَى ذلكَ تكرَّرَ هذَا الإنفاقُ فِي المستقبلِ، أيْ: ستكونُ لهمْ شدائدُ منْ بأسِ المسلمينَ تضطرهمْ إلَى تكريرِ الإنفاقِ علَى الجيوشِ لدفاعِ قوَّةِ المسلمينَ.

وضميرُ ﴿يُنْفِقُونَهاَ﴾ راجعٌ إلَى الأموالِ لَا بقيدِ كونهَا المنفقةُ، بلِ الأموالُ الباقيةُ، أوْ بمَا يكتسبونهُ...، وأسندتِ الحسرةُ إلَى الأموالِ؛ لأنَّهَا سببُ الحسرةِ بإنفاقهَا، ثمَّ إنَّ الإخبارَ عنهَا بنفسِ الحسرةِ مبالغةٌ، مثلَ الإخبارُ بالمصادرِ؛ لأنَّ الأموالَ سببٌ التحسُّرِ لَا سببَ الحسرةِ نفسهَا، وهذَا إنذارٌ بأنَّهمْ لَا يحصلونَ منْ إنفاقهمْ علَى طائلٍ فيمَا أنفقُوا لأجلهِ؛ لأنَّ المنفقَ إنَّمَا يتحسَّرُ ويندمُ إذَا لمْ يحصلْ لهُ المقصودث منْ إنفاقهِ، ومعنَى ذلكَ أنَّهمْ ينفقونَ ليغلبُوا فلَا يغلبونَ، فقدْ أنفقُوا بعدَ ذلكَ علَى الجيشِ يومَ أحدٍ...، ثمَّ أنفقُوا علَى الأحزابِ حينَ هاجمُوا المدينةَ، ثمَّ انصرفُوا بلَا طائلٍ، فكانَ

إنفاقهمْ حسرةً عليهمْ، وقولهُ تعالَى: (ثُمَّ يُغْلَبُونَ) ارتقاءٌ فِي الإنذارِ بخيبتهمْ وخذلانهمْ؛ فإنَّهمْ بعدَ أنْ لمْ يحصلُوا منْ إنفاقهمْ علَى طائلٍ، توعدُّوا بأنَّهمْ سيغلبهمُ المسلمونَ بعدَ أنْ غلبوهمْ أيضًا يومَ بدرٍ، وهوَ إنذارٌ لهمْ بغلبِ فتحِ مكَّةَ، وانقطاعِ دابرِ أمرهمْ، وإسنادُ الفعلِ إلَى المفعولِ لكونِ فاعلِ الفعلِ معلومًا بالسِّياقِ، فإنَّ أهلَ مكَّةَ مَا كانُوا يقاتلونَ غيرَ المسلمينَ[1].

والصدُّ عنْ سبيلِ اللهِ تعالَى قدْ يكونُ عامًا، وذلكَ بالصدِّ عنِ الدِّينِ كلِّيةً، وقدْ يكونُ الصدُّ جزئيًّا، وذلكَ بالصدِّ عنْ بعضِ تشريعاتِ الإسلامِ، ومحاربتهَا ومنعهَا، والتَّضييقِ علَى أهلهَا، كالحجابِ والنِّقابِ وإرخاءِ اللِّحيةِ والأذانِ وحلقاتِ القرآنِ، فمنَ النَّاسِ منْ يستغلُّ كلَّ إمكاناتهِ العقليَّةِ وقدراتهِ الماليَّةِ فِي تزيينِ الباطلِ وتلميعهِ بشتَّى ألوانِ الزِّينةِ والإغراءِ، يريدُ إضلالَ النَّاسِ، وتجهيلهمْ وإبعادهمْ عنِ الهدَى، ومنْ ثمَّ فإنَّ وجههُ يتمعَّرُ غضبًا حينمَا يرَى كلمةَ الحقِّ قدْ أينعتْ وآتتْ أكلهَا، فلَا يهدأُ لهُ بالٌ، أوْ يطمئنُّ لهُ حالٌ، حتَّى يفسدَ تلكَ الثِّمارِ بكلِّ تشنُّجٍ واضطرابٍ، والغريبُ فِي الأمرِ أنَّ منْ هؤلاءِ تجدهمْ لَا يَتركونَ صلاةً فِي المسجدِ، ولكَّنهمْ يبغونهَا عوجًا.

---

(1) انظر: التحرير والتنوير ١/١٧٥٧.

وهؤلاءِ القومُ مساكينُ يظنُّونَ أنَّهمْ بكلمةٍ عوراءُ أوْ عصًا غليظةً أو جحورٍ مظلمةٍ سوفَ يقضونَ علَى شجرةِ التَّوحيدِ، ويقطعونَ أغصانَ الفضيلةِ، ومَا درُوا أنَّ اللهَ تعالَى متمٌّ نورهُ، ومظهرٌ دينهُ، وناصرٌ أولياءهُ ولوْ كرهَ الكافرونَ والمجرمونَ الضَّالونَ.

وقدْ أخبرَ اللهُ تعالَى أنَّ هؤلاءِ لَا يستفيدونَ منْ بذلهمْ أموالهمْ فِي تلكَ الإنفاقاتِ إلَّا الحسرةِ والخيبةِ فِي الدُّنيَا، والعذابِ الشَّديدِ فِي الآخرةِ؛ وذلكَ يوجبُ الزَّجرَ العظيمَ عنْ ذلكَ الإنفاقِ الخبيثِ.

آدابُ الإنفاقِ:

تحدَّثَ القرآنُ الكريمُ عنْ آدابِ الإنفاقِ، وهوَ بدورهِ علَى أقسامٍ:

أوَّلًا: أنْ يكونُ الإنفاقُ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى:

فقدْ حثَّ الإسلامُ علَى الإنفاقِ، وأنْ يكونَ فِي سبيلِ اللهِ، فِي كثيرٍ منَ الآياتِ والأحاديثِ؛ لأنَّ الإنفاقَ فِي سبيلِ اللهِ هوَ نتيجةٌ مباشرةٌ للإيمانِ باللهِ تعالَى، وعلامةٌ علَى عمقِ اليقينِ باللهِ، وبأنَّهُ واهبُ الحياةِ والغنَى والملكِ والهدَى، وشخصيَّةُ المسلمِ تتميَّزُ بأنَّهَا معطاءةٌ، وعطاؤهَا ليسَ منْ أجلِ شهرةٍ أوْ رياءٍ، بلْ خالصًا لوجهِ اللهِ تعالَى فإنَّ كلَّ عملٍ يُرجَى منهُ الأجرُ تشترطُ فيهِ النيَّةُ.

قال تعالى: {وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[البقرة: 195].

ثانيًا: ألَّا يتبعَ الإنفاقَ بالمنِّ والأذَى:

ومنْ آدابِ الإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى ألَّا يتبعَ المنفقَ نفقتهُ بالمنِّ والأذَى، قالَ اللهُ تعالَى: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًىۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: 262].

ونظيرهُ قولهُ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[البقرة: 264].

فقوله: (ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ) أي: لَا يتبعُ نفقتهُ التِي أنفقهَا منًّا أوْ أذًى، وعطفَ بـ (ثُمَّ) إمَّا لبعدِ مَا بينَ المنزلتينِ، أوْ للمهلةِ حقيقةً، ويكونُ فيهِ إشارةٌ إلَى أنَّهمْ يمنُّونَ بنفقةٍ طالَ أمدهَا، وداموُا عليهَا، فأحرَى أنْ لَا يمنُّوا بنفسِ الإنفاقِ[1]، ولأنَّ ذكرَ المنِّ والأذَى وإنْ كانَ متأخِّرًا عنِ الإنفاقِ إلَّا أنَّ هذَا الذِّكرَ المتأخِّرَ يدلُّ ظاهرًا علَى أنَّهُ حينَ أنفقَ مَا كانَ إنفاقهُ لوجهِ اللهِ، بلْ لأجلِ الترفُّعِ علَى النَّاسِ، وطلبِ الرِّياءِ والسُّمعةِ، ومتَى كانَ الأمرُ كذلكَ كانَ إنفاقهُ غيرَ موجبٍ للثَّوابِ.

---

(1) تفسير ابن عرفة ١/ ٣٤٢.

وفيهِ إشارةٌ علَى أنَّ المنَّ والأذَى ولوْ تراخَى عنِ الصَّدقةِ وطالَ زمنهُ ضرَّ بصاحبهِ، ولمْ يحصلْ لهُ مقصودُ الإنفاقِ، ولوْ أتَى بالواوِ، فِي قولهِ: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ لأوهمتِ تقييدَ ذلكَ بالحالِ، وإذَا كانَ المنُّ والأذَى المتراخِي مبطلًا لأثرِ الإنفاقِ، مانعًا منَ الثَّوابِ، فالمقارنُ أولَى وأحرَى[1].

وقولهُ: ﴿مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ المنُّ: أنْ يعتدَّ بإحسانهِ علَى منْ أحسنَ إليهِ، بحيثُ يقولُ: أنَا فعلتُ معهُ كذَا وكذَا، إظهارًا لميزتهِ عليهِ، والأذَى: أنْ يتطاولَ عليهِ بذلكَ، ويقولُ: لولَا أنَا لمْ يكنْ منكَ شيءٌ مثلًا، ويقعانِ بالقولِ والفعلِ.

ولكثرةِ وقوعِ المنِّ منَ المتصدِّقينَ وعسرِ تحفُّظهمْ منهُ أفردهُ بالذكرِ، وقدَّم علَى الأذَى، وإلَّا فالأذَى يشملُ المنَّ وغيرهُ، وإنَّمَا نصَّ عليهِ لكثرتهِ.

وقدْ جعلَ ابنُ القيِّمِ المنَّ نوعينِ، فقالَ: فالمنُّ نوعانِ:

أحدهمَا: منٌّ بقلبهِ، منْ غيرِ أنْ يصرِّحَ بهِ بلسانهِ، وهذَا إنْ لمْ يُبطلْ الصَّدقةَ فهوَ منْ نقصانِ شهودِ منَّةِ اللهِ عليهِ فِي إعطائهِ المالَ، وحرمانِ غيرهِ، وتوفيقهِ للبذلِ، ومنعِ غيرهِ منهُ، فللَّهِ المنَّةُ عليهِ منْ كلِّ وجهٍ، فكيفَ يشهدُ قلبهُ منَّةً لغيرهِ.

---

(1) التفسير القيم، ابن القيم ١/٢٦١.

والنَّوعُ الثَّانِي: أنْ يمنَّ عليهِ بلسانهِ، فيعتدَّى علَى منْ أحسنَ إليهِ بإحسانهِ، ويريهِ أنَّهُ اصطنعهُ، وأنَّهُ أوجبَ عليهِ حقًّا وطوَّقُه منَّةً فِي عنقهِ، فيقولُ: أمَّا أعطيتكَ كذَا وكذَا، ويعدِّدُ أياديهِ عندهُ، قالَ سفيانُ: يقولُ: أعطيتكَ فمَا شكرتَ، وقالَ عبدُ الرَّحمنِ بنُ زيدٍ: كانَ أبِي يقولُ: إذَا أعطيتَ رجلًا شيئًا، ورأيتَ أنَّ سلامكَ يثقلُ عليهِ، فكُفَّ سلامكَ عنهُ، وكانُوا يقولونَ: إذَا اصطنعتمْ صنيعةً فانسوهَا، وإذَا أسديتُ إليكمْ صنيعةً فلَا تنسوهَا...، وحظرَ اللهُ علَى عبادهِ المنَّ بالصَّنيعةِ، واختصَّ بهِ صفةً لنفسهِ؛ لأنَّهُ منَ العبادِ تكديرٌ وتعييرٌ، ومنَ اللهِ سبحانهُ وتعالَى إفضالٌ وتذكيرٌ، وأيضًا فإنَّهُ هوَ المنعمُ فِي نفسِ الأمرِ والعبادِ وسائطُ، فهوَ المنعمُ علَى عبدهِ فِي الحقيقةِ، وأيضًا فالامتنانُ استعبادٌ، وكسرٌ وإذلالٌ لمنْ يمنُّ عليهِ، ولَا تصلحُ العبوديَّةُ والذلُّ إلَّا للهِ...، ومنْ هنَا – واللهُ أعلمُ – بطلتْ صدقتهُ بالمنِّ، فإنَّهُ لمَا كانتْ معاوضتهُ ومعاملتهُ معَ اللهِ، وعوضَ تلكَ الصَّدقةَ عندهُ فلمْ يرضَ بهِ، ولاحظَ العوضَ منَ الأخذِ، والمعاملةَ عنهُ، فمنَّ عليهِ بمَا أعطاهُ أبطلَ معاوضتهُ معَ اللهِ، ومعاملتهُ لهُ[1].

ويُفهمُ منْ هذهِ الآيةِ أنَّ منْ أتبعَ إنفاقهُ المنَّ والأذَى لمْ يحصلْ لهُ هذَا الثَّوابَ المذكورَ هنَا، فِي قولهِ تعالَى: {لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: 262].

وقدْ صرَّحَ تعالَى بهذَا المفهومِ فِي قولهِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ}[البقرة: 264].

---

(1) التفسير القيم، ابن القيم ١/٢٦٠.

ثالثًا: الإنفاقُ فِي السرِّ أولَى، إلَّا أنْ يكونَ قدوةً لغيرِهِ:

ذكرَ اللهُ تعالَى فِي القرآنِ الكريمِ إنفاقَ السرِّ وإنفاقَ العلانيَّةِ، وجعلَ كليهمَا سلوكًا عامًا للمؤمنينَ، ومدحَ كلَا النَّوعينِ فِي سياقٍ واحدٍ، فقالَ تعالَى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: 274].

وقال: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ}[الرعد: 22].

فهذهِ الآياتُ تفيدُ أنَّ الإنفاقَ فِي كلَا الحالينِ فِي السرِّ وفِي العلانيَّةِ مشروعٌ ومحمودٌ، وأنَّ الصَّدقاتِ فِي كلِّ أحوالهَا خيرٌ محضٌ، مَا دامَ المنفقُ قدْ خلصَ منَ الرِّياءِ، وجانبَ المنَّ والأذَى، وإذَا كانَ ثمَّةَ تفاوتٌ فهوَ فِي حالِ النَّفسِ، والاحتياطِ للرِّياءِ، وسدِّ مداخلهِ.

إلَّا أنَّ هناكَ تفصيلًا منْ ناحيةِ أفضليَّةِ أيٍّ منهمَا فِي أحوالٍ وظروفٍ معيَّنةٍ، ومنطلقُ العلماءِ فِي مسألةِ تفضيلِ الإنفاقِ سرًّا علَى علانيَّتِهِ أوِ العكسُ هوَ قولهُ تعالَى: {إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[البقرة: 271].

فذهبَ جمهورُ المفسِّرينَ إلَى أنَّ هذهِ الآيةِ فِي صدقةِ التطوُّعِ، فالإخفاءُ فيهَا أفضلُ منَ الإظهارِ، وكذلكَ سائرُ العباداتِ الإخفاءُ أفضلُ فِي تطوِّعهَا؛ لانتفاءِ الرِّياءِ عنهَا، وليسَ كذلكَ الواجباتُ، قالَ الحسنُ: إظهارُ الزَّكاةِ أحسنُ، وإخفاءُ التطوُّعِ أفضلُ؛ لأنَّهُ أدلُّ علَى أنَّهُ يرادُ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ وحدهُ[1]، ويُروى عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا أنَّهُ قالَ: جعلَ اللهُ صدقةَ السرِّ فِي التطوُّعِ

تفضلُ علَى علانيتهَا سبعينَ ضعفًا، وجعلَ صدقةَ الفريضةِ علانيَّتهَا أفضلُ منْ سرِّهَا بخمسةٍ وعشرينَ ضعفًا[2].

قالَ ابنُ العربِي: أمَّا صدقةُ الفرضِ فلَا خلافَ أنَّ إظهارهَا أفضلُ، كصلاةِ الفرضِ، وسائرِ فرائضِ الشَّريعةِ؛ لأنَّ المرءَ يحرزُ بهَا إسلامهُ، ويعصمُ مالهُ ... ثمَّ قالَ فِي مسألةِ صدقةِ النَّفلِ: والتَّحقيقُ فيهَا: أنَّ الحالَ فِي الصَّدقةِ تختلفُ بحالِ المعطِي لهَا، والمُعطَى إيَّاهَا، والنَّاسِ الشَّاهدينَ لهَا، أمَّا المعطِي فلهُ فائدةُ إظهارِ السنَّةِ وثوابُ القدوةِ، وآفتهَا الرِّياءُ والمنُّ والأذَى، وأمَّا المُعطَى إيَّاهَا فإنَّ السرَّ أسلمَ لهُ منِ احتقارِ النَّاسِ لهُ، أوْ نسبتهُ إلَى أنَّهُ أخذهَا معَ الغنَى عنهَا، وتركِ التعفُّفِ، وأمَّا حالُ النَّاسِ فالسرِّ عنهمْ أفضلُ منَ العلانيَةِ لهمْ، منْ جهةِ أنَّهمْ ربَّمَا طعنُوا علَى المعطِي لهَا بالرِّياءِ، وعلَى الآخذِ لهَا بالاستثناءِ؛ ولهمْ فيهَا تحريكُ القلوبِ إلَى الصَّدقةِ، لكنْ هذَا اليومَ قليلٌ[3].

وبعضُ العلماءِ يرَى أنَّ أفضليَّةَ إخفاءِ الصَّدقةِ مقيَّدةٌ بإيتاءِ الفقراءِ خاصَّةً لَا فِي كلِّ الصَّدقاتِ؛ تماشيًا معَ منطوقِ الآيةِ، يقولُ ابنُ القيِّمِ: تأمَّلْ تقييدهُ تعالَى الإخفاءَ بإيتاءِ الفقراءِ خاصَّةً، ولمْ يقلْ: وإنْ تخفوهَا فهوَ خيرٌ لكمْ، فإنَّ منَ الصَّدقةِ مَا لَا يمكنُ إخفاؤهُ كتجهيزِ جيشٍ، وبناءِ قنطرةٍ، وإجراءِ نهرٍ، أوْ غيرِ ذلكَ[4].

(1) الجامع لأحكام القرآن ٣/٣٣٢.
(2) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٢/٧٧.
(3) أحكام القرآن ١/٣١٥.
(4) التفسير القيم للإمام ابن القيم ص١٧٠.

والمقصودُ أنَّ أكثرَ العلماءِ يرونَ أنَّ الأفضلَ فِي الصَّدقاتِ الواجبةِ الإظهارُ، وأمَّا فِي سائرِ الصَّدقاتِ المندوبةِ فالأفضلُ فيهَا الإخفاءُ والإسرارُ، وهذَا فِي الأحوالِ العاديَّةِ، أمَّا فِي أحوالٍ أخرَى استثنائيَّةٍ، فيمكنُ النَّظرُ فِي المصلحةِ المتحقِّقةِ بينَ إخفاءٍ أوْ إسرارِ الصَّدقةِ الواجبةِ أوِ النَّافلةِ.

رابعًا: أنْ يكونَ المالُ المنفقُ منهُ منَ الطيِّبِ:

فمنْ آدابِ الإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى أنْ يكونَ الإنفاقُ منَ الطيِّبِ، وقدْ حثَّ القرآنُ الكريمُ علَى الإنفاقِ ممَّا يحبهُ المسلمُ، فقالَ تعالَى: {لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}[آل عمران: 92].

فقوله: (لَنْ تَنَالُوا) أي: تدركُوا، وتبلغُوا البرَّ الذِي هوَ كلُّ خيرٍ منْ أنواعِ الطَّاعاتِ، وأنواعِ المثوباتِ الموصلِ لصاحبهِ إلَى الجنَّةِ (حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) أي: منْ أموالكمُ النَّفيسةِ التِي تحبُّهَا نفوسكمْ، فإنَّكمْ إذَا قدَّمتمْ محبَّةَ اللهِ تعالَى علَى محبَّةِ الأموالِ فبذلتموهَا فِي مرضاتهِ، دلَّ ذلكَ علَى إيمانكمْ الصَّادقِ، وبرِّ قلوبكمْ، ويقينِ تقواكمْ، فيدخلُ فِي ذلكَ إنفاقُ نفائسِ الأموالِ، والإنفاقُ فِي حالِ حاجةِ المنفقِ إلَى مَا أنفقهُ، والإنفاقُ فِي حالِ الصحَّةِ، ودلَّتِ الآيةُ أنَّ العبدَ بحسبِ إنفاقهِ للمحبوباتِ يكونُ برُّهُ، وأنَّهُ ينقصُ منْ برِّهِ بحسبِ مَا نقُصَ منْ ذلكَ[1].

---

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/١٣٨.

الإنفاقُ منَ الطيِّبِ:

وأمرَ اللهُ تعالَى بالإنفاقِ منَ أطيبِ المالِ وأجودِهِ وأنفسهِ، ونهاهمْ عنِ التصدُّقِ برذالةِ المالِ ودنيئهِ وخبيثهِ، فإنَّ اللهَ تعالَى طيِّبٌ لَا يقبلُ إلَّا طيِّبًا، قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[البقرة: 267].

وهوَ المعبَّرُ عنهُ بِـ (الحسنِ) فِي قولهِ تعالَى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}[البقرة: 245].

فقولهُ: (أَنْفِقُوا) يشملُ النَّفقةَ الواجبةَ والمستحبَّةَ، أمَّا الواجبةُ وهيَ الزَّكاةُ، فيُحملُ الأمرُ علَى الوجوبِ؛ إذْ لَا يصحُّ دفعُ الرَّديءِ فيهَا، وأمَّا التطوُّعُ فعلَى سبيلِ الكمالِ.

وقولهُ: (مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ) أي: منْ أجودِ مَا كسبتمْ ومختارهِ، كذَا قالَ الجمهورُ، وقالَ جماعةٌ: إنَّ معنَى الطيِّباتِ هنَا الحلالُ، ولَا مانعَ منِ اعتبارِ الأمرينِ جميعًا؛ لأنَّ جيِّدَ الكسبِ ومختارهِ إنَّمَا يطلقُ علَى الحلالِ عندَ أهلِ الشَّرعِ، وإنْ أطلقهُ أهلُ اللُّغةِ علَى مَا هوَ جيِّدٌ فِي نفسهِ حلالًا كانَ أوْ حرامًا، فالحقيقةُ الشَّرعيَّةُ مقدَّمةٌ علَى اللُّغويَّةِ[1].

ومنهُ قولهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "إنَّ اللهَ طيِّبٌ لَا يقبلُ إلَّا طيِّبًا ..." [2].

---

(1) فتح القدير ٤٣٦/١.

(2) راوه الترمذي وصححه الألباني.

وقولهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "مَنْ تصدَّقَ بعدْلِ تمرَةٍ مِنْ كسبٍ طيِّبٍ، ولَا يقبَلُ اللهُ إلَّا الطيِّبَ، فإِنَّ اللهَ يتقبَّلُها بيمينِهِ، ثُمَّ يُربيها لصاحبِها، كما يُرَبِّى أحدُكم فَلُوَّهُ حتى تكونَ مثلَ الجبَلِ"[1].

خامسًا: أنْ تطيبَ نفسُ المنفقِ بالنَّفقةِ:

ومنْ آدابِ الإنفاقِ أنْ تطيبَ نفسُ المنفقِ بالنَّفقةِ، قالَ تعالَى: "وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ"[البقرة: 265].

فمعنَى: (وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ) أي: صدرَ الإنفاقُ علَى وجهٍ منشرحةٍ لهُ النَّفسُ، سخيَّةٍ بهِ، لَا علَى وجهِ التردُّدِ، وضعفِ النَّفسِ فِي إخراجهَا؛ وذلكَ أنَّ النَّفقةَ يعرضُ لهَا آفتانِ: إمَّا أنْ يقصدَ الإنسانُ بهَا محمدةَ النَّاسِ ومدحهِمْ، وهوَ الرِّياءُ، أوْ يخرجهَا علَى خورٍ وضعفِ عزيمةٍ وتردُّدٍ، فهؤلاءِ سلمُوا منْ هاتينِ الآفتينِ، فأنفقُوا ابتغاءَ مرضاتِ اللهِ تعالَى لاَ لغيرَ ذلكَ منَ المقاصدِ، وتثبيتًا منْ أنفسهِمْ[2].

فقولهُ تعالَى: (وَتَثْبِيتًا) معطوفةٌ علَى (اِبْتِغَاءَ)، وقولهُ تعالَى: (وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ) (منْ) ابتدائيَّةٌ؛ يعنِي: تثبيتًا كائنًا فِي أنفسهِمْ لَمْ يحملهِمْ عليهِ أحدٌ، ومعنَى يثبِّتونهَا: يجعلونهَا تثبتُ، وتطمئنُ، أيْ: لَا تتردَّدُ فِي الإنفاقِ، ولَا تشكُّ فِي الثَّوابِ؛ وهذَا يدلُّ علَى أنَّهمْ ينفقونَ طيِّبةً نفوسهمْ بالنَّفقةِ[3].

(1) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب ٢/٥١١، ١٣٤٤، ومسلم في الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ٣/٨٥، ٢٣٩٠، واللفظ للبخاري.

(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/١١٤.

(3) تفسير القرآن للعثيمين ٥/٢٥٨.

سادسًا: أنْ يكونَ الإنفاقُ وسطًا، لَا إسرافَ فيهِ ولَا تقتيرٌ:

ومنْ آدابِ الإنفاقِ التوسُّطُ فيهِ، وقدْ نهَى اللهُ تعالَى عنِ الإسرافِ فِي الإنفاقِ، فقالَ تعالَى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}[الإسراء: 29].

قالَ الطَّبري: وهذَا مثلٌ ضربهُ اللهُ تباركَ وتعالَى للممتنعِ منَ الإنفاقِ فِي الحقوقِ التِي أوجبهَا فِي أموالِ ذوِي الأموالِ، فجعلهُ كالمشدودةِ يدهُ إلَى عنقهِ، الذِي لَا يقدرُ علَى الأخذِ بهَا والإعطاءِ.

وإنَّمَا معنَى الكلامِ: ولَا تمسكْ يَا محمَّدُ يدكَ بخلًا عنِ النَّفقةِ فِي حقوقِ اللهِ، فلَا تنفقُ فيهَا شيئًا إمساكَ المغلولةِ يدهِ إلَى عنقهِ، الذِي لَا يستطيعُ بسطهَا (وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) يقولُ: ولَا تبسطهَا بالعطيَّةِ كلّ البسطِ، فتبقَى لَا شيءَ عندكَ، ولَا تجدُ إذَا سُئلتَ شيئًا تعطيهِ سائلكَ (فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) يقولُ: فتقعدَ يلومكَ سائلوكَ إذَا لمْ تعطهمْ حينَ سألوكَ، وتلومكَ نفسكَ علَى الإسراعِ فِي مالكَ وذهابهِ، محسورًا: يقولُ: مَعِيبًا، قدِ انقُطِعَ بكَ، لَا شيءَ عندكَ تنفقُهُ، وأصلهُ منْ قولهمْ للدَّابةِ التِي قدْ سيرَ عليهَا حتَى انقَطَعَ سيرهَا، وكلَّتْ ورَزحتْ منَ السَّيرِ، بأنَّهُ حَسِيرٌ، يقالُ منهُ: حَسَرْتُ الدَّابَّةَ فأنَا أحسِرُهَا، وأحسُرهَا حَسْرًا، وذلكَ إذَا أظنيتهُ بالسَّيرُ، وحَسَرتهُ بالمسألةِ إذَا سألتهُ فألحفتَ، وحَسَرَ البصرُ فهوَ يَحْسِرُ، وذلكَ إذَا بلغَ أقصَى المنظرَ فكَلّ، ومنهُ قولهُ عزَ وجلَ "يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ" وكذلكَ ذلكَ فِي كلّ شيءٍ كَلَّ وأزحفَ حتَى يَضْنَى[1].

(1) تفسير الطبري.

والإسرافُ والسَّرفُ: تجاوزُ الحدِّ الذِي يقتضيهِ الإنفاقُ، بحسبِ حالِ المنفقِ، وحالِ المنفَقِ عليهِ، وهذَا النَّهيُ عنِ الإسرافِ نهيُ إرشادٍ وإصلاحٍ، والإسرافُ إمَّا أنْ يكونَ بالزِّيادةِ علَى القدرِ الكافِي، والشَّرهِ فِي المأكولاتِ، الذِي يضرُّ بالجسمِ، وإمَّا أنْ يكونَ بزيادةِ الترفُّهِ، والتنوُّعِ فِي المآكلِ والمشاربِ واللِّباسِ، وإمَّا بتجاوزِ الحلالِ إلَى الحرامِ[1].

قالَ تعالَى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأعراف: 31]، فإنَّ السَّرفَ يبغضهُ اللهُ تعالَى، ويضرُّ بدنَ الإنسانِ ومعيشتهِ، حتَّى إنَّهُ ربَّمَا أدَّتْ بهِ الحالُ إلَى أنْ يعجزَ عمَّا يجبُ عليهِ منَ النَّفقاتِ، ففِي هذهِ الآيةِ الكريمةِ الأمرُ بتناولِ الأكلِ والشُّربِ، والنَّهيُ عنْ تركهمَا، وعنِ الإسرافِ فيهمَا[2]، ولهذَا كانَ منَ الأعمالِ التِي لَا يحبُّهَا اللهُ تعالَى، ومنَ الأخلاقِ التِي يلزمُ الانتهاءُ عنهَا، ونفيُ المحبَّةِ مختلفُ المراتبِ، فيُعلمُ أنَّ نفيَ المحبَّةِ يشتدُّ بمقدارِ قوَّةِ الإسرافِ، وهذَا حكمٌ مجملٌ، وهوَ ظاهرٌ فِي التَّحريمِ.

ووجهُ عدمِ محبَّةِ اللهِ تعالَى للمسرفِ أنَّ الإفراطَ فِي تناولِ اللذَّاتِ والطيِّباتِ والإكثارِ منْ بذلِ المالِ فِي تحصيلهَا يفضِي غالبًا إلَى استنزافِ الأموالِ، والشَّرهِ إلَى الاستكثارِ منهَا، فإذَا ضاقتْ علَى المسرفِ أموالهُ تطلَّب تحصيلُ المالِ منْ وجوهٍ فاسدةٍ؛ ليُخمدَ بذلكَ نهمتهُ إلَى اللذَّاتِ، فيكونُ ذلكَ دأبهُ،

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢٨٧/١.

(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢٨٧/١.

فربَّمَا ضاقَ عليهِ مالهُ فشقَّ عليهِ الإقلاعُ عنْ معتادهِ، فعاشَ فِي كربٍ وضيقٍ، وربَّمَا تطلَّبَ المالَ منْ وجوهٍ غيرِ مشروعةٍ، فوقعَ فيمَا يؤاخذُ عليهِ فِي الدُّنيَا أوْ فِي الآخرةِ، ثمَّ إنَّ ذلكَ قدْ يعقبُ عيالهِ خصاصةً وضنك معيشةٍ، وينشأُ عنْ ذلكَ ملامٌ وتوبيخٌ وخصوماتٌ، تفضِي إلَى مَا لَا يحمدُ فِي اختلالِ نظامِ العائلةِ[1].

فأمَّا كثرةُ الإنفاقِ فِي وجوهِ البرِّ فإنَّهَا لَا توقعُ فِي مثلِ هذَا؛ قالَ ابنُ عاشورٍ: قيلَ فِي الكلامِ الذِي يصحُّ طردًا وعكسًا: لَا خيرَ فِي السَّرفِ ولَا سرفَ فِي الخيرِ[2].

وفِي معنَى هذهِ الآيةِ قولهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "ويكرهُ لكمْ: قيلَ وقالَ، وكثرةَ السُّؤالِ، وإضاعةُ المال"[3].

وفِي آيةٍ أخرَى يقولُ تعالَى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [الإسراء: 26، 27].

فقولهُ تعالَى: (إِخْوَانَ) يعنِي: أنَّهمْ فِي حكمهمْ؛ إذِ المبذِّرُ ساعٍ فِي الإفسادِ كالشَّياطينِ، أوْ أنَّهمْ يفعلونَ مَا تسوِّلُ لهمْ أنفسهمْ، أوْ أنَّهمْ يقرنونَ بهمْ غدًا فِي النَّارِ، ثلاثةُ أقوالٍ، والإخوانُ هنَا جمعُ: أخٍ منْ غيرِ النَّسبِ.

قالَ الطَّبريُّ: وأمَّا قولهُ (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) فإنَّهُ يعنِي: إنّ المفرّقينَ أموالهمْ فِي معاصِي اللهِ المنفقيهَا فِي غيرِ طاعتهِ أولياءُ الشَّياطينَ، وكذلكَ تقولُ العربُ لكلّ ملازمٍ سنَّةَ قومٍ وتابعٍ أثرهمْ: هوَ أخوهمْ[4].

(1) التحرير والتنوير ١٤٤٣/١.

(2) السابق.

(3) أخرجه مسلم في الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ١٣٠/٥، ٤٥٧٨.

(4) تفسير الطبري.

آثارُ الإنفاقِ:

للإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى فوائدُ عديدةٌ، وآثارٌ حميدةٌ، يجنيهَا المتصدِّقُ إذَا أحسنَ القصدَ، وأخلصَ العملَ لوجهِ اللهِ تعالَى، ومنْ هذهِ الآثارِ الدُّنيويَّةِ:

1) تهذيبُ النَّفسِ وتطهيرهَا منَ الشحِّ:

وتعدُّ عمليَّةُ الإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى درسًا تهذيبيًّا أكثرَ منْ كونهَا مساعدةٌ ماليَّةٌ؛ وذلكَ لمَا للإنفاقِ منْ دورٍ عظيمٍ فِي تهذيبِ النُّفوسِ، وإصلاحُ حالِ الفردِ، واستقامةِ المجتمعِ، وتليينٍ وتذليلٍ ومعالجةٍ لِتلْكُمُ القلوبِ الصَّلدةِ القاسيةِ، كمَا أنَّ الجودَ والسَّخاءَ يقلبُ البغضاءَ محبَّةً، والعداوةَ ودًّا، بإذنِ اللهِ تعالَى، وفيهِ مواساةٌ للفقراءِ والمساكينِ والمعوزينَ عمومًا.

والصَّدقةُ وسيلةٌ منْ وسائلِ تطهيرِ النَّفسِ، وتهذيبِ الأخلاقِ، فهيَ تزيلُ الخطايَا، وتغسلُ صحيفةَ صاحبهَا منَ الأدناسِ، وتطهِّرهَا منَ الذُّنوبِ، وقدْ دلَّ الكتابُ العزيزُ والسنَّةُ المطهَّرةُ علَى أنَّ الصَّدقةَ تطهِّرُ الإنسانَ وتزكِّي نفسهُ؛ ولهذَا سمِّيتِ الصَّدقةُ الواجبةُ زكاةً، وهيَ: النَّماءُ والطَّهارةُ، وزكَا الشَّيءُ: نمَا وتكاثرَ، وزكتِ النَّفسُ: طهُرتْ، وقدْ قالَ اللهُ تعالَى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}[التوبة: 103].

أس تطهِّرهمْ منَ البخلِ والشحِّ، وحبِّ المالِ، وتزكِّيهمْ بنماءِ أموالهمْ وحسناتهمْ، وتهذيبْ نفوسهمْ؛ وبذلكَ يرتفعونَ إلَى منازلِ المخلصينَ الطيِّبينَ.

كمَا أنَ الإسلامَ يريدُ تربيةَ النُّفوسِ علَى البذلِ والعطاءِ حتَّى تتخلَّقَ بأخلاقِ اللهِ تعالَى، فكلَّمَا اعتادَ الإنسانُ البذلَ والعطاءَ ارتقَى منْ حضيضِ الشحِّ إلَى أفقِ

الإحسانِ، قالَ الرازي: إنَّ النَّفسَ النَّاطقةَ لهَا قوَّتانِ نظريَّةٌ وعمليَّةٌ، فالقوَّةُ النظريَّةُ كمالهَا فِي التعظيمِ لأمرِ اللهِ، والقوَّةُ العمليَّةُ كمالهَا فِي الشَّفقةِ علِى خلقِ اللهِ، فأوجبَ اللهُ الزَّكاةَ ليحصلَ لجوهرِ الرُّوحِ هذَا الكمالُ، وهوَ اتِّصافهُ بكونهِ محسنًا إلَى الخلقِ، ساعيًا فِي إيصالِ الخيراتِ إليهمْ، دافعًا للآفاتِ عنهمْ[1].

ولمَا كانَ البذلُ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى برهانُ الصِّدقِ وعلامةُ الإيمانِ، كمَا قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "...والصَّدقةُ برهانٌ ..."[2] كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أجودَ النَّاسِ، وقدْ عُرفَ بذلكَ منْ قبلِ رسالتهِ؛ لأنَّ اللهَ هيَّأهُ لمكارمِ الأخلاقِ، فقدْ قالتْ لهُ خديجةُ رضيَ اللهُ عنهَا فِي حديثِ بدءِ الوحيِ: "إنَّكَ تحملُ الكَلَّ، وتكسبُ المعدومَ[3].

والإنفاقُ يقِي صاحبهُ منَ الشحِّ المنهيِّ عنهُ، فإذَا يُسرَّ علَى المرءِ الإنفاقُ فيمَا أمرَ اللهُ بهِ فقدِ وُقِيَ شُحَّ نفسهِ؛ وذلكَ منَ الفلاحِ، كمَا قالَ اللهُ تعالَى: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[الحشر: 9].

وإضافةُ (الشحِّ) إلَى النَّفسِ للإشارةِ إلَى أنَّ الشحَّ منْ طباعِ النُّفوسِ، فإنَّ النُّفوسَ شحيحةٌ بالأشياءِ المحبَّبةِ إليهَا، كمَا قالَ تعالَى: {وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ}[النساء: 128].

(1) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/٦٥. بتصرُّف.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء ١/١٤٠، ٥٥٦.

(3) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١/٤، ٣، ومسلم في الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١/٩٧، ٤٢٢.

وفِي الحديثِ لمَّا سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عنْ أفضلِ الصَّدقةِ، قالَ: "أنْ تصدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ، تخشَى الفقرَ وتأملَ الغنَى، وأنْ لَا تدعَ حتَّى إذَا بلغتِ الحلقومَ قلتَ: لفلانٍ كذَا ولفلانٍ كذَا، وقدْ كانَ لفلانٍ[1].

2) حسنُ التَّكافلِ الاجتماعِي:

ومنْ آثارِ الإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى تحقيقُ التَّكافلِ الاجتماعِي بأبهَى صورهِ؛ حيثُ يتمُّ تحقيقُ كفايةِ الفقيرِ دونَ المساسِ بكفايةِ الغنيِّ.

وقدْ عُرِفَ أنَّ منْ أعظمِ وسائلِ تقويةِ التَّكافلِ الاجتماعيِّ فِي الإسلامِ البذلُ والإنفاقُ؛ لذلكَ حبَّبَ الإسلامُ إلَى بنيهِ أنْ تكونَ نفوسهمْ سخيَّةً، وأكُفَّهُمْ نديَّةً، وأنْ يجعلُوا تقديمَ الخيرِ إلَى النَّاسِ شغلهمْ الدَّائمِ، لَا ينفكُّونَ عنهُ أبدًا باللَّيلِ ولَا بالنَّهارِ فِي السرِّ والعلانيةِ، يقولُ اللهُ تعالَى: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٢٧٤].

والإسلامُ وهوَ يدعُو إلَى الإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى علَى الفقراءِ والمحتاجينَ، يحرصُ أنْ يجعلَ المسلمينَ كتلةً واحدةً، يشدُّ بعضهَا بعضًا، يربطُ بينهمْ رباطُ الإيمانِ والعقيدةِ، يعطفُ كبيرهمْ علَى صغيرهمْ، وغنيُّهمْ علَى فقيرهمْ، كلٌّ

---

(1) أخرجه البخاري في الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح الصحيح ٢/١١٠، ١٤١٩، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح رقم ١٠٣٢.

منهمْ يتحسَّسُ حاجةَ أخيهِ المسلمِ، ويفعلُ الأسبابَ لإزالةِ هذهِ الحاجةِ بصدرٍ رحبٍ، وقلبٍ منشرحٍ، ينطلقونَ منْ توجهاتِ كتابهمْ، بقولهِ تعالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}[الحجرات: 10].

وقولهُ تعالَى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}[المائدة: 2].

ومنْ سنَّةِ رسولهمْ ﷺ، بقولهِ: "مثلُ المؤمنينَ فِي توادهمْ وتراحمهمْ وتعاطفهمْ، مثلُ الجسدِ إذَا اشتكَى منهُ عضوٌ تداعَى لهُ سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحمَّى"[1].

وبقولهِ ﷺ: "المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضهُ بعضًا"[2].

فصدقةُ التطوُّعِ تساعدُ علَى إذابةِ التَّفاوتِ الطبقيِّ بينَ المسلمينَ، وتعينهمْ علَى حلِّ مشكلةِ الفقرِ، ومَا ينتجُ عنهُ منْ مآسٍ ومشاكلٍ، وهيَ أيضًا سببٌ منْ أسبابِ الألفةِ والمحبَّةِ بينَ المسلمينَ، ولهَا دورٌ فِي إشاعةِ روحِ التَّسامحِ والتَّعاونِ والتَّآخِي بينهمْ.

وقدْ قالَ ﷺ: منْ نفَّسَ عنْ مؤمنْ كربةً منْ كربِ الدُّنيَا نفَّسَ اللهُ عنهُ كربةً منْ كربِ يومِ القيامةِ، ومنْ يسَّرَ علَى معسرٍ يسَّرَ اللهُ عليهِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، ومنْ سترَ مسلمًا سترهُ اللهُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، واللهِ فِي عونِ العبدِ مَا كانَ العبدُ فِي عونِ أخيهِ"[3]. وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذَا جاءهُ السَّائلُ، أوْ طُلبتْ إليهِ حاجةٌ، قالَ: "اشفعُوا تؤجرُوا، ويقضِي اللهُ علَى لسانِ نبيِّهِ ﷺ مَا شاءَ"[4].

(1) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٠/٨، ٦٧٥١.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، ٢٢٤٢/٥، ٥٦٨٠، ومسلم في البر والصلة ٢٠/٨، ٦٧٥٠.

(3) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة ٧١/٨، ٧٠٢٨.

(4) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ٥٢٠/٢، ١٣٦٥.

يقولُ ابنُ حجرٍ: فِي الحديثِ حضٌّ علَى الخيرِ وفعلِه، والتسبُّبِ إليهِ بكلِّ وسيلةٍ، والشَّفاعةُ إلَى الكبيرِ فِي كشفِ كربةٍ، ومعونةِ ضعيفٍ[1].

3) سعةُ الرِّزقِ:

ومنْ آثارِ الإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى أنَّ الصَّدقةَ تجلبُ الرِّزقَ، وتحفظُ المالَ منَ الآفاتِ والهلكاتِ والمفاسدِ، وتحلُّ فيهِ البركةُ، وتكونُ سببًا فِي إخلافِ اللهِ علَى صاحبِهَا بمَا هوَ أنفعُ لهُ، وأكثرَ وأطيبَ، دلَّتْ علَى ذلكَ النُّصوصُ الثَّابتةُ، والتَّجربةُ المحسوسةُ، فمنَ النَّصوصِ الدَّالةِ علَى ذلكَ قولهُ تعالَى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}[سبأ: 39].

قالَ ابنُ عاشورٍ: وأكدَّ ذلكَ الوعدَ بصيغةِ الشَّرطِ، وبجعلِ جملةِ الجوابِ اسميَّةً، وبتقديمِ المسندِ إليهِ علَى الخبرِ الفعليِّ بقولهِ: (فَهُوَ يُخْلِفُهُ) ففِي هذَا الوعدِ ثلاثُ مؤكِّداتٍ دالَّةٌ علَى مزيدِ العنايةِ بتحقيقهِ...، وجملةُ: (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) تذييلٌ للتَّرغيبِ والوعدِ بزيادةِ أنَّ مَا يخلفهُ أفضلُ ممَّا أنفقهُ المنفقُ[2].

وقالَ السَّعدِي: قولهُ: (وَمَا أَنْفَقْتُم منْ شَيْءٍ) نفقةً واجبةً أوْ مستحبَّةً، علَى قريبٍ أوْ جارٍ أوْ مسكينٍ أوْ يتيمٍ أوْ غيرِ ذلكَ فهوَ تعالَى يخلفهُ، فلَا تتوهَّمُوا أنَّ الإنفاقَ ممَّا ينقصُ الرِّزقَ، بلْ وعدَ بالخلفِ للمنفقِ الذِي يبسطُ الرِّزقَ ويقدرُ[3].

---

(1) فتح الباري ٤٥١/١٠.

(2) التحرير والتنوير ٣٤٤٧/١.

(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦٨١/١.

وقدْ قالَ النَّبيُّ ﷺ: "مَا نقصَ مالٌ منْ صدقةٍ"[1].

ومنَ النُّصوصِ الدَّالةِ أيضًا علَى أنَّ الصَّدقةَ بوَّابةٌ للرِّزقِ، ومنْ أسبابِ سعتهِ واستمرارهِ، وأنها لا تزيد العبد إلا كثرة: قوله تعالى: {لَإِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}[إبراهيم: 7].

إذِ الصَّدقةُ غايةٌ فِي الشُّكرِ، وقولهُ عزَّ وجلَّ فِي الحديثِ القدسيِّ: "يَا ابنَ آدمَ أنفقْ أنفقُ عليكَ"[2].

وقولهُ ﷺ: "مَا فتحَ رجلٌ بابَ عطيَّةٍ بصدقةٍ أوْ صلةٍ إلَّا زادهُ اللهُ بهَا كثرةٌ"[3].

وقولهُ ﷺ: مَا منْ يومٍ يصبحُ العبادُ فيهِ إلَّا ملكانِ ينزلانِ، فيقولُ أحدهمَا: اللهمَّ أعطِ منفقًا خلفًا، ويقولُ الآخرُ: اللهمَّ أعطِ ممسكًا تلفًا[4].

كمَا يدلُّ علَى ذلكَ قولهُ ﷺ: بينَا رجلٌ بفلاةٍ منَ الأرضِ فسمعَ صوتًا فِي سحابةٍ: اسقِ حديقةَ فلانٍ، فتنحَّى ذلكَ السَّحابُ، فأفرغَ ماءهُ فِي حرَّةٍ، فإذَا شرجةٌ قدِ استوعبتْ ذلكَ الماءَ كلَّهُ، فتتبَّعَ الماءَ، فإذَا رجلٌ قائمٌ فِي حديقتهِ، يحولُ الماءُ بمسحاتهِ، فقالَ لهُ: يَا عبدَ اللهِ! مَا اسمكَ؟ قالَ: فلانٌ – للاسمِ الذِي سمعَ فِي السَّحابةِ–، فقالَ لهُ: يَا عبدَ اللهِ لمْ تسألنِي عنْ اسمِي؟ فقالَ: إنِّي سمعتُ صوتًا فِي السَّحابِ الذِي هذَا ماؤهُ، يقولُ: اسقِ حديقةَ فلانٍ – لاسمكَ–، فماذَا تصنعُ فيهَا؟ قالَ: أمَّا إذْ قلتَ هذَا فإنِّي أنظرُ إلَى مَا يخرجُ منهَا فأتصدَّقُ بثلثهِ، وآكلُ أنَا وعيالِي ثلثهُ، وأردُّ فيهَا ثلثهُ[5].

---

(1) صحيح رواه ابن الملقن في الإعلام.

(2) أخرجه أحمد ٢/٢٤٢، ٧٢٩٦، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٣/٢٣٣، ٣٤١٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٦٤٦.

(4) أخرجه البخاري في الزكاة، ٢/١١٥، ١٤٤٢، ومسلم في كتاب الكسوف ٢/٧٠٠، ١٠١٠.

(5) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين ٨/٢٢٢، ٧٦٦٤.

وفِي روايةٍ: "وأجعلُ ثلثهُ فِي المساكينِ والسائلينَ وابنِ السبيلِ"[1].

وفِي المقابلِ جاءتْ نصوصٌ عديدةٌ تردُّ علَى فئاةٍ منَ الخلقِ – ممَّنْ رقَّ دينهمْ وساءتْ أفهامهمْ– ظنُّوا أنَّ الصَّدقةَ منقصةٌ للمالِ، جالبةٌ للفقرِ، مسبِّبةٌ للضيعةِ، بلْ أبانتْ هذهِ النُّصوصُ أنَّ الصَّدقةَ لَا تنقصُ مالَ العبدِ، وأنَّ شحَّهُ بهِ هوَ سببُ حرمانِ البركةِ، وتضييقِ الرِّزقِ، وإهلاكِ المالِ، وعدمِ نمائه، ومنْ هذهِ النُّصوصِ قولهِ ﷺ: "مَا نقصتْ صدقةٌ منْ مالٍ، ومَا زادَ اللهُ عبدًا بعفوٍ إلَّا عزًّا، ومَا تواضعَ عبدٌ إلَّا رفعهُ اللهُ"[2].

ومنْ ذلكَ حديثُ أسماءَ بنتُ أبِي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهمَا قالتْ: قالَ لِي رسولُ اللهِ ﷺ: لَا تُوكِي فيُوكَى عليكِ[3]، وفِي روايةٍ: أنفقِي وانفحِي أوِ انضحِي، ولَا تُحصِي فيُحصِي اللهُ عليكِ، ولَا توعِي فيوعِي اللهُ عليكِ[4].

قولهُ ﷺ: (لَا تُوكِي)، بمعنَى لا تُمسكِي، فالإنسانُ حينمَا يوكِيءُ الإناءَ بمعنَى أنَّهُ يحكمُ إغلاقهُ، وإذَا كانَ عندَ الإنسانِ صرّةٌ منْ مالٍ ثمَّ أوكَى هذهِ الصرَّةَ فمعنَى ذلكَ أنَّهُ أغلقهَا وربطهَا وأحكمَ ربطهَا فلَا يُخرجُ منهَا شيءٌ، فقولهُ ﷺ (لَا تُوكِي فيُوكَى عليكِ)، يعنِي: لَا تمسكِي مَا عندكِ، ولَا تمنعِي مَا بيدكِ فيوكَى عليكِ، أي: فيكونُ ذلكَ متسبِّباً بمنعِ الربِّ تباركَ وتعالَى رزقهُ عنكِ، والجزاءُ منْ جنسِ العملِ.

(1) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين ٨/٢٢٣، ٧٦٦٥.

(2) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع ٨/٢١، ٦٧٥٧.

(3) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ٢/ ٥٢٠، ١٣٦٦.

(4) متفق عليه.

وقولهُ ﷺ: (ولَا تُحصِي فيُحصِيَ اللهُ عليكِ)، فُسِّرَ بمعنَى لَا تدَّخرِي، ولكنَّهُ يمكنُ أنْ يُفسَّرَ بمعنًى مقاربٌ لقولهِ: لَا تُحصِي فيُحصيَ اللهُ عليكِ، بمعنَى أنَّ الإنسانَ لَا يدقِّقُ فِي نفقاتهِ بحيثُ يحسبُ كمْ يخرجُ وكمْ يُبقِي وإذَا أخرجَ هذهِ النَّفقةَ حسبَ كمْ سيبقَى عندهُ بعدهَا ومَا إلَى ذلكَ منْ هذَا التنقيرِ الذِي قدْ يكونُ سبباً لذهابِ البركةِ.

وقولهُ ﷺ: (ولَا توعِي فيوعِي اللهُ عليكِ)، لَا توعِي بمعنَى لَا تمنعِي مَا زادَ عنْ حاجتكِ، أي لَا تمنعيهِ عمَّنْ احتاجَ إليهِ فيكونُ ذلكَ سبباً لمنعِ اللهِ تعالَى لرزقهِ عنكِ.

ثانيًا: آثارٌ أُخرويَّةٌ للإنفاق:

كمَا أنَّ للإنفاقِ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى آثارٌ دنيويَّةٌ، فمنْ بابِ أولَى أنْ تكونَ لهُ آثارٌ أخرويَّةٌ، ومنْ هذهِ الآثارِ:

1) الحصولُ علَى محبَّةِ اللهِ تعالَى ورحمتهُ ورضاهُ:

فمنْ فوائدِ الصَّدقةِ وآثارِهَا الحميدةِ أنَّهَا طريقٌ للظَّفرِ بمحبَّةِ اللهِ ورحمتهِ ورضاهِ، ففِي الصَّدقةِ إحسانٌ ورحمةٌ، وتفضُّلٌ وشفقةٌ؛ ولذَا كانتْ منْ وسائلِ نيلِ محبَّةِ ربِّ العالمينَ، والحصولِ علَى رحمتهِ، والظَّفرِ برضوانهِ؛ لأنَّهُ سبحانهُ يحبُّ المحسنينَ، ويرحمُ الرُّحماءَ، وقدْ دلَّت نصوصُ القرآنِ والسنَّةِ علَى ذلكَ، فممَّا يدلُّ علَى أنَّ التصدُّقَ والإنفاقَ فِي سبيلِ مرضاةِ اللهِ تعالَى منْ دواعِي حبِّهِ عزَّ وجلَّ للعبدِ: قولهُ تعالَى: {وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[البقرة: 195].

فقولهُ: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) تذييلٌ للتَّرغيبِ فِي الإحسانِ؛ لأنَّ محبَّةَ اللهِ عبدهُ غايةُ مَا يطلبهُ النَّاسُ؛ إذْ محبَّةُ اللهِ العبدَ سببُ الصَّلاحِ والخيرِ دنيًا وآخرةً، واللَّامُ للاستغراقِ العرفِي، والمرادُ: المحسنونَ منَ المؤمنينَ[1].

وقالَ السَّعدِي: وهذَا يشملُ جميعَ أنواعِ الإحسانِ؛ لأنَّهُ لمْ يقيِّدهُ بشيءٍ دونَ شيءٍ، فيدخلُ فيهِ الإحسانُ بالمالِ كمَا تقدَّمَ، ويدخلُ فيهِ الإحسانُ بالجاهِ وبالشَّفاعاتِ ونحوِ ذلكَ ...، ويدخل في الإحسان أيضًا الإحسان في عبادة الله تعالى»[2].

(1) التحرير والتنوير ١/٥٤٦.

(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/٩٠.

وفِي الآيةِ إثباتُ المحبَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ، وهيَ محبَّةٌ حقيقيَّةٌ علَى ظاهرهَا، وليسَ المرادُ بهَا الثَّوابُ ولَا إرادةُ الثَّوابِ، خلافًا للأشاعرةِ وغيرهمْ منْ أهلِ التَّحريفِ المعنويِّ الذينِ يحرِّفونَ هذَا المعنَى العظيمِ إلَى معنًى آخرَ لَا يكونُ بمثابتهِ، فإنَّ مجرَّدَ الإرادةِ ليستْ بشيءٍ بالنِّسبةِ للمحبَّةِ، وشبهتهمْ أنَّ المحبَّةَ إنَّمَا تكونُ بينَ شيئينِ متناسبينِ، وهذَا التَّعليلُ باطلٌ، ومخالفٌ للنصِّ، ولإجماعِ السَّلفِ، ومنقوضٌ بمَا ثبتَ بالسَّمعِ والحسِّ منْ أنَّ المحبَّةَ قدْ تكونُ بينَ شيئينِ غيرَ متناسبينِ،

فقدْ أثبتَ النبيُّ ﷺ أنَّ أُحُدًا وهوَ جبلٌ يُحِبُّ ويُحَبُّ، فقالَ: ... هذَا جبلٌ يحبِّنَا ونحبِّهُ[1]، وليسَ بينَ الجبالِ والبشرِ تناسبٌ.

زمنَ الواضحِ، أنَّ المحبَّةَ أعمقُ منْ مجرَّدِ الرضَا، فمحبَّةُ اللهِ تعالَى لهَا معنًى عظيمٌ لهُ تأثيرهُ الخاصُ فِي النَّفسِ.

ومنَ النُّصوصِ الدَّالةِ علَى أنَّ الصَّدقةَ دافعةٌ لغضبِ اللهِ تعالَى وسخطهِ، وجالبةٌ لرضوانهِ ورحمتهِ: مَا جاءَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: "إنَّ الصَّدقةَ لتطفُئ غضبَ الربِّ، وتدفعُ ميتةَ السُّوءِ[2]. وحديثُ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ الذِي تضمَّنَ قصَّةَ الأبرصِ والأقرعِ والأعمَى، وفيهِ قولُ الملكِ للأعمَى لمَّا بذلَ المالَ محتسبًا الثَّوابَ منَ اللهِ تعالَى، وأمسكهُ صاحباهُ شحًّا بهِ وبخلًا: "أمسكْ مالكَ، فإنَّمَا ابتليتمْ؛ فقدْ رضيَ اللهُ عنكَ، وسخطَ علَى صاحبيكَ[3].

(1) أخرجه البخاري في المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه ٥/١٠٣، ٤٠٨٣، ومسلم في الحج، باب فضل المدينة ٢/٩٩٣، ١٣٦٥.

(2) أخرجه الترمذي في أبواب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة ٣/ ٤٣، ٦٦٤.

(3) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٤/ ١٧١، ٣٤٦٤.

كمَا أتتْ أحاديثُ عديدةٌ تبيِّنُ أنَّ اللهَ تعالَى يحبُّ المتصدِّقينَ وذوِي البرِّ والإحسانِ، وصانعِي المعروفِ، منهَا قولهُ ﷺ: "أحبُّ النَّاسِ إلَى اللهِ أنفعهمْ للنَّاسِ"[1].

كمَا جاءتْ أحاديثُ تبيِّنُ أنَّ اللهَ تعالَى لَا يرحمُ منْ عبادهِ إلَّا الرُّحماءُ بخلقهِ، المشفقينَ علَى عبادهِ وهيَ صفةُ المتصدِّقينَ ومنهَا: قولهُ ﷺ: "الرَّاحمونَ يرحمهمُ الرَّحمنُ، ارحمُوا أهلَ الأرضِ يرحمكمْ أهلُ السَّماءِ"[2]، وقولهُ ﷺ: "منْ لَا يرحمِ النَّاسَ لَا يرحمهُ اللهُ عزَّ وجلَّ"[3].

2) مغفرةُ الذُّنوبِ:

وجعلَ اللهُ تعالَى الصَّدقةَ سببًا لغفرانِ المعاصِي، وإذهابِ السيِّئاتِ، والتَّجاوزِ عنِ الهفواتِ، دلَّتْ علَى ذلكَ نصوصُ الكتابِ والسنَّةِ، ومنهَا: قولهُ تعالَى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}[هود: 114].

وهذَا نصٌّ عامٌّ يشملُ كلَّ حسنةٍ وفعلِ خيرٍ، والصَّدقةُ منْ أعظمِ الحسناتِ والخيراتِ، فهيَ داخلةٌ فيهِ بالأولويَّةِ.

وقولهُ سبحانهُ: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/١٣٩، ٦٠٢٦، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٦.

(2) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الرحمة ٤/٤٤٠، ٤٩٤٣، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين ٤/٣٢٣، ١٩٢٤، وأحمد ١١/٣٣، ٦٤٩٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٢٢.

(3) أخرجه مسلم في الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك ٤/ ١٨٠٩، ٢٣١٩.

فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[الأحزاب: 35].

وقولهُ عزَّ وجلَّ: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ}[آل عمران: 133، 134].

فهاتانِ الآيتانِ أفادتَا أنَّ منْ أولَى وأجلِّ مَا تُنالُ بهِ مغفرةُ اللهِ، وتجاوزهُ عنِ الذُّنوبِ الإنفاقُ فِي مرضاتهِ سبحانهِ.

وممَّا يدلُّ علَى أنَّ الصَّدقةَ تمحُو الذُّنوبَ وترفعُ الدَّرجاتِ: قولُ اللهِ تعالَى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}[التوبة: 103].

يقولُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: أي: تطهِّرهمْ منَ الذُّنوبِ والأخلاقِ الرَّذيلةِ، وتزكيهمْ أيْ: تنمِّيهمْ وتزيدُ فِي أخلاقهمُ الحسنةِ وأعمالهمُ الصَّالحةَ، وتزيدُ فِي ثوابهمُ الدُّنيويُّ والأخرويُّ، وتنمِّي أموالهمْ[1].

وقولهُ تعالَى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: 268].

قالَ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: أي: يخوِّفكمُ الفقرَ؛ لتمسكُوا مَا بأيديكمْ فلَا تنفقوهُ فِي مرضاةِ اللهِ...، (وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا) أي: فِي مقابلةِ مَا أمركمُ الشَّيطانُ بالفحشاءِ، و(فَضْلًا) أي: فِي مقابلةِ مَا خوَّفكمُ الشَّيطانُ منَ الفقرِ[2].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/٣٥٠.

(2) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/٧٠٠

ومنَ النُّصوصِ الدَّالةِ علَى ذلكَ: مَا أخرجهُ البخارِي فِي بابِ: الصَّدقةِ تكفِّرُ الخطيئةَ منْ حديثِ حذيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ، وفيهِ: "فتنةُ الرَّجلِ فِي أهلهِ ومالهِ وولدهِ وجارهِ تكفِّرهَا الصَّلاةُ والصَّدقةُ والمعروفُ"(1).

3) الحشرُ تحتَ ظلِّ الصَّدقةِ.

ومنْ فوائدِ الإنفاقِ الأخرويَّةِ: أنَّ النَّاسَ إذَا حشرُوا يومَ القيامةِ واشتدَّ الكربُ فإنَّ المتصدِّقينَ يتفيَّئونَ فِي ظلِّ صدقاتهمْ، وقدْ ثبتَ ذلكَ فِي أحاديثَ كثيرةٍ، منهَا: قولهُ ﷺ: "كلُّ امرئٍ فِي ظلِّ صدقتهِ يومَ القيامةِ حتَّى يُفصلَ بينَ النَّاسِ - أوْ قالَ: حتَّى يحكمَ بينَ النَّاسِ - قالَ يزيدُ (راوِي الحديثِ): وكانَ أبُو الخيرِ لَا يخطئهُ يومٌ إلَّا تصدَّقَ فيهِ بشيءٍ، ولوْ كعكةٌ أوْ بصلةٌ أوْ كذَا(2).

وقالَ ﷺ فِي الذينَ يظلُّهمُ اللهُ فِي ظلِّهِ يومَ لَا ظلَّ إلَّا ظلُّهُ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعالَى في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: إمَامٌ عَدْلٌ، وشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ اللَّهِ، ورَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ، ورَجُلَانِ تَحَابَّا في اللَّهِ، اجْتَمعا عليه وتَفَرَّقَا عليه، ورَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ فقالَ: إنِّي أَخَافُ اللَّهَ، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ فأخْفَاهَا حتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"(3).

(1) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة تكفر الخطيئة ٢/٥٢٠، ١٣٦٨.

(2) أخرجه أحمد ٤/١٤٧، وابن حبان ٣٣١٠، والحاكم ١/٤١٦، وصححه الألباني في التعليق الرغيب ٢/ ٢٥.

(3) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين ١٤٢٣، ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة ١٠٣١.

وأمَّا قولهُ ﷺ: (فِي ظلِّ صدقتهِ) ظاهرهُ العمومُ، فيشملُ صدقتهُ الواجبةَ والنَّافلةَ، والمرادُ بقولهِ: (يومَ القيامةِ)، أي حينَ تدنُو الشَّمسُ منَ الرُّؤوسِ، ويبلغُ الكربُ فِي النَّاسِ مبلغهُ.

والمقصودُ أنَّ أعمالهمْ تُظلُّهمْ أوْ تضحيهمْ، فإضافةُ الظلِّ إلَى الأعمالِ إضافةُ سببٍ؛ فالأعمالُ الصَّالحةُ أصحابهَا فِي ظلِّهَا، وكلُّ ذلكَ فِي ظلِّ العرشِ وليسَ المرادُ بهَا ظَلُّهُ منْ حرِّ الشَّمسِ فقطْ، بلْ تمنعهُ منْ جميعِ المكارهِ، وتسترهُ منَ النَّارِ إذَا واجهتهُ، وتوصلهُ إلَى جميعِ المحابِّ، منْ قولهمْ: فلانٌ فِي ظلِّ فلانٍ، وتمسكُ بهِ منْ فضلِ الغنيِّ الشَّاكرِ علَى الفقيرِ الصابرِ، ولوْ لمْ يكنْ فِي فضلِ الصَّدقةِ إلَّا أنَّهَا لمَا تفاخرتْ الأعمالُ كانَ لهَا الفضلُ عليهنْ لكفَى[1].

4) دخولُ جنَّاتِ النَّعيمِ:

ومنْ فوائدِ الصَّدقةِ، وآثارهَا الحميدةِ أنَّهَا سببٌ فِي دخولِ الجنَّةِ، وأصلُ ذلكَ بيانُ الرَّبِّ سبحانهُ أنَّ الجنَّةَ هيَ دارُ المحسنينَ والمحسناتِ منْ عبادهِ وإمائهِ، فقالَ تعالَى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[المرسلات: 41 – 44].

وقولهُ تعالَى: {وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا}[الأحزاب: 229].

وقولهُ تعالَى: {لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ}[الزمر: 34].

وقولهُ تعالَى: {فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ}[المائدة: 75].

---

(1) فيض القدير ٢/ ٤٥٩.

وقالَ تعالَى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ}[الرعد: 22، 23].

فذكرَ اللهُ تعالَى هنَا الذينَ صبرُوا علَى مشاقِّ الطَّاعةِ وتركِ المخالفةِ، أوْ علَى مَا تكرهُهُ النُّفوسُ ويخالفهُ الهوَى، وفعلُوا ذلكَ ابتغاءَ وجهِ ربِّهِمْ، وطلبًا لرضاهُ، لَا فخرًا ورياءً، وأقامُوا الصَّلاةَ المفروضةَ، بحيثُ حافظُوا علَى شروطهَا وأركانهَا، وأنفقُوا ممَّا رزقهمْ منَ الأموالِ فرضًا ونفلًا، سرًّا وعلانيَّةً، ويدرؤونَ بالحسنةِ السيِّئةَ، أي: يدفعونَ الخصلةَ السيِّئةَ بالخصلةِ الحسنةِ، فيجازونَ الإساءةَ بالإحسانِ.

ثمَّ ذكرَ جزاءهمْ، فقالَ تعالَى: (أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) أي: عاقبةُ دارِ الدُّنيَا، ومَا يؤولُ إليهِ أهلهَا، وهيَ: الجنَّةُ التِي فسَّرهَا بقولهِ: (جَنَّاتُ عَدْنٍ) أي: إقامةً، (يَدْخُلُونَها) مخلَّدينَ فيهَا، والعدنُ: الإقامةُ، وقيلَ: هيَ بطنانُ الجنَّةِ: أي: مداخلهَا[1].

وممَّا يدلُّ علَى أنَّ منْ آثارِ الصَّدقةِ دخولُ الجنَّةِ قولهُ تعالَى: {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}[الحديد: 18].

فالأجرُ الكريمُ هنَا: هوَ الجنَّةُ.

(1) البحر المديد ٣/١٦٣.

قالَ السَّعدِي فِي تفسيرِ قولهِ تعالَى: (الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ) أي: الذينَ أكثرُوا منَ الصَّدقاتِ الشَّرعيَّةِ والنَّفقاتِ المرضيَّةِ (وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) بأنْ قدَّمُوا منْ أموالهمْ فِي طرقِ الخيراتِ مَا يكونُ مدَّخرًا لهمْ عندَ ربِّهمْ (يُضَاعَفُ لَهُمْ) الحسنةُ بعشرِ أمثالهَا إلَى سبعمائةِ ضعفٍ، إلَى أضعافٍ كثيرةٍ (وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ) وهوَ مَا أعدَّهُ اللهُ لهمْ فِي الجنَّةِ ممَّا لَا تعلمهُ النفوسُ[1].

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٨٤٠.

ثمَّ قالَ السَّعديُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: التوكُّلُ علَى اللهِ والاستعانةُ بهِ: قدْ أمرَ اللهُ بهَا، وأثنَى علَى المتوكِّلينَ فِي آياتٍ كثيرةٍ.

وحقيقةُ ذلكَ: قوَّةُ اعتمادِ القلبِ علَى اللهِ فِي جلبِ المصالحِ، ودفعِ المضارِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، معَ الثِّقةِ بهِ فِي حصولِ ذلكَ.

~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~

قدْ ذكرَ اللهُ تعالَى التوكُّلَ فِي كتابهِ الكريمِ فِي كثيرٍ منَ المواضعِ وأمرَ بهِ وأثنَى علَى المتوكِّلينَ، فقالَ سبحانهُ آمرًا للمسلمينَ بالتوَّكُّلِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[المائدة: 11].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}[التوبة: 129].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[يونس: 84، 85].

وقالَ تعالَى مثنيًا علَى أهلِ التوكُّلِ وآمرًا لهُ بهِ: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[آل عمران: 159، 160].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى فِي بابِ الثَّناءِ علَى المتوكِّلينَ: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ
~~~~~~~~~~

* **فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**}[آل عمران: 173 – 174].

وقالَ تعالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[الأنفال: 2].

التوكُّلُ لغةً:

منْ الجّذرِ "و ك ل" وأصلهَا: اعتمادكَ علَى غيركَ[1]، تقولُ: وكَّلتهُ إليكَ أَكِلُهُ كَلَةً، أي: فوّضتهُ، ورجلٌ وكِلٌ ووكِلةٌ وهوَ المواكلُ يعتمدُ علَى غيرهِ فيضيعُ أمرهُ، وتقولُ: وكلتُ باللهِ، وتوكّلتُ علَى اللهِ، ووكلتُ فلانًا إلَى اللهِ، أكِلهُ إليهِ، والوكيلُ: فعلهُ التّوكّلُ، والتوكّلُ إظهارُ العجزِ والاعتمادُ علَى غيركَ، وكذلكَ يعنِي "التُكلانُ" الذِي انقلبتْ تاؤهُ عنْ واوٍ، ومصدرُ التوكُّلِ الوكالةُ[2]، قالَ ابنُ منظورٍ: يقالُ:توكّلَ بالأمرِ إذَا ضمنَ القيامَ بهِ، ووكَّلتُ أمرِي إلَى فلانٍ أي ألجأتهُ إليهِ واعتمدتُ فيهِ عليهِ، ووكّلَ فلانٌ فلانًا إذا استكفاهُ أمرهُ؛ ثقةً بكفايتهِ، أو عجزًا عنِ القيامِ بأمرِ نفسهِ[3].

التوكُّلُ اصطلاحًا:

غلبَ استخدامُ مصطلحِ التوكُّلِ فِي توكُّلِ العبدِ علَى ربِّهِ تعالَى؛ لذَا عرَّفهُ العلماءُ أنَّهُ: الثّقةُ بمَا عندَ اللهِ تعالَى، واليأسُ عمَّا فِي أيدِي النَّاسِ[4]، وقالَ الرَّازِي: التوكُّلُ هوَ أنْ يراعِي الإنسانُ الأسبابَ الظَّاهرةَ، ولكنْ لَا يعوّل بقلبهِ

---

(1) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١٣٦/٦.

(2) انظر: العين، الفراهيدي ٤٠٥/٥، مختار الصحاح، الرازي ٣٤٤/١.

(3) لسان العرب ٧٣٤/١١.

(4) التعريفات، الجرجاني ٧٠/١.

عليهَا، بلْ يعولُ علَى عصمةِ الحقِّ[1]، وأضافَ النّسفِي أنَّ التوكُّلَ هوَ: قطعُ العلائقِ وتركُ التملُّقِ للخلائقِ[2]، وقالَ ابنُ عاشورٍ:هوَ انفعالٌ قلبيٌّ عقليٌّ يتوجّهُ بهِ الفاعلُ إلَى اللهِ تعالَى؛ راجيًا الإعانةً، ومستعيذًا منَ الخيبةِ والعوائقِ[3].

وقدْ نخلصُ منَ المعانِي السَّابقةِ إلَى أنَّ التوكُّلَ علَى اللهِ تعالَى هو: تفويضُ كلَّ الأمورِ الظَّاهرةِ والباطنةِ إلَى اللهِ تعالَى، معَ الثِّقةِ التامَّةِ في قدرتهِ سبحانهُ علَى جلبِ النَّفعِ ودفعِ الضرِّ.

والمتأمِّلُ فِي التَّعريفينِ اللُّغوِي والاصطلاحِي يجدُ توافقًا واضحًا بينهمَا، فالتوكُّلُ لغةً هوَ تفويضُ الأمرِ والاعتمادُ علَى الآخرِ معَ الثِّقةِ، والمعنَى الاصطلاحِي يتضمَّنُ تفويضَ الأمرِ للهِ تعالَى، والاعتمادِ عليهِ وحدهُ فِي تسييرِ الأمورِ؛ ثقةً بقدرتهِ الكاملةِ عزَّ وجلَّ.

(1) مفاتيح الغيب ٩/٤١٠.
(2) مدارك التنزيل ١/٤٣٩.
(3) التحرير والتنوير ٤/١٥١.

التوكُّلُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ مادَّةُ "وكل" فِي القرآنِ سبعينَ مرَّةً[1].

والتوكُّلُ هوَ: الاعتمادُ علَى الغيرِ وتفويضُ الأمورِ لهُ، ولمْ يخرجْ فِي الاستعمالِ القرآنِي عنْ هذَا المعنَى[2].

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ:

الثِّقةُ:

الثِّقةُ لغةً:

الائتمانُ[3].

الثِّقةُ اصطلاحًا:

منْ يعتمدُ عليهِ فِي القولِ والفعلِ[4].

الصِّلةُ بينَ الثِّقةِ والتوكُّلِ:

يوجدُ تكاملٌ كبيرٌ فِي المفردتينِ، فلَا يمكنُ أنْ يتوكَّلَ الإنسانُ إلَّا علَى منْ يثقُ بهِ ويأتمنهُ علَى القيامِ بالأمرِ.

---

(1) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٦٢-٧٦٣، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٤٢٥-١٤٥٣.

(2) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/٣٣٦-٣٣٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/٢٦٦-٢٧٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٦٠٧-٦٠٨.

(3) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٦/٤٥٠.

(4) التوقيف، المناوي ١/١١٦.

الاعتمادُ:

الاعتمادُ لغةً:

اعتمدَ علَى الشَّيءِ اتَّكأَ، واعتمدَ عليهِ فِي كذَا اتَّكلَ، ويقالُ: اعتمدَ الشّيءَ: قصدهُ وأمضاهُ، ويقالُ:اعتمدَ الرَّئيسُ الأمرَ: وافقَ عليهِ وأمرَ بإنفاذهِ[1].

الاعتمادُ اصطلاحًا:

هوَ: القصدُ إلَى الشَّيءِ والاستنادُ إليهِ معَ حسنِ الرَّكونِ[2].

الصِّلةُ بينَ الاعتمادِ والتوكُّلِ:

المفردتانِ متقاربتانِ؛ لأنَّ فِي كلتيهمَا استنادًا إلَى المعتمَدِ عليهِ معَ حسنِ الرَّكونِ والاطمئنانِ.

التَّواكلُ:

التَّواكلُ لغةً:

تواكلَ القومُ: اتَّكلَ بعضهمْ علَى بعضٍ[3].

التَّواكلُ اصطلاحًا:

هوَ التَّخاذلُ وتركِ العملِ بالأسبابِ، وانتظارِ الأماني[4].

---

(1) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣٠٢/٣، مختار الصحاح، الرازي، ٢١٨/١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٦٢٦/٢.

(2) الكليات، الكفوي ١٥١/١.

(3) العين، الفراهيدي ٢٦٦/٢.

(4) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٤٢/٤.

الصِّلةُ بينَ التَّواكلِ والتوكُّلِ:

المفردتانِ متضادَّتانِ كلَّ التَّضادِ، فالتوكُّلُ هوَ عملُ الجوارحِ معَ توكُّلِ القلبِ، أمَّا الكسلُ عنِ الأخذِ بالأسبابِ معَ الادِّعاءِ بالتوكُّلِ هوَ حقيقةُ التَّواكلِ.

التَّفويضُ:

التَّفويضُ لغةً:

فوَّضَ إليهِ الأمرَ تفويضًا: ردَّهُ إليهِ، وجعلهُ الحاكمَ فيهِ[1].

التَّفويضُ اصطلاحًا:

هوَ: ردّ الأمرِ إلَى اللهِ تعالَى والتبرُّؤُ منَ الحولِ والقوَّةِ[2].

الصِّلةُ بينَ التَّفويضِ والتوكُّلِ:

المفردتانِ متقاربتانِ، فالتَّفويضُ والتوكُّلُ يشتركانِ فِي ردِّ الأمورِ إلَى الآخرِ فيمَا لَا تستطيعهُ قدرةُ الشَّخصِ.

---

(1) تاج العروس، الزبيدي ١٨/٤٩٦.

(2) التوقيف، المناوي ١/١٠٤.

دلالةُ اقترانِ التوكُّلِ بالإيمانِ والعبادةِ:

التوكُّلُ منْ أعظمِ العباداتِ المرتبطةِ بالإيمانِ؛ لذلكَ كثُرَ اقترانهُ بمصطلحيْ «العبادةِ» و«الإيمانِ»، فالتوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى هوَ أجمعُ أنواعِ العبادةِ، وأعلَى مقاماتِ التَّوحيدِ وأعظمهَا وأجلِّهَا؛ لمَا ينشأُ عنهُ منَ الأعمالِ الصَّالحةِ؛ فإنَّهُ إذَا اعتمدَ علَى اللهِ تعالَى فِي جميعِ أمورهِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ دونَ كلِّ مَا سواهُ؛ صحَّ إخلاصهُ ومعاملتهُ معَ اللهِ تعالَى، وكذلكَ لَا يصحُّ إيمانُ الإنسانِ إذَا فسدَ توكُّلهُ، فالتوكُّلُ شرطٌ فِي الإيمانِ[1]، بدلالةِ قولِ اللهِ تعالَى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[المائدة: 23].

والصَّحيحُ أنَّ عدمَ التوكُّلِ لَا يُفسدُ الإيمانَ بلْ يُنقِصهُ إلَّا إذَا توكَّلَ علَى غيرِ اللهِ تعالَى فِي لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى فهذَا قدِ انتقضَ إيمانه وسيأتِي تفصيلهُ، وكذلكَ التوكُّلُ فهوَ شرطُ كمالٍ لَا شرطُ صحَّةٍ، وإنْ قلنَا بمَا سبقَ فإنَّ منْ لمْ يتوكَّلْ علَى اللهِ تعالَى فِي حالٍ منَ الأحوالِ نُزعَ عنهُ الإيمانُ؟ وهذَا غيرُ صحيحٍ لأنَّ المسلمَ لَا يخلُو منْ خللٍ، فلابدَّ أنْ يفقدَ التوكُّلَ علَى اللهِ مرَّةً إنْ لمْ تكنْ مرَّاتٍ، وبذلكَ ينقصُ إيمانهُ ولَا يفسدُ، واللهُ أعلمُ.

وبمَا قلتُ أشارَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ الآيةِ السَّابقةِ: ودلَّ هذَا علَى وجوبِ التوكُّلِ، وعلَى أنَّهُ بحسبِ إيمانِ العبدِ يكونُ توكُّلهُ[2].

(1) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، صالح الفوزان ٧٨/١.

(2) تفسير السعدي.

وبمَا يُقاربهُ قالَ ابنُ عاشورٍ: أيْ علَى اللهِ وحدهُ اعتمدُوا وثقُوا، فهوَ وكيلكمْ الأعلمُ بمَا يصلحُ لكمْ إنْ كنتمْ مؤمنينَ، وإنْ لمْ تكونُوا متوكِّلينَ فلنْ ينطبقَ عليكمْ سمتُ المؤمنينَ[1].

وفي موضع آخر قال جل وعلا: {وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ}[يونس: 84].

قالَ القرطبِي: قولهُ تعالَى وقالَ موسَى يَا قومِ إنْ كنتمْ آمنتمْ أيْ صدَّقتمْ باللهِ فعليهِ توكَّلُوا أيِ اعتمدُوا إنْ كنتمْ مسلمينَ كرَّرَ الشَّرطَ تأكيدًا، وبيَّنَ أنَّ كمالَ الإيمانِ بتفويضِ الأمرِ إلَى اللهِ تعالَى[2].

وخرجنَا منْ هذَا أنَّ التوكُّلَ شرطٌ فِي الإيمانِ، إلَّا أنَّهُ شرطُ كمالٍ لَا شرطُ صحَّةٍ.

وقدْ قُرِنَ التوكُّلُ بالعبادةِ فِي أكثرِ منْ موضعٍ، منهَا قولُ اللهِ تعالَى: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}[هود: 123].

وقدْ بيّنَ الرَّازي أنَّ أوَّلَ درجاتِ السَّيرِ إلَى اللهِ تعالَى هوَ عبوديَّةُ اللهِ تعالَى، وآخرهَا التوكُّلُ علَى اللهِ (وحدهُ)، وأنَّ هذَا هوَ السَّببُ الذِي أدّى إلَى ترتيبِ الآيةِ هكذَا: (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)، بمعنَى أنَّ المخلصَ فِي العبادةِ المؤدِّي لهَا بيقينٍ وتأمُّلٍ وصفاءٍ يصلُ بِهِ التدبُّرُ إلَى عظمِ الخالقِ عزَّ وجلَّ وروعةِ إبداعهِ،

---

(1) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/٢٠٣.

(2) انظر: تفسير القرطبي.

وأنَّهُ لَا يملكُ أمامَ تلكَ القدرةِ المطلقةِ سوَى تفويضِ أمورهِ كلِّهَا والاعتمادِ عليهِ تعالَى فِي تسييرِ شؤونِ حياتهِ كلِّهَا[1].

ولعلَّ ترتيبَ الآيةِ السَّابقةِ يؤكِّدُ علَى مبدئِ العبادةِ والعملِ، ومنْ ثمّ تفويضُ الأمورِ للهِ تعالَى، وهذَا هوَ التوكُّل الصَّحيحُ، خلافًا لمَا يفعلهُ المتواكلونَ منَ القعودِ عنِ العملِ، وتركِ الأمورِ بحجَّةِ التَّفويضِ، وإسنادِ الأمورِ للخالقِ عزَّ وجلَّ، فاللهُ تعالَى يحبُّ العاملينَ ولَا يحبُّ المتخاذلينَ.

التوكُّل فِي حقِّ اللهِ تعالَى:

فممَّا لهُ أنْ يُعلمَ أنَّ منْ أسماءِ اللهِ تعالَى "الوكيلُ"، وقدْ حقّ لجلالهِ وعزَّتهِ وحكمتهِ هذَا الاسمُ، فعليهِ يجبُ أنْ يتوكَّلَ المؤمنونَ، وعلَى غيرهِ لَا يصحُّ التوكُّلُ؛ لأنَّ التوكُّلَ عبادةٌ قلبيَّةٌ، لَا تُصرفُ إلَّا للهِ عزَّ وجلَّ[2]، ودونكمْ بيانُ معنَى اسمِ اللهِ الوكيلِ واستحقاقهِ جلَّ وعلَا لهذَا الاسمِ:

أوَّلًا: الوكيلُ منْ أسماءِ اللهِ الحسنَى:

أثبتَ اللهُ تعالَى لنفسهِ اسمَ الوكيلِ، يقولُ الحقُّ تعالَى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}[الزمر: 62].

وقالَ تعالَى فِي موضعٍ آخرَ: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[آل عمران: 173].

(1) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/٤١٤.

(2) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ١/١٣٧.

والوكيلُ هوَ المتكفِّلُ باحتياجاتِ عبادهِ، وقيلَ: الموكولُ إليهِ ذلكَ، فإنَّ عبادهُ وكّلُوا إليهِ مصالحهمُ اعتمادًا علَى إحسانهِ عزَّ وجلَّ[1].

يقولُ الطُّوسِي: الوكيلُ: هوَ الموكولُ إليهِ الأمورُ، ولكنَّ الموكولَ إليهِ ينقسمُ إلَى منْ يوكَلُ إليهِ بعضُ الأمورِ، وذلكَ ناقصٌ، وإلَى منْ يوكَلُ إليهِ الكلُّ، وليسَ ذلكَ إلَّا اللهُ سبحانهُ وتعالَى، والموكولُ إليهِ ينقسمُ إلَى: منْ يستحقُّ أنْ يكونَ موكولًا إليهِ لا بذاتهِ ولكنْ بالتَّفويضِ والتَّوكيلِ، وهذَا ناقصٌ؛ لأنَّهُ فقيرٌ إلَى التَّفويضِ والتَّوليَةِ، وإلَى منْ يستحقُّ بذاتهِ أنْ تكونَ الأمورُ موكولةً إليهِ، والقلوبُ متوكِّلةٌ عليهِ لَا بتوليَةٍ وتفويضٍ منْ جهةِ غيرهِ، وذلكَ هوَ الوكيلُ المطلقُ، والوكيلُ أيضًا ينقسمُ إلَى: منْ يفِي بمَا وكّلَ إليهِ وفاءً تامًّا منْ غيرِ قصورٍ، وإلَى: منْ لَا يفِي بالجميعِ، والوكيلُ المطلقُ: هوَ الذِي الأمورُ موكولةٌ إليهِ وهوَ مليٌّ بالقيامِ بهَا، وفيٌّ بإتمامهَا، وذلكَ هوَ اللهُ تعالَى[2].

والفرقُ بينَ وكالةِ اللهِ تعالَى ووكالةِ العبادِ:

أولا: أنَّ الوكيلَ صفةُ اللهِ جلَّ جلالهُ التِي تعنِي المتولِّي القائمِ بتدبيرِ (شؤونِ) خلقهِ؛ لأنَّهُ مالكٌ لهمْ رحيمٌ بهمْ، أمَّا توكيلُ العبادِ إنَّمَا يعقدُ بالتَّوكيلِ، ولَا يتضمَّنُ الرَّحمةَ[3]، لذَا حريٌّ بنَا أنْ نتوجَّهَ إلَى اللهِ جلَّ جلالهُ بالدُّعاءِ باسمهِ الوكيلَ، وبجميعِ أسمائهِ الحسنَى، فاللهُ تعالَى حقيقٌ بذلكَ، وقدْ أمرنَا بهذَا فِي قولهِ تعالَى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأعراف: 180].

---

(1) انظر: المواقف، الإيجي ٣/٣٢٢.

(2) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٢٩.

(3) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ١/٥٧٧.

وعلَى الإنسانِ أنْ يستحضرَ لحظةَ الدُّعاءِ عزَّةَ الرُّبوبيَّةِ وذلَّةَ العبوديَّةِ، فبذلكَ يعظمُ الدُّعاءُ ويحسنُ الذكرُ[1].

ثانيًا: استحقاقُ اللهِ تعالَى للتوكّلِ لاتّصافهِ بصفاتِ الكمالِ:

للهِ تعالَى منَ الصِّفاتِ المطلقةِ مَا يجعلنَا نسارعُ إلَى عبادتهِ، ونجتهدُ فِي التوكُّلِ عليهِ، توقًا إلَى رحمتهِ، وحرصًا علَى استحقاقِ جنَّتهِ، فمنْ أهمِّ مَا يجعلُ المؤمنَ يتوكَّلُ علَى ربِّهِ عزَّ وجلَّ:

1) سعةُ علمهِ جلَّ جلالهُ:

إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ هوَ العليمُ، وعلمهُ واسعٌ لَا تدركهُ العقولُ، فقدْ أثبتَ العلمَ المطلقَ لنفسهِ تباركَ وتعالَى وقالَ: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[الأنفال: 61].

وأثبتهَا لهُ صفوةُ عبادهِ المؤمنينَ، فقدْ وردتْ علَى لسانِ أنبياءِ اللهِ الكرامِ، كقولِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهمَا الصَّلاةُ السَّلامُ: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[البقرة: 127].

وأيضًا أثبت العلم المطلق لله تعالى يعقوب عليه السلام في قوله: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[يوسف: 83].

---

(1) انظر: مراح لبيد، محمد الجاوي ١/٤٠٩.

وقالَ تعالَى عنْ مريمَ بنةِ عمرانَ: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[آل عمران: 35].

والعليمُ يعنِي: أنَّ اللهَ تعالَى يحيطُ بكلِّ شيءٍ علمًا، ظاهرهُ وباطنهُ، دقيقهُ وجليلهُ، أوَّلهُ وآخرهُ، عاقبتهُ وفاتحتهُ، فمعلوماتهُ تعالَى لَا نهايةَ لهَا، وكذلكَ وضوحهَا وكشفهَا علَى أتمِّ مَا يمكنُ فيهِ، بحيثُ لَا يتصوَّرُ مشاهدةٌ وكشفٌ أظهرَ منهُ، ثمَّ لَا يكونُ تعالَى مستفيدًا منَ المعلوماتِ، بلْ تكونُ المعلوماتُ مستفادةٌ منهُ، فهوَ تعالَى الذِي يمدّ بالعلمِ منْ يشاءُ[1]، وهذَا العلمُ الإلهِي يجعلنَا نسلّمُ أمورنَا متوكِّلينَ علَى اللهِ تعالَى؛ فنحنُ الجاهلونَ وهوَ الأعلمُ بحالنَا وبمَا يصلحُ لشؤونِ ديننَا ودنيانَا، وهوَ الرَّاضِي عنَّا بهذَا التوكُّلِ، وهوَ كافينَا مَا أهمّنَا.

2) سعةُ رحمتهِ سبحانهُ:

وصفَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذاتهُ المقدَّسةَ بالرَّحمةِ الواسعةِ، فقدْ قالَ تعالَى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}[الأعراف: 156].

وقالَ أيضًا: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 160].

وتقرَّرتِ الصِّفةُ مرَّةً أخرَى فِي موضعٍ ليسَ ببعيدٍ عنِ الموضعِ السَّابقِ فِي قولهِ تعالَى: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 163].

(1) انظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، الطوسي ص٨٦.

وقدْ أثبتَ صفةَ الرَّحمةِ للهِ تعالَى أنبياءُ اللهِ الكرامُ، فقدْ قالَ تعالَى عنْ موسَى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 54].

وعنْ سليمانَ: {إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ}[النمل: 30].

وأثبتهَا لهُ تعالى نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ فقالَ تعالَى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[الأحقاف: 8].

ورحمةُ اللهِ تعالَى هيَ تفضُّلهُ وكرمهُ علَى المؤمنينَ، فقدْ أوجبَ تعالَى الرَّحمةَ علَى نفسهِ تفضلًا وإحسانًا، ولمْ يوجبهَا عليهِ أحدٌ[1] فِي قولهِ: {كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}[الأنعام: 12].

فهوَ الممتنُّ عليهمْ بعطائهِ الجزيلِ، وهوَ الذِي يتوبُ علَى عبادهِ، يقولُ الطبريُّ: يقولُ تعالَى ذكرهُ: إنَّ هؤلاءِ العادلينَ بِي الجاحدينَ نبوَّتكَ يَا محمَّدُ، إنْ تابُوا وأنابُوا قبلتُ توبتهمْ، وإنِّي قدْ قضيتُ فِي خلقِي: أنَّ رحمتِي وسعتْ كلَّ شيءٍ[2]، ونحنُ نقولُ: إذَا كانتْ هذهِ رحمتهُ بالمعرضينَ عنهُ، فكيفَ تكونُ رحمتهُ بالمقبلينَ عليهِ، السَّاجدينَ بينَ يديهِ، المتوكِّلينَ عليهِ فِي تسييرِ أمورهمْ، وكيفَ لهمْ ألَّا يتوكَّلُوا إذَا مَا علمُوا عطفهُ علَى عبادهِ ورفقهُ بهمْ، ورحمتهُ فيمَا يقدّرُ لهمْ منْ مقاديرَ!

(1) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الهراس ص١٠٧.
(2) جامع البيان ١٠٧/١.

3) عزَّتهُ وقوَّتهُ تعالَى:

إنَّ عزاءَ المؤمنِ المظلومِ والمقهورِ فِي هذهِ الدُّنيَا يقينهُ أنَّ اللهَ تعالَى هوَ القويُّ العزيزُ، الذِي لَا تضيعُ عندهُ الحقوقُ ولَا يفلتُ منْ عقابهِ الظالمونَ.

قالَ تعالَى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[هود: 66].

وتتجلَّى قوَّةُ اللهِ وعزتُّهُ تعالَى فِي الآيةِ: كونهُ تعالَى قدْ أوصلَ العذابَ إلَى الكفَّارِ بصالحٍ عليهِ السَّلامُ، وصانَ أهلَ الإيمانِ عنهُ، وهذَا لَا يصحّ إلاّ منَ القادرِ الذِي يقدرُ علَى قهرِ طبائعِ الأشياءِ، فيجعلُ الشّيءَ الواحدَ بالنّسبةِ إلَى إنسانٍ بلاءً وعذابًا، وبالنِّسبةِ إلَى آخرَ راحةً وريحانًا[1].

وقالَ تعالَى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[الشورى: 19].

أي: أنَّ ربَّ العزَّةِ ذُو لطفٍ بعبادهِ مؤمنهمْ وكافرهمْ، فهوَ الذِي يطعمهمْ ويسقيهمْ، وحتَّى فِي خلواتِ المعصيةِ يمرّرُ إليهمُ الهواءَ فيحييهمْ، وهوَ تعالَى علَى كرمهِ معهمْ قادرٌ علَى أخذهمْ بقوَّتهِ التامَّةِ؛ فهوَ الذِي لَا يعجزهُ شيءٌ، وهوَ العزيزُ فِي انتقامهِ إذَا أرادَ الانتقامَ منْ أحدٍ[2].

(1) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/٥١٧.

(2) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/٦٠٥.

وقدِ ابتلَى اللهُ ابنَ آدمَ بالموتِ؛ ليرَى نتيجةَ عمله، واللهُ هوَ العزيزُ المنتقمُ منَ الظالمينَ، القابلِ توبةَ التَّائبينَ[1]: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}[الملك: 2].

والذِي يفهمُ بحقٍّ معنَى عزَّةِ اللهِ تعالَى وقوَّتهِ، ويدركُ أنَّ اللهَ مقتصٌّ منَ الظَّالمينَ، ناصرٌ للطَّائعينَ عاجلًا كانَ أمْ آجلًا، سيفوّضُ أمورهُ كلَّهَا للهِ تعالَى واثقًا متوكِّلًا موقنًا أنَّهُ لنْ يضيعَ لهُ حقٌّ.

4) حكمتهُ تعالَى:

منْ أسماءِ اللهِ تعالَى: الحكيمُ، فهوَ سبحانهُ صاحبُ الحكمةِ المطلقةِ.

يقولُ عزَّ وجلَّ: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[الأنعام: 18].

قالَ ابنُ القيِّمِ: الحكمةُ: فعلُ مَا ينبغِي، علَى الوجهِ الذِي ينبغِي، فِي الوقتِ الذِي ينبغِي[2].

وقالَ الطُّوسِي: الحكمةُ: هيَ معرفةُ أفضلِ الأشياءِ بأفضلِ العلومِ... ولَا يعرفُ كنهَ معرفتهِ غيرهُ، فهوَ الحكيمُ الحقُّ؛ لأنَّهُ يعلمُ أجلّ الأشياءِ بأجلّ العلومِ، إذْ أجلّ العلومِ هوَ العلمُ الأزليُّ الدَّائمُ الذِي لَا يُتصوَّرُ زوالهُ، المطابقُ للمعلومِ مطابقةً لَا يتطرَّقُ إليهَا خفاءٌ ولَا شبهةٌ، ولَا يتصِّفُ بذلكَ إلَّا علمُ اللهِ سبحانهُ وتعالَى، وقدْ يقالُ لمنْ يحسنُ دقائقَ الصِّناعاتِ ويحكمهَا ويتقنُ صنعتهَا حكيمٌ، وكمالُ ذلكَ أيضًا ليسَ إلَّا للهِ تعالَى، فهوَ الحكيمُ الحقُّ[3].

---

(1) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/٥٠٥.

(2) مدارج السالكين ٢/٤٤٩.

(3) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٢٠.

وقدْ أثبتتْ آياتُ القرآنِ الكريمِ هذهِ الصِّفةَ للهِ تعالَى، قالَ جلَّ وعلَا علَى لسانِ ملائكتهِ الكرامِ عليهِمُ الصَّلاةُ والسّلامُ: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[البقرة: 32].

وقال على لسان يوسف عليه السلام: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[يوسف: 100].

وفِي الآيةِ الأخيرةِ تقريرٌ لحكمةِ اللهِ العليمِ، فقدْ مرَّتْ بيوسفَ عليهِ السَّلامُ ظروفٌ صعبةٌ، ابتداءً منْ إلقائهِ فِي الجبِّ وانتهاءً بسجنهِ واتِّهامهِ ظلمًا، إلَّا أنَّ نبيَّ اللهِ المعصومِ يعلمُ أنَّ ربَّهُ حكيمٌ، يجرِي كلَّ حدثٍ بمرادٍ دقيقٍ، وبمَا تقتضيهِ مصلحةُ الإنسانُ[1]، فإذَا تيقَّنَ المرءُ منْ وجودِ الحكمةِ فِي تقديرِ اللهِ تعالَى وتدبيرهِ، فسيتركُ التفكيرَ، ويقطعَ السعيَ فيمَا ليسَ للبشرِ قدرةٌ عليهِ، وسيفوّضُ أمورهُ كلَّهَا لخالقهِ الحكيمِ العالمِ بمرادِ البشرِ، المتوكِّلِ بمصالحهمْ.

---

(1) انظر: تفسير الشعراوي ١٢/٧٠٨٦.

ثالثًا: نفيُ كمالِ الإيمانِ عنْ غيرِ المتوكِّلِ علَى اللهِ تعالَى:

التوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى واجبٌ وشرطٌ لحصولِ (كمالِ) الإيمانِ، و(أمَّا) انتفاؤهُ (بالكليَّةِ) انتفاءٌ للإيمانِ بمقتضَى قولِ اللهِ تعالَى[1]: {وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ}[يونس: 84].

أقسامُ التوَّكُّلِ:

فلأنَّ التوكُّلَ عبادةٌ قلبيَّةٌ، فلَا يصحُ صرفهُ لغيرِ اللهِ تعالَى، فهذَا ضربٌ منَ الشِّركِ.

وقدْ قسّمَ العلماءُ التوكُّلَ علَى غيرِ اللهِ تعالَى إلَى قسمين:

الأوَّلُ: التوكُّلُ علَى غيرِ اللهِ فِي الأمورِ التِي لَا يقدرُ عليهَا إلَّا اللهُ؛ كالذينَ يتوكَّلونَ علَى الأمواتِ، ويطوفونَ بالقبورِ استشفاءً أو طلبًا للنَّصرِ والرِّزقِ، فهذَا شركٌ أكبرٌ.

الثَّانِي: التوكُّلُ علَى غيرِ اللهِ فِي الأمورِ التِي يقدرُ عليهَا العبادُ؛ كأنْ يتوكَّلَ علَى وزيرٍ أوْ أميرٍ في مَا جعلهُ اللهُ فِي يدهِ منْ سلطةٍ أوْ وظيفةٍ، فِي جلبِ مصلحةٍ أو دفعِ أذًى، فهذَا ينافِي كمالَ الإيمانِ ويضعفهُ.

والوكالةُ الجائزةُ: هيَ توكيلُ الإنسانِ فِي فعلٍ مقدورٍ عليهِ، ولكنْ ليسَ لهُ أنْ يتوكَّلِ عليهِ، وإنْ وكّلهُ، بلْ يتوكَّلُ علَى اللهِ تعالَى ويعتمدُ عليهِ فِي تيسيرِ مَا وكّلَ صاحبهُ فيهِ[2].

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٧/١٦.

(2) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالوهاب ١/٤٢٨.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ: ومَا رجَا أحدٌ مخلوقًا أوْ توكَّلَ عليهِ إلَّا خابَ ظنَّهُ فيهِ فإنَّهُ مشركٌ[1].

وقدَ قالَ ربُّ العزَّةِ: "حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ"[الحج: 31].

والمشركُ المتوكِّلُ علَى غيرِ اللهِ فِي مَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى أوْ فِي مَا يقدرُ عليهِ عبادُهُ، يوقعُ اللهُ فِي قلبهِ التعلُّقَ بالمخلوقينَ، فيخافهمْ ويرجوهمْ فيحصلُ لهُ رعبٌ، كمَا قالَ تعالَى: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}[آل عمران: 151].

والخالصُ منَ الشِّركِ يحصلُ لهُ الأمنُ واطمئنانُ النَّفسِ والتعفُّفِ عنْ سؤالِ النَّاسِ[2].

قالَ تعالَى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}[الأنعام: 82].

ولعلَّ منْ أهمِّ قوادحِ التوكُّلِ التِي نراهَا فِي هذهِ الأيامِ اعتمادُ المسلمينَ علَى الرُّقيةِ لاَ بذاتهَا أنَّهَا كلامُ اللهِ تعالَى، بلْ يعتمدُ فيهَا علَى شخصٍ معيَّنٍ، أوِ العلاجِ علَى يدِ طبيبٍ بعينهِ اعتقادًا بقدرتهمَا علَى الشِّفاءِ، وهذَا الأمرُ منافٍ للتوكُّلِ الصَّحيحِ الذِي يعتمدُ علَى رجاءِ اللهِ تعالَى أوَّلًا، ثمَّ عملِ مَا يلزمُ بواسطةِ البشرِ معَ عدمِ تعليقِ الأملِ علَى أشخاصهمْ ثانيًا.

(1) الفتاوى الكبرى ٥/٢٣٢.

(2) انظر: المصدر السابق ٥/٢٣٢.

دوافعُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى:

للتَّوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى دافعانِ رئيسانِ، وهمَا: الإيمانُ باللهِ تعالَى، والإيمان بالقدرُ خيرهِ وشرِّهِ:

أوَّلًا: الإيمانُ باللهِ تعالَى:

التوكُّلُ مبنيٌّ علَى الإيمانِ، لقولِ اللهِ تعالَى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[المائدة: 23].

قالَ ابنُ القيِّمِ: فذكرُ اسمَ الإيمانِ هَاهنَا دونَ سائرِ أسمائهمْ دليلٌ علَى استدعاءِ الإيمانِ للتوكُّلِ، وإنَّ قوَّةَ التوكُّلِ وضعفهِ بحسبِ قوَّةِ الإيمانِ وضعفهِ، وكلَّمَا قويَ إيمانُ العبدِ كانَ توكُّلهُ أقوَى، وإذَا ضعفَ الإيمانُ ضعفَ التوكُّلُ، وإذَا كانَ التوكُّلُ ضعيفًا، فهوَ دليلٌ علَى ضعفِ الإيمانِ ولَا بدَّ، واللهُ تعالَى يجمعُ بينَ التوكُّلِ والعبادةِ، وبينَ التوكُّلِ والإيمانِ، وبينَ التوكُّلِ والإسلامِ، وبينَ التوكُّلِ والتقوَى، وبينَ التوكُّلِ والهدايةِ[1].

وانتفاءُ التوكُّلِ يعنِي انتفاءُ الإيمانِ، يقولُ المولَى عزَّ وجلَّ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[الأنفال: 2 – 3].

---

(1) طريق الهجرتين وباب السعادتين ١/٢٥٥.

هذَا وقدْ ذهبَ بعضُ العلماءِ إلَى أنَّ الآيةَ تعنِي أنَّ منِ اتَّصفَ بتلكَ الأوصافِ هوَ المؤمنُ كاملُ الإيمانِ، بينمَا منْ لمْ يتَّصفْ بهَا هوَ مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، فلَا ينتفِي عنهُ الإيمانُ بالجملةِ[1]، لكنَّ المتأمِّلَ فِي الآيةِ وفِي معنَى التوكُّلِ يعلمُ أنَّ التوكُّلَ أمرٌ عقديٌّ، لذَا يستبعدُ أنْ يكونَ المتوكِّلُ علَى غيرِ اللهِ تعالَى فِي مَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى مؤمنًا إيمانًا ناقصًا، بلْ يرجّحُ انتفاءُ الإيمانِ عنهُ، والمتوكِّلُ علَى غيرِ اللهِ تعالَى في مَا يقدرُ عليهِ عبادهُ هوَ مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، والله أعلى وأعلم.

ثانيًا: الإيمانُ بالقدرِ:

الإيمانُ بالقدرِ منْ أهمِّ مَا يدفعُ المسلمَ إلَى التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى؛ فالذِي يعلمُ يقينًا أنَّ اللهَ تعالَى قدْ قدّرَ حياتهُ ومعادهُ ورزقهُ وذريَّتهُ وزوجهُ وأمورَ معاشهِ كلَّهَا، لَا يتوانَى فِي تسليمِ أمورهِ كلِّهَا للهِ، ولَا يقلقُ ولَا يجزعُ منَ المستقبلِ، فالذِي خلقهُ هوَ منْ قدّرَ سيرَ حياتهِ، فيعيشُ مطمئنَّ البالِ راضيًا بمَا كتبَ اللهُ لهُ، لَا يلهثُ وراءَ الدُّنيَا ولَا يتكالبُ علَى المناصبِ والأرزاقِ، فاللهُ تعالَى قدْ كتبَ لهُ مقدارًا منَ الخيرِ سيأتيهِ دونَ غيرهِ.

قالَ تعالَى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

---

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/٣٦٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/٤٩.

فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} [النحل: 70 – 72].

وعنْ محمَّدٍ بنِ عمرانَ قالَ: قيلَ لحاتمٍ الأصمِّ: علَى مَا بنيتَ أمركَ هذَا منَ التوكُّلِ؟ قالَ: أربعُ خلالٍ:

- علمتُ أنَّ رزقِي ليسَ يأكلهُ غيرِي، فلستُ أشغلُ بهِ.
- وعلمتُ أنَّ عملِي لَا يعملهُ غيرِي، فأنَا مشغولٌ بهِ.
- وعلمتُ أنَّ الموتَ يأتينِي بغتةً، فأنَا أبادرهُ.
- وعلمتُ أنِّي بِعَيْنِ اللهِ فِي كلِّ حالٍ، فأنَا مستحيِي منهُ[1].

والتوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى لَا يعنِي تركَ الأسبابِ بحجَّةِ كونِ الأمورِ مقدَّرةٌ عندَ اللهِ، فتركُ الأسبابِ بدعوَى التوكُّلِ لَا يكونُ إلَّا عنْ جهلٍ بالشَّرعِ أوْ فسادٍ فِي العقلِ، فالتوكُّلُ محلُّهُ القلبُ، والعملُ بالأسبابِ محلُّهُ الأعضاءُ والجوارحُ، ولَا يكملُ التَّوكلُ إلَّا بالعملِ، فالمؤمنُ يعملُ ويأخذُ بالأسبابِ ثمَّ يتوكَّلُ علَى اللهِ تعالَى فِي جلبِ المنفعةِ[2].

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بأخذِ الأسبابِ فِي كلِّ الأحوالِ، تأمَّلْ قولَ اللهِ تعالَى: {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} [الملك: 15].

(1) الكشف والبيان، الثعلبي ٢/١٩٤، سير أعلام النبلاء، الذهبي ١١/٤٨٤.

(2) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/١٧٠.

فبالرُّغمِ منْ كونِ الرِّزقَ مقدَّرًا إلَّا أنَّنَا مأمورونَ بالسَّعيِ منْ أجلهِ، وبالاجتهادِ فِي استصلاحِ الأرضِ والحصولِ علَى ثرواتهَا[1].

وانظرْ قولهُ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا}[النساء: 71].

فالحذرُ عملٌ بأسبابِ النَّصرِ، وكذلكَ الاستعدادُ للمعركةِ منْ عواملِ النَّصرِ، قالَ تعالَى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ}[الأنفال: 60].

وفِي الآيةِ: تنبيهٌ إلَى ضرورةِ الاستعدادِ وعدمِ الاتِّكالِ علَى حسنِ النَّوايَا وطيبِ الهدفِ، فيجبُ ألَّا نقصرَ فِي إعدادنَا للقوَّةِ التِي تعيننَا علَى ملاقاةِ الأعداءِ ونبذلَ فِي سبيلِ ذلكَ جهودنَا وأموالنَا؛ حتَّى نستحقَّ نصرَ اللهِ وتأييدهُ[2]، وتدبَّرْ قولَ يعقوبَ عليهِ السَّلامُ لابنهِ يوسفَ: {قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}[يوسف: 5].

فقدْ أمرَ يعقوبُ ابنهُ يوسفَ عليهمَا السَّلامُ أنْ يجتنبَ ذكرَ أمرِ الرُّؤيَا أمامَ إخوتهِ، علَى الرُّغمِ منْ فهمهِ ويقينهِ أنَّ اللهَ سيجعلُ ليوسفَ مستقبلًا عظيمًا، إلَّا أنَّ هذَا لَا يمنعُ منْ صيانةِ الإنسانِ لنفسهِ وحفظهِ لأمورهِ منَ الحسدِ والكيدِ[3].

---

(1) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢٣٨/٨.

(2) انظر: تفسير الشعراوي ٤٧٧٥/٨.

(3) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢٥٢/٤.

مواطنُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى:

يدخلُ التوكُّلُ فِي تفاصيلِ حياةِ المسلمِ كلِّهَا، فلَا يخلُو سلوكُ المؤمنِ من استحضارِ التوكُّلِ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ فِي جميعِ أمورِه، ومنْ تلكَ المواطنِ التِي نتوكَّلُ فيهَا علَى اللهِ تعالَى:

أوَّلًا: تحقيقُ المصالحِ ودفعُ المضارِّ:

يمرُّ الإنسانُ فِي حياتِهِ بلحظاتٍ يكونُ فيهَا بأمسِّ الحاجةِ إلَى توفيقٍ ربانيٍّ وحفظٍ إلهيٍّ، فالدِّراسةُ للامتحانِ والاجتهادُ وحدهُ ليسَ كافيًا للحصولِ علَى درجةٍ عاليةٍ، أوِ التَّنافسُ علَى وظيفةٍ راقيةٍ، ووجودُ الزَّوجةِ ليسَ ضامنًا لإنجابِ الذريَّةِ، ووجودُ الذريَّةِ ليسَ مؤشرًا علَى الرَّاحةِ عندَ الكبرِ، وكلُّ مَا يفعلهُ الإنسانُ منِ اجتهاداتٍ لَا يغيِّرُ شيئًا؛ لوْ لمْ يقترنْ بحفظِ اللهِ تعالَى ونصرهِ وتسديدهِ.

يقولُ المولَى عزَّ وجلَّ: {إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[آل عمران: 160].

وفِي الآيةِ: خطابٌ للمؤمنينَ أنَّهُ إنْ ينصركمْ اللهُ ويثبِّتكمْ ويوفِّقكمْ فلنْ يستطيعَ أحدٌ خذلانكمْ أوْ مضرَّتكمْ، وإنْ تركَ اللهُ نصرتكمْ فلنْ يستطيعَ أحدٌ نفعكمْ، فتوكَّلُوا علَى ربِّكمْ وثقُوا بنصرهِ، وفوِّضُوا جميعَ أموركمْ إليهِ؛ حتَّى تنالُوا إسنادهُ وتوفيقهُ ونصرتهُ[1].

(1) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/١١٦٢.

قالَ الرَّاغبُ الأصفهانِي: إنَّ حصلَ لكمْ النُّصرةُ فلَا تعتدّوا مَا يعرضُ منَ العوارضِ الدنيويَّةِ فِي بعضِ الأحوالِ غلبةً، وإنْ خذلكمْ فِي ذلكَ فلَا تعتدّوا مَا يحصلُ لكمْ منَ القهرِ فِي الدُّنيَا نصرةً، فالنُّصرةُ والخذلانُ معتبرانِ بالمآلِ[1].

وفِي السنَّةِ النبويَّةِ مَا يدلُّ علَى دوامِ توكلِّ النبيِّ ﷺ قولًا وفعلًا، منْ ذلكَ مَا وردَ عنِ ابنِ عباسٍ: "كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذَا قامَ منَ اللَّيلِ يتهجدُ، قالَ: اللهمَّ لكَ الحمدُ، أنتَ نورُ السَّمواتِ والأرضِ ومنْ فيهنَّ، ولكَ الحمدُ، أنتَ قيِّمُ السَّمواتِ والأرضِ ومنْ فيهنَّ، ولكَ الحمدُ، أنتَ الحقُّ، ووعدكَ حقٌ، وقولكَ حقٌ، ولقاؤكَ حقٌّ، والجنَّةُ حقٌّ، والنَّارُ حقٌّ، والسَّاعةُ حقٌّ، والنبيونَ حقٌّ، ومحمَّدٌ حقٌّ، اللهمَّ لكَ أسلمتُ، وعليكَ توكَّلتُ، وبكَ آمنتُ، وإليكَ أنبتُ، وبكَ خاصمتُ، وإليكَ حاكمتُ، فاغفرْ لِي مَا قدَّمتُ ومَا أخَّرتُ، ومَا أسررتُ ومَا أعلنتُ، أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ، لَا إلهَ إلَّا أنتَ، أوْ قالَ: لَا إلهَ غيركَ[2].

فدعاؤهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ دليلٌ علَى توكُّلهِ القوليِّ، واجتهادهِ فِي التنبُّهِ ليلًا والتوجُّهِ إلَى اللهِ بالصَّلاةِ والدُّعاءِ والرَّجاءِ علَى الرُّغمِ منْ كونهِ نبيُّ هذهِ الأمَّةِ، وأوَّلُ منْ يدخلُ الجنَّةَ علَى الإطلاقِ؛ دليلٌ علَى أهميَّةِ العملِ لأجلِ طاعةِ اللهِ ولاستحقاقِ رحمتهِ وجنَّتهِ، هذَا إلَى جانبِ مواقفهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ التِي يصعبُ عدّهَا والتِي جسّدَ لنَا فيهَا القدوةَ الرَّائعةَ للتوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى.

---

(1) تفسير الراغب الأصفهاني ٣/٩٥٥.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل ٨/٧٠، رقم ٦٣١٧.

فعلَى المؤمنِ أنْ يقتدِي برسولهِ الكريمِ ﷺ فِي كلِّ أحوالهِ فهوَ الذِي علّمنَا ألَّا ندعَ التوكُّلَ علَى اللهِ فِي كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ؛ فهوَ راحةٌ وطمأنينةٌ واستقرارٌ للرِّضَا فِي قلبِ المؤمنِ، بالإضافةِ إلَى أنَّهُ يعودُ علَى الإنسانِ بالعزَّةِ والاستغناءِ عنِ البشرِ.

قالَ اللهُ تعالَى: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[الطلاق: 3] أي: كافيهِ ومغنيهِ عمَّنْ سواهُ[1].

فيجبُ أنْ نأخذَ بالأسبابِ وكأنَّهَا كلُّ شيءٍ، وينبغِي أنْ نتوكَّلَ علَى اللهِ وكأنَّ الأسبابَ ليستْ بشيءٍ، فكأنَّ الطَّريقَ الصَّحيحَ عنْ يمينهِ وادٍ سحيقٌ، وعنْ يسارهِ وادٌ سحيقٌ، إنْ أخذنَا بالأسبابِ واعتمدنَا عليهَا فقدْ وقعنَا فِي وادِي الشِّركِ، وإنْ لمْ نأخذْ بهَا وقعنَا فِي وادِي المعصيةِ والتَّواكلِ، لكنَّ الموقفَ الأعقلَ والأكملَ أنْ نأخذَ بالأسبابِ؛ لأنَّهَا طريقُ الأهدافِ، ثمَّ نتوكَّلُ علَى اللهِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ جلالهُ لَا يمكنُ أنْ يعطِي لهذهِ الأسبابِ فاعليةً إلَّا بمشيئتهِ وقدرتهِ.

ويكفينَا حديثُ عمرُو بنُ أميَّةَ قالَ: قالَ رجُلٌ لِلنَّبيِّ ﷺ: أُرسِلُ ناقتي وأتوكَّلُ؟ قال: اعقِلْها وتوكَّلْ"[2].

---

(1) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/٤٦١.

(2) حديث حسن صحيح ابن حبان.

ثانيًا: الجهادُ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى:

التوكُّلُ فِي ميدانِ الجهادِ فِي سبيلِ اللهِ منْ أهمِّ الأمورِ التِي تعودُ علَى المؤمنينَ بالنَّصرِ والتَّوفيقِ، وقدوتنَا فِي ذلكَ نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ صاحبُ السِّيرةِ الزَّاخرةِ بالتوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى، وجهادهِ منذُ نزولِ الوحيِ عليهِ وبدئهِ الدَّعوةِ السرِّيةِ، ثمَّ انتقالهِ للدَّعوةِ الجهريَّةِ، فالهجرةِ والحروبِ كلِّهَا تجسيدٌ لهذَا الأدبِ العظيمِ الذِي لَا بدَّ أنْ نحتذيهِ فِي جهادنَا ضدَّ أعداءِ الإسلامِ.

قالَ تعالَى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[آل عمران: 159 – 160].

وانطلاقًا منَ الأمرِ الإلهيِّ بالتوكُّلِ سلكَ النبيُّ ﷺ مسلكَ الثِّقةِ واتِّخاذِ الأسبابِ فِي شؤونِ الجهادِ والهجرةِ.

فقدْ رتَّبَ أمورَ الهجرةِ بشكلٍ دقيقٍ حتَّى يتجنَّبَ اللَّحاقَ بهِ منْ قبلِ المشركينَ، وقدْ حرصَ علَى عدمِ إلحاقِ الأذَى بالمسلمينَ فجعلهمْ يهاجرونَ قبلهُ، وأبقَى معهُ أبَا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ، وأمرهُ بتجهيزِ الدَّوابِ للسَّفرِ، ثمَّ خرجَ خروجَ الواثقِ بربِّهِ المستندِ إلَى الحقِّ، فمرَّ منْ بينِ المشركينَ وهمْ ينتظرونَ رؤيتهُ ليقتلوهُ، فأرادَ اللهُ لعبدهِ المتوكِّلِ النَّصرَ، فأعمَى أبصارهمْ وحفّهُ برعايتهِ سبحانهُ وتعالَى.

ثمَّ التقَى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بحبيبهِ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ، فانطلقَا تحفُّهمَا رعايةُ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، واتَّخذَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دليلًا خبيرًا ليدلَّهُ علَى الطَّريقِ، كمَا استعانَ بمنْ يمسحُ آثارَ خيلهِ أثناءَ الرِّحلةِ حتَّى لَا يكتشفَ المشركونَ أمرهُ.

وقدْ أطالَ الرِّحلةَ التِي تحتاجُ ثلاثةَ أيَّامٍ إلَى أسبوعٍ؛ تحقيقًا للأمنِ، وتمويهًا للعدوِّ، فأدلجَ إلَى غارِ ثورٍ حتَّى يهدأَ الطَّلبُ وتفترَ الهممُ فِي اقتفاءِ أثرهِ، فيتمكَّنَ منَ السَّيرِ وهوَ آمنٌ، وطلبَ فِي هذهِ الفترةِ منِ ابنِ أبِي بكرٍ موافاتهُ بأخبارِ المشركينَ أوَّلًا بأوَّلٍ، واختارَ أسماءَ بنتِ أبِي بكرٍ لتزويدهمْ بالغذاءِ؛ فقدْ كانتْ تستعدُّ للمخاضِ ولمْ تكنْ تحرُّكاتهَا لتثيرَ شكوكَ قريشٍ.

ورغمَ بذلهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ للجهدِ فِي التخفِّي إلَّا أنَّ قريشًا وصلتْ إلَى الغارِ! لكنَّ لَا يخشَى منْ وثقَ باللهِ وبذلَ فِي سبيلِ ذلكَ كلَّ الأسبابِ، فلَا يضيِّعُ اللهُ عملَ المتوكِّلِ العاملِ، فكانَ مطمئنًّا ومثبِّتًا لقلبِ أبِي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ[1].

قالَ تعالَى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"}[التوبة: 40].

(1) انظر: الهجرة النبوية، محمد السيد الوكيل ١/١٧٩.

فانظرْ إلَى النَّبيِّ الكريمِ القدوةِ الذِي لمْ يركنْ إلَى أنَّهُ رسولٌ منْ ربِّ العالمينَ بعثهُ ليبلِّغَ دينهُ، ولمْ ينتظرْ النُّصرةَ وهوَ قاعدٌ فِي بيتهِ، فالإنسانُ وإنْ سمتْ رسالتهُ وتعلَّقتْ باللهِ تعالَى عليهِ أنْ يبذلَ منْ أجلهَا الأسبابَ؛ حتَّى تتحقَّقَ الغايةُ منهَا.

وفِي حروبهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معَ المشركينَ نماذجُ كثيرةٌ منْ التوكُّلِ، أهمُّهَا غزوةُ بدرٍ، أولَى الغزواتِ التِي خرجَ فيهَا المسلونَ للقاءِ منْ يفوقهمْ عدَّةً وعتادًا، خرجُوا واثقينَ بنصرِ اللهِ مصطحبينَ مَا استطاعُوا جمعهُ منْ عتادٍ، وقدْ لَا نتصوَّرُ اطمئنانَ هذهِ الفئةِ وهمْ أمامَ جمعٍ غفيرٍ منَ الجنودِ المدجَّجينَ بالسِّلاحِ الذينَ أرادُوا استئصالَ الإسلامَ، لكنَّهُ التوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى والثِّقةُ بنصرهِ التِي لَا يوازيهَا شيءٌ.

قالَ تعالَى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}[الأنفال: 9 – 12].

قالَ الزَّجاجُ: أمرُ بدرٍ كانَ مْن أعظمِ الآياتِ؛ لأنَّ عددَ المسلمينَ كانَ قليلًا جدًّا، وكانُوا رجّالةً، فأيدهمُ اللهُ، وكانَ المشركونَ أضعافهمْ، وأمدّهمُ اللّهُ بالملائكةِ[1].

وقدِ اجتهدَ رسولُ اللهِ ﷺ فِي الاستعدادِ لغزوةِ الأحزابِ، التِي تكالبَ فيهَا المشركونَ واليهودُ علَى المسلمينَ، وكانتْ أعدادهمْ ثلاثةَ أضعافِ عددِ المسلمينَ، لكنَّ هذَا لمْ يفتّ فِي عضدِ المؤمنينَ الصَّادقينَ، فحفرَ رسولُ اللهِ ﷺ معَ الصَّحابةِ الكرامِ الخندقَ فِي جوٍّ منَ البردِ والجوعِ، لَا يؤازرهمْ سوَى انتصارهمْ لدينِ اللهِ تعالَى.

وقدْ مَنَّ اللهُ عليهمْ بأنْ أرعبَ الأحزابَ وشرَّدهمْ[2].

قال تعالى: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [الأحزاب: 25 – 27].

فاللهُ تعالَى هوَ ناصرُ المؤمنينَ المتوكِّلينَ.

قالَ السَّعدِي: لَا يغالبهُ أحدٌ إلَّا غُلبَ، ولَا يستنصرهُ أحدٌ إلَّا غلبَ، ولَا يعجزهُ أمرٌ أرادهُ، ولَا ينفعُ أهلَ القوَّةِ والعزَّةِ، قوَّتهمْ وعزَّتهمْ، إنْ لمْ يعنهمْ بقوَّتهِ وعزَّتهِ[3].

---

(1) معاني القرآن وإعرابه ٢/٤٠٤.

(2) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/٢٦٧.

(3) تيسير الكريم الرحمن ١/٦٦٠.

ثالثًا: طلبُ الرِّزقِ:

التوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى فِي طلبِ الرِّزقِ سمةُ المؤمنينَ؛ لأنَّ الرِّزقَ مكفولٌ بربوبيَّةِ اللهِ تعالَى للمؤمنِ والكافرِ إنْ عملَ الاثنانِ بالأسبابِ.

يقولُ المولَى عزَّ وجلَّ: {وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[العنكبوت: 60 – 62].

فاللهُ تعالَى يرزقُ بفضلهِ جميعَ عبادهِ، ولَا أدلّ علَى كرمهِ تعالَى منْ امتنانهِ بكنوزِ قارونَ التِي بسطهَا لهُ بسطًا، فلهُ خزائنُ السَّماواتِ والأرضِ، وهوَ الممتنُّ علَى عبادهِ بالطَّعامِ والشَّرابِ والذريَّةِ وكلِّ مَا يملكونَ، وهوَ المتكفِّلُ بأرزاقِ المستقبلِ.

قالَ تعالَى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ}[الذاريات: ٢٢ – ٢٣].

والآيةُ الكريمةُ تلفتُ انتباهَ الإنسانَ إلَى السَّببِ الأهمِّ للرِّزقِ، فالسَّببُ الظَّاهرُ للرِّزقِ هوَ رعايةُ الأرضِ التِي تخرجُ النَّباتَ والثَّرواتِ، لكنَّ المؤمنَ العاقلَ عليهِ أنْ يرفعَ بصرهُ نحوَ السَّماءِ؛ فالسَّببُ الحقيقيُّ للرِّزقِ هوَ اللهُ تعالَى، الذِي يرزقُ عبادهُ بفضلهِ لَا بجهدهِمْ، فالأصلُ أنْ يتوكَّلَ الإنسانُ علَى اللهِ تعالَى جازمًا أنَّهُ وحدهُ هوَ المانحُ للأرزاقِ، وأنْ يعملَ بأسبابِ تلكَ الأرزاقِ حتَّى ينالَ رحمةَ اللهِ تعالَى وفضلهِ.

يقولُ سيِّدُ قطبٍ فِي تعليقهِ علَى الآيةِ: والقلبُ المؤمنُ يدركُ هذهِ اللَّفتةَ علَى حقيقتهَا، ويفهمهَا علَى وضعهَا ويعرفُ أنَّ المقصودَ بهَا ليسَ هوَ إهمالُ الأرضِ وأسبابهَا، فهوَ مكلَّفٌ بالخلافةِ فيهَا وتعميرهَا، إنَّمَا المقصودُ هوَ ألَّا يعلِّقَ نفسهُ بهَا، وألَّا يغفلَ عنِ اللهِ فِي عمارتهَا، ليعملَ فِي الأرضِ وهوَ يتطلَّعُ إلَى السَّماءِ، وليأخذَ بالأسبابِ وهوَ يستيقنُ أنَّهَا ليستْ هيَ التِي ترزقهُ، فرزقهُ مقدَّرٌ فِي السَّماءِ، ومَا وعدهُ اللهُ لَا بدَّ أنْ يكونَ[57].

وقدْ وعدَ اللهُ عزَّ وجلَّ المتوكِّلَ عليهِ بكفايتهِ ورزقهِ، قالَ تعالَى: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}[الطلاق: 2 – 3].

وفِي الآياتِ بيانٌ لضرورةِ تقوَى اللهِ فِي أمورِ الطَّلاقِ أوِ الإمساكِ، وحضٌّ علَى التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى؛ لأنَّهُ الرزَّاقُ، ولأنَّ اللهَ تعالَى بالغُ أمرهِ، (سواءً) توكَّلَ الإنسانُ عليهِ أوْ لمْ يتوكَّلْ عليهِ، غيرَ أنَّ المتوكِّلَ يكفَّرُ عنهُ سيِّئاتهِ، ويعظمُ لهُ أجرًا[58]، وقدْ قسّمَ ابنُ عجيبةَ الأسبابَ منْ حيثُ الأخذِ والتَّركِ إلَى ثلاثةِ أسبابٍ:

أوَّلهَا سببٌ معلومٌ قطعًا قدْ أجراهُ اللهُ، وهوَ سنَّةٌ منْ سننِ الدُّنيَا، فهذَا لَا يجوزُ تركهُ، كالأكلِ لرفعِ الجوعِ واللِّباسِ لرفعِ البردِ، والثَّانِي: سببٌ مظنونٌ، كالتِّجارةِ وطلبِ المعاشِ، وشبهِ ذلكَ، فهذَا لَا يقدحُ فعلهُ فِي التوكُّلِ، فإنَّ التوكُّلَ منْ

---

(1) في ظلال القرآن ٦/٣٣٨١.

(2) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/٤٧.

أعمالِ القلوبِ لَا منْ أعمالِ البدنِ، ويجوزُ تركهُ (أي السبب) لمنْ قويَ عليهِ، لكنَّهُ أخذَ بأسبابِ الرِّزقِ وفعلهُ محمودٌ، والثَّالثُ: سببٌ موهومٌ بعيدٌ، فهذَا يقدحُ فعلهُ فِي التوكُّلِ، ثمَّ بيّنَ أنَّ الثَّالثَ مثلَ طلبِ الكيمياءِ والكنوزِ وعلمِ النَّارِ والسِّحرِ، وشبهِ ذلكِ[1]، وأرَى أنَّ طلبَ الكنوزِ بالطُّرقِ المشروعةِ هوَ منَ الأسبابِ منَ القسمِ الثَّاني أيِ السببِ المظنونِ، لأنَّ صاحبهُ تسبَّبَ بالبحثِ والحفرِ وتوكَّلَ علَى اللهِ تعالَى فِي كلِّ ذلكَ، وهذَا الأرجحُ واللهُ أعلمُ.

قالَ الزحيليُّ: ومنْ شروطِ التوكُّلِ الصَّحيحِ: تنفيذُ الأحكامِ الشرعيَّةِ، ومراعاةِ السُّننِ المطلوبةِ فِي الحياةِ، منِ اتِّخاذِ الأسبابِ ثمَّ تفويضِ الأمرِ إلَى اللهِ تعالَى[2].

وقدْ حثَّتِ السنَّةُ النبويَّةُ علَى التوكُّلِ فِي طلبِ الرِّزقِ، فعنْ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: "لوْ أنّكمْ كنتمْ توكّلونَ علَى اللّهِ حقّ توكّلهِ لرزقتمْ كمَا يرزقُ الطّيرَ، تغدُو خماصًا، وتروحُ بطانًا"[3].

---

(1) انظر: البحر المديد ١/٤٢٨

(2) التفسير المنير ٩/٨.

(3) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب في التوكل على الله ٤/٥٧٣، رقم ٢٣٤٤.

وفِي الآنِ نفسهِ أمرَ المؤمنَ بالأخذِ بأسبابِ الرِّزقِ اقتداءً بأنبياءِ اللهِ الكرامِ، فعنِ المقدامِ رضيَ اللهُ عنهُ، عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: "مَا أكلَ أحدٌ طعامًا قطُّ، خيرًا منْ أنْ يأكلَ منْ عملِ يدهِ، وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ عليهِ السَّلامُ، كانَ يأكلُ منْ عملِ يدهِ[1].

أمَّا تركُ الكسبِ والاعتمادِ علَى الخوارقِ والجوائزِ الربَّانيةِ فهذَا سمتُ المتقاعسينَ الذِي ذمّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ فيهِ إبطالًا لقانونِ الأسبابِ والمسبِّباتِ الذِي وضعهُ اللهُ فِي الكونِ، ودعوةً إلَى التكاسلِ والقعودِ ومخالفةً لأمرِ اللهِ تعالَى بإعمارِ الأرضِ بالعملِ.

رابعًا: الدَّعوةُ إلَى اللهِ تعالَى:

الدَّعوةُ مضمارٌ مهمٌّ يخوضهُ المسلمُ بجدٍّ وحبٍّ وإخلاصٍ مقرونٌ بالعلمِ، ولَا يتأتِى لنَا جنيُ ثمراتِ الدَّعوةِ إلَّا بعدَ التوكُّلِ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ والثِّقةِ بأنَّهُ تعالَى إنْ شاءَ أجرَى الحجَّةَ علَى لسانِ الدَّاعيةِ وقَلَمِهِ، فجعلَ القلوبَ تنجذبُ إليهِ وتنقادُ إلَى مَا يدعُو إليهِ، وإنْ لمْ يشأْ فلنْ يُكتبُ للدعوةِ نجاحٌ، مهمَا بلغتْ حجَّةُ الدَّاعيةِ، ومهمَا عظمتْ خبرتهُ.

وقدْ خلّدَ التَّاريخُ نماذجَ عديدةً منَ الدُّعاةِ المتوكِّلينَ الذينَ لمْ يعتمدُوا علَى سموِّ الهدفِ وربَّانيَّةِ مصدرِ الرِّسالةِ فحسبُ، بلِ اجتهدُوا وأخذُوا بأسبابِ النَّجاحِ حتَّى تسمُو دعوتهمْ وتنتصرَ فكرتهمْ.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده ٣/٥٧، رقم ٢٠٧٢.

قال تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} [يس: 20 – 26].

ولعلَّ المتأمِّلَ فِي الأسبابِ التِي اتَّخذهَا هذَا الدَّاعيةُ المخلصُ المتوكِّلُ علَى اللهِ تعالَى فِي دعوتهِ لقومهِ المكذِّبينَ يعلمُ أنَّهُ استحقَّ دخولَ الجنَّةَ بحقٍّ، ومنْ هذهِ الأسبابِ[1]:

السُّرعةُ وعدمُ التباطؤِ فِي الدَّعوةِ، فحينمَا استشعرَ حقيقةَ الإيمانِ، تحرَّكتْ هذهِ الحقيقةُ فِي ضميرهِ، فلمْ يتوانَ فِي الإسراعِ منْ أجلِ الدَّعوةِ إليهَا.

حضورهُ منْ أقصَى المدينةِ، وهوَ مكانٌ بعيدٌ، وهذَا يؤكِّدُ إخلاصهُ فِي الدَّعوةِ مَا جعلهُ يحتملُ مشاقَّ الطَّريقِ منْ أجلِ إنجاحِ دعوتهِ.

سعيهُ، والكلمةُ دالَّةٌ علَى إسراعهِ معَ بذلهِ الجهدَ فِي المجيءِ للدَّعوةِ؛ إنقاذًا لهمْ منْ ظلماتِ الكفرِ.

رفقهُ ولينهُ معَ قومهِ، واستعطافهُ لهمْ بقولهِ «يَا قَوْمِ».

لفتهُ أنظارهمْ إلَى ميزاتِ الأنبياءِ منْ حيثُ الاهتداءِ وعدمِ طلبِ المالِ.

---

(1) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/١٦٣–١٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/٣٦٥.

مخاطبتهُ لنفسهِ منْ منطلقِ إشعارهمْ أنَّهُ يخشَى عليهمْ مَا يخشَى علَى نفسهِ ويحبُّ لهمْ مَا يحبُّ لنفسهِ، واجتهادهُ فِي تغييرِ الأساليبِ لفتًا لانتباههمْ.

تنبيههمْ إلَى أنَّ اللهَ فاطرُ النُّفوسِ وإليهِ المعادُ، وهوَ الخالقُ الذِي بيدهِ النَّفعُ والضرُّ، وعندهُ الجزاءُ بالثَّوابِ والعقابِ دونَ سواهُ.

تكرارُ الدَّعوةِ وطلبهُ أنْ يهتمّوا بسماعهِ وفهمِ مَا يقولهُ.

تحمُّلِ تعذيبهمْ لهُ مقابلَ إيصالِ الحقِّ ونشرِ دينِ اللهِ، وحرصهِ علَى إعلامهمْ بثوابِ المؤمنِ علَى الرُّغمِ منْ إيذائهمْ لهُ.

قالَ القرطبِي: وفِي هذهِ الآيةِ تنبيهٌ عظيمٌ، ودلالةٌ علَى وجوبِ كظمِ الغيظِ، والحلمِ عنْ أهلِ الجهلِ، والترؤُّفِ علَى منْ أدخلَ نفسهُ فِي غمارِ الأشرارِ وأهلِ البغي، والتشمُّرِ فِي تخليصهِ، والتلطُّفِ فِي افتدائهِ، والاشتغالِ بذلكَ عنِ الشماتةِ بهِ والدُّعاءِ عليهِ[1].

ولعلَّ التوكُّلَ علَى اللهِ تعالَى هوَ المسهِّلُ الرَّئيسُ للدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، فلوِ استحضرَ الإنسانُ عندَ دعوتهِ مَا قدْ يعودُ عليهِ منْ هومٍ وغمومٍ، وانتقاداتٍ وإعراضٍ، فإنَّهُ سيتركُ أمرَ الدَّعوةِ، لكنَّهُ معَ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى يشعرُ بقوَّةٍ وعزَّةٍ ومناصرةٍ منَ اللهِ تعالَى، فيهونُ عليهِ أمرُ الدَّعوةِ، ومنَ الأمورِ التِي تبعثُ الدَّاعيةَ علَى التوكُّلِ:

- رسوخُ التَّوحيدِ فِي قلبهِ، وإدراكهُ لمعانِي أسماءِ اللهِ وصفاتهِ العلَا، والثِّقةُ بهِ عزَّ وجلَّ.

(1) الجامع لأحكام القرآن ١٥/١٧.

- معرفةُ الدَّاعيةِ إمكاناتِ نفسهِ، وإدراكهُ لضعفهِ وعجزهِ إنْ حُرمَ التَّوفيقَ منَ اللهِ.
- المعرفةُ بفضلِ التوكُّلِ وأحوالِ المتوكِّلينَ منَ السَّلفِ والخلفِ.

وفِي سيرةِ أنبياءِ اللهِ الكرامِ جميعًا، وهمْ أوائلُ الدُّعاةِ إلَى اللهِ تعالَى، نماذجٌ عظيمةٌ منَ التوكُّلِ علَى اللهِ فِي الدَّعوةِ، وعلَى رأسهمْ إمامُ المتوكِّلينَ محمَّدٌ ﷺ.

وتأمَّلْ قولَ اللهِ تعالَى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}[التوبة: 128 – 129].

وقدْ بيّنَ اللهُ تعالَى فضلَ النبيِّ ﷺ، وأنَّهُ جاءَ العربَ منْ جنسهمْ ومنْ نسبهمْ، فهوَ عربيٌّ قرشيٌّ مثلهمْ، يخافُ عليهمْ سوءَ العاقبةِ والوقوعَ فِي العذابِ، حريصٌ ألَّا تفلتَ منهُ أيُّ نفسٍ إلَى النَّارِ، وهوَ رؤوفٌ رحيمٌ بحالهمْ، قيلَ: لمْ يجمعِ اللهُ اسمينِ منْ أسمائهِ لأحدٍ غيرَ رسولِ اللهِ ﷺ فِي قولهِ: (رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) ثمَّ يواسِي اللهُ تعالَى نبيَّهُ الكريمَ ﷺ قائلًا: فإنْ أعرضُوا عنِ الإيمانِ بكَ وناصبوكَ فاستعنْ باللهِ وفوّضْ أمركَ إليهِ، فهوَ كافيكَ معرّتهمْ ولَا يضرُّونكَ، وهوَ ناصركَ عليهمْ، وهكذَا كانَ فعلهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ دومًا، فهوَ الصَّبورُ علَى أذاهمْ، الحريصُ علَى دعوتهمْ، المتوكِّلُ علَى اللهِ تعالَى فِي كلِّ حالٍ[1].

(1) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/٣٢٥.

خامسًا: مواجهةُ الظَّالمينَ والمجرمينَ:

يلزمُ علَى المؤمنِ استحضارُ قوَّةِ اللهِ تعالَى ومساندتهِ عندَ مواجهةِ الظَّالمينَ والمجرمينَ، والتوكُّلِ عليهِ تعالَى فِي ذلكَ، فالطَّاقةُ البشريَّةُ قاصرةٌ، سيَّمَا وإنْ كانتْ تتَّجهُ لمحاربةِ الظَّالمينَ، فالظَّالمُ لَا يخشَى اللهَ تعالَى، ولَا يردعهُ شيءٌ، وهوَ مستعدٌّ لبذلِ أرخصِ الوسائلِ وأرذلهَا للحصولِ علَى غرضهِ، وقدْ مرّتْ قصصٌ عبرَ التَّاريخِ تجسِّدُ أدبَ التوكُّلِ علَى اللهِ فِي محاربةِ الظَّلمةِ، منْ ذلكَ قصَّةُ موسَى عليهِ السَّلامُ معَ الطاغيةِ فرعونُ.

تأمَّلْ قولَ اللهِ تعالَى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ}[الأعراف: 103 – 107].

إلى قوله تعالى: {قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ * وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ

وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[الأعراف: 121 – 128].

وفِي الآياتِ الكريمةِ تصويرٌ دقيقٌ لتفكيرِ وسلوكِ الطُّغاةِ، فهمْ يخشونَ الدِّينَ؛ لعلمهمْ أنَّ الأمَّةَ إنِ التزمتْ بهِ ووحدَّتْ خالقهَا ستنصرفُ عنْ تقديسهمْ ورجائهمْ فِي أمورِ حياتهمْ، وستخرجُ منْ ظلماتِ التبعيَّةِ إلَى نورِ التحُّررِ منَ القيودِ البشريَّةِ والانقيادِ للهِ تعالَى وحدهُ دونَ شركاءَ، وهذَا مَا حصلَ عندمَا طلبَ موسَى منْ فرعونَ أنْ يتركَ بنِي إسرائيلَ ليعبدُوا اللهَ وحدهُ، فأدركَ فرعونُ وملؤهُ أنَّ هذَا يعنِي سلبَ السُّلطةِ منهمْ، فأرادُوا إحراجهُ بتقديمِ الحجَّةِ علَى صدقهِ أمامَ النَّاسِ.

وقدْ أظهرَ اللهُ تعالَى علَى يديهِ معجزاتهِ التِي أبهرتْ سحرةَ فرعونَ كلِّهمْ، فآمنُوا، وواجهُوا ذلكَ الطَّاغيةِ المستبدِّ الذِي أرادَ استئصالَ هذَا الدِّينِ وأتباعهِ، وعلَى الرُّغمِ منْ تهديدهِ ووعيدهِ إلَّا أنَّ المؤمنينَ أيقنُوا أنَّ مردَّهمْ إلَى اللهِ تعالَى طالَ عمرهمْ أمْ قصرَ، وأنَّهمْ اختارُوا الموتَ فِي سبيلِ للهِ علَى الموتِ كفَّارًا، وواساهمْ نبيُّهمُ الكريمُ وذكّرهمْ بصفةِ المؤمنِ، وهيَ الاستعانةُ باللهِ الكريمِ، السَّندِ المتينِ لعبادهِ، الذِي يكفيهمْ مَا أهمّهمْ، فليسَ لهمْ غيرَ اللهِ تعالَى، فهوَ الملاذُ الحصينُ، وعليهمْ أنْ يصبرُوا حتَّى يأذنَ الولَى بالنُّصرةِ فِي الوقتِ الذِي يقدِّرهُ بحكمتهِ وعلمهِ، وإنَّ الأرضَ للهِ، ومَا فرعونُ وقومهُ إلَّا نزلاءُ فيهَا، فيجبُ ألَّا يُنظرَ إلَى الطَّاغوتِ أنَّهُ مكينٌ فِي الأرضِ غيرِ مزحزحٍ عنهَا، فصاحبُ الأرضِ ومالكهَا هوَ الذِي يقرِّرُ متَى يطردهمْ منهَا، وإنَّ العاقبةَ للمتَّقينَ حتمًا،

فلَا يخالجُ قلوبَ الدَّاعينَ إلَى ربِّ العالمينَ قلقٌ علَى المصيرِ[1].

هذَا هوَ نبيُّ اللهِ الذِي قالَ عنهُ جلَّ وعلَا: {وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ}[يونس: 84].

فهوَ الذِي يذكِّرُ قومهُ دومًا بحقيقةِ الإيمانِ واستلزامهِ للتوكُّلَ علَى اللهِ وحدهُ دونَ سواهُ.

وقدْ واجهَ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ أعتَى الظَّالمينَ، فقدْ جسَّدَ النَّمرودُ مثالًا للطَّغيانَ.

يقولُ تعالَى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[البقرة: 258].

فالنَّمرودُ بنُ كنعانَ هوَ أوَّلُ منْ تجبَّرَ فِي الأرضِ وادّعَى الربوبيَّةَ، وكانَ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ قدْ دخلَ بلدتهُ، فأرسلَ إليهِ النَّمرودُ، وقالَ:منْ ربُّكَ؟ ويظهرُ أنَّهُ لمْ يسألْ إبراهيمَ ليعرفَ الجوابَ، بلْ سألهُ استهزاءً، فهوَ يعلمُ أنَّهُ نبيُّ اللهِ تعالَى، وأنَّهُ يدعُو إلَى توحيدِ اللهِ وعدمِ الإشراكِ بهِ، فردَّ عليهِ إبراهيمُ واثقًا متوكِّلًا متسلِّحًا بالإيمانِ والحجَّةِ التِي أجراهَا اللهُ علَى لسانهِ فقالَ: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ).

(1) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/١٣٥٥.

فمَا كانَ منْ تفكيرِهِ القاصرِ، وغرورِهِ المتغلغلِ فِي أعماقِ نفسهِ إلَّا أنْ يعمدَ إلَى سجنائهِ، فيقتلَ منْ صدرَ بحقِّهِ التخليةُ، ويخلِي منْ صدرَ بحقِّهِ القتلُ، واعتقدَ أنَّهُ بذلكَ قدْ أبطلَ حجَّةَ نبيِّ اللهِ إبراهيمَ، فسألهُ إبراهيمُ حينهَا مَا إنْ كانَ يستطيعُ الإتيانَ بالشَّمسِ منَ المغربِ؛ فاللهُ يأتِي بهَا منَ المشرقِ.

وقدْ ذكرَ الماوردِي أنَّ لتحوُّلِ إبراهيمَ للحجَّةِ الثَّانيةِ دونَ البقاءِ لنصرةِ الحجَّةِ الأولَى احتماليْنِ:

أحدهمَا: أنَّهُ قدْ ظهرَ منْ فسادِ قولِ النَّمرودِ مَا لَمْ يحتجْ معهُ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ إلَى النُّصرةِ، ثمَّ أتبعَ ذلكَ بغيرهَا تأكيدًا عليهِ فِي الحجَّةِ.

والاحتمالُ الثَّانِي: أنَّهُ لمّا كانَ فِي تلكِ الحجَّةِ منْ تحايلِ النَّمرودِ بمَا عارضهَا بهِ منَ الشُّبهةِ، أحبَّ أنْ يحتجَّ عليهِ بمَا لَا تحايلَ فيهِ؛ قطعًا لهُ واستظهارًا[1].

هذَا هوَ نبيُّنَا إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ الذِي مَا تركَ التوكُّلَ علَى اللهِ تعالَى فِي دعوتهِ.

يقولُ الحقُّ تعالَى داعيًا إلَى التأسِّي بهِ عليهِ السَّلامُ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[الممتحنة: 4].

---

(1) انظر: النكت والعيون ١/٣٢٩-٣٣٠.

وقد واجه ذو القرنين ظلم يأجوج ومأجوج بالتوكل على الله مع الأخذ بأسباب التوكل واتخاذ عوامل الحيطة منهم.

قال تعالى: " حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوما لَّا يَكَادُونَ يَفقَهُونَ قَولا * قَالُواْ يَٰذَا ٱلقَرنَينِ إِنَّ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ مُفسِدُونَ فِي ٱلأَرضِ فَهَل نَجعَلُ لَكَ خَرجًا عَلَىٰٓ أَن تَجعَلَ بَينَنَا وَبَينَهُم سَدّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَير فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجعَل بَينَكُم وَبَينَهُم رَدمًا * ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَينَ ٱلصَّدَفَينِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفرِغ عَلَيهِ قِطرا * فَمَا ٱسطَٰعُوٓاْ أَن يَظهَرُوهُ وَمَا ٱستَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقبا * قَالَ هَٰذَا رَحمَة مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَاءَ وَعدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّاءَۖ وَكَانَ وَعدُ رَبِّي حَقّا}[الكهف: 93 – 98].

وقدْ وردَ فِي تفسيرِ الآياتِ أنَّ ذِي القرنينِ ملكٌ حكمَ الدُّنيَا بأسرهَا، فاستغاثَ بهِ قومٌ ليحميهمْ منْ يأجوجَ ومأجوجَ، وهمْ جماعةٌ عظيمةٌ منْ نسلِ ولديّ يافثٍ بنِ نوحٍ، اشتهرُوا بالكثرةِ وقدْ هابهمْ أولئكَ القومُ وخشُوا ظلمهمْ، فسألُوا ذَا القرنينِ أنْ يبنيَ لهمْ سدًّا منيعًا يحميهمْ منْ أذَى قومِ يأجوجَ ومأجوجَ مقابلَ خرجٍ منَ المالِ، فمَا كانَ منهُ إلَّا أنْ تواضعَ للهِ ولمْ يغترّ بقوَّته، بلِ اعترفَ بفضلِ اللهِ عليهِ أنْ آتاهُ الصحَّةَ والعافيةَ التِي هيَ خيرٌ منْ أموالهمْ التِي سيجمعونهَا لهُ[1].

---

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/١٩٦، فتح القدير، الشوكاني ٣/٤٣٠.

ووافقَ أنْ يبنيَ السدَّ متوكِّلًا علَى اللهِ وحدهُ، وقدْ أخذَ بأسبابِ إنجاحِ مشروعهِ فطلبَ منهمْ إعانتهُ بالرِّجالِ وعملِ الأبدانِ والآلةِ التِي يبنِي بهَا السدَّ، وهذَا بدايةُ النَّجاحِ فِي العملِ، فإنَّ القومَ لوْ جمعُوا لهُ خرجًا، لمْ يعنهُ أحدٌ، ولتركوهُ يبنِي، فكانَ عونهمْ أسرعُ فِي إنجازِ العملِ وإنجاحِ المشروعِ، واستخدمَ الموادَ المناسبةَ لتقويةِ السدِّ، منْ حديدٍ وحرارةٍ ونحاسٍ، وهنَا يتجلّى ظهورُ العملِ المخلصِ، وهوَ أهمُّ مقوّماتِ التوكُّلِ، ثمَّ أقرّ ذُو القرنينِ مرَّةً أخرَى بفضلِ اللهِ عليهِ، وأنَّ بقاءَ السدِّ مرهونٌ بإرادةِ اللهِ تعالَى، وأنَّ المولَى سيشاءُ أنْ يجعلهُ دكاءً فِي وقتٍ يعلمهُ ويقدِّرهُ سبحانهُ[1].

سادسًا: مواجهةُ الشَّيطانِ وأعوانهِ:

يتوجَّبُ علَى المؤمنِ إخلاصُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى فِي مواجهةِ الشَّيطانِ وأعوانه، قالَ تعالَى: {إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[المجادلة: 10].

فلولَا التوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى لنْ يكونَ للإنسانِ قدرةٌ فِي مجابهةِ قوَى الشرِّ العظيمةِ التِي يستخدمهَا الشَّيطانُ فِي إغواءِ العبادِ، ففِي الآيةِ الكريمةِ علَى لسانِ إبليسَ لعنهُ اللهُ: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[ص: 82، 83].

---

(1) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/٣٢.

أيْ لأحسِّننَّ لهمْ معاصيكَ، ولأحبِّبنهَا إلَى قلوبهمْ حتَّى يرتكبوهَا، ولأضلّنَّهمْ عنْ سبيلِ الرَّشادِ إلَّا منْ أخلصتهُ بتوفيقكَ فهديتهُ، فإنَّ ذلكَ ممَّنْ لَا سلطانَ لِي عليهِ ولَا طاقةَ لِي بهِ[1].

وكان الرد الإلهي المتحدي: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً}[الإسراء: 63 – 65].

فقدْ أمرهُ اللهُ تعالَى أمرَ إهانةٍ أنْ يبذلَ كلَّ جهدهِ وأنْ يقطعَ منْ يشاءُ عنِ الحقِّ، وأنْ يستخدمَ كلَّ صوتٍ لهُ ولأعوانهِ فِي الوسوسةِ والإبعادِ عنِ الدِّينِ، وأمرهُ أنِ اجمعْ فِي سبيلِ إغوائهمْ خيولكَ ورجالكَ التِي تمشِي فِي الإفسادِ، وشاركهمْ فِي أموالهمْ بأنْ تجعلهمْ ينفقونهَا علَى المعاصِي واجعلْ منْ أولادهمْ بالزِّنَا لكَ نصيبًا، أوْ سيطرْ علَى عقولهمْ فاجعلهمْ يهوّدونَ أبناءهمْ وينصّرونهمْ، ومنِّهمْ بالأمانِي الكاذبةِ أنْ لَا جنَّةَ ولَا نارَ، وأنَّهمْ غيرَ محاسَبينَ علَى مَا يفعلونَ، فعبادُ اللهِ المؤمنونَ لنْ يغترُّوا بكذبكَ، فهمُ المخلصونَ فِي عبادتهمْ، واللهُ كافيهمْ وعاصمهمْ منْ سيطرةِ إبليسَ عليهمْ وهوَ الحافظُ لهمْ منْ كلِّ سوءٍ[2].

---

(1) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/١٠٣.

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/٢٨٨.

وعلَى قدرِ هذَا التحدِّي الكبيرِ يجبُ أنْ يعملَ المؤمنُ لحمايةِ نفسهِ منْ سيطرةِ الشَّيطانِ وأعوانهِ، فهمْ لَا يألونَ جهدًا فِي إسقاطنَا فِي المعصيةِ مهمَا صغرتْ أوْ كبرتْ.

ولنَا فِي قصَّةِ نبيِّ اللهِ يوسفَ عليهِ السَّلامُ نموذجٌ رائعٌ فِي تحدِّي الشَّيطانِ وأعوانه، فبالرُّغمِ منْ تعرُّضهِ عليهِ السَّلامُ لضغوطٍ شديدةٍ منْ أجلِ الوقوعِ فِي الرَّذيلةِ، إلَّا أنَّهُ واجهها بقوَّةٍ نابعةٍ منْ إيمانهِ باللهِ تعالَى، وأعانهُ علَى ذلكَ استعانتهُ باللهِ تعالَى وتوكُّلهُ عليهِ حقَّ التوكُّلِ.

قالَ تعالَى مصوِّرًا لنَا تفاصيلَ القصَّةِ: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[يوسف: 23 – 25].

حتَّى قولهِ عزَّ وجلَّ: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[يوسف: 33 – 34].

فقدْ عاشَ يوسفُ عليهِ السَّلامِ فِي كنفِ عزيزِ مصرَ، ويوسفُ معترفٌ بفضلهِ وفضلِ زوجهِ عليهِ، وقدْ تعرَّضَ لفتنةِ امرأةِ العزيزِ وهوَ فِي مرحلةِ النُّضجِ والشَّبابِ، ومنْ طلبتْ منهُ الفاحشةَ هيَ صاحبةُ الفضلِ عليهِ وهيَ متزيِّنةٌ متأهِّبةٌ

لهُ، وقدْ أوصدتِ الأبوابَ وأخلتِ الأجواءَ لوقوعِ الجريمةِ، ورغمَ كلِّ هذهِ العواملِ التِي اجتمعتْ علَى نبيِّ اللهِ المعصومِ إلَّا أنَّهُ واجهَ تلكَ المحنةَ بالتعفُّفِ الشَّديدِ عنِ الرذيلةِ[1].

ومنَ الأسبابِ التِي أخذَ بهَا يوسفُ عليهِ السَّلامُ فِي توكُّلهِ علَى اللهِ واستعانتهِ بهِ وحدهِ علَى مواجهةِ الشَّيطانِ:

- استعاذتهُ باللهِ تعالَى عندمَا غلَّقتْ عليهِ الأبوابَ.
- استحضارهُ وتذكيرهُ إيَّاهَا بأنَّ الإحسانَ لَا يردُّ إلَّا بمثلهِ.
- بذلُ الجهدِ واستباقُ البابِ، وعدمُ القعودِ وانتظارِ إجبارهِ علَى ارتكابِ المعصيةِ.
- الرضَا بالمكوثِ فِي السِّجنِ ظلمًا علَى السُّقوطِ فِي الرَّذيلةِ، وهذَا قمَّةُ الاجتهادِ فِي البعدِ عنِ المعصيةِ.
- اللُّجوءُ إلَى اللهِ تعالَى والتوكِّلِ عليهِ والافتقارِ إليهِ وطلبِ العونِ والسَّندِ فِي مجابهةِ المحنةِ.

ولنَا فِي هذهِ القصَّةِ القدوةِ الحسنةِ، فشبابنَا وبناتنَا الآنَ يتعرَّضونَ لمحنٍ كثيرةٍ تتعلَّقُ بالعفَّةِ، فنجدهمْ يستسلمونَ للشَّيطانِ ويسمحونَ لهُ بأنْ يتحكَّمَ فِي عقولهمْ ويزيِّنُ لهمُ المنكرَ، علَى أنَّهُ علاقةٌ اعتياديةٌ أوْ علاقةٌ مبدئيَّةٌ لحصولِ

---

(1) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/١٠٨.

الزَّواجِ، وكذلكَ يتدخَّلُ الشَّيطانُ فِي كلِّ أمورِ حياتنَا، فهوَ الذِي يوسوسُ للسَّارقِ أنْ يستكثرَ منْ مالهِ، وللأبناءِ أنْ يتركُوا برَّ آبائهمْ، وللآباءِ أنْ يقصِّرُوا فِي حقِّ أبنائهمْ وللطُّغاةِ أنَّهمْ علَى حقٍّ ليستمرُّوا فِي طغيانهمْ.

وليسَ للمؤمنِ للخروجِ منْ هذهِ الابتلاءاتِ إلَّا أنْ يتوكَّلَ علَى اللهِ تعالَى، ويثقَ بهِ فِي تصريفِ أمورهِ، معَ الأخذِ بالأسبابِ المعينةِ علَى مواجهةِ الشَّيطانِ، ومنْ ذلكَ:

- إخلاصُ العملِ للهِ تعالَى، واستحضارُ عظمتهِ ومراقبتهِ عزَّ وجلَّ فِي كلِّ الأوقاتِ.
- الاستكثارُ منْ أعمالِ الخيرِ واستغلالِ الوقتِ فِي ذلكَ؛ فهيَ معينةٌ علَى سدِّ مداخلِ الشَّيطانِ.
- الاستعاذةُ والدُّعاءُ والتزامُ الذِّكرِ وقراءةِ القرآنِ لتحصينِ النَّفسِ منَ الشَّيطانِ وأعوانهِ.
- الابتعادُ عنْ أعوانِ الشَّيطانِ منَ السَّحرةِ والكهَّانِ والعرَّافينَ والقائلينَ بالأبراجِ الفلكيَّةِ ومَا إلَى ذلكَ.
- الاستعانةُ بالصُّحبةِ الصَّالحةِ المعينةِ علَى تقوَى اللهِ تعالَى.

ثمراتُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى:

للآدابِ الربَّانيَّةِ آثارٌ يشاءُ اللهُ تعالَى أنْ تظهرَ عاجلًا، فيرَى المؤمنُ المتحلِّي بهَا أثرهَا فِي حياتهِ وفِي نظرةِ النَّاسِ إليهِ، ثمَّ يكرمهُ اللهُ بهَا فِي الآخرةِ فيعطيهِ جزاءهُ الأمثلَ، وللتوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى ثمراتٌ عاجلةٌ وآجلةٌ:

أوَّلًا: ثمراتٌ التوكُّلِ فِي الدُّنيَا:

1) محبَّةُ اللهِ تعالَى للمتوكِّلينَ:

تأكَّدَ فِي القرآنِ الكريمِ حبَّ اللهِ عزَّ وجلَّ للمتوكِّلينَ، قالَ تعالَى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[آل عمران: 109].

فقدْ دعَا ربُّ العزَّةِ نبيَّهُ الكريمَ ﷺ إلَى مشاورةِ المؤمنينَ فِي أمورِه، ثمَّ قالَ لهُ: إذَا اطمأنّ قلبكَ لمَا اخترتَ ففوّضْ أمركَ إلَى اللهِ واعتمدْ عليهِ، وامضِ بجوارحكَ، فاللّهُ يحبُّ المتوكِّلينَ، ومحبَّتهُ تعالَى هيَ أعظمُ محبَّةٍ وهيَ التِي تجلبُ النُّصرةَ والهدايةَ والتَّوفيقَ[1].

ويمتنّ اللهُ تعالَى علَى منْ يحبُّ منْ عبادهِ بأنْ يجعلَ لهُ حبًّا فِي قلوبِ النَّاسِ. قالَ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا}[مريم: 96].

والمعنى: إنَّ الذينَ صدقُوا اللهَ ورسولهُ، وعملُوا بمَا أمرهمْ منْ آدابٍ وشيمٍ (ومنْ أجلّ تلكَ الآدابِ التوكُّلُ) سيوقعُ اللهَ محبَّتهمْ وألفتهمْ فِي صدورِ عبادهِ[2].

وذكرَ أنَّ اللهَ تعالَى سيحدثُ لهمْ فِي القلوبِ مودَّةً منْ غيرِ تودُّدٍ منهمْ، يحبُّهمُ النَّاسُ، ويتحابُّونَ فيمَا بينهمْ، ويحبُّهمُ اللّهُ تعالَى ويرضَى عنهمْ[3].

---

(1) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/١٢٣، السراج المنير، الخطيب الشربيني ١/٢٦٠.
(2) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/٤٦٠٠.
(3) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/١٦٩.

وفِي الحديثِ عنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ اللهَ تباركَ وتعالَى إذَا أحبَّ عبدًا نادَى جبريلَ: إنَّ اللهَ قدْ أحبّ فلانًا فأحبّهُ، فيحبُّهُ جبريلُ ثمَّ ينادِي جبريلُ فِي السَّماءِ: إنَّ اللهَ قدْ أحبّ فلانًا فأحبّوهُ، فيحبُّهُ أهلُ السَّماءِ ويوضعُ لهُ القبولُ فِي أهلِ الأرضِ[1].

2) كفايةُ اللهِ للمتوكِّلينَ:

وعدَ اللهُ عزَّ وجلَّ عبادهُ المتوكِّلينَ عليهِ بالكفايةِ.

قالَ تعالَى: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[الطلاق: 3].

فقدْ قضَى اللهُ عزَّ وجلَّ علَى نفسهِ كفايةَ المتوكِّلينَ، فهوَ سبحانهُ الذِي يكفيهمْ مَا أهمّهمْ فِي دينهمْ ودنياهمْ، وهوَ الضَّامنُ لهمْ الرِّزقَ، الحافظُ لهُ منْ كلِّ مَا يخشونَ[2].

قالَ الرَّبيعُ بنُ خثيمَ يبيّنُ معنَى (فَهُوَ حَسْبُهُ): منْ كلِّ مَا ضاقَ علَى النَّاسِ[3].

وقدْ دعَا المؤمنونَ اللهَ تعالَى باسمهِ الوكيلِ كيْ يحميهمْ ويمنعَ عنهمْ كيدَ الكائدينَ.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ١٤٢/٩، رقم ٧٤٨٥.

(2) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣٣٨/٩.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الرقاق، باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، ٩٩/٨.

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُ: حسبنَا اللهُ ونعمَ الوكيلُ، قالهَا إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ حينَ ألقيَ فِي النَّارِ، وقالهَا محمَّدٌ ﷺ حينَ قالُوا: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[آل عمران: 173][1].

أيِ: اللهُ ربُّنَا، وهوَ كافينَا كلَّ مَا أهمَّنَا وهوَ المفوَّضُ إليهِ تدبيرُ عبادهِ، والقائمِ بمصالحهِمْ[2].

3) النَّجاةُ منَ الخذلانِ:

النَّصرُ والنَّجاةُ منَ الخذلانِ هيَ مكافأةُ اللهِ تعالَى للمتوكِّلينَ عليهِ.

قالَ تعالَى: {إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[آل عمران: 160].

فَنَصْرُ اللهُ تعالَى هوَ النَّصرُ الحقيقيُّ، وخذلانهُ للعبدِ بتركهِ نصرتهِ ومساندتهِ هوَ الخذلانُ الحقيقيُّ، فمهمَا بلغتْ مناصرةُ البشرِ فهيَ ليستْ بشيءٍ أمامَ مناصرةِ ربِّ البشرِ، ومنْ ناصرهُ اللهُ تعالَى فلنْ يضُرَّهُ خذلانُ الخاذلينَ، ولنْ يضيرهُ تقاعسُ المتقاعسينَ، قالَ ابنُ القيِّمِ: هوَ حسبُ منْ توكَّلَ عليهِ، وكافِي منْ لجأَ إليهِ، وهوَ الذِي يؤمِّنُ الخائفَ ويجيرُ المستجيرَ، فمنْ تولَّاهُ واستنصرَ بهِ وتوكَّلَ عليهِ وانقطعَ بكليّتهِ إليهِ؛ تولَّاهُ وحفظهُ وحرسهُ وصانهُ، ومنْ خافهُ واتَّقاهُ أمّنهُ ممَّا يخافُ ويحذرُ، وجلبَ إليهِ مَا يحتاجُ إليهِ منْ المنافعِ[3].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، ٦/٣٩، رقم ٤٥٦٣.

(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٧.

(3) بدائع الفوائد ٢/٢٣٧.

4) النَّجاةُ منْ كيدِ الشَّيطانِ:

قالَ تعالَى: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلً}[الإسراء: 64، 65].

فقدْ تحدَّى اللهُ تعالَى الشَّيطانَ أنْ يبذلَ كلَّ جهدهِ وأنْ يقطعَ منْ يشاءُ عنِ الحقِّ، وأنْ يستخدمَ كلَّ صوتٍ لهُ ولأعوانهِ فِي الوسوسةِ والإبعادِ عنِ الدِّينِ، وأنْ يبذلَ فِي سبيلِ ذلكَ كلَّ الوسائلِ المادِّيةِ المتاحةِ لهُ، ووعدَ عزَّ وجلَّ عبادهُ ألَّا يجعلَ للشَّيطانِ سلطانًا عليهمْ، وأنَّهُ تعالَى سيكفيهمْ ويعصمهمْ منْ إغوائهِ وكيدهِ[1]، وهوَ تعالَى القائلُ فِي محكمِ كتابهِ: {وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[المجادلة: 10].

فالمؤمنُ لَا يضرُّهُ التآمرُ منْ أيِّ كائنٍ كانَ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى حافظهُ، يقولُ سيِّدُ قطبٍ: فهوَ الحارسُ الحامِي، وهوَ القويُّ العزيزُ، وهوَ العليمُ الخبيرُ، وهوَ الشَّاهدُ الحاضرُ الذِي لَا يغيبُ، ولَا يكونُ فِي الكونِ إلَّا مَا يريدُ، وقدْ وعدَ بحراسةِ المؤمنينَ، فأيُّ طمأنينةٍ بعدَ هذَا وأيُّ يقينٍ؟[2].

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/٢٨٨.

(2) في ظلال القرآن ٦/٣٥١٠.

5) النَّجاةُ منَ الكرباتِ:

ومنَ النَّماذجِ التِي تبيّنُ نجاةَ المؤمنينَ المتوكّلينَ بفضلِ اللهِ تعالَى قصَّةُ أصحابِ الكهفِ، فقدْ فرّوا منْ ملكهمْ وقومهمْ الكافرينَ ولجؤُوا إلَى حمايةِ اللهِ تعالَى.

قالَ تعالَى: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا}[الكهف: 10، 11].

فقدْ أوَى أولئكَ الفتيةُ إلَى الكهفِ خائفينَ لعلّهمْ يستترونَ عنِ الأنظارِ فلَا يراهمْ أحدٌ منْ قومهمْ، وهذَا أخذٌ بالأسبابِ، فلمْ يكتفُوا بالدُّعاءِ والمكوثِ بينَ الظَّلمةِ، بلْ تركُوا المكانَ، وذادُوا بدينهمْ إلَى مكانٍ أمينٍ، ثمَّ فوّضُوا أمرهمْ إلَى ربِّهمْ، فضربَ اللهُ تعالَى علَى آذانهمْ حجابًا يمنعهمْ منْ سماعِ الأصواتِ والحركاتِ، فنامُوا فِي كهفهمْ ثلاثمائةَ وتسعَ سنينَ، وكانُوا يتقلَّبونَ بلطفِ اللهِ تعالَى وتدبيرهِ منْ جنبٍ إلَى جنبٍ، حتَّى بعثهمْ منْ نومهمْ وكانتْ قريتهمْ وقتئذٍ قدْ آمنتْ ولمْ يعدْ فيهَا ملكٌ ظالمٌ، وهذَا تفريجُ اللهِ تعالَى لكربتهمْ واستجابتهُ لتضرّعهمْ[1].

---

(1) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٣/٢٣٨.

وقدْ بيّنَ سيِّدُ قطبٍ أنَّ قلوبَ هؤلاءِ الفتيةِ مؤمنةٍ ثابتةٌ راسخةٌ، متوكِّلةٌ مطمئنَّةٌ إلَى الحقِّ الذِي عرفتْ، معتزَّةً بالإيمانِ الذِي اختارتْ، وقدْ استحقَّتْ بذلكَ رحمةَ اللهِ تعالَى[1].

ومنْ أروعِ الأمثلةِ علَى تفريجِ الكرباتِ، مَا حدثَ أثناءَ هجرةِ نبيِّنَا الكريمِ ﷺ وأبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ.

قالَ اللهُ تعالَى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[التوبة: 40].

فقدْ خرجَ رسولنَا ﷺ إلَى المدينةِ بعدَ إيذاءِ المشركينَ وتآمرهمْ علَى قتلهِ، وليسَ لديهِ قوَّةٌ تكفِي لمقاومتهمْ ومدافعتهمْ، والعربُ كلُّهمْ ضدَّهُ، وكانَ معهُ صاحبهُ أبُو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ، فكانَ المقامُ مقامَ أدبِ التوكُّلِ الكاملِ[2].

وقدْ لجآ إلَى الغارِ، فأقامَا فيهِ ثلاثةَ أيَّامٍ ليسكنَ الطلبُ عنهمَا، وذلكَ لأنَّ المشركينَ حينَ فقدوهمَا ذهبُوا فِي طلبهمَا كلَّ مذهبٍ منْ سائرِ الجهاتِ، وجعلُوا لمنْ ردَّهمَا أوْ أحدهمَا مائةً منَ الإبلِ، واقتصُّوا آثارهمَا حتَّى اختلَطَ عليهمْ، واحتارُوا فِي مكانهمَا، فصعدُوا الجبلَ الذِي همَا فيهِ، وجعلُوا يمرُّونَ

(1) انظر: في ظلال القرآن ٤/٢٢٦١.

(2) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/١٧٥.

علَى بابِ الغارِ، فتحاذي أرجلهمْ بابَ الغارِ ولَا يرونهمَا، حفظًا منَ اللهِ لهمَا[1].

وقدْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ متأدِّبًا بالثِّقةِ فِي نصرِ اللهِ تعالَى، فنصرهُ اللهُ وأعلَى قدرهُ، ومكّنَ دينهُ فِي سائرِ أنحاءِ الأرضِ، واللهُ عزيزٌ فِي انتقامهِ وانتصارهِ، منيعُ الجنابِ، لَا يضامُ منْ لاذَ ببابهِ واحتمَى بالتمسُّكِ بخطابهِ، حكيمٌ فِي أقوالهِ وأفعالهِ[2].

ثانيًا: ثمراتُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى فِي الآخرةِ:

1) النَّجاةُ منَ العذابِ:

النَّجاةُ منَ العذابِ هيَ مطلبُ كلِّ مؤمنٍ، وهيَ الحقُّ الذِي وعدَ اللهُ بهِ عبادهُ المخلصينَ.

قالَ تعالَى: {ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ}[يونس: 103].

فالمؤمنُ المتّبعُ لرسلِ اللهِ عليهمُ السَّلامُ، المخلصُ المتقِّي الشَّاكرُ المتوكِّلُ يستحقُّ الرَّحمةَ منَ العذابِ[3].

---

1) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣/٢٢٣.
2) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/١٥٥.
3) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/٢١٤.

ويذكرُ السَّعدِي أنَّ تلكَ النَّجاةَ تثبتُ للمؤمنينَ فِي الدُّنيَا والآخرةِ علَى السَّواءِ، وهذَا منْ قبيلِ دفاعِ اللهِ تعالَى عنِ المؤمنينَ الذِي وردَ فِي قولهِ تعالَى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}[الحج: 38].

وأوضحَ أنَّهُ علَى قدرِ مَا يتحلَّى المرءُ بالآدابِ، تحصلُ لهُ النَّجاةُ منَ المكارهِ[1].

ومنْ نماذجِ نجاةِ المؤمنينَ منَ العذابِ، نجاةُ سيِّدنَا هودٍ ومنْ آمنَ معهُ.

قالَ تعالَى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}[هود: 58].

وذكرَ ابنُ عجيبةَ أنَّ ذكرَ النَّجاةِ تكرَّرَ فِي هذهِ الآيةِ مرَّتينِ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى عنَى بالأولَى تنجيتهمْ منْ عذابِ ريحِ السَّمومِ الذِي أصابَ قومهمْ، والتَّنجيةُ الأخرَى منَ العذابِ الغليظِ، قصدَ بهَا نجاتهمْ منَ النَّارِ يومَ القيامةِ[2].

وذكرَ اللهُ تعالَى نجاةَ قومِ صالحٍ عليهِ السَّلامُ فِي قولهِ تعالَى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[هود: 66].

وذكرَ القشيريُّ أنَّ ربَّ العزَّةِ قدْ أجرَى علَى المكذِّبينَ مَا توعَّدهمْ بهِ منْ عذابٍ غيرِ مكذوبٍ، ونجّى نبيّهمْ المتوكِّلِ عليهِ السَّلامُ، ونجّى منِ اتّبعهُ منْ كلِّ عقوبةٍ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، سنّةً منهُ سبحانهُ فِي تنجيةِ أوليائهِ أمضاهَا، وعادةً فِي تلطُّفهِ ورحمتهِ بالمستحقِّينَ أجراهَا[3].

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن ٤٨٨/١.
(2) انظر: البحر المديد ٣٠٤/٣.
(3) انظر: لطائف الإشارات ١٤٥/٢.

2) دخولُ الجنَّةِ:

الجنَّةُ هيَ أسمَى غاياتِ المؤمنِ، وأرجَى آمالهِ، وغايةُ عملهِ وعبادتهِ.

قالَ تعالَى واعدًا عبادهُ المتوكِّلينَ الصَّابرينَ بالخلودِ فِي النَّعيمِ المقيمِ: {وَالَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ منَ الْجَنَّة غُرَفًا تَجْري منْ تَحْتهَا الْأَنْهارُ خالدينَ فيها نعْمَ أَجْرُ الْعاملينَ * الَّذينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبّهمْ يَتَوَكَّلُونَ}[العنكبوت: 58، 59].

فهذَا وعدُ اللهِ تعالَى للمؤمنينَ المتوكِّلينَ بإسكانهمْ منازلَ عاليةٍ فِي الجنَّةِ، تجرِي منْ تحتِ أشجارهَا الأنهارُ، علَى اختلافِ أصنافهَا، منْ ماءٍ وخمرٍ وعسلٍ ولبنٍ، ماكثينَ فيهَا أبدًا، لَا يبغونَ عنهَا حولًا، جزاءً لهمْ علَى أعمالهمْ، وأنعمْ بهِ منْ جزاءٍ[1].

قالَ تعالَى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[الشورى: 36].

حيثُ يكونُ ثوابُ اللهِ نعيمًا لَا يفنَى، ورزقًا لَا ينفدُ، وهذَا الجزاءُ للَّذينَ آمنُوا، وتوكَّلُوا علَى ربِّهمْ، وأسلمُوا أمرهمْ لهُ، فثوابُ اللهِ تعالَى خيرٌ فِي طبيعتهِ، أبقَى فِي مدَّتهِ منْ أيِّ ثوابٍ[2].

وفِي الحديثِ عنِ ابنِ عباسٍ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "يدخلُ الجنَّةَ منْ أمَّتِي سبعونَ ألفًا بغيرِ حسابٍ ... همُ الذينَ لَا يسترقونَ، ولَا يتطيَّرونَ، وعلَى ربِّهمْ يتوكَّلونَ"[3].

---

(1) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٥/٢١.

(2) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢٧٠٥/٥.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، ١٠٠/٨، رقم٦٤٧٢.

ثمَّ قالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: العقلُ الذِي مدحهُ اللهُ وأثنَى علَى أهلهِ، وأخبرَ أنَّهمْ همُ المنتفعونَ بالآياتِ، هوَ: الذِي يفهمُ، ويعقلُ الحقائقَ النَّافعةَ، ويعملُ بهَا، ويعقلُ صاحبهُ عنِ الأمورِ الضَّارةِ، ولذلكَ قيلَ لهُ: حجرٌ، ولُبٌّ، ونُهْيٌ، لأنَّهُ يحجرُ صاحبهُ وينهاهُ عمَّا يضرُّهُ.

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

لقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى العقلَ فِي العديدِ منَ المواقعِ فِي القرآنِ الكريمِ بينَ مدحٍ لأهلهِ وذمٍّ للَّذينَ لَا يعقلونَ، وقدْ وردَ لفظُ العقلِ بصيغةِ الفعلِ فِي القرآنِ في تسعةٍ وأربعين موضعًا، ولم يَرِدْ بشكلِ مصدرٍ مطلقًا، وكلُّ أفعالِ العقلِ تدلُّ علَى عمليَّةِ الإدراكِ والتَّفكيرِ والفهمِ لدَى الإنسانِ، ويمكنُ حصرُ هذهِ الأفعالِ بمَا يلِي:

1) لفظُ العقلِ:

أ) وردَ فعلُ العقلِ بصيغةِ "تعقلونَ" فِي أربعٍ وعشرينَ موضعًا فِي القرآنِ؛ منهَا قولهُ تعالَى:

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[البقرة: 242]، وقولهُ تعالَى:

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[يوسف: 2].

ب) ووردَ بصيغةِ "يعقلونَ" فِي اثنينِ وعشرينَ موضعًا؛ منهَا قولهُ تعالَى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[البقرة: 171].
~~~~~~~~~~~

ج) وورِدَ بصيغةِ "يعقِلُهَا" مرةً واحدةً فِي قولهِ تعالَى: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}[العنكبوت: 43].

د) وورِدَ بصيغةِ "نعقلُ" مرةً واحدةً فِي قولهِ تعالَى: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[الملك: 10].

هـ) وورِدَ بصيغةِ "عقَلوهُ" مرَّةً واحدةً فِي قولهِ تعالَى: {ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة: 75].

2) وُرودهُ بلفظِ الألبابِ وهوَ جمعُ لُبٍّ:

وقدْ وردتْ كلمةُ "الألبابِ" فِي القرآنِ فِي صفةِ أصحابِ العقولِ ستَّ عَشْرةَ مرةً فِي القرآنِ الكريمِ؛ منهَا قولهُ تعالَى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}[البقرة: 179]، وقولهُ تعالَى: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[البقرة: 269].

3) ورودهُ بلفظِ النُّهَى الدالِّ علَى العقلِ:

وقدْ وردتْ أيضًا كلمةُ "النُّهَى" فِي القرآنِ لتدلَّ علَى أصحابِ العقولِ أيضًا، مرَّتينِ فِي القرآنِ؛ وهمَا قولهُ تعالَى: {وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى}[طه: 54]، وقولهُ تعالَى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى}[طه: 128].

4) ورودهُ بلفظِ القلبِ:

وقدْ وردَ فِي القرآنِ الكريمِ لفظُ "القلبِ" ليدلَّ علَى العقلِ أيضًا فِي إحدَى دلالاتهِ، وذُكِرَ القلبُ عامَّةً فِي القرآنِ فِي مائةٍ وأربعٍ وأربعينَ موضعًا، قالَ تعالَى: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا}[الأعراف: 179]، وقالَ سبحانهُ: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}[ق: 37].

5) ورودهُ بلفظِ الحِجْر:

ورِدَ العقلُ بلفظِ "الحِجْرِ" ليدلَّ علَى العقلِ مرَّةً واحدةً فِي القرآنِ الكريمِ، قالَ تعالَى: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ}[الفجر: 5].

6) وُرودهُ بلفظِ الفكرِ الذِي هوَ نتاجُ العقلِ:

أ) وردَ بصيغةِ "فكَّر" مرَّةً واحدةً فِي قولهِ تعالَى : {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ}[المدثر: 18، 19].

ب) وورد بصيغةِ "تتفكَّرُوا" مرَّةً واحدةً أيضًا فِي قولهِ تعالَى: {أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا}[سبأ: 46].

ج) وورد بصيغةِ "تتفكَّرونَ" ثلاثَ مرَّاتٍ؛ منهَا قولهُ تعالَى: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}[البقرة: 219].

د) وورد بصيغةِ "يتفكَّرُوا" مرَّتينِ؛ منهَا قولهُ تعالَى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ}[الروم: 8].

هـ) وورد بصيغةِ "يتفكَّرونَ" إحدَى عشرةَ مرَّةً، منهَا قولهُ تعالَى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[الرعد: 3][1].

والنَّاظرُ لمَا سبقَ يرَى أنَّ لفظَ القلبِ باختلافِ ألفاظهِ جاءَ بينَ مدحٍ وذمٍّ.

---

(1) شبكة الألوكة "العقل في القرآن الكريم" مقالة: فهمي قطب الدين النَّجار.

العقلُ لغةً:

أصلُ مادَّةِ (عقل) تدلُّ علَى حُبسةٍ فِي الشَّيءِ أوْ مَا يقاربُ الحُبسةَ، منْ ذلكَ العقلُ، وهوَ الحابسُ عنْ ذميمِ القولِ والفعلِ[1].

والعقلُ أيضًا: نقيضُ الجهلِ، يقالُ: عَقِلَ يعقلُ عقلًا فهوَ عاقلٌ، والمعقولُ: مَا تعقِلُهُ فِي فؤادكَ، ويقالُ: هوَ مَا يُفهمُ منَ العقلِ[2].

وأصلُ العقلِ: الإمساكُ والاستمساكُ، كعقلِ البعيرِ بالعقالِ، وعقلِ الدَّواءِ البطنِ[3].

قالَ الزبيديُّ: العقلُ هوَ العلمُ بصفاتِ الأشياءِ منْ حسنهَا وقبحهَا، وكمالهَا ونقصانهَا[4].

وهوَ مأخوذٌ منَ عقالِ الدَّابةِ، فكذلكَ العقلُ يمنعُ صاحبهُ منَ الكفرِ والجحودِ[5].

العقلُ اصطلاحًا:

عرَّفهُ ابنُ عطيَّةَ بأنَّهُ: الإدراكُ المانعُ منَ الخطأِ[6].

---

(1) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦٩/٤، مجمل اللغة، ابن فارس، ٦١٧/١.

(2) انظر: العين، الفراهيدي، ١٥٩/١، جمهرة اللغة، أبو بكر الأزدي، ٩٣٩/٢، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده المرسي، ٢٠٥/١.

(3) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص٥٧٨.

(4) انظر: تاج العروس ١٨/٣٠.

(5) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٨٨/١.

(6) انظر: المحرر الوجيز، ١٣٧/١.

ويقولُ الأصفهانِي: هوَ القوَّةُ المتهيِّئةُ لقبولِ العلمِ، ويقالُ للعلمِ الذِي يستفيدهُ الإنسانُ بتلكَ القوَّةِ عقلٌ[1].

وقيلَ: إنَّ العقلَ هوَ المدركُ للأشياءِ علَى مَا هيَ عليهِ منْ حقائقِ المعانِي[2].

وأُسمِيَ العقلُ عقلًا: لأنَّهُ يعقلُ بهِ مَا ينفعهُ منَ الخيرِ، وَ ينعقلُ بهِ عمَّا يضرُّهُ[3].

فالعقلُ يُميِّزُ بهِ الحقُّ والباطلُ، ويمنعُ صاحبهُ منِ ارتكابِ مَا يضرُّ.

---

(1) انظر: المفردات ص٥٧٧.

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/٣٧٠.

(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١.

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالعقلِ:

اللُّبُّ:

اللُّبُّ لغةً:

لُبٌّ: لُبُّ كُلِّ شيءٍ: داخلُهُ، ولُبابُهُ أيضًا، وكذلكَ الخالصُ الخيارُ منْ كلِّ شيءٍ[1]، واللُّبُّ: خُلاصةُ الشَّيءِ وقلبُهُ، ولُبُّ الرَّجلِ: مَا جعلَ فِي قلبهِ منَ العقلِ، وشيءٌ لبابٌ: خالصٌ.

وقالَ ابنُ جنِّي: هوَ لبابُ قومهِ، وهمْ لبابُ قومهمْ، وهيَ لبابُ قومهَا، ولبيبٌ: عاقلٌ ذُو لبٍّ[2]. لببَ: الألبابُ: العقولُ[3].

اللُّبُّ اصطلاحًا:

أطلقَ هنَا علَى عقلِ الإنسانِ؛ لأنَّهُ أنفعُ شيءٍ فيهِ، ولبُّ الرَّجلِ: مَا جعلَ فِي قلبهِ منَ العقلِ[4]، وقيلَ: هوَ مَا زَكَى منَ العقلِ، فكلُّ لبٍّ عقلٌ وليسَ كلُّ عقلٍ لُبًّا[5].

الصِّلةُ بينَ العقلِ واللبِّ:

كلُّ لبيبٍ لهُ عقلٌ حصيفٌ، يعقلُ بهِ خالصَ الأمورِ وأنفعهَا.

---

(1) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد،٢/٤٥١.

(2) جمهرة اللغة، الأزدي ٧٦/١، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣٦٦/١٠، وانظر: لسان العرب، ابن منظور ٧٢٩/١.

(3) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، أبو حيان الأندلسي،٢٧٤/١.

(4) لسان العرب، ابن منظور،٧٢٩/١.

(5) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٣٣.

النُّهَى:

النُّهَى لغةً:

نَهَيَ: النُّونُ والهاءُ والياءُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ علَى غايةٍ وبلوغٍ[1]، و النُّهيةُ: العقلُ؛ لأنَّهُ ينهَى عنْ قبيحِ الفعلِ والجمعُ نُهَى[2]، وهوَ الزَّجرُ عنِ الشَّيءِ[3]، وجُعلَ اسمًا للعقلِ الذِي انتهَى منَ المحسوساتِ إلَى معرفةِ مَا فيهِ منَ المعقولاتِ[4].

النُّهَى اصطلاحًا:

النُهَى اصطلاحًا لهُ نفسُ المعنَى اللُّغوي، فقولهُ تعالَى: {وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى}[طه: 54]، فسَّرهُ القرطبِي بقولهِ: (إنَّ فِي ذلكَ لآياتٍ لأولِي النُّهَى) قالَ لهمْ ذلكَ؛ لأنَّهمْ الذينَ ينتهَى إلَى رأيهمْ، وقيلَ: لأنَّهمْ ينهونَ النَّفسَ عنِ القبائحِ[5].

وقالَ البغوِي: (لآياتٍ لأولِي النُّهَى) لذوِي العقولِ، واحدتهَا: نهيةٌ سمِّيتْ نُهيةً لأنَّهَا تنهَى صاحبهَا عنِ القبائحِ والمعاصِي.

قالَ الضحَّاكُ: (لأولِي النُّهَى) الذينَ ينتهونَ عمَّا حُرِّمَ عليهمِ[6].

وقالَ السَّعدي: النُّهَى، أيِ: العقولُ السَّليمةُ والفطرُ المستقيمةُ والألبابُ التِي تزجرُ أصحابهَا عمَّا لَا ينبغِي[7].

(1) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣٥٩/٥.
(2) المصدرالسابق.
(3) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٢٦.
(4) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، ١٣٧/١.
(5) تفسير القرطبي.
(6) تفسير البغوي.
(7) تيسير الكريم الرحمن، ص٥١٦.

الصِّلةُ بينَ العقلِ والنُّهَى:

العقلُ والنُّهَى مترادفانِ فبالعقلِ يُمْنَعُ الشَّخصُ عنِ ارتكابِ المعصيةِ، وبالنُّهَى ينزجرُ وينتهِي عنِ المحرَّماتِ والمعاصِي.

الحجَا:

الحجَا لغةً:

الحاءُ والجيمُ والحرفُ المعتلُّ أصلانِ متقاربانِ، أحدهمَا إطافةُ الشَّيءِ بالشَّيءِ وملازمتهُ، والآخرُ القصدُ والتعمُّدُ[1]، الحجَا: السِّترُ والعقلُ[2]، و"حجَا": مفردٌ، الجمعُ أحجاءٌ، وأحجيةٌ: عقلٌ وفطنةٌ، منْ ذوِي الحجَا: ذكيٌ حكيمٌ[3].

الحجَا اصطلاحًا:

الحجَا هوَ ثباتُ العقلِ منْ قولهِمْ: تَحَجَّى بالمكانِ إذَا أقامَ فيهِ[4].

الصِّلةُ بينَ العقلِ والحجَا:

بالعقلِ يتمُّ الفهمُ والحفظُ، وبالحجةِ يقوَى علَى الاستنباطِ وإظهارِ المعانِي.

الذِّهنُ:

الذِّهنُ لغةً:

الذَّالُ والهاءُ والنُّونُ أصلٌ يدلُّ علَى قوَّةٍ، وهوَ الفطنةُ للشَّيءِ والحفظُ لهُ[5].

---

(1) مقاييس اللغة، ابن فارس،٢/١٤١.

(2) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١/١٥٩.

(3) معجم اللغة العربية المعاصرة، د.أحمد مختار – ١/٤٥١.

(4) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٨٥.

(5) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/٣٦٣.

الذِّهنُ اصطلاحًا:

هوَ قوَّةٌ للنَّفسِ معدَّةٌ لاكتسابِ العلومِ، تشملُ الحواسَ الظَّاهرةَ والباطنةَ[1]، وقيلَ: هوَ قوَّةٌ للنَّفسِ تشملُ الحواسَ الظَّاهرةَ والباطنةَ معدَّةٌ لاكتسابِ العلومِ، وهوَ الاستعدادُ التَّامُ لإدراكِ العلومِ والمعارفِ بالفكرِ[2].

الصِّلةُ بينَ الذِّهنِ والعقلِ:

بالعقلِ والذِّهنِ يتمُّ الفهمُ والحفظُ وإدراكُ العلومِ والمعارفِ، وذلكَ باشتراكِ الحواسِ الظَّاهرةِ والباطنةِ.

الحجرُ:

الحجرُ لغةً:

الحاءُ والجيمُ والرَّاءُ أصلٌ واحدٌ مطردٌ، وهوَ المنعُ والإحاطةُ[3].

الحجرُ اصطلاحًا:

هوَ قولهُ تعالَى لذِي حجرٍ أيْ: عقلٍ ولبٍّ، فمنْ كانَ ذَا عقلٍ ولبٍّ علمَ، قالَ الحسنُ: لذِي حجرٍ، أي: لذِي حلمٍ، وقالَ أبُو مالكٍ: لذِي سترٍ منَ النَّاسِ، وقالَ الجمهورُ: الحجرُ: العقلُ. قالَ الفرَّاءُ: الكلُّ يرجعُ إلَى معنًى واحدٍ، لذِي عقلٍ ولذِي حلمٍ ولذِي سترٍ، الكلُّ بمعنَى العقلِ. والعربُ تقولُ: إنَّهُ لذُو حجرٍ إذَا كانَ قاهرًا لنفسهِ ضابطًا لهَا[4].

الصِّلةُ بينَ العقلِ والحجرِ:

صاحبُ العقلِ السَّليمِ والفطرةِ السويَّةِ يكونُ ذَا حِجْرٍ، حيثُ يمنعُ صاحبهُ ويحجرهُ عنِ الوقوعِ فِي مَا لَا يحلُّ لهُ، ولَا يليقُ بهِ منَ القبائحِ.

---

(1) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٧١.

(2) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري،ص٨٥.

(3) مقاييس اللغة، ابن فارس،١٣٨/٢.

(4) فتح القدير، الشوكاني، ٥٢٨/٥.

{نعمةُ العقلِ}

إنَّ منْ أفضلِ نعمِ اللهِ تعالَى علَى عبادهِ نعمةُ العقلِ، فلولَا العقلُ لمَا عَرَفَ الإنسانُ دينَ الإسلامِ والنبوَّةَ، والخيرَ والشرَّ، والحقَّ والباطلَ، والمعروفَ والمنكرَ.

قالَ تعالَى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[الإسراء: 70].

فاللَّهُ سبحانهُ وتعالَى فضَّلَ بنِي آدمَ علَى غيرهِمْ منَ الجماداتِ والحيواناتِ، والنَّباتاتِ بهذَا العقلِ.

فإذَا فقدَ الإنسانُ العقلَ السَّليمَ الذِي يقودهُ إلَى الخيرِ ويبعدهُ عنِ الشرِّ، فقدْ أصبحَ كالبهيمةِ التِي تأكلُ وتشربُ ولَا تعقلُ شيئًا، بلْ إنَّهَا خيرٌ منهُ كمَا فِي قولهِ تعالَى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[الأعراف: 179].

قالَ ابنُ حزمٍ: وَحَدُّ العقلِ ينطوِي فيهِ فعلُ الطَّاعاتِ والفضائلِ، واجتنابِ المعاصِي والرذائلِ، وقدْ نصَّ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ علَى أنَّ منْ عصاهُ لَا يعقلُ.

قالَ تعالَى: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[الملك: 10].

وَحَدُّ الحمقِ: استعمالُ المعاصِي والرذائلِ، وهوَ ضدُّ العقلِ، ولَا واسطةَ بينَ الحمقِ والعقلِ إلَّا السُّخفُ[1].

---

(1) انظر: الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص٥٨.

وأفضلُ مواهبِ اللهِ لعبادهِ العقلُ، ولقدْ أحسنَ الذِي قالَ[1]:

أفضلُ قسمِ اللهِ للمرءِ عقلـــــهُ * فليسَ منَ الخيراتِ شيءٌ يقاربهُ

إذَا أكملَ الرَّحمنُ للمرءِ عقلـــهُ * فقدْ كملتْ أخلاقهُ ومآربــــــهُ

يعيشُ الفتَى فِي النَّاسِ بالعقلِ إنَّهُ * علَى العقلِ يجرِي علمهُ وتجاربهُ

يزيدُ الفتَى فِي النَّاسِ جودةُ عقلهِ * وإنْ كانَ محظورًا عليهِ مكاسبــهُ

قال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}[النور: 40].

وقدْ جُعِلَ للعقلِ نَظَرٌ وإدراكٌ ورؤيةٌ وإبصارٌ، وجعلَ لهُ أضدادُهُ منَ العمَى وغيرِهِ، قالَ اللهُ تعالَى: {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}[الأعراف: 198][2].

إنَّمَا العاقلُ منْ وَحَّدَ اللهَ تعالَى وعملَ بطاعتهِ، وقالَ تعالَى حكايةً عنْ أهلِ النَّارِ: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[الملك: 10][3].

قيلَ لابنِ المباركِ: مَا خيرُ مَا أُعطيَ الرَّجلُ؟ قالَ: غريزةُ عقلٍ، قيلَ: فإنْ لمْ يكنْ؟ قالَ: أدبٌ حسنٌ، قيلَ: فإنْ لمْ يكنْ؟ قالَ: أخٌ صالحٌ يستشيرهُ، قيلَ: فإنْ لمْ يكنْ؟ قالَ: صمتٌ طويلٌ، قيلَ: فإنْ لمْ يكنْ؟ قالَ: موتٌ عاجلٌ[4].

وفِي الصَّحيحينِ منْ حديثِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضيَ اللهُ عنهمَا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: ... ألَا وإنَّ فِي الجسدِ مضغةً، إذَا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذَا فسدتَ فسدَ الجسدُ كلُّهُ، ألَا وهيَ القلبُ[5].

---

(1) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان، ص١٧.

(2) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الأصفهاني، ص١٣٥.

(3) المصدر السابق ص١٣٦.

(4) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان، ص١٧.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، فضل من استبرأ لدينه، ١/٢٠، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/١٢١٩، رقم ١٥٩٩.

فإذَا آمنَ القلبُ، آمنتْ الجوارحُ بفعلِ المأموراتِ وتركِ المنهيَّاتِ؛ لأنَّ القلبَ أميرُ البدنِ، وذلكَ يدلُّ دلالةً واضحةً علَى أنَّ القلبَ مَا كانَ كذلكَ إلَّا لأنَّهُ محلُّ العقلِ الذِي بِهِ الإدراكُ والفهمُ.

وقدْ حشدَ القرآنُ الكريمُ عشراتِ الآياتِ القرآنيَّةِ الدَّاعيةِ إلَى استعمالِ العقلِ والتفكُّرِ والتدبُّرِ فِي آياتِ اللهِ الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ، وآياتِ اللهِ القرآنيَّةِ، وجعلَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى التَّفكيرَ فريضةً إسلاميَّةً فقالَ تعالَى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[النحل: 44].

وقدْ خصَّ أصحابَ العقولِ الصافيةِ، والقلوبِ النيِّرةِ أولِي الألبابِ، وأصحابِ الفطرةِ السَّليمةِ بهذَا التفكُّرِ والتدبُّرِ، قالَ تعالَى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[آل عمران: 190].

وخَصَّ اللهُ بالآياتِ أولِي الألبابِ، وهمْ أهلُ العقولِ؛ لأنَّهمْ همُ المنتفعونَ بهَا، النَّاظرونَ إليهَا بعقولهمْ لَا بأبصارهمْ[1].

والواجبُ علَى المسلمِ أنْ يقومَ بالمحافظةِ عليهِ؛ كيْ يبقَى سليمًا بعيدًا عنِ الشُّبهاتِ التِي تتسبَّبُ فِي نقصِ الإيمانِ أوِ انعدامهِ كليَّةً، كذلكَ الابتعادُ عنْ تعاطِي كلَّ مَا يخامرُ العقلَ ويؤدِّي بالإنسانِ إلَى ارتكابِ حماقاتٍ أوْ جرائمَ هوَ والمجتمعُ فِي غنًى عنهَا، عدَا ذلكَ الأضرارُ الصحيَّةُ ومَا ينجمُ عنهَا منْ خسائرَ وأضرارَ ماديَّةٍ ومعنويَّةٍ تعودُ علَى الشَّخصِ وعائلتهِ وكذلكَ المجتمعِ.

لذَا فقدْ حدَّدَ الشَّارعُ الحكيمُ أمورًا لابدَّ منَ الابتعادِ عنهَا للمحافظةِ علَى العقلِ سليمًا منهَا، قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[المائدة: 90].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦١.

{ثمارُ استعمالِ العقلِ}

أوَّلًا: الهدايةُ:

إنَّ القرآنَ هوَ كتابُ العقلِ، وأنَّهُ بأكملهِ دعوةٌ لتحريرِ العقلِ منْ عقالهِ، وأنَّهُ يدعونَا بعباراتٍ تختلفِ فِي أسلوبهَا وتتّحدُ فِي معناهَا إلَى استعمالِ العقلِ ووزنِ كلّ شيءٍ بميزانهِ.

قالَ تعالَى: {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}[الأنبياء: 66، 67].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) يعنِي: أليسَ لكمْ عقلٌ تعقلونَ بهِ أنَّ هذهِ الأصنامَ لَا تستحقُّ العبادةَ؟[1].

وقوله: (أَفَلا تَعْقِلُونَ) أنَّ منْ ليسَ لهُ ذهنٌ ولَا قوَّةٌ ولَا منفعةٌ ولَا مضرَّةٌ أنْ لَا تعبدوهُ[2].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) أيْ: أليسَ لكمْ عقلٌ تعرفونَ هذَا؟[3].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) أيْ: أفلَا تتدبَّرونَ مَا أنتمْ فيهِ منَ الضلالِ والكفرِ الغليظِ، الذِي لَا يروجُ إلَّا علَى جاهلٍ ظالمٍ فاجرٍ؟[4].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) أيْ: ألَا تتفكَّرونَ فلَا تعقلونَ قبحَ صنيعكمْ[5].

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) أيْ: أفلَا تتدبَّرونَ مَا أنتمْ فيهِ منَ الضَّلالِ والكفرِ الذِي لَا يدينُ بهِ إلَّا كلُّ جاهلٍ ظالمٍ فاجرٍ[6].

---

(1) لباب التأويل، الخازن، ٢٢٩/٣.
(2) تفسير السمرقندي، ٤٣١/٢.
(3) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير اليماني، ١١٤/١.
(4) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣٥١/٥.
(5) إرشاد العقل السليم،أبو السعود ٧٦/٦.
(6) التفسير المنير، الزحيلي، ٨٤/١٧.

قالَ تعالَى: {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}[الزمر: 18].

وقولهُ تعالَى: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ) أيِ: المتَّصفونَ بهذهِ الصِّفةِ همُ الذينَ هداهمُ اللهُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، (وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) أيْ: ذَوُو العقولِ الصَّحيحةِ، والفطرِ المستقيمةِ[1].

وقولهُ تعالَى: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ) أيْ: أرشدهمُ اللهُ إلَى الحقِّ، وقولهُ: (وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) أيْ: أولُو العقولِ[2].

فقولهُ: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ) أيْ: لدينهِ، (وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) أيِ: العقولِ السَّليمةِ عنْ منازعةِ الوهمِ والعادةِ، وفِي ذلكَ دلالةٌ علَى أنَّ الهدايةَ تحصلُ بفعلِ اللهِ وقبولِ النَّفسِ لهاَ[3].

وممَّا سبقَ نجدُ أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالَى أكرمَ الإنسانَ بالعقلِ، وبهذَا العقلِ السَّليمِ اهتدَى لوحدانيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فأكرمهُ اللهُ تعالَى بالهدايةِ والعلمِ، ممَّا زادَ تقواهُ وخشيتهُ للهِ تعالَى، وهذَا فضلٌ منَ اللهِ تعالَى ومنَّةٌ لذوِي العقولِ السَّليمةِ والفطرةِ الصافيةِ.

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٩٠/٧
(2) تفسير السمعاني، ٤٦٤/٤.
(3) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣٩/٥.

ثانيًا: مطابقةُ العلمِ للعملِ:

منَ العارِ أنْ يكونَ الإنسانُ متعلِّمًا لأمرٍ معيَّنٍ، ويعلِّمهُ لغيرِهِ، وهوَ أولَى أنْ يقومَ بالعملِ بمَا يعلمُ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مادحًا منْ تعلَّم وعلَّمَ، أيْ: منْ عملَ بعلمِهِ، فالإنسانُ العاقلُ هوَ منْ يقومُ بالعملِ بمَا يعلمُ، فعنْ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: "خيركمْ منْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمهُ"[1].

قالَ الحكماءُ: العقلُ رائدُ الرُّوحِ، والعلمُ رائدُ العقلِ، وحياةُ المروءةِ الصِّدقُ، وحياةُ الرُّوحِ العفافُ، وحياةُ الحلمِ العلمُ، وحياةُ العلمِ الفهمُ، وحياةُ الفهمِ العملُ، وحياةُ العملِ القبولُ[2].

وقالَ بعضهمْ: أفضلُ العقلِ معرفةُ الرَّجلِ نفسهُ، وأفضلُ العلمِ وقوفُ الرَّجلِ عندَ علمهِ[3].

قالَ تعالَى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[البقرة: 44].

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) قيلَ: أنَّ منْ وعظَ النَّاسَ يجتهدُ أن ينفذَ موعظتهُ إلَى القلوبِ، فإذَا خالفَ قولهُ فعلهُ كانَ ذلكَ سببُ تنفيرِ القلوبِ عنْ قبولِ موعظتهِ[4].

فالعقلُ يحثُّ صاحبهُ أنْ يكونَ أوَّلَ فاعلٍ لمَا يأمرُ بهِ، وأوَّلَ تاركٍ لمَا ينهَى عنهُ، فمنْ أمرَ غيرهُ بالخيرِ ولمْ يفعلهُ، أوْ نهاهُ عنِ الشرِّ فلمْ يتركهُ، دلَّ علَى عدمِ عقلهِ وجهلهِ، خصوصًا إذَا كانَ عالمًا بذلكَ، قدْ قامتْ عليهِ الحجَّةُ[5].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٥٠٢٧، ٦/١٩٢.

(2) المجالسة وجواهر العلم، الدينوري، ٤/٣٣٢.

(3) المصدر السابق، ٤/٤٩٣.

(4) لباب التأويل، الخازن، ١/٤٢.

(5) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥١.

وقالَ الحراليُّ: ولمَّا كانَ فيهمْ منْ أشارَ علَى منِ استهداهُ بالهدايةِ لاتِّباعِ محمَّدٍ ﷺ، ولمْ يهدُوا أنفسهمْ لمَا أرشدُوا إليهِ غيرهمْ، أعلنَ تعالَى عليهمْ بذلكَ نظمًا لمَا تقدَّمَ منْ نقضِ عهدهمْ ولبسهمْ وكتمهمْ بمَا ظهرَ منْ نقصِ عقولهمْ، فِي أنَّ يظهرَ طريقَ الهدَى لغيرهِ ولَا يتَّبعهُ، فأخرجهمْ بذلكَ عنْ حدِّ العقلِ الذِي هوَ أدنَى أحوالِ المخاطبينَ، وزادَ فِي تبكيتهمْ بجملةٍ حاليَّةٍ حاكيةً تلبُّسهمْ بالعلمِ والحكمةِ النَّاهيةِ عمَّا همْ عليهِ[1].

وقولهُ: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) استفهامٌ عنِ انتفاءِ تعقُّلهمْ استفهامًا مستعملًا فِي الإنكارِ والتَّوبيخِ، نزلُوا منزلةً منِ انتفَى تعقُّلهُ فأنكرَ عليهمْ ذلكَ، ووجهُ المشابهةِ بينَ حالهمْ وحالَ منْ لَا يعقلونَ أنَّ منْ يستمرُ بهِ التغفُّلُ عنْ نفسهِ وإهمالُ التفكُّرِ فِي صلاحهَا معَ مصاحبةِ شيئينِ يذكِّرانهِ، قاربَ أنْ يكونَ منفيًّا عنهُ التعقُّلُ[2].

وهكذَا نجدُ التقريعَ والذمَّ لمنْ لَا يعملُ بمَا يعلِّمهُ للنَّاسِ.

قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ}[الصف: 2 – 3].

تتناولُ ذمَّ منْ قالَ مَا لَا يفعلهُ علَى أيِّ وجهٍ كانَ منْ مطلقٍ أوْ مقيَّدٍ بشرطٍ[3].

هذَا الاستفهامُ للتَّقريعِ والتَّوبيخِ، أيْ: لمَ تقولونَ منَ الخيرِ مَا لَا تفعلونهُ؟[4].

(1) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/٩٢.

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/٤٧٧.

(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/٧٩.

(4) فتح القدير، الشوكاني، ٥/٢٦١.

أيْ: لمَ تقولونَ الخيرَ وتحثُّونَ عليهِ، وربَّمَا تمدَّحتمْ بهِ وأنتمْ لَا تفعلونهُ، وتنهونَ عنِ الشرِّ، وربَّمَا نزَّهتمْ أنفسكمْ عنهُ، وأنتمْ متلوِّثونَ بهِ ومتَّصفونَ بهِ، فهلْ تليقُ بالمؤمنينَ هذهِ الحالةُ الذَّميمةُ؟ أمْ منْ أكبرِ المقتِ عندَ اللهِ أنْ يقولَ العبدُ مَا لَا يفعلُ؟ ولهذَا ينبغِي للآمرِ بالخيرِ أنْ يكونَ أوَّلَ النَّاسِ إليهِ مبادرةً، وللنَّاهِي عنِ الشرِّ أنْ يكونَ أبعدَ النَّاسِ منهُ[1].

قالَ تعالَى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ * مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[الأعراف: 175 – 178].

قالَ قتادةُ: هذَا مثلٌ ضربهُ اللهُ لمنْ عرضَ عليهِ الهدَى فلمْ يقبلهُ[2].

أنَّهُ مالَ إلَى الدُّنيَا ورغبَ فيهَا وآثرهَا علَى الآخرةِ واتَّبعَ هواهُ، أي: اتَّبعَ مَا يهواهُ، وتركَ العملَ بمَا يقتضيهِ العلمُ الذِي علَّمهُ اللهُ، وهوَ حطامُ الدُّنيَا[3].

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٥٨.

(2) لباب التأويل، الخازن، ٢/٢٧٢.

(3) فتح القدير، الشوكاني، ٢/٣٠٢.

وفِي هذهِ الآياتِ التَّرغيبُ فِي العملِ بالعلمِ، وأنَّ ذلكَ رفعةٌ منَ اللهِ لصاحبهِ، وعصمةٌ منَ الشَّيطانِ، والتَّرهيبُ منْ عدمِ العملِ بهِ، وأنَّهُ نزولٌ إلَى أسفلِ سافلينَ، وتسليطٌ للشَّيطانِ عليهِ، وفيهِ أنَّ اتِّباعَ الهَوَى، وإخلادُ العبدِ إلَى الشَّهواتِ، يكونُ سببًا للخذلانِ[1].

هنَا نفيٌ بضربِ المثلِ للمكذِّبينَ بآياتِ اللهِ المنزلةِ علَى رسولهِ الكريمِ بعدَ أنْ أيَّدهَا بالأدلَّةِ العقليَّةِ والكونيَّةِ، وهوَ مثلُ منْ آتاهُ اللهُ آياتهِ فكانَ عالمًا بهَا قادرًا علَى بيانهَا، لكنَّهُ لَا يعملُ بهَا، بلْ يأتِي عملهُ مخالفًا لعلمهِ، لذَا سلبهُ اللهُ مَا آتاهُ[2].

فالعملُ المباركُ المقبولُ هوَ مَا كانَ عنْ علمٍ، كذلَكَ العلمُ الطيِّبُ المباركُ هوَ الذِي ينفعُ صاحبهُ ويعملُ بهِ، فيكونُ حجَّةٌ لهُ لَا عليهِ، ويرفعُ اللهُ درجاتهِ فِي الجنَّةِ.

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠٨.

(2) تيسير التفسير، إبراهيم القطان، ٨٩/٢.

ثالثًا: الامتناعُ عنِ المعاصِي:

فالسَّعيدُ الذِي منحهُ اللهُ تعالَى عقلًا سليمًا وقلبًا عامرًا بالتَّقوَى والإيمانِ، فهوَ يكونُ بعيدًا كلَّ البعدِ عنِ المعاصِي؛ لأنَّ قلبهُ مضاءٌ بنورِ الإيمانِ، وعقلهُ النيِّرُ وفطرتهُ السَّليمةُ يصدُّ بهمَا كلَّ خطراتِ الشَّيطانِ، كذلكَ نفسهُ التِي بينَ جنبيهِ تكونُ مطمئنَّةً، تدعوهُ للعملِ الصَّالحِ والطَّاعةِ والسُّلوكِ القويمِ الذِي يرضِي اللهَ تعالَى عنهُ، فلَا يسلكُ سبلَ الشَّيطانِ الملتويَةِ، بلْ يبتعدُ عنْ كلِّ مَا يغضبُ اللهَ تعالَى، وإنْ وقعَ منهُ الخطأُ سارعَ بالتَّبةِ ولوْ تكرَّرَ الخطأُ كرَّرَ التَّوبةَ.

قالَ تعالَى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[الأنعام: 151].

(لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أيْ: لكيْ تنتفعُوا بعقولكمْ[1].

(لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أيْ: تستعملونَ عقولكمْ التِي تعقلُ نفوسكمْ وتحبسهَا عنْ مباشرةِ القبائحِ المذكورةِ[2].

وقولهُ تعالَى: (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) رجاءٌ أنْ يعقلُوا، أيْ: يصيرُوا ذوِي عقولٍ؛ لأنَّ ملابسةَ بعضَ هذهِ المحرَّماتِ ينبِّئُ عنْ خساسةِ عقلٍ، بحيثُ ينزلُ ملابسوهَا منزلةَ منْ لَا يعقلُ، فلذلكَ رجيَ أنْ يعقلُوا[3].

---

(1) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/٣١٥.

(2) إرشاد العقل السليم،أبو السعود، ٣/١٩٩.

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨ أ/١٦٢.

ذلكمْ وصَّاكمْ بهِ اللهُ، وأرشدكمْ، لتعقلُوا الخيرَ والمنفعةَ فِي فعلِ مَا أمرَ بهِ، وتركِ مَا نهَى عنهُ، إذْ هوَ ممَّا تدركهُ العقولُ، وفِي هذَا تعريضٌ بأنَّ مَا همْ عليهِ لَا يُعقلُ لهُ معنَى، ولَا تظهرُ لهُ فائدةٌ عندَ ذوِي العقولِ الرَّاجحةِ[1].

لعلَّكمْ تعقلونَ عنِ اللهِ أوامرهُ ونواهيهِ، أيْ: ليعدكمْ لأنْ تعقلُوا الخيرَ والمصلحةَ فِي فعلِ مَا أمرَ بهِ وتركِ مَا نهَى عنهُ[2].

قالَ تعالَى: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}[الزخرف: 21 – 27].

أيْ: أنَا أتبرَّأُ ممَّا تعبدونَ إلَّا منَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويجوزُ أنْ يكونَ (إلاَّ) بمعنَى لكنَّ، فيكونُ المعنَى: لكنَّ الذِي فطرنِي فإنَّهُ سيهدينِي، أيْ: سيرشدنِي لدينهِ ويوفِّقنِي لطاعتهِ[3].

(1) التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي، ٦٨٢/١.

(2) التفسير المنير، الزحيلي، ٩٨/٨.

(3) مفاتيح الغيب، الرازي، ٦٢٩/٢٧.

يعنِي: بريءٌ منْ معبودكمْ، إلَّا الذِي خلقنِي، فإنِّي لَا أتبرَّأُ منهُ، ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ يعنِي: يثبِّتنِي علَى دينِ الإسلامِ[1].

قالَ ذلكَ ثقةً باللهِ وتنبيهًا لقومهِ أنَّ الهدايةَ منْ ربِّهِ[2].

لكنَّ الذِي فطرنِي هوَ معبودِي الهادِي المنجِي منَ العذابِ، وفِي هذَا استدعاءٌ لهمْ، وترغيبٌ فِي طاعةِ اللهِ، وتطميعٌ فِي رحمتهِ[3].

فصاحبُ العقلِ السَّليمِ والفطرةِ السَّليمةِ، يمنعُ نفسهُ منِ ارتكابِ المعاصِي والوقوعِ فِي المحرَّماتِ، وذلكَ لأنَّ العقلَ معناهُ: الكفُّ والحبسُ، فهوَ يحبسُ صاحبهُ ويكفُّهُ عنْ كلِّ مَا يغضبُ اللهَ سبحانهُ وتعالَى.

(1) تفسير السمرقندي، ٣/٢٥٥.

(2) النكت والعيون، الماوردي، ٥/٢٢٢.

(3) الجواهر الحسان، الثعالبي، ٥/١٧٨.

رابعًا: البعدُ عنِ التَّقليدِ المذمومِ:

فقدْ أرسلَ اللهُ تعالَى الرُّسلَ لهدايةِ النَّاسِ والأخذِ بأيديهمْ منَ الظُّلماتِ إلَى النُّورِ وهدايةِ قلوبهمْ بنورِ الإيمانِ، بعدَ مَا كانتْ مظلمةً بظلمةِ الكفرِ، واتِّباعهمْ لتقاليدِ الآباءِ الكفريَّةِ والشركيَّةِ التِي هيَ بعيدةٌ كلَّ البعدِ عنْ شريعةِ الإسلامِ، ولكنَّ بعضهمْ رفضُوا الانقيادَ لمنهجِ اللهِ القويمِ، فكانَ عقابهمْ جهنَّمُ وبئسَ المصيرَ، فخسرُوا الدُّنيَا والآخرةَ، وشبَّههمْ اللهُ تعالَى بالأنعامِ بلْ همْ أضلُّ سبيلًا؛ لتعطيلهمْ عقولهمْ عنِ الفهمِ والإدراكِ، وصمَّهمْ لآذانهمْ، وطمسِ أبصارهمْ عنْ نورِ الهدايةِ والإيمانِ.

فإنَّ البشريَّةَ قدْ بلغتْ رشدهَا فأصبحتْ تقادُ بالعقلِ وحدهُ، ولمْ يعدْ ينفعُ معهَا مجرَّدُ الخوارقِ والقوارعِ الملجئةِ أوْ شبهَ الملجئةِ، فجاءَ الإسلامُ دينًا منطقيًّا، رفعَ منْ قيمةِ العقلِ، ثمَّ هوَ بعدَ ذلكَ يذمُّ التَّقليدَ وينعِي علَى المقلِّدينَ لآبائهمْ وأحبارهمْ ورهبانهمْ[1].

قالَ تعالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}[البقرة: 170 – 171].

---

(1) انظر: مجلة البحوث الإسلامية، محمد حسين الذهبي، ١/٥٩.

(لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا) يعنِي لَا يعلمونَ شيئًا منْ أمرِ الدِّينِ، لفظةُ عامٌ ومعناهُ خاصٌّ، وذلكَ أنَّهمْ كانُوا يعقلونَ أمرَ الدُّنيَا (وَلاَ يَهْتَدُونَ) أيْ: إلَى الصَّوابِ[1].

قالَ الضحَّاكُ عنِ ابنِ عباسَ: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ) يعنِي: كفَّارَ قريشٍ منْ بنِي عبدِ الدَّارِ، قالُوا: (قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) منْ عبادةِ الأصنامِ، فقالَ اللهُ: (لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا) منَ التَّوحيدِ ومعرفةِ الرَّحمنِ (وَلاَ يَهْتَدُونَ) للحجَّةِ البالغةِ لَا يعقلونَ شيئًا منْ أمرِ الدِّينِ ولَا يهتدونَ. معنَى الآيةِ فِي أحدِ الأقوالِ: ومثلُ الذينَ كفرُوا فِي قلَّةِ عقلهمْ وفهمهمْ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ وعنْ رسولهِ وسوءِ قبولهمْ عنهمَا كمثلِ المنعوقِ بهِ منَ البهائمِ، التي لَا تفقهُ منَ الأمرِ والنَّهيِ غيرَ الصَّوتِ، فكذلكَ الكافرُ فِي قلَّةِ فهمهِ وسوءِ تفكُّرِه، فالكافرُ ليسَ لهُ منْ دعائهِ الآلهةَ وعبادتهِ الأوثانِ إلَّا العناءُ والبلاءُ، ولَا ينتفعُ منهَا بشيءٍ فهمْ لَا يعقلونَ[2].

يقولُ تعالَى ذكرهُ لهؤلاءِ الكفَّارِ: فكيفَ أيُّهَا النَّاسُ تتَّبعونَ مَا وجدتمْ عليهِ آباءكمْ فتتركونَ مَا يأمركمْ بهِ ربُّكمْ، وآباؤكمْ لَا يعقلونَ منْ أمرِ اللهِ شيئًا، ولَا همْ مصيبونَ حقًّا، ولَا مدركونَ رشدًا؟ وإنَّمَا يتَّبعُ المتَّبعُ ذَا المعرفةِ بالشَّيءِ المستعملِ لهُ فِي نفسهِ، فأمَّا الجاهلُ فلَا يتبعهُ (فيمَا هوَ بهِ جاهلٌ) إلَّا منْ لَا عقلَ لهُ ولَا تمييزَ[3].

(1) لباب التأويل، الخازن، ١/١٠٢.
(2) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٢/٤٣.
(3) جامع البيان، الطبري، ٣/٣٠٧.

معناهُ أيتَّبعونَ آباءهمْ وإنْ كانُوا جهَّالًا فيتابعوهمْ بغيرِ حجَّةٍ؟ فكأنَّهُ نهاهمْ عنِ التَّقليدِ وأمرهمْ بالتمسُّكِ بالحجَّةِ[1].

وفِي هذَا دلالةٌ علَى ذمِّ التَّقليدِ (عمومًا)، وهوَ قبولُ الشَّيءِ بلَا دليلٍ ولَا حجَّةٍ، وحكَى ابنُ عطيَّةَ أنَّ الإجماعَ منعقدٌ علَى إبطالهِ فِي العقائدِ، وفِي الآيةِ دليلٌ علَى أنَّ مَا كانَ عليهِ آباؤهمْ هوَ مخالفٌ لمَا أنزلَ اللهُ تعالَى، فاتِّباعُ أبنائهمْ لآبائهمْ تقليدٌ فِي ضلالٍ، وفِي هذَا دليلٌ علَى أنَّ دينَ اللهِ هوَ اتِّباعُ مَا أنزلَ اللهُ، لأنَّهمْ لمْ يؤمرُوا إلَّا بهِ[2].

وهكذَا نجدُ كيفَ أنَّ اللهَ تعالَى ذمَّ المقلِّدينَ للآباءِ أوِ الرُّؤساءِ الجهَّالِ، والمعرضينَ عنِ اتِّباعِ منهجِ اللهِ تعالَى وتعاليمهِ.

قالَ تعالَى: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ}[الزخرف: 21 – 23].

وفِي هذَا دليلٌ علَى إبطالِ التَّقليدِ، لذمِّهِ إيَّاهمْ علَى تقليدِ آبائهمْ وتركهمْ النَّظرَ فيمَا دعاهمْ إليهِ الرَّسولُ ﷺ[3].

أيْ: لمْ يأتُوا بحجَّةٍ عقليَّةٍ أوْ نقليَّةٍ بلِ اعترفُوا بأنَّ لَا سندَ لهمْ سوَى تقليدُ آبائهمُ الجهلةُ مثلهمْ[4].

(1) تفسير السمرقندي، ١/١١٢.
(2) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ٢/١٠٣.
(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/٧٥.
(4) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/٤٣.

وهذَا منْ أعظمْ الأدلَّةِ الدَّالةِ علَى بطلانِ التَّقليدِ وقبحهِ، فإنَّ هؤلاءِ المقلِّدةِ فِي الإسلامِ إنَّمَا يعملونَ بقولِ أسلافهمْ، ويتبعونَ آثارهمْ، ويقتدونَ بهمْ، فإذَا رامَ الدَّاعِي إلَى الحقِّ أنْ يخرجهمْ منْ ضلالةٍ، أوْ يدفعهمْ عنْ بدعةٍ قدْ تمسَّكُوا بهَا وورثوهَا عنْ أسلافهمْ بغيرِ دليلٍ نَيِّرٍ، ولَا حجَّةٍ واضحةٍ، بلْ بمجرَّدِ قالَ وقيلَ لشبهةٍ داحضةٍ، وحجَّةٍ زائفةٍ، ومقالةٍ باطلةٍ، قالُوا بمَا قالهُ المترفونَ منْ هذهِ المللِ: إنَّا وجدنَا آباءنَا علَى أمَّةٍ وإنَّا علَى آثارهمْ مقتدونَ[1].

أيْ: لمْ يأتُوا بحجَّةٍ عقليَّةٍ، أوْ نقليَّةٍ، بلِ اعترفُوا بتقليدِ آبائهمْ الجهلةِ، وقالُوا: إنَّا وجدنَا آباءنَا علَى حالةٍ عظيمةٍ تقصدُ، وإنَّا مهتدونَ علَى أعمالهمْ، وكذلكَ، أيْ: والأمرُ كمَا ذكرَ منْ عجزهمْ عنِ الحجَّةِ وتمسُّكهمْ بالتَّقليدِ[2].

وهذَا الاحتجاجُ منْ هؤلاءِ المشركينَ الضَّالينَ، بتقليدهمْ لآبائهمْ الضَّالينَ، ليسَ المقصودُ بهِ اتِّباعُ الحقِّ والهدَى، وإنَّمَا هوَ تعصُّبٌ محضٌ، يرادُ بهِ نصرةُ مَا معهمْ منَ الباطلِ[3].

هذَا الكلامُ مسوقٌ مساقَ الذمِّ لهمْ إذْ لمْ يقارنُوا بينَ مَا جاءهمْ بهِ الرَّسولُ ﷺ وبينَ مَا تلقَّوهُ منْ آبائهمْ، فإنَّ شأنَ العاقلِ أنْ يميِّزَ مَا يُلقَى إليهِ منِ الاختلافِ ويعرضهُ علَى معيارِ الحقِّ[4].

(1) فتح القدير، الشوكاني، ٤/٦٣٢.
(2) مراح لبيد، محمد الجاوي، ٢/٣٨٢.
(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦٤.
(4) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٥/١٨٧.

ليستْ لهمْ حجَّةٌ عقليَّةٌ ولَا حجَّةٌ نقليَّةٌ تبرِّرُ لهمْ أفعالهمْ، وإنَّمَا السَّببُ الحقيقِي أنَّهمْ يقلِّدونَ آباءهمْ تقليدَ الأعمَى معَ التَّعصُّبِ الشَّديدِ ولوْ كانُوا علَى باطلٍ[1].

وهذَا دليلٌ علَى إبطالِ التَّقليدِ فِي العقائدِ والأصولِ، لأنَّ اللهَ ذمَّهمْ علَى تقليدِ آبائهمْ، وتركهمُ النَّظرَ فيمَا دعاهمْ إليهِ الرَّسولُ ﷺ[2].

قالَ سبحانهُ عنْ أهلِ النَّارِ: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[الملك: 10].

فقدْ كانتْ لديهمْ عقولٌ وأسماعٌ لزمتهمْ بهَا الحجَّةُ عندَ اللهِ تعالَى[3].

قالَ تعالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ}[لقمان: 21].

بيَّنَ أنَّ مجادلتهمْ معَ كونهَا منْ غيرِ علمٍ فهيَ فِي غايةِ القبحِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يدعوهمْ إلَى كلامِ اللهِ، وهمْ يأخذونَ بكلامِ آبائهمْ، وبينَ كلامِ اللهِ وكلامِ العلماءِ بَوْنٌ عظيمٌ، فكيفَ مَا بينَ كلامِ اللهِ وكلامِ الجهَّالِ؟![4].

---

(1) التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي، ٣/٣٨٩.

(2) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٥/١٣٩.

(3) مقام العقل في الإسلام، د.محمد عمارة، ص ٧٦.

(4) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٥/٤٥٥.

﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أيْ: وإذَا قيلَ لهؤلاءِ المجادلين فِي توحيدِ اللهِ: اتَّبعُوا مَا أنزلَ اللهُ علَى رسولهِ منَ الشَّرائعِ المطهَّرةِ، لمْ يكنْ لهمْ حجَّةٌ إلَّا اتِّباعُ الآباءِ الأقدمينَ فيمَا اعتقدُوه منْ دينٍ، وهذَا فِي غايةِ القبحِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ يدعوهمْ إلَى كلامِ اللهِ الهادِي إلَى الحقِّ والخيرِ، وهمْ يأخذونَ بكلامِ آبائهمْ، وهذَا منعٌ صريحٌ منَ التَّقليدِ فِي أصولِ العقيدةِ، لذَا وبَّخهمُ اللهُ علَى سوءِ مقالتهمْ[1].

فهذَا هوَ سندهمُ الوحيدُ، وهذَا هوَ دليلهمُ العجيبُ! التقليدُ الجامدُ المتحجِّرُ الذِي لَا يقومُ علَى علمٍ ولَا يعتمدُ علَى تفكيرٍ. التَّقليدُ الذِي يريدُ الإسلامُ أنْ يحرِّرهمْ منهُ، وأنْ يُطلقَ عقولهمْ للتدبُّرِ وينشرَ فيهَا اليقظةَ والحركةَ والنُّورَ، فيأبُوا همُ الانطلاقَ منْ إسارِ الماضِي المنحرفِ، ويتمسَّكُوا بالأغلالِ والقيودِ.

إنَّ الإسلامَ حريَّةٌ فِي الضَّميرِ، وحركةٌ فِي الشُّعورِ، وتَطَلُّعٌ إلَى النُّورِ، ومنهجٌ جديدٌ للحياةِ، طليقٌ منْ إسارِ التَّقليدِ والجمودِ، ومعَ ذلكَ كانَ يأباهُ ذلكَ الفريقُ منَ النَّاسِ، ويدفعونَ عنْ أرواحهمْ هداهُ، ويجادلونَ فِي اللهِ بغيرِ علمٍ ولَا هدًى ولَا كتابٍ منيرٍ[2].

وإذَا دعُوا إلَى اتِّباعِ وحيِ اللهِ رجعُوا إلَى التَّقليدِ المحضِ بغيرِ حجَّةٍ فسلكُوا طريقَ الآباءِ، فكانَ القائلُ منهمْ يقولُ: همْ يتَّبعونَ دينَ آبائهمْ ولوْ كانَ مصيرهمْ إلَى السَّعيرِ[3].

---

(1) التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/١٦٠.

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/٢٧٩٣.

(3) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/٣٥٣.

خامسًا: إدراكُ الحكمةِ منَ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ:

لقدْ مَنَّ اللهُ علَى النَّاسِ بنعمةِ العقلِ، ليُهتدَى بهِ خلالَ رحلةِ الحياةِ، فعنْ طريقِهِ يُعبدُ اللهَ تعالَى علَى بصيرةٍ، حيثُ تُتدبَّرُ الأحكامَ الشَّرعيَّةِ، بينَ تعلُّمهَا وفهمهَا وفقهِ مَا بهَا منْ أوامرَ ونواهٍ، فبإدراكِ الحكمةِ يزدادُ اليقينُ، ويقوَى الإيمانُ، وتتَّسعُ مداركُ العقولُ.

إنَّ الآياتِ التَّشريعيَّةِ التِي تبيِّنُ فضلَ اللهِ علَى النَّاسِ فِي تشريعِ الأحكامِ لهمْ كثيرةٌ تكفلُ القسمَ المدنِي منَ القرآنِ بهَا، وجاءتْ وفقَ مبادئِ الإسلامِ العظيمِ فِي التَّيسيرِ ورفعِ الحرجِ وغيرِهَا، ممَّا ميَّزَ طبيعةَ التَّشريعِ الإسلاميِّ عنْ غيرِهِ، وهنَا فنحنُ أمامَ مجموعةٍ منَ الآياتِ المتحدِّثةِ عنْ حكمةِ تحريمِ الخمرِ والميسرِ، وعنْ مشروعيَّةِ النَّفقةِ والصَّدقةِ، وعنْ أهميَّةِ سنَّةِ الزَّواجِ، وهيَ أمورٌ قليلةٌ إنْ قورنتْ بمجموعِ مَا تحدَّثَ عنهُ القرآنُ فِي مسائلِ التَّشريعِ، لكنْ طلبَ التَّفكيرِ فيهَا ربَّمَا لأمورٍ خفيَّةٍ قدْ لَا تُدركُ بمجرَّدِ العقلِ أوِ السَّمعِ، فلَا بدَّ منْ إعمالِ الفكرِ فيهَا(1).

القرآنُ العظيمُ جاءَ بهداياتٍ كاملةٍ تامَّةٍ، تفِي بحاجاتِ جميعِ البشرِ فِي كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ لأنَّ الذِي أنزلهُ هوَ العليمُ بكلِّ شيءٍ، خالقُ البشريَّةِ والخبيرُ بمَا يصلحهَا ويفسدهَا، ومَا ينفعهَا ويضرُّهَا، فإذَا شرعَ أمرًا جاءَ فِي أعلَى درجاتِ الحكمةِ والخبرةِ، قالَ تعالَى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[الملك: 14].

(1) مصطلح التفكر كما جاء في القرآن الكريم، مجلة الشريعة والقانون، د.محمد خازر المجالي، ص ٥٢.

ويزدادُ الوضوحُ عندَ التأمُّلِ فِي أحوالِ الأنظمةِ والقوانينِ البشريَّةِ التِي يظهرُ عجزهَا عنْ معالجةِ المشكلاتِ البشريَّةِ، ومسايرةِ الأوضاعِ والأزمنةِ والأحوالِ، ممَّا يضطرُّ أصحابهَا إلَى الاستمرارِ فِي التَّعديلِ والزِّيادةِ والنقصِ، فيلغونَ غدًا مَا وضعوهُ اليومَ؛ لأنَّ الإنسانَ محلُّ النَّقصِ والخطأِ، والجهلِ لأعماقِ النَّفسِ البشريَّةِ، والجهلِ بمَا يحدثُ غدًا فِي أوضاعِ الإنسانِ وأحوالهِ وفيمَا يصلحُ البشريَّةَ فِي كلِّ عصرٍ ومصرٍ[1].

قالَ تعالَى: {كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[البقرة: 242].

أيْ: لكيْ تعقلُوا مَا بيَّنتُ لكمْ منَ الفرائضِ والأحكامِ ومَا فيهِ صلاحكمْ وصلاحِ دينكمْ[2].

ولمَّا بيَّنَ تعالَى هذهِ الأحكامِ العظيمةِ المشتملةِ علَى الحكمةِ والرَّحمةِ امتنَّ بهَا علَى عبادهِ فقالَ: (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)، أيْ: حدودهُ، وحلالهُ وحرامهُ والأحكامُ النَّافعةُ لكمْ، لعلَّكمْ تعقلونهَا فتعرفونهَا وتعرفونَ المقصودَ منهَا، فإنَّ منْ عرفَ ذلكَ أوجبَ لهُ العملُ بهَا[3].

فكذلكَ أبيِّنُ لكمْ سائرَ الأحكامِ فِي آياتِي التِي أنزلتهَا علَى نبيِّ محمَّدٍ ﷺ فِي هذَا الكتابِ، لتعقلُوا حدودِي، فتفهمَوا اللَّازمَ لكمْ منْ فرائضِي، وتعرفُوا بذلكَ مَا فيهِ صلاحُ دينكمْ ودنياكمْ، وعاجلكمْ وآجلكمْ، فتعملُوا بهِ ليُصلحَ ذاتَ بينكمْ، وتنالُوا بهِ الجزيلَ منْ ثوابِي فِي معادكمْ[4].

---

(1) عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة، القحطاني، ١/٥٠.

(2) لباب التأويل، الخازن، ١/١٧٦.

(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٦.

(4) جامع البيان، الطبري، ٥/٢٦٦.

وعدَ بأنَّهُ سيبيِّنُ لعبادهِ منَ الدَّلائلِ والأحكامِ مَا يحتاجونَ إليهِ معاشًا ومعادًا، لعلَّكمْ تفهمونهَا فتستعملونَ العقلَ فيهَا[1].

أيْ: مثلُ هذَا التبيينِ الذِي سبقَ منَ الأحكامِ، يبيِّنُ لكمْ فِي المستقبلِ مَا بقيَ منَ الأحكامِ التِي يكلِّفهَا العبادَ، لعلَّكمْ تعقلونَ مَا يرادُ منكمْ منِ التزامِ الشَّرائعِ والوقوفِ عندهَا، لأنَّ التَّبيينَ للأشياءِ ممَّا يتَّضحُ للعقلِ بأوَّلِ إدراكٍ، بخلافِ الأشياءِ المغيَّباتِ والمجملاتِ، فإنَّ العقلَ يرتبكُ فيهَا، ولَا يكادُ يحصلُ منهَا علَى طائلٍ[2].

قالَ تعالَى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[الأنعام: 151].

أيْ: لكيْ تعقلُوا فوائدَ هذهِ التَّكاليفِ فِي الدِّينِ والدُّنيَا[3].

أيْ: ليعدكمْ لأنْ تعقلُوا الخيرَ والمصلحةَ فِي فعلِ مَا أمرَ بهِ وتركَ مَا نهَى عنهُ[4].

(1) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/١٤٨.
(2) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٢/٥٥٥.
(3) مراح لبيد، محمد الجاوي، ١/٣٥٤.
(4) التفسير المنير، الزحيلي، ٨/٩٨.

أيْ: وصَّاكمْ اللهُ بذلكَ لمَا فيهِ منْ إعدادكمْ، وباعثُ الرَّجاءِ فِي أنفسكمْ لأنْ تعقلُوا مَا فيهِ الخيرُ والمنفعةُ فِي تركِ مَا نهَى عنهُ وفعلِ مَا أمرَ بهِ، فإنَّ ذلكَ ممَّا تدركهُ العقولُ الصَّحيحةُ بأدنَى تأمُّلٍ، وفيهِ دليلٌ علَى الحسنِ الذَّاتِي وإدراكِ العقولِ لهُ بنظرهَا، وإذَا هيَ عقلتْ ذلكَ كانَ عاقلًا لهَا ومانعًا منَ المخالفةِ، وفيهِ تعريضٌ بأنَّ مَا همْ عليهِ منَ الشِّركِ وتحريمِ السَّوائبِ وغيرهَا، ممَّا لَا تُعقلُ لهُ فائدةٌ، ولَا تظهرُ للأنظارِ الصَّحيحةِ فيهِ مصلحةٌ[1].

قالَ تعالَى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[النور: 61].

فأنزلَ سبحانهُ لهمْ فِي كلِّ وقتٍ شرعًا يليقُ بذلكَ الزَّمانِ علَى لسانِ رسولٍ منْ رُسلهِ عليهمْ الصَّلاةُ والسَّلامُ، جعلَ ذلكَ الشَّرعَ يطابقُ العقلَ السويَّ، والنُّورَ الضَّويَّ، والمنهلَ الرويَّ، والسببَ القويَّ، منْ تمسَّكَ بهِ هُديَ ولمْ يزغْ، حدَّ فيهِ سبحانهُ حدودًا، وأقامَ فيهِ زواجرَ، لتظهرَ حكمتهُ، ويتَّضحَ علمهُ وقدرتهُ، فصارتْ شرائعُ متَّفقةُ الأصولِ، مختلفةُ الفروعِ، بحسبِ الأزمنةِ، إشارةٌ إلَى أنَّ

(1) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٨/١٦٦.

الفاعلَ فِي تغييرِ الأحكامِ بحسبِ الأزمانِ واحدٌ مختارٌ، وامتحانًا للعبادِ، تمييزًا لأهلِ الصَّلاحِ منهمْ منْ أهلِ الفسادِ[1].

أيْ: مَا فِي تضاعيفِهَا منَ الشَّرائعِ والأحكامِ، وتعملونَ بموجبِهَا، وتحوزونَ بذلكَ سعادةَ الدَّارينِ[2].

تعليلٌ لذلكَ التَّبيينِ برجاءِ تعقُّلِ آياتِ اللهِ سبحانهُ وفهمِ معانيهَا[3].

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ) الدَّالَّاتِ علَى أحكامهِ الشَّرعيَّةِ وحكمهَا، (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) عنهُ فتفهمونهَا، وتعقلونهَا بقلوبكمْ، ولتكونُوا منْ أهلِ العقولِ والألبابِ الرَّزينةِ، فإنَّ معرفةَ أحكامهُ الشَّرعيَّةِ علَى وجههَا، يزيدُ فِي العقلِ، وينمُو بهِ اللبُّ، لكونِ معانيهَا أجلِّ المعانِي، وآدابهَا أجلُ الآدابِ، ولأنَّ الجزاءَ منْ جنسِ العملِ، فكمَا استعملَ عقلهُ للعقلِ عنْ ربِّهِ، وللتفكُّرِ فِي آياتهِ التِي دعاهُ إليهَا، زادهُ منْ ذلكَ[4].

وكذلكَ يبيِّنُ اللهُ للنَّاسِ آياتهِ وحكمهِ لعلَّهمْ يدركونَ المنهجَ الإلهيَّ، ولعلَّهمْ يعقلونَ مَا فِي هذهِ الآياتِ والحججِ[5].

ومنْ هنَا نجدُ أنَّ منَ الحكمةِ التدبُّرُ فِي الآياتِ والأحكامِ الشَّرعيَّةِ، ونوقنُ بأنَّ اللهَ تعالَى حدَّ الحدودَ ووضعَ القيودَ، والفرائضَ والمندوباتِ لحكمةٍ، بعضهَا أعلمَ بهَا عبادهُ، وبعضهُ أخفَى سرَّهَا ولَا يعلمهَا إلَّا هوَ سبحانهُ لغايةٍ يريدهَا سبحانهُ وتعالَى.

---

(1) نظم الدرر، البقاعي، ١٣/٣٢١.

(2) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/١٩٧.

(3) فتح القدير، الشوكاني، ٤/٦٣.

(4) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٥.

(5) أيسر التفاسير، أسعد حومد، ١/٢٧٣٤.

سادسًا: عدمُ اتباعِ الشَّيطانِ:

فالعاقلُ منِ ائتمرَ بأوامرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، حيثُ نهَى عبادهُ عنِ اتِّباعِ الشَّيطانِ؛ لأنَّهُ عدوٌّ لهمْ، ولَا يريدُ لهمْ إلَّا الغوايةَ والضَّلالةَ، لذَا علَى المسلمِ العاقلِ أنْ يكونَ دائمَ اليقظةِ، وعقلهُ وقلبهُ منتبهانِ؛ لئلَّا يقعَ فِي شركهِ وهوَ فِي غفلةٍ فيخسرُ الدُّنيَا والآخرةِ.

قالَ تعالَى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ}[يس: 60 – 62].

أيْ: لَا تطيعُوا الشَّيطانَ فِي معصيةِ اللهِ[1].

قدْ رأيتمْ آثارَ الهالكينَ قبلكمْ بطاعةِ الشَّيطانِ، أفلمْ تعقلُوا ذلكَ؟![2].

وقولهُ عزَّ وجلَّ: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ) أيْ: ألمْ آمركمْ وأوصيكمْ يَا بنِي آدمَ (أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) يعنِي: لَا تطيعوهُ فيمَا يوسوسُ ويزيِّنُ لكمْ منْ معصيَةِ اللهِ (إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) أيْ: ظاهرُ العداوةِ،(وَأَنِ اعْبُدُونِي) أيْ: أطيعونْي ووحِّدونِي (هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) أيْ: لَا صراطَ أقومَ منهُ، وقولهُ تعالَى: (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا) أيْ: خلقًا كثيرًا (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) يعنِي: مَا أتاكمْ منْ هلاكِ الأممِ الخاليةِ بطاعةِ إبليسَ[3].

---

(1) معالم التنزيل، البغوي، ٧/٢٣.

(2) زاد المسير، الجوزي، ٣/٥٢٩.

(3) لباب التأويل، الخازن، ٤/١١.

هذَا تقريعٌ منَ اللهِ للكفرةِ منْ بنِي آدمَ، الذينَ أطاعُوا الشَّيطانَ وهوَ عدوٌّ لهمْ مبينٌ، وعصُوا الرَّحمنَ وهوَ الذِي خلقهمْ ورزقهمْ؛ واتَّبعتمْ الشَّيطانَ فيمَا أمركمْ بهِ، أفمَا كانَ لكمْ عقلٌ فِي مخالفةِ ربِّكمْ فيمَا أمركمْ بهِ منْ عبادتهِ وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وعدولكمْ إلَى اتِّباعِ الشَّيطانِ؟! [1].

ألمْ أوصكمْ يَا بنِي آدمَ أنْ لَا تطيعُوا الشَّيطانَ فيمَا يوسوسُ بهِ إليكمْ منَ المعاصِي، لأنَّهُ لكمْ عدوٌّ مبينٌ واضحُ العداوةِ، ولقدْ أضلَّ الشَّيطانُ منكمْ يَا بنِي آدمَ أممًا كثيرةً، أكنتمْ تشاهدونَ آثارَ عقوباتهمْ (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) أنَّهَا لضلالهمْ، أوْ أفلمْ تكونُوا تعقلونَ شيئًا أصلًا، فلذلكَ كفرتمْ ككفرهمْ واستحققتمْ العذابَ مثلهمْ[2].

رجوعٌ إلَى بيانِ معاداةِ الشَّيطانِ معَ ظهورِ عداوتهِ ووضوحِ إضلالهِ لمنْ لهُ أدنَى عقلٍ ورأيٍ[3].

فالشَّيطانُ يأمرُ البعضَ بتركِ عبادةِ اللهِ وبعبادةِ غيرهِ فهوَ توليةٌ، فإنْ لمْ يقدرْ يأمرهُ بعبادةِ اللهِ لأمرِ غيرِ اللهِ منْ رئاسةٍ وجاهٍ وغيرهمَا فهوَ صدٌّ، وهوَ يفضِي إلَى التَّوليةِ؛ لأنَّ مقصودهُ لوْ حصلَ لتركَ اللهَ وأقبلَ علَى ذلكَ الغيرِ فتحصلَ التَّوليةُ[4]. (أي تولَّى الشَّيطانَ، أيِ اتَّخذَ الشَّيطانَ زليًّا)

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) عداوةَ الشَّيطانِ لكمْ[5].

---

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، بن كثير، ٦/٥٨٤.

(2) انظر: التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ٨/٣٨٠.

(3) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/٢٧٢.

(4) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/٣٠١.

(5) فتح القدير، الشوكاني، ٤/٤٣٣.

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) أيُّهَا المشركونَ، إذْ أطعتمْ الشَّيطانَ فِي عبادةِ غيرِ اللهِ، أنَّهُ لَا ينبغِي لكمْ أنْ تطيعُوا عدوَّكمْ وعَدُوَّ اللهِ، وتعبدُوا غيرَ اللهِ[1].

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) استفهامُ تقريعٍ علَى تركهمُ الانتفاعَ بالعقلِ[2].

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) عداوتهُ وتعلمُوا أنَّ الواجبَ طاعةُ اللهِ[3].

قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[البقرة: 168، 169].

فهذَا نهيٌ عنِ اتِّباعِ وحيِ الباطلِ والشرِّ، لأنَّهُ منْ إغواءِ الشَّيطانِ، ثمَّ بيَّنَ كيفيَّةَ عداوتهِ وفنونَ شرِّهِ وإفسادهُ فقالَ: (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء) أيْ: إنَّمَا يوسوسُ الشَّيطانُ ويتسلَّطُ عليكمْ، كأنَّهُ آمرٌ مطاعٌ بأنْ تفعلُوا مَا يسوؤكمْ فِي دنياكمْ وآخرتكمْ، وأنْ تجترحُوا الفواحشَ مَا ظهرَ منهَا ومَا بطنَ، والتَّصرفَ فِي الأكوانِ بدونِ اتِّخاذِ الأسبابِ قدْ ضلُّوا ضلالًا بعيدًا واتَّبعُوا أمرَ الشَّيطانِ، ومثلهمْ منِ اتَّخذَ رأيَ الرُّؤساءِ حجَّةً فِي الدِّينِ منْ غيرِ أنْ يكونَ بيانًا أو تبليغًا لمَا جاءَ عنِ اللهِ تعالَى، كالذينَ يمنعونَ حكمَ تعدُّدِ الزَّوجاتِ فإذَا ما خطبتهُ بالنَّقلِ الذِي هوَ موافقٌ للعقلِ كانتْ حجَّتهُ وجوبُ اتِّباعِ القانونِ، فهؤلاءِ قدْ أعرضُوا عنْ سننِ اللهِ تعالَى، وأهملُوا نعمةَ العقلِ، واتَّخذُوا منْ دونِ اللهِ الأندادًا بلْ فضَّلوهمْ علَى اللهِ سبحانهُ وتعالَى علوًّا كبيرًا، قالَ تعالَى:

---

(1) جامع البيان، الطبري، ٥٤٣/٢٠.

(2) مدارك التنزيل، النسفي، ١٠٩/٣.

(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤٧/١٥.

{مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ}[الأعراف: 186].

(وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) أيْ: ويأمركمْ أنْ تقولُوا علَى اللهِ فِي دينهِ مَا لَا تعلمونَ علمَ اليقينِ أنَّهُ شرعهُ لكمْ منْ عقائدَ وشعائرَ دينيَّةٍ، أوْ تحليلِ مَا الأصلُ فيهِ التَّحريمُ، أوْ تحريمِ مَا الأصلُ فيهِ الإباحةُ، ففِي كلِّ ذلكَ اعتداءٌ علَى حقِّ الرُّبوبيَّةِ بالتَّشريعِ، وهذَا أقبحُ مَا يأمرُ بهِ الشَّيطانُ، فإنَّهُ الأصلُ فِي إفسادِ العقائدِ وتحريفِ الشَّرائع[1].

أيْ: لَا تطيعوهُ، وهذَا التَّوبيخُ يدخلُ فيهِ التَّوبيخُ عنْ جميعِ أنواعِ الكفرِ والمعاصِي؛ لأنَّهَا كلَّهَا طاعةٌ للشَّيطانِ وعبادةٌ لهُ، فحذَّرتكمْ منهُ غايةَ التَّحذيرِ، وأنذرتكمْ عنْ طاعتهِ، وأخبرتكمْ بمَا يدعوكمْ إليهِ.

(أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) أيْ: فلَا كانَ لكمْ عقلٌ يأمركمْ بموالاةِ ربِّكمْ ووليِّكمُ الحقُّ، ويزجركمْ عنِ اتِّخاذِ أعدَى الأعداءِ لكمْ وليًّا، فلوْ كانَ لكمْ عقلٌ صحيحٌ لمَا فعلتمْ ذلكَ، فإذَا أطعتمْ الشَّيطانَ وعاديتمُ الرَّحمنَ وكذَّبتمْ بلقائهِ ووردْتُمُ القيامةَ دارَ الجزاءِ وحقَّ عليكمُ القولُ بالعذابِ[2].

وفرَّعَ عليهِ توبيخهمْ بقلَّةِ العقولِ بقولهِ تعالَى: (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ)، فالاستفهامُ إنكاريٌّ عنْ عدمِ كونهمْ يعقلونَ، أيْ: يدركونَ، إذْ لو كانُوا يعقلونَ لتفطَّنُوا إلَى إيقاعِ الشَّيطانِ بهمْ فِي مهاوِي الهلاكِ، وزيادةِ فعلِ الكونِ للإيماءِ إلَى أنَّ العقلَ لمْ يتكوَّنْ فيهمْ ولَا همْ كائنونَ بهِ[3].

(1) انظر: تفسير المراغي، ٢/٤٤.

(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٨.

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور،٢٣/٤٩.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ أيْ: ألمْ أوصِي وآمرْ علَى لسانِ رسلِي، والعهدُ: الوصيَّةُ، وهذَا منْ جملةِ مَا يُقالُ لهمْ تقريعًا وإلزامًا للحجَّةِ، ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾ أيْ: أن لَّا تطيعوهُ، والمرادُ: عبادةُ غيرِ اللهِ منَ الآلهةِ الباطلةِ، ممَّا زيَّنَ بهِ الشَّيطانُ وأمرَ بهِ، فهوَ لكمْ ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بيِّنُ العداوةِ، ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ وحِّدونِي وأطيعونِي، أيْ: ألمْ أعهدْ إليكمْ بتركِ عبادةِ الشَّيطانِ، وبعبادتِي، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أيْ: طريقٌ معتدلٌ قويمٌ، وهوَ دينُ الإسلامِ، أفلمْ تكونُوا تعقلونَ عداوةَ الشَّيطانِ وإضلالَهُ لكمْ؟![1].

أي: لقدْ عهدتُ إليكمْ يَا بنِى آدمَ عهدًا مؤكَّدًا علَى ألسنةِ رسلِي، أنْ لَا تعبدُوا الشَّيطانَ وأنْ لَا تستمعُوا لوسوستهِ، وأنْ لَا تتَّبعُوا خطواتهِ، لأنَّهُ لكمْ عدوٌّ ظاهرُ العداوةِ، بحيثُ لَا تخفَى عداوتهُ علَى أحدٍ منَ العقلاءِ[2].

وهكذَا نجدُ أنَّ النَّجاةَ فِي مخالفةِ الشَّيطانِ، ولَا يكونُ ذلكَ إلَّا باستعمالِ العقلِ السَّليمِ الذِي يعرفُ اللهَ ويخشاهُ ويهتدِي بهدِي نبيِّهِ ﷺ.

---

(1) التفسير المنير، الزحيلي، ٣٥/٢٣.

(2) التفسير الوسيط، طنطاوي، ٤٥/١٢.

سابعًا: الأدبُ والتَّوقيرُ للرَّسولِ الكريمِ ﷺ والعلماءِ:

لقدْ أرسلَ اللهُ تعالَى رسلهُ لتنيرَ عقولَ النَّاسِ وقلوبهمْ بنورِ الهدايةِ والإيمانِ، لذَا وجبَ اتِّباعهمْ بالحسنَى واحترامهمْ وتوقيرهمْ كمَا أمرَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى، هذَا لأنَّهُ لَا طريقَ يُصلُ للقرآنِ إلَّا عنْ طريقِ النَّبيِّ ﷺ، وبهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُعرفُ منهجُ الهدايةِ والإيمانِ والشَّريعةِ الصَّحيحةِ السَّليمةِ، فوجبَ بذلكَ توقيرهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم والأدبُ معهُ فِي مجلسهِ وفِي غيابهِ وبعدَ موتهِ ﷺ.

قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}[الحجرات: 2].

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ) أيْ: إذَا نطقَ ونطقتمْ، ولَا تجهرُوا لهُ بالقولِ إذَا كلَّمتموهُ؛ لأنَّ رتبةَ النبوَّةِ والرِّسالةِ يجبُ أنْ توقَّرَ وتجلَّ، ولَا يكونُ الكلامُ معَ الرَّسولِ ﷺ كالكلامِ معَ غيرِه، وكرهَ العلماءُ رفعَ الصَّوتِ عندَ قبرِ رسولِ اللهِ ﷺ، وبحضرةِ العالمِ، وفِي المساجدِ[1].

أمرهمْ (اللهُ تعالَى) أن يبجِّلوهُ ويفخموهُ ويعظِّموهُ، ولَا يرفعُوا أصواتهمْ عندهُ، ولَا ينادوهُ كمَا ينادِي بعضهمْ بعضًا فيقولُ: يَا محمَّدُ، بلْ يقولونَ: يَا رسولَ اللهِ، يَا نبيَّ اللهِ[2].

(1) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٥٠٧/٩.

(2) لباب التأويل، الخازن، ١٧٦/٤.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) يحتملُ أنَّ المرادَ حقيقةَ رفعِ الصَّوتِ؛ لأنَّ ذلكَ يدلُّ علَى قلَّةِ الاحتشامِ وتركِ الاحترامِ؛ لأنَّ خفضَ الصَّوتِ وعدمِ رفعهِ منْ لوازمِ التَّعظيمِ والتَّوقيرِ[1].

هذهِ آدابُ أدَّبَ اللهُ بهَا عبادهُ المؤمنينَ فيمَا يعاملونَ بهِ الرَّسولَ ﷺ منَ التَّوقيرِ والاحترامِ والتَّبجيلِ والإعظامِ[2].

يَا أيُّهَا الذينَ صدقُوا اللهَ ورسولهُ وعملُوا بشرعهِ، لَا ترفعُوا أصواتكمْ فوقَ صوتِ النبيِّ ﷺ عندَ مخاطبتكمْ لهُ، ولَا تجهرُوا بمناداتهِ كمَا يجهرُ بعضكمْ لبعضٍ، وميِّزوهُ فِي خطابهِ كمَا تميَّزَ عنْ غيرهِ فِي اصطفائهِ لحملِ رسالةِ ربِّهِ، ووجوبُ الإيمانِ بهِ، ومحبَّتهِ وطاعتهِ والاقتداءِ بهِ؛ خشيةَ أنْ تَبطلَ أعمالكمْ وأنتمْ لَا تشعرونَ ولَا تحسُّونَ بذلكَ[3].

وفِي هذَا مَا فيهِ منَ الحثِّ علَى توقيرِ العلماءِ الذينَ همْ ورثةُ الأنبياءِ، وتعظيمِ الأتقياءِ والصُّلحاءِ؛ أسوةً بتوقيرِ سيِّدِ الأنبياءِ[4]، فعنْ أبِي الدَّرداءِ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: " ... وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، ورَّثُوا العِلمَ فمن أخذَه أخذ بحظٍّ وافرٍ"[5].

---

(1) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٧/٥٢٣.

(2) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/٣٦٤.

(3) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ١/٥١٥.

(4) أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ١/٦٣٣.

(5) صحيح أخرجه أبو داود (3641) واللفظ له، والترمذي (2682)، وابن ماجه (223)، وأحمد (21715) وصحَّحه الألباني.

فأمرهمُ اللهُ بتوقيرِه، وأنْ يدعوهُ بالنبوَّةِ والرِّسالةِ والكلامِ الليِّنِ، وكرهَ العلماءُ رفعَ الصَّوتِ عندَ قبرِ النبيِّ ﷺ وبحضرةِ العالمِ وفِي المساجدِ، وحرمةُ النبيِّ ﷺ وسلَّمَ ميتًا كحرمتهِ حيًّا، وكلامهُ المأثورُ بعدَ موتهِ فِي الرِّفعةِ مثلَ كلامهِ المسموعِ منْ لفظهِ[1].

ومنهُ قولُ الإمامِ مالكٍ لأبِي جعفرٍ: يَا أميرَ المؤمنينَ، لَا ترفعْ صوتكَ فِي هذَا المسجدِ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أدَّبَ قومًا فقالَ: (لَا تَرفعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوتِ النَّبيِّ) الآية، ومدحَ قومًا فقالَ: (إنَّ الَّذِينَ يَغضُّونَ أَصْواتَهمْ) الآية، وذمَّ قومًا فقالَ: (إنَّ الَّذين يَنَادُونكَ) الآية، وإنَّ حرمتهُ ميتًا، كحرمتهِ حيًّا (أيِ النَّبيُّ ﷺ)، فاستكانَ لهَا أبُو جعفرٍ.

قالَ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[الحجرات: 4].

فوصفهمُ الله تعالى بالجهلِ وقلَّةِ العقلِ[2]:

(أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) إذِ العقلُ يقتضِي حسنَ الأدبِ ومراعاةِ الحشمةِ، سيَّمَا لمنْ كانَ بهذَا المنصبِ لكانَ الصَّبرُ خيرًا لهمْ منَ الاستعجالِ لمَا فيهِ منْ حفظِ الأدبِ وتعظيمِ الرَّسولِ الموجبينِ للثَّناءِ والثَّوابِ[3].

والكتابُ العزيزُ مملوءٌ بدعوةِ العقلاءِ إلَى الأدبِ معَ النبيِّ ﷺ فإنَّهُ الرَّحمةُ، وهوَ المثلُ، والهادِي البشيرُ، وكيفَ لَا وهوَ القدوةُ الكاملةُ والأسوةُ الحسنةُ لكلِّ منْ كانَ يرجُو اللهَ واليومَ الآخرِ!

---

(1) الجواهر الحسان، الثعالبي، ٥/٢٦٨.

(2) لباب التأويل، الخازن، ٤/١٧٧.

(3) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/١٣٤.

قالَ تعالَى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[الأحزاب: 21].

شرحَ اللهُ صدرهُ، ووضعَ وزرهُ، ورفعَ ذكرهُ، وأوجبَ طاعتهُ، وحرَّمَ خيانتهُ، ومَا تخلَّفَ ركبُ الأمَّةِ اليومَ إلَّا يومَ أنْ تخلَّفتْ عنِ الأدبِ معهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، ومَا تجرَّعَ أفرادُ الأمَّةِ مراراتَ البعدِ عنْ جمالِ الحياةِ وطيبِ معانيهَا إلَّا يومَ أنْ بعدتْ نفوسهمْ عنْ سيرتهِ الرَّائعةِ وعنْ هديهِ، فصارُوا يركضونَ وراءَ كلِّ منْ أوتَى ظاهرًا منَ الحياةِ الدُّنيَا، يخلعونَ عليهِ لباسَ العظمةِ والبهاءِ باسمهِ وقولهِ وشخصهِ زعمًا وزورًا! فكمْ منْ صفيقِ وجهٍ صفَّقُوا لهُ، وكتبُوا عنهُ الأسفارَ، وتناقلُوا أقوالهُ! وكمْ منْ سفيهٍ نصَّبوهُ إمامًا يُقتدَى بهِ، فأضحَى الذِي أملوهُ سرابًا بقيعةٍ وأضغاثُ أحلامٍ! فالبعدُ عنْ سيرةِ نبيِّنَا ﷺ والاهتداءِ بغيرهِ هوَ مستنقعُ الجهلِ وهوَّةُ الضَّلالِ وحياةِ الشَّقاءِ، وطاعتهُ هدايةٌ وسعادةٌ وفوزٌ[1].

يَا أيُّها الذينَ صدقُوا اللهَ ورسولهُ، لَا ترفعُوا أصواتكمْ فوقَ صوتِ رسولِ اللهِ تتجهَّموهُ بالكلامِ، وتغلظونَ لهُ فِي الخطابِ، ولَا تنادوهُ كمَا ينادِي بعضكمْ بعضًا: يَا محمَّدُ، يَا محمَّدُ، يَا نبيَّ اللهِ، يَا نبيَّ اللهِ، يَا رسولَ اللهِ، نهاهمُ اللهُ أنْ ينادوهُ كمَا ينادِي بعضهمْ بعضًا وأمرهمْ أنْ يشرِّفوهُ ويعظِّموهُ، ويدعوهُ إذَا دعوهُ باسمِ النبوَّةِ[2].

فذمَّهمُ اللهُ بِعَدَمِ العقلِ؛ حيثُ لمْ يعقلُوا عنِ اللهِ الأدبَ معَ رسولهِ واحترامهِ، كمَا أنَّ منَ العقلِ وعلامتهِ استعمالُ الأدبِ[3].

(1) انظر: موسوعة الأخلاق، خالد الخراز، ١/١٣٧.
(2) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/٢٧٧.
(3) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٩.

{الآثارُ المترتِّبةُ علَى إهمالِ العقلِ}

وهبَ اللهُ تعالَى عبادهُ العقلَ، كيْ يعبدوهُ حقَّ عبادتهِ ويميِّزُوا بهِ الحقَّ منَ الباطلِ، وبيَّنَ سبحانهُ مَا ينفعُ عبادهُ ومَا يضرُّهمْ، ولمْ يتركهمْ هملًا كالدَّوابِ، ولمْ يعطِ أحدًا منهمْ عذرًا حينَ يعطِّلُ عقلهُ، بلْ منعَ منْ تناولَ أيَّ نوعٍ منَ الأطعمةِ أوِ الأشربةِ التِي تجعلُ العقلَ فِي غيبوبةٍ عنِ العالمِ الذِي حولهِ، أو تؤدِّي إلَى ضررٍ فيهِ، فيمتنعُ بذلكَ عنِ العبادةِ، لكنَّ بعضَ النَّاسِ لمْ يستعملُوا عقولهمْ فِي التفكُّرِ والتدبُّرِ فِي الآياتِ الكونيَّةِ كمَا أمرَ اللهُ تعالَى، بلْ كانُوا كالأنعامِ بلْ همْ أضلُّ سبيلًا بتقليدهمْ لآبائهمْ أوْ لكُبَرَائِهِمْ فِي الكفرِ.

قالَ تعالَى: "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ"[الأنفال: 22].

إنَّ شرَّ مَا دبَّ علَى الأرضِ منْ خلقِ اللهِ عندَ اللهِ، الذينَ يصمُّونَ عنِ الحقِّ لئلَّا يستمعوهُ، فيعتبرُوا بهِ ويتعظُّوا بهِ، وينكصونَ عنهُ إنْ نطقُوا بهِ، الذينَ لَا يعقلونَ عنِ اللهِ أمرهُ ونهيهُ، فيستعملُوا بهمَا أبدانهمْ[1].

وهذَا مطابقٌ لقولهِ تعالَى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[البقرة: 171].

إلَّا أنَّهُ زادَ فِي هذَا وصفَ العمَى، وكلُّ هذهِ الأوصافِ كنايةٌ عنِ انتفاءِ قبولهمْ للإيمانِ وإعراضهمْ عمَّا جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ، وظاهرُ هذهِ الأخبارِ العمومُ[2].

إنَّ شرَّ النَّاسِ عندَ اللهِ الصمُّ عنِ الهدَى البكمُ، يعنِي: الخرسُ الذينَ لَا يتكلَّمونَ بخيرٍ، الذينَ لَا يعقلونَ الإيمانَ[3].

---

(1) جامع البيان، الطبري،١٣/٤٥٩.

(2) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ٥/٣٠٠.

(3) تفسير السمرقندي، ٢/١٤.

سمَّاهمْ دوابًّا لقلَّةِ انتفاعهمْ بعقولهمْ[1].

وقولهُ تعالَى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}[الفرقان: 44].

أيْ: مَا همْ إلَّا كالأنعامِ، جعلهمْ كالأنعامِ؛ لأنَّهمْ لمْ يدركُوا طريقَ الحقِّ، ولمْ ينتفعُوا بمَا ميَّزهمُ اللهُ بهِ عنِ البهائمِ منْ عقولهمْ وأسماعهمْ وأبصارهمْ[2].

أيْ: لَا ينتفعونَ بمَا يعقلونَ[3].

لمْ يخلقْ للأنعامِ قلوبًا تعقلُ بهَا ولَا ألسنةً تنطقُ بهَا، وأعطَى ذلكَ لهؤلاءِ ثمَّ لمْ ينتفعُوا بمَا جعلَ لهمْ منَ العقولِ والقلوبِ والألسنةِ والأسماعِ والأبصارِ فهمْ أضلُّ منَ البهائمِ، فإنَّ منْ لَا يهتدِي إلَى الرُّشدِ وإلَى الطَّريقِ معَ الدَّليلِ لهُ، أضلُّ وأسوأُ حالًا ممَّنْ لَا يهتدِي حيثُ لَا دليلَ معهُ[4].

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ) سماعَ قبولٍ أوْ يفكرونَ فيمَا تقولُ فيعقلونهُ، أيْ همْ بمنزلةِ منْ لَا يعقلُ ولَا يسمعُ، وقيلَ: المعنَى أنَّهمْ لمَّا لمْ ينتفعُوا بمَا يسمعونَ فكأنَّهمْ لمْ يسمعُوا[5].

ليسَ المرادُ أنَّهمْ لَا يعقلونَ بلْ إنَّهمْ لَا ينتفعونَ بذلكَ العقلِ[6].

كذلكَ منْ عطَّلَ عقلهُ عنِ العملِ، سيكونُ تابعًا لغيرهِ ومقلِّدًا لهُ، وقدْ نهَى اللهُ تعالَى عنِ الاتِّباعِ إلَّا للهِ تعالَى ولرسولهِ ﷺ، فكيفَ بمنْ كانَ متبِّعًا لجاهلٍ!

(1) معالم التنزيل، البغوي، ٣/٣٤٣.

(2) تفسير القرآن، السمعاني، ٤/٢٢.

(3) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/٢٩.

(4) الأمثال في القرآن، ابن القيم ص٢٠.

(5) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/٣٦.

(6) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/٤٦٣.

قالَ تعالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[البقرة: 170].

أخبرَ تعالَى عنْ حالِ المشركينَ إذَا أمرُوا باتِّباعِ مَا أنزلَ اللهُ علَى رسولهِ ﷺ، رَغِبُوا عنْ ذلكَ واكتفُوا بتقليدِ الآباءِ، وزهدُوا فِي الإيمانِ بالأنبياءِ، ومعَ هذَا فآباؤهمْ أجهلُ النَّاسِ، وأشدُّهمْ ضلالًا وهذهِ شبهةٌ لردِّ الحقِّ واهيةٌ، فهذَا دليلٌ علَى إعراضهمْ عنِ الحقِّ، ورغبتهمْ عنهُ، وعدمِ إنصافهمْ، فلوْ هدُوا لرشدهمْ، وحسنِ قصدهمْ، لكانَ الحقُّ هوَ القصدُ، ومنْ جعلَ الحقَّ قصدهُ، ووازنَ بينهُ وبينَ غيرهِ، تبيَّنَ لهُ الحقُّ قطعًا، واتَّبعهُ إنْ كانَ منصفًا(1).

الآيةُ تضمَّنتْ النَّهيَ عنِ التَّقليدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى أنكرَ عليهمْ متابعةَ آبائهمْ، وأمرَ بمتابعةِ العقلِ والهدَى(2).

أيتَّبعونَ مَا ألفُوا عليهِ آباءهمْ فِي تقاليدهمْ وعاداتهمْ، ولوْ كانَ آباؤهمْ لَا يعقلونَ شيئًا منَ الحقِّ فِي أمورِ العقائدِ والعباداتِ، بلْ ولوْ تجرَّدُوا منْ أيِّ دليلٍ منطقيٍّ، وحادُوا عنِ الصَّوابِ، وهذَا يدلُّ علَى ذمِّ التَّقليدِ بدونِ دليلٍ(3).

ومثلُ الذينَ كفرُوا فيمَا همْ فيهِ منَ الغيِّ والضَّلالِ، والجهلِ وتقليدِ الآباءِ والرُّؤساءِ، كمثلِ الدَّوابِ السَّارحةِ التِي لَا تفقهُ شيئًا ممَّا يقالُ لهَا، فإذَا نعقَ فيهَا راعيهَا فإنَّهَا تسمعُ صوتهُ، ولكنَّهُا لَا تفقهُ مَا يقولُ ولَا تفهمهُ، فهمْ صمٌّ عنْ سماعِ الحقِّ، وبكمٌ لَا يتفوَّهونَ بهِ، وعميٌ عنْ رؤيةِ طريقهِ ومسلكهِ، لَا يعقلونَ شيئًا ولَا يفهمونَ(4).

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١.

(2) التفسير البسيط، الواحدي ٣/٤٩٠.

(3) التفسير المنير، الزحيلي، ٢/٧٣.

(4) المصدر السابق،٢/٧٦.

وهكذَا بناءً علَى تفسيرِ العلماءِ للآيةِ نرَى حالَ منْ يقلِّدُ الآخرينَ دونَ تعقُّلٍ وتمييزٍ بينَ الحقِّ والباطلِ، ويعطِّلُ عقلهُ وحواسهُ عنِ الفهمِ والإدراكِ، فهوَ كالدَّوابِ بلْ أضلُّ.

قالَ تعالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[المائدة: 104].

أيتَّبعونَ آباءهمْ وإنْ كانَ آباؤهمْ جهَّالًا، فنهاهمُ اللهُ عنِ التَّقليدِ، وأمرهمْ بالتمسُّكِ بالحقِّ وبالحجَّةِ[1].

(قالَ الكفَّرُ): يكفينَا مَا وجدنَا عليهِ آباءنَا منَ الدِّينِ والمنهاجِ؛ أولوْ كانَ آباؤهمْ لَا يعلمونَ شيئًا منَ الدِّينِ ولَا يهتدونَ لهُ، أيتَّبعونهمْ فِي خطئهمْ[2].

يعنِي قدِ اكتفينَا بمَا أخذناَ عنهمْ منَ الدِّينِ ونحنُ لهمْ تبعٌ؛ ولَا يصحُّ الاقتداءُ إلَّا بالعالمِ المهتدِي الذِي يبنِي قولهُ علَى الحجَّةِ والبرهانِ والدَّليلِ، وأنَّ آباءهمْ مَا كانُوا كذلكَ فيصحُّ اقتداؤهمْ بهمْ[3].

تتَّبعونَ آباءكمْ وتقتدونَ بهمْ، وإنْ كنتمْ تعلمونَ أنَّ آباءكمْ لَا يعلمونَ شيئًا فِي أمرِ الدِّينِ ولَا يهتدونَ، وإنْ جئتكمْ بأهدَى ممَّا كانَ عليهِ آباؤكمْ؛ يسفههمْ فِي أحلامهمْ فِي تقليدهمْ آباءهمْ، وإنْ ظهرَ عندهمْ أنَّهمْ علَى ضلالٍ وباطلٍ[4].

ولكنَّهمْ يقلِّدونَ كبارهمْ، وفيهِ أنَّ منهمْ منْ يعرفُ بطلانَ ذلكَ ولكنْ يمنعهمْ حبُّ الرِّياسةِ وتقليدِ الآباءِ أنْ يعترفُوا بهَا[5].

(1) تفسير السمرقندي، ١/٤٢٣.
(2) زاد المسير، الجوزي، ١/٥٩٤.
(3) لباب التأويل، الخازن، ٢/٨٤.
(4) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/٦٣٥.
(5) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/١٤٦.

وينتجُ عنْ إهمالِ العقلِ وعدمِ إعمالهِ آثارٌ سلبيَّة، منهَا:

1) عبادةُ غيرِ اللهِ تعالَى:

فصاحبُ العقلِ السَّليمِ والفطرةِ السَّليمةِ لَا يصرفُ عبادتهُ إلَّا للهِ الواحدِ سبحانهُ[1].

قالَ تعالَى: {قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}[الأنبياء: 62 – 67].

قصَّ اللهُ سبحانهُ علَى عبادهِ كيفَ أنَّ قومَ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ كانُوا يعبدونَ الأصنامَ ثمَّ قامَ بدعوتهمْ لعبادةِ اللهِ وحدهُ ولمَّا لمْ يستجيبُوا لهُ قامَ بتكسيرِ تلكَ الأصنامِ وبعدَ ذلكَ قامتْ بينهمْ مشادَّةٌ فاتَّهموهُ بتكسيرهَا، قالَ إبراهيمُ موبِّخًا لهمْ ومعلنًا بشركهمْ علَى رؤوسِ الأشهادِ، ومبيِّنًا عدمِ استحقاقِ آلهتهمْ للعبادةِ، فلَا نفعَ ولَا دفعَ، مَا أضلَّكمْ وأخسرَ صفقتكمْ، ومَا أخسركمْ، أنتمْ ومَا عبدتمْ منْ دونِ اللهِ، إنْ كنتمْ تعقلونَ عرفتمْ هذهِ الحالَ، فلمَّا عدمتمُ العقلَ، وارتكبتمُ الجهلَ والضَّلالَ علَى بصيرةٍ، صارتِ البهائمُ، أحسنَ حالًا منكمْ[2].

---

(1) البناء العقلي في ضوء القرآن الكريم، ميساء كمال قلجة، ص ١٣١.

(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٦.

قبحًا لكمْ وللآلهةِ التِي تعبدونَ منْ دونِ اللهِ، أفلَا تعقلونَ قبحَ مَا تفعلونَ منْ عبادتكمْ مَا لَا يضرُّ ولَا ينفعُ، فتتركُوا عبادتهُ، وتعبدُوا اللهَ الذِي فطرَ السَّماواتِ والأرضَ، والذِي بيدهِ النَّفعُ والضرُّ[1].

2) افتراءُ الكذبِ علَى اللهِ تعالَى:

نجدُ أنَّ المشركينَ يشرِّعونَ فِي الدِّينِ منَ البدعِ والضَّلالاتِ مَا لمْ يشرعهُ اللهُ تعالَى، بينمَا منْ أعملَ عقلهُ فلَا يتَّبعُ إلَّا مَا جاءَ فِي القرآنِ الكريمِ والسنَّةُ النبويَّةِ.

قالَ تعالَى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[المائدة: 103].

(وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) أرادَ بـ (الأكثرِ) الأتْباعَ يعنِي: أنَّ الأتباعَ لَا تعقلُ أنَّ هذَا كذبٌ وافتراءٌ منَ الرُّؤساءِ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

وصفهمُ اللهُ سبحانهُ بأنَّهمْ مَا قالُوا ذلكَ إلَّا افتراءً علَى اللهِ وكذبًا، لَا لشرعٍ شرعهُ اللهُ لهمْ ولَا لعقلٍ دلَّهمْ عليهِ، وسبحانَ اللهِ العظيمِ مَا أركَّ عقولَ هؤلاءِ وأضعفهَا! يفعلونَ هذهِ الأفاعيلَ التِي هيَ محضُ الرّقاعةِ ونفسِ الحمقِ، وهذَا شأنُ علمائهمْ ورؤسائهمْ وكبرائهمْ[3].

---

(1) جامع البيان، الطبري، ١٨/٤٦٤.

(2) لباب التأويل، الخازن، ٢/٨٤.

(3) فتح البيان، صديق خان، ٤/٦٦.

وإذَا قيلَ لهمْ تعالُوا إلَى مَا أنزلَ اللهُ وإلَى الرَّسولِ قالُوا حسبنَا مَا وجدنَا عليهِ آباءنَا وهذهِ أفعالُ آبائهمْ وسننهمُ التِي سنُّوهَا لهمْ، وصدقَ اللهُ سبحانهُ حيثُ يقولُ: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[المائدة: 104] أيْ: ولوْ كانُوا جهلةً ضالينَ[1].

3) تقليدُ الآباءِ السَّادةِ فِي ضلالهمْ:

بينمَا العاقلُ يعلمُ أنَّهُ لَا طاعةَ لمخلوقٍ فِي معصيةِ الخالقِ فلَا يتَّبعُ إلَّا الدِّينَ الصَّحيحَ دينَ الإسلامِ.

فعنْ عمرانَ بنِ الحصينِ والحكمِ بنِ عمرٍو الغفاريِّ رضيَ اللهُ عنهمَا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: لَا طاعةَ لمخلوقٍ فِي معصيةِ الخالقِ[2].

قالَ تعالَى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[البقرة: 170].

فكيفَ أيُّهَا النَّاسُ تتَّبعونَ مَا وجدتمْ عليهِ آباءكمْ فتتركونَ مَا يأمركمْ بهِ ربُّكمْ، وآباؤكمْ لَا يعقلونَ منْ أمرِ اللهِ شيئًا، ولَا همْ مصيبونَ حقًّا، ولَا مدركونَ رشدًا؟ وإنَّمَا يتَّبعُ المتَّبعُ ذَا المعرفةِ بالشَّيءِ المستعملِ لهُ فِي نفسهِ، فأمَّا الجاهلُ فلَا يتبعهُ فيمَا هوَ بهِ جاهلٌ إلَّا منْ لَا عقلَ لهُ ولَا تمييزَ[3].

---

(1) فتح القدير، الشوكاني، ٢/٩٤.

(2) الصحيح الجامع 7520.

(3) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/٣٠٨.

أيتَّبعونَ آباءهمْ وإنْ كانُوا جهَّالًا فيتابعوهمْ بغيرِ حجَّةٍ؟ فكأنَّهُ نهاهمْ عنِ التَّقليدِ وأمرهمْ بالتمسُّكِ بالحجَّةِ[1].

فاكتفُوا بتقليدِ الآباءِ، وزهدُوا فِي الإيمانِ بالأنبياءِ، ومعَ هذَا فآباؤهمْ أجهلُ النَّاسِ، وأشدُّهمْ ضلالًا وهذهِ شبهةٌ لردِّ الحقِّ واهيةٌ، فهذَا دليلٌ علَى إعراضهمْ عنِ الحقِّ، ورغبتهمْ عنهُ، وعدمِ إنصافهمْ[2].

(أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) ردٌّ عليهمْ، وبيانٌ لبطلانِ الاعتمادِ فِي الدِّينِ علَى مجرَّدِ تقليدِ الآباءِ[3].

4) تحريفُ كلامِ اللهِ تعالَى:

فهمْ بعدَ مَا عقلوهُ وفهموهُ، يؤوِّلونهُ تبعًا لأهوائهمْ، لكنَّ المسلمَ العاقلَ لَا يحرِّفُ تحريفًا إملائيًّا ولَا لفظيًّا وَلا معنويًّا ولَا يؤوِّلُ تأويلًا فاسدًا، بلْ يتَّبعُ مَا أنزلَ اللهُ تعالَى علَى النبيِّ الأكرمِ ﷺ منْ قرآنٍ وسنَّةٍ.

قالَ تعالَى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة: 75].

---

(1) تفسير السمرقندي، ١/١١٢.
(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١.
(3) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١/٣٤٦.

فِي ذلكَ قولانِ:

أحدهمَا: أنَّهمْ علماءُ اليهودِ الذينَ يحرِّفونَ التَّوراةَ فيجعلونَ الحلالَ حرامًا والحرامَ حلالًا اتِّباعًا لأهوائهمْ وإعانةً لراشيهمْ، وهذَا قولُ مجاهدٍ والسدِّي.

والثَّانِي: أنَّهمُ الذينَ اختارهمْ موسَى منْ قومهِ، فسمعُوا كلامَ اللهَ فلمْ يمتثلُوا أمرهُ وحرَّفُوا القولَ فِي إخبارهمْ لقومهمْ، وهذَا قولُ الرَّبيعِ بنِ أنسٍ وابنِ إسحاقَ[1].

ومعنَى الآيةِ الكريمةِ: أفتطمعونَ (أيُّهَا المؤمنونَ) بعدَ أنْ وصفتُ لكمْ منْ حالِ اليهودِ مَا وصفتُ منْ جحودٍ ونكرانٍ، أنْ يدخلُوا فِي الإسلامِ، والحالُ أنَّهُ كانَ فريقٌ منْ علمائهمْ وأحبارهمْ يسمعونَ كلامَ اللهِ ثمَّ يميلونهُ عنْ وجههِ الصَّحيحِ منْ بعدِ مَا فهموهُ، وهمْ يعلمونَ أنَّهمْ كاذبونَ بهذَا التَّحريفِ علَى اللهِ تعالَى، أوْ يعلمونَ مَا يستحقُّهُ محرِّفهُ منَ الخزيِ والعذابِ الأليمِ[2].

والمرادُ منَ التَّحريفِ أنَّهمْ عمدُوا إلَى مَا سمعوهُ منَ التَّوراةِ، فجعلُوا حلالهُ حرامًا أوْ نحوَ ذلكَ ممَّا فيهِ موافقةٌ لأهوائهمْ، كتحريفهمْ صفةَ رسولِ اللهِ ﷺ وإسقاطِ الحدودِ عنْ أشرافهمْ، أوْ سمعُوا كلامَ اللهِ لموسَى فزادُوا فيهِ ونقصُوا، وهذَا إخبارٌ عنْ إصرارهمْ علَى الكفرِ وإنكارٌ علَى منْ طمعَ فِي إيمانهمْ وحالهمْ هذهِ الحالُ: أيْ ولهمْ سلفٌ حرَّفُوا كلامَ اللهِ وغيَّرُوا شرائعهُ وهمْ مقتدونَ بهمْ متَّبعونَ سبيلهمْ[3].

---

(1) النكت والعيون، الماوردي، ١/١٤٨.

(2) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١/١٧٩.

(3) فتح القدير، الشوكاني، ١/١٢٠.

5) الاستهزاءُ بدينِ اللهِ تعالَى وشعائرِهِ:

قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ}[المائدة: 57 – 58].

كان الكفَّارُ إذَا سمعُوا الأذانَ استهزؤُوا بهِ، وإذَا رأوهمْ ركَّعًا وسجَّدًا ضحكُوا واستهزؤُوا بذلكَ، ذلكَ الاستهزاءُ بأنَّهمْ قومٌ لَا يعقلونَ يعنِي: لَا يعلمونَ ثوابهُ[1].

قالَ الكلبيُّ: كانَ إذَا أذَّنَ المؤذِّنُ وقامَ المسلمونَ إلَى الصَّلاةِ قالتِ اليهودُ: قدْ قامُوا لَا قامُوا، وكانُوا يضحكونَ إذَا ركعَ المسلمونَ وسجدُوا وقالُوا فِي حقِّ الأذانِ: لقدِ ابتدعتَ شيئًا لَمْ نسمعْ بهِ فيمَا مضَى منَ الأممِ، فمنْ أينَ لكَ صياحٌ مثلَ صياحِ العيرِ؟ فمَا أقبحهُ منْ صوتٍ، ومَا أسمجهُ منْ أمرٍ، وقيلَ: إنَّهمْ كانُوا إذَا أذَّنَ المؤذِّنُ للصَّلاةِ تضاحكُوا فيمَا بينهمْ وتغامزُوا علَى طريقِ السُّخفِ والمجونِ، تجهيلًا لأهلهَا، وتنفيرًا للنَّاسِ عنهَا وعنِ الدَّاعِي إليهَا، وقيلَ: إنَّهمْ كانُوا يرونَ المنادِي إليهَا بمنزلةِ اللَّاعبِ الهازئِ بفعلهَا، جهلًا منهمْ بمنزلتهَا[2].

---

(1) تفسير السمرقندي، ١/٤٠١.

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/٢٢٤.

وكذلكَ مَا كانَ عليهِ المشركونَ والكفَّارُ المخالفونَ للمسلمينَ، منْ قدحهمْ فِي دينِ المسلمينَ، واتِّخاذهمْ إيَّاهُ هزوًا ولعبًا، واحتقارهِ واستصغارهِ، خصوصًا الصَّلاةُ التِي هيَ أظهرُ شعائرِ المسلمينَ، وأجلُّ عباداتهمْ، إنَّهمْ إذَا نادُوا إليهَا اتَّخذوهَا هزوًا ولعبًا، وذلكَ لعدمِ عقلهمْ ولجهلهمُ العظيمُ، وإلَّا فلوْ كانَ لهمْ عقولٌ لخضعُوا لهَا، ولعلمُوا أنَّهَا أكبرُ منْ جميعِ الفضائلِ التِي تتَّصفُ بهَا النُّفوسُ، فكيفَ تدَّعِي لنفسكَ دينًا قيِّمًا، وأنَّهُ الدِّينُ الحقُّ ومَا سواهُ باطلٌ، وترضَى بموالاةِ منْ اتَّخذهُ هزوًا ولعبًا، وسخرَ بهِ وبأهلهِ، منْ أهلِ الجهلِ والحمقِ؟!

وهذَا فيهِ منَ التَّهييجِ علَى عداوتهمْ مَا هوَ معلومٌ لكلِّ منْ لهُ أدنَى مفهومٍ[1].
وممَّا سبقَ يجبُ علَى المسلمِ أن يحرصَ علَى استعمالِ عقلهِ فِي التقرُّبِ إلَى اللهِ تعالَى، بعبادةِ التفكُّرِ والتدبُّرِ فِي آياتِ اللهِ تعالَى المنظورةِ والمسطورةِ، عسَى اللهُ تعالَى أنْ ينفعهُ بهذهِ العبادةِ، ويزدادَ إيمانهُ، لكيْ لَا تُعطَّلَ العقولُ عنِ العملِ فتصدأَ وتتعطَّلُ الحواسُ، فيضلَّ عنْ سبيلِ اللهِ ويتعرَّضَ لسخطِ اللهِ تعالَى، باتِّباعِ الشَّيطانِ أوْ يُقلِّدَ الضَّالينَ المعاندينَ لدينِ اللهِ تعالَى.

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٧.

مطلبٌ

إذَا اختلفَ العقلُ معَ النَّقلِ وجبَ تقديمُ النَّقلِ علَى العقلِ:

فإنَّ النَّقلَ الصَّحيحَ لَا يعارضُ العقلَ الصَّريحَ، وباجتماعِ النقلِ الصحيحِ والعقلِ الصَّريحِ تُدْرَكُ الحقائقَ الشرعيَّةُ؛ فلَا النَّقلُ وحدهُ يُفِيدُ فاقدَ العَقْلِ، ولَا العقلُ وحدهُ يُفِيدُ فاقدَ النَّقْلِ، فلَا بدَّ منِ اجتماعهمَا، وبنقصِ واحدٍ منهمَا تَنْقُصُ المعرفةُ بالحَقّ، وليسَ فِي العقلِ الصَّريحِ ولَا فِي شيءٍ منَ النَّقلِ الصَّحيحِ منَ القرآنِ والسنَّةِ مَا يوجبُ مخالفةَ الشَّرعِ أصلاً[1]، قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية: "كلُّ مَا يدلُّ عليهِ الكتابُ والسنَّةُ فإنَّهُ موافقٌ لصريحِ المعقولِ، والعقلُ الصَّريحُ لَا يخالفُ النَّقلَ الصَّحيحَ، ولكنَّ كثيراً منَ النَّاسِ يغلطونَ إمَّا فِي هذَا وإمَّا فِي هذَا، فمنْ عرفَ قولَ الرَّسولِ ﷺ ومرادهِ بهِ كانَ عارفاً بالأدِّلةِ الشرعيَّةِ وليسَ فِي المعقولِ مَا يخالفُ المنقولَ، ولهذَا كانَ أئمَّةُ السنَّةِ علَى مَا قالهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ: معرفةُ الحديثِ والفقهِ فيهِ أحبُّ إليَّ منْ حفظهِ، أيْ معرفتهُ بالتَّمييزِ بينَ صحيحهِ وسقيمهِ، والفقهِ فيهِ معرفةُ مرادُ الرَّسولِ ﷺ وتنزيلهِ علَى المسائلِ الأصوليَّةِ والفروعيَّةِ أحبُّ إليَّ منْ أنْ تحفظَ منْ غيرِ معرفةٍ وفقهٍ، وهكذَا قالَ عليُّ بنُ المدينِي وغيرهُ منَ العلماءِ فإنَّهُ منِ احتجَّ بلفظٍ ليسَ بثابتٍ عنْ الرَّسولِ ﷺ أوْ بلفظٍ ثابتٍ عنِ الرَّسولِ ﷺ وحملهُ علَى مَا لمْ يدلَّ عليهِ فإنَّمَا

---

(1) شبكة الألوكة من مقالة: "النقل الصحيح لا يعارض العقل الصريح" لـ : محمد بن علي بن جميل المطري.

أتيَ منْ نفسهِ، وكذلكَ العقليَّاتُ الصَّريحةُ إذَا كانتْ مقدِّماتهَا وترتيبهَا صحيحاً لمْ تكنْ إلَّا حقاً لَا تناقضُ شيئاً ممَّا قالهُ الرَّسولُ ﷺ، والقرآنُ قدْ دلَّ علَى الأدلَّةِ العقليَّةِ التِي بهَا لمْ تكنْ إلَّا حقاً وتوحيدهُ وصفاتهُ وصدقِ رسلهِ وبهَا يعرفُ إمكانَ المعادِ، ففِي القرآنِ منْ بيانِ أصولِ الدِّينِ التِي تُعلمُ مقدِّماتهَا بالعقلِ الصَّريحِ مَا لَا يوجدُ مثلهُ فِي كلامِ أحدٍ منَ النَّاسِ"[1].

وإنْ تعارضَ النَّقلُ والعقلُ فِي الظَّاهرِ؛ قُدِّمَ النَّقْلُ علَى العقلِ؛ لأنَّ النَّقْلَ عِلْمُ الخالقِ الكاملِ، والعَقْلَ عِلْمُ المخلوقِ القاصرِ، وهذَا التَّعارضُ يكونُ بحسبِ الظَّاهرِ لَا فِي حقيقةِ الأمرِ؛ فإنَّهُ لا يمكنُ أبداً حصولُ تعارضٍ بينَ النَّقلِ الصَّحيحِ والعقلِ الصَّريحِ، وإذَا وجدَ تعارضٌ فإمَّا أنْ يكونَ النَّقلُ غيرَ صحيحٍ أوِ العقلُ غيرَ صريحٍ.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ: "مَا جاءَ عنِ النَّبيِّ ﷺ كلُّهُ حقٌّ يصدِّقُ بعضهُ بعضًا، وهوَ موافقٌ لفطرةِ الخلائقِ، ومَا جعلَ فيهمْ منَ العقولِ الصَّريحةِ، والقصودِ الصَّحيحةِ، لَا يخالفُ العقلَ الصَّريحَ، ولَا القصدَ الصَّحيحَ، ولَا الفطرةَ المستقيمةَ، ولَا النَّقلَ الصَّحيحَ الثَّابتِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، وإنَّمَا يظنُّ تعارضهَا: منْ صدَّق بباطلٍ منَ النُّقولِ، أوْ فهمَ منهُ مَا لمْ يدلَّ عليهِ، أوِ اعتقدَ شيئًا ظنَّهُ منَ العقليَّاتِ وهوَ منَ الجهليَّاتِ، أوْ منَ الكشوفاتِ وهوَ منَ

(1) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (3/ 64 – 65) مختصرا.

الكسوفاتِ إنْ كانَ ذلكَ معارضًا لمنقولٍ صحيحٍ وإلَّا عارضَ بالعقلِ الصَّريحِ، أوِ الكشفِ الصَّحيحِ، مَا يظنُّهُ منقولًا عنِ النَّبيِّ ﷺ، ويكونُ كذبًا عليهِ، أوْ مَا يظنُّهُ لفظًا دالًّا علَى شيءٍ ولَا يكونُ دالًّا عليهِ"[1].

والعقلُ كالبَصَرِ، والنقلُ كالنُّورِ؛ لَا يَنتفِعُ المبْصِرُ بعينِهِ فِي ظلامٍ دامِسٍ، ولَا يَنتفِعُ العاقلُ بعقلِهِ بلَا وَحْيٍ، وبِقَدْرِ النُّورِ تَهْتَدِي العَيْنُ، وبقدرِ الوحيِ يَهتَدِي العَقْلُ، وبكمالِ العقلِ والنقلِ تَكتمِلُ الهدايةُ والبصيرةُ؛ كمَا تَكتمِلُ الرؤْيةُ حِينَ الظَّهِيرَةِ، فالمؤمنونَ أبصرُ النَّاسِ بالحقائقِ الشرعيَّةِ لجمعهمْ بينَ النقلِ الصَّحيحِ والعقلِ الصَّريحِ قالَ تعالَى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: 122]، وقالَ سبحانهُ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[محمد: 14].

فيجبُ اتِّباعُ الوحيِ منَ الكتابِ والسنَّةِ وعدمِ الاستغناءِ عنِ الوحيِ بالعقلِ وحدهُ، ومَنْ قالَ: إنَّهُ يَهتَدِي إلَى اللهِ بعقلِهِ المُجرَّدِ بلَا وحيٍ؛ فهوَ كمَنْ قالَ: إنَّهُ يَهْتَدِي إلَى طريقِهِ بعينِهِ المُجرَّدَةِ بلَا ضياءٍ، وكُلٌّ منهمَا جاحدٌ لقطعيٍّ ضروريٍّ، والأوَّلُ بلَا دِينٍ، والثَّانِي بلَا دُنْيَا، والأوَّلُ بلَا بصيرةٍ، والثَّانِي بلَا بصرٍ، قالَ تعالَى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج: 46].

---

(1) الرسالة العرشية (1/ 35).

والوحيُ هوَ الذي يَهْدِي الأنبياءَ، ويَهْدِي أَتْبَاعَهُمْ، ويدلُّ علَى هذَا قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[سبأ: 50]، وقولهُ سبحانهُ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[النور: 54]، فلَا هدايةَ إلَّا لمنْ اتَّبعَ الوحيَ، ومنْ لمْ يتبعهُ فقدْ ضلَّ ضلالاً مبيناً، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[النساء: 136]، وقالَ سبحانهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا﴾[الأحزاب: 36].

وقدْ ضلَّ مَنْ يقولُ: لَا أُصدِّقُ بأيِّ حديثٍ إلَّا إذَا أدركَهُ عقلِي، ومَا لَا يُدْرِكُهُ لَا أُؤمِنُ بهِ؛ فإنَّ هذَا قَدَّمَ العقلَ القاصرَ النَّاقصَ الذِي يجهلُ أكثرَ ممَّا يعلمُ علَى الحديثِ الصَّحيحِ الذِي جاءَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ.

فالمؤمنُ العاقلُ يقدِّمُ الحديثَ الصَّحيحَ علَى كلِّ عقلٍ، فمَا لَا يُدرِكُهُ العقلُ لَا يَعْنِي عدَمَ وجودِهِ، ولكنَّهُ هوَ غيرُ مُدْرِكٍ لهُ، فللعقلِ حَدٌّ يَنتهِي إليهِ، كمَا أنَّ لِلْبَصَرِ حَدًّا ينتهِي إليهِ لَا ينتهِي الكونُ والوجودُ بنهايتِهِ، وللسمعِ حَدٌّ لَا تنتهِي الأصواتُ بنهايتِهِ؛ فللنَّمْلَةِ صوتٌ لَا يُسْمَع، وفِي الكونِ فَضَاءٌ وكواكبُ ونجومٌ لا تُرَى.

ومعلومٌ أنَّ النَّصوصَ الشرعيَّةَ منهَا مَا يَفْهَمُهُ غالبُ النَّاسِ، ومنهَا ممَّا لَا يفهمهُ إلَّا العلماءُ، ومنهَا مَا لَا يفهمهُ ويعرفُ دلالتهُ إلَّا الرَّاسخونَ منْ أهلِ العلمِ، فيكونُ موقفنَا هوَ العملُ بالمحكمِ والوقوفُ عندَ المتشابهِ، والمتشابهُ: هوَ مَا لَا يعلمهُ إلَّا الرَّاسخونَ منْ أهلِ العلمِ، وأمَّا جعلَ هذَا المتشابهَ أصلاً، أوِ التَّشكيكِ فِي المحكماتِ بضربهَا بالمتشابهاتِ؛ فهذَا سبيلُ أهلِ الغيِّ، يقولُ اللهُ سبحانهُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[آل عمران: 7].

والعقلُ الصَّريحُ لَا يخالفُ النَّقلَ الصَّحيحَ بحالٍ، ومتَى توهَّمَ متوهِّمٌ أنَّ نصَّاً منَ النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ الثَّابتةِ خالفَ للعقلِ؛ فليتهمْ عقلهُ هوَ، والشَّريعةُ الإسلاميَّةُ تأتِي بمَا تَحارُ فيهِ العقولُ، ولَا تأتِي أبداً بمَا تُحِيْلُهُ العقولُ، كمَا قرَّرَ ذلكَ المحقِّقونَ منَ العلماءِ، بمعنَى أنَّ الشَّريعةَ لَا تأتِي بمَا تعدُّهُ العقولُ السَّليمةُ أمرًا مستحيلاً.

ويجبُ التَّسليمُ للنَّقلِ الصَّحيحِ أخباراً وأحكامًا؛ سواءٌ عَرَفْنَا العِلَّةَ أوْ لمْ نَعْرِفْهَا، قالَ الزُّهرِي رحمهُ اللهُ تعالَى: "مِنَ اللهِ الرِّسالةُ، وعلَى رسولِ اللهِ ﷺ البلاغُ، وعلينَا التَّسليمُ".

فبعضُ القضايَا العقليَّةِ الثَّابتةِ بالأدلَّةِ القطعيَّةِ لَا تدركهَا بعضُ العقولِ لعدمِ فهمهَا لهَا، فكيفَ بالقضايَا التِي لَا تحيطُ بهَا العقولُ وهيَ كثيرةٌ جداً ممَّا نراهُ ونشاهدهُ؟! ومنْ أقربهَا: سببُ تثاؤبِ بعضِ النَّاسِ عندَ تثاؤبِ شخصٍ آخرَ فِي

المكانِ الذِي هوَ فيهِ!! فلَا تعرفُ العقولُ سببَ ذلكَ، ومنْ تكلَّمَ فِي سببِ ذلكَ بالظنِّ لَا يمكنهُ أنْ يطلبَ منْ جميعِ النَّاسِ أنْ يُسَلِّمُوا بتفسيرِهِ، ومثلُ ذلكَ الرُّوحُ؛ فلَا تحيطُ العقولُ بحقيقتهَا، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: 85][1]، قالَ الشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ هذهِ الآيةِ: "أيْ: هوَ منْ جنسِ مَا استأثرَ اللهُ بعلمهِ منَ الأشياءِ التِي لمْ يُعلمْ بهَا عبادهُ..." إلَى أنْ قالَ: "ثمَّ ختمَ سبحانهُ هذهِ الآيةَ بقولهِ سبحانهُ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: 85]، أيْ: أنَّ علمكمُ الذِي عَلَّمَكُمُ اللهُ ليسَ إلَّا المقدارَ القليلَ بالنِّسبةِ إلَى علمِ الخالقِ سبحانهُ، وإنْ أوتيَ حظاً منَ العلمِ وافراً، بلْ علمُ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ ليسَ هوَ بالنِّسبةِ إلَى علمِ اللهِ سبحانهُ إلَّا كمَا يأخذُ الطَّائرُ فِي منقارهِ منَ البحرِ، كمَا فِي حديثِ موسَى والخضرِ عليهمَا السَّلامُ"[2].

وبالجملةِ يجبُ علَى المسلمِ أنْ يُقَدِّمَ قولَ اللهِ ورسولهِ علَى كلِّ قولٍ، وعلَى كلِّ قياسٍ وعلَى كلِّ ذوقٍ وعلَى كلِّ استحسانٍ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الحجرات: 1]، قالَ ابنُ كثيرٍ فِي تفسيرهِ: "أيْ: لَا تسرعُوا فِي الأشياءِ بينَ يديهِ، أيْ: قبلهُ، بلْ كونُوا تبعًا لهُ فِي جميعِ الأمورِ، وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ:

(1) شبكة الألوكة من مقالة: "النقل الصحيح لا يعارض العقل الصريح" لـ : محمد بن علي بن جميل المطري.
(2) فتح القدير للشوكاني (3/ 363).

﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[الحجرات: 1]: لَا تقولُوا خلافَ الكتابَ والسنَّةِ، وقالَ الضحَّاكُ: لَا تقضُوا أمرًا دونَ اللهِ ورسولِهِ منْ شرائعِ دينكمْ، وقالَ سفيانُ الثَّورِي: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[الحجرات: 1]: بقولٍ ولَا فعلٍ".

ومنْ أشكلَ عليهِ حديثٌ صحيحٌ؛ فلَا يبادرْ إلَى إنكارهِ وتكذيبهِ وردِّهِ، بلْ يرجعُ إلَى كلامِ أهلِ العلمِ فِي شرحهِ وتوجيههِ، وروَى ابنُ ماجهْ بسندٍ صحيحٍ عنْ عليٍّ بنِ أبِي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: "إذَا حدَّثتكمْ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ حديثًا، فظنُّوا بهِ الذِي هوَ أهناهُ، وأهداهُ، وأتقاهُ"[1].

---

(1) صحيح ابن ماجه (19)، وأخرجه أحمد (986)، الطيالسي (101)، وابن بطة في ((الإبانة)) (103) بنحوه.

ثمَّ قالَ السَّعديُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: العلمُ هوَ: معرفةِ الهدَى بدليلِه، فهوَ معرفةُ المسائلِ النَّافعةِ المطلوبةِ، ومعرفةِ أدلَّتهَا وطُرقهَا، التِي تهدِي إليهَا.

والعلمُ النَّافعُ هوَ: العلمُ بالحقِ والعملِ بهِ، وضدُّهُ الجهلُ.

~~~~~~~~~~~ *الشرح* ~~~~~~~~~~~

قدْ ذكرَ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ العزيزِ العلمَ النَّافعَ وأهلهُ وأثنَى عليهِمْ، وذكرَ العلمَ الذِي لَا ينفعُ وتوعَّدَ أهلهُ، فقالَ سبحانهُ وتعالَى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ}[آل عمران: 18].

قالَ ابنُ كثيرٍ: ثمَّ قرنَ شهادةَ ملائكتهِ وأولِي العلمِ بشهادتهِ فقالَ: (شهدَ اللهُ أنَّهُ لَا إلهَ إلَّا هوَ والملائكةُ وأولُو العلمِ) وهذهِ خصوصيَّةٌ عظيمةٌ للعلماءِ فِي هذَا المقامِ[1].

وقالَ تعالَى: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا}[الإسراء: 107 – 109].

وقالَ سبحانهُ: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}[العنكبوت: 49].

وقالَ تعالَى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[المجادلة: 11].

---

(1) تفسير ابن كثير.

وقالَ جلَّ جلالهُ: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[فاطر: 28].

قالَ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى:

إنَّمَا يخشاهُ حقَّ خشيتِهِ العلماءُ العارفونَ بهِ، لأنَّهُ كلَّمَا كانتْ المعرفةُ للعظيمِ القديرِ أتمُّ والعلمُ بهِ أكملُ، كانتْ الخشيةُ لهُ أعظمُ وأكثرُ[1].

وذكرَ سبحانهُ تعالَى العلمَ الذِي لَا ينفعُ فقالَ: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[البقرة: 102].

(1) تفسير ابن كثير.

المعنَى اللُّغوِي للعلمِ:

أصلُ مادَّةِ (علم) تدلُّ علَى أثرٍ بالشَّيءِ يتميَّزُ بهِ عنْ غيرهِ[1]، فهوَ منَ العلامةِ والأثرِ[2]، والعلمُ بالشَّيءِ: المعرفةُ، يقالُ: علمَ الشَّيءَ يعلمهُ علمًا، أيْ: عرفهُ، ورجلٌ علَّامةٌ، أي: كثيرُ العلمِ، والتَّاءُ للمبالغةِ، واسْتَعْلَمَهُ الخَبَرُ فأعْلَمَهُ إيَّاهُ[3].

المعنَى الاصطلاحِي للعلمِ:

عرَّفهُ الجرجانِي بأنَّهُ: الاعتقادُ الجازمُ المطابقُ للواقعِ[4].

وعرَّفهُ المناوِي بأنَّهُ: الاعتقادُ الجازمُ الثَّابتُ المطابقُ للواقعِ؛ إذْ هوَ صفةٌ توجبُ تمييزًا لَا يحتملُ النَّقيضَ، أوْ هوَ حصولُ صورةِ الشَّيءِ فِي العقلِ، والأوَّلُ أخصُّ[5].

وقيلَ: إدراكُ الشَّيءِ علَى مَا هوَ بهِ[6].

وقولهمْ: "الاعتقادُ الجازمُ الثَّابتُ المطابقُ للواقعِ"، يقتضِي انطباعًا فِي العقلِ بمَا يكونُ لهُ أثرٌ وعلامةٌ، كمَا أنَّ دلالةَ أنَّهُ "صفةٌ توجبُ تمييزًا لَا يحتملُ النَّقيضَ"، لبيانِ أنَّ كلَّ علمٍ ينضبطُ بدقَّةٍ عاليةٍ يتميَّزُ منْ خلالهَا عنْ غيرهِ منَ العلومِ والفنونِ، و"حصولُ صورةِ الشَّيءِ فِي العقلِ" تتطوَّرُ إلَى اعتقادٍ قلبيٍّ ثابتٍ جازمٍ، يطابقُ ذلكَ الواقعَ الذِي عليهِ ذلكَ الأمرُ، واللهُ تعالَى أعلمُ[7].

---

(1) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/١٠٩.

(2) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/٨٣.

(3) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/٤١٧، مختار الصحاح، الرازي ص٢١٧.

(4) التعريفات، الجرجاني ص١٥٥.

(5) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٤٦.

(6) الحدود الأنيقة، السنيكي ص٦٦.

(7) موقع موسوعة التَّفسير الموضوعي.

العلمُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

ورِدتْ مادَّةُ (علم) فِي القرآنِ الكريمِ (778) مرَّةً[1].

وجاءَ العلمُ فِي القرآنِ الكريمِ بمعناهُ اللُّغوِي، والذِي هوَ نقيضُ الجهلِ[2].

قالَ اللهُ تعالَى: {قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[الحجرات: 16]، يعنِي: لَا يغيبُ عنْ علمهِ شيءٌ فِي السَّمواتِ ولَا فِي الأرضِ.

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالعلمِ:

المعرفةُ:

المعرفةُ لغةً:

العلمُ، يقالُ: عرَّفهُ بيتهُ، أيْ: أعلمهُ بمكانهِ، وعرَّفهُ بهِ، وسمهُ[3].

المعرفةُ اصطلاحًا:

إدراكُ الشَّيءِ علَى مَا هوَ بهِ، وهيَ بذلكَ ترادفُ العلمَ، وقيلَ: إنَّهَا تخالفُ العلمَ منْ كونهَا تستدعِي سبقَ جهلٍ بخلافِ العلمِ[4].

الصِّلةُ بينَ المعرفةِ والعلمِ:

العلمُ والمعرفةُ مترادفانِ فِي سياقِ اللَّفظِ والدَّلالةِ، إلَّا أنَّ فعلَ العلمِ يتعدَّى إلَى مفعولينِ، أمَّا فعلُ المعرفةِ فيتعدَّى إلَى مفعولٍ واحدٍ، كذلكَ فإنَّهُ يجوزُ أنْ نقولَ عنِ اللهِ تعالَى بأنَّهُ عالمٌ، ولَا يجوزُ أنْ نقولَ عنهُ عارفٌ؛ إذْ إنّ لفظةَ عارفٍ لمْ تردْ فِي القرآنِ ولَا فِي السنَّةِ.

---

(1) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٧٦.

(2) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/١١٠، لسان العرب، ابن منظور ١٢/٤١٦.

(3) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/٢٣٦.

(4) انظر: الحدود الأنيقة، السنيكي ص٦٦.

الفقهُ:

الفقهُ لغةً:

العلمُ بالشَّيءِ، والفهمُ لهُ، والفطنةُ، وغلبَ علَى علمِ الدِّينِ؛ لشرفهِ[1].

الفقهُ اصطلاحًا:

العلمُ بالأحكامِ الشرعيَّةِ العمليَّةِ المكتسبِ منْ أدلَّتهَا التفصيليَّةِ[2]، وهوَ الإصابةُ، والوقوفُ علَى المعنَى الخفيِّ الذِي يتعلَّقُ بهِ الحكمُ، وهوَ علمٌ مستنبطٌ بالرَّأيِ والاجتهادِ، ويُحتاجُ فيهِ إلَى النَّظرِ والتأمُّلِ[3].

الصلةُ بينَ الفقهِ والعلمِ:

الفقهُ أخصُّ منَ العلمِ؛ إذْ إنَّ العلمَ دالٌ علَى كلِّ مَا لهُ أثرٌ وعلامةٌ فيُدرِكُ علَى مَا هوَ عليهِ، أمَّا الفقهُ فيختصُّ بمَا يُستنبطُ بالرَّأيِ والاجتهادِ، ومَا يحتاجُ إلَى التأمُّلِ والنَّظرِ[4].

---

(1) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٢٥٠.

(2) شرح جمع الجوامع للمحلي، ص32 ومابعدها، وشرح الإسنوي ص24، وشرح العضد لمختصر ابن الحاجب، ص18، ومرآة الأصول ص50، والمدخل إلى مذهب أحمد، ص58.

(3) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٦٨.

(4) انظر: المصدر السابق.

اليقينُ:

اليقينُ لغةً:

اليَقِينُ: العِلْم وإزاحة الشك وتحقيقُ الأَمر، وقد أَيْقَنَ يُوقِنُ إيقاناً، فهو مُوقِنٌ، ويَقِنَ يَيْقَن يَقَناً، فهو يَقنٌ.

واليَقِين: نَقيض الشك، والعلم نقيضُ الجهل، تقول عَلِمْتُه يَقيناً[1].

اليقينُ اصطلاحًا:

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى: اليقينُ هوَ طمأنينةُ القلبِ، واستقرارُ العلمِ فيهِ، وضدُّ اليقينِ الرَّيبُ وهوَ نوعٌ منَ الحركةِ والاضطرابِ[2]، ويقولُ السَّعدِي: اليقينُ هوَ العلمُ التَّامِ الذِي ليسَ فِي أدنَى شكٍّ، الموجبِ للعملِ[3].

فهوَ منْ صفةِ العلمِ، فوقَ المعرفةِ والدِّرايةِ وأخواتهمَا، يقالُ: علمُ يقينٍ، ولَا يقالُ: معرفةُ يقينٍ، وهوَ سكونُ القلبِ إلَى خبرِ المخبرِ ووثوقهُ بهِ معَ ثباتِ الحكمِ[4].

وقيلَ: العلمُ بالشَّيءِ بعدَ أنْ كانَ صاحبهُ شاكًا فيهِ؛ ولذلكَ لَا يطلقُ علَى علمهِ تعالَى[5].

---

(1) انظر: لسان العرب ، ومعجم مقاييس اللغة ، والصحاح.

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.

(3) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

(4) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٩٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/٣٩٩.

(5) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٤٧.

وهذَا التَّعريفُ ليسَ مقطوعًا بصحَّتهِ فليسَ كلُّ موقنٍ كانَ شاكًا، بلْ يرسخُ اليقينُ فِي القلبِ دونَ شكٍّ مسبقٍ، ولكنَّ الصَّحيحَ أنَّ اليقينَ نقيضُ الشكِّ، كمَا الظنُّ نقيضُ الوهمِ، والعلمُ نقيضُ الجهلِ.

ولَا ضيرَ إنْ قلنَا أنَّ اليقينَ هوَ: الاعتقادُ الجازمُ المطابقُ للواقعِ[1]، فيكونُ بهذَا لهُ نفسُ تعريفِ العلمِ، كمَا لَا ضيرَ إنْ قلنَا أنَّ اليقينَ هوَ أعلَى درجاتِ العلمِ.

الصِّلةُ بينَ اليقينِ والعلمِ:

اليقينُ والعلمُ مترادفانِ فِي الدَّلالةِ، غيرَ أنَّهمَا يفترقانِ فِي سياقِ اللَّفظِ، فاليقينُ أعلَى درجاتِ العلمِ وهوَ منْ صفاتهِ، إلَّا أنَّهُ يوجدُ بعضُ الفروقِ بينهَا إنْ ذُكرَ كلُّ واحدٍ منهمَا علَى حدةٍ:

1) اليقينُ أعلَى درجةً منَ العلمِ، فكلُّ يقينٍ علمٌ وليسَ كلُّ علمٍ يقينٌ.

2) اليقينَ يكونُ علمًا وعملًا ويدخلُ فيهِ قولُ القلبِ وعملهُ، وأمَّا العلمُ فلَا يكونُ عملًا بلْ هوَ منْ قبيلِ التَّصديقِ وقولِ القلبِ.

3) اليقينُ يستلزمُ العملَ ويتضمَّنهُ، بينمَا العلمُ لَا يستلزمُ العملَ فالموقنُ لَا يسمَّى موقنًا إلَّا إذَا عملَ.

4) اليقينُ لايساورهُ الشُّكوكُ أمَّا العلمُ فيساورهُ الشكُّ والظنُّ والرَّيبُ[2].

---

(1) التعريفات، الجرجاني ص١٥٥.

(2) رعاية العهود والوفاء بالعقود لما للا اله الا الله من الشروط – خالد بن علي المرضي الغامدي. بتصرف

الجهلُ:

الجهلُ لغةً:

الجهلُ ضدُّ العلمِ، وتجاهلَ: أظهرَ الجهلَ وهوَ ليسَ بجاهلٍ، واستجهلهُ: عدَّهُ جاهلًا واستخفَّهُ، والجهالةُ: أنْ تفعلَ فعلًا بغيرِ علمٍ، وجهلتَ الشَّيءَ: إذَا لمْ تعرفهُ، والجاهلُ: ضدُّ العاقلِ، والجهلُ: ضدُّ الخبرةِ، والجاهليَّةُ: زمنُ الفترةِ، وهيَ حالُ العربِ قبلَ الإسلامِ منَ الجهلِ باللهِ سبحانهُ ورسولهِ ﷺ وشرائعِ الدِّينِ، ومَا كانُوا عليهِ منَ المفاخرةِ بالأنسابِ، والكبرِ والتجبُّرِ وغيرِ ذلكَ منَ الأخلاقِ المذمومةِ[1].

الجهلُ اصطلاحًا:

أنْ تعتقدَ الشَّيءَ علَى خلافِ مَا هوَ عليهِ[2]، وهوَ أعلَى قسميْ الجهلِ ويسمَّى بالجهلِ المركَّبِ، وأمَّ الجهلُ البسيطُ فهوَ عدمُ إدراكِ الشَّئِ بالكلَّيةِ، ومنهمْ منْ قالَ: الجهلُ علَى ثلاثةِ أقسامٍ، الأوَّلُ: الجهلُ البسيطُ وهوَ: عدمُ الإحاطةِ الكاملةِ بفهمِ المسألةِ، والثَّاني: الجهلُ الكاملُ وهوَ: نقيضُ العلمِ، وهوَ عدمُ الإحاطةِ بالكلِّيةِ بفهمِ المسألةِ، والثَّالثُ: الجهلُ المركَّبُ وهوَ: إدراكُ الشَّيءِ علَى خلافِ مَا هوَ عليهِ إدراكًا جازمًا.

الصِّلةُ بينَ الجهلِ والعلمِ:

العلمُ والجهلُ مصطلحانِ متضادَّانِ منْ حيثُ المعنَى والدَّلالةِ.

وقدْ تحدَّثنَا عنْ أقسامِ الجهلِ، بينَ بسيطٍ ومركَّبٍ سابقا.

---

(1) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/١٢٩، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/٣٢٢.

(2) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٠٩، العين، الفراهيدي ٣/٣٩٠.

العلمُ صفةُ اللهِ تعالَى:

فمنْ أسماءِ اللهِ تعالَى "العليم" ومنْ صفاتهِ سبحانهُ العلمُ، وعلمُ اللهِ تعالَى ثابتٌ بالكتابِ والسنَّةِ والعقلِ.

قالَ اللهُ تعالَى: {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ}[الأعراف:7]، وقالَ جلَّ وعلَا: {وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[الشورى:25]، وقالَ سبحانهُ: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ}[البقرة:255]، وقالَ: {فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ}[هود:14]، وقالَ تعالَى: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ}[فاطر:11]، وعلمُ اللهِ تعالَى صفةٌ منْ صفاتهِ جلَّ وعلَا الثَّابتةِ بالكتابِ والسنَّة والعقلِ، وهيَ صفةٌ أزليَّةٌ أبديَّةٌ ثبوتيَّةٌ ذاتيَّةٌ، ولَا يُنكرُ صفةَ العلمِ عنِ اللهِ تعالَى إلَّا جاهلٌ جهلًا مركَّبًا.

وقدْ وردَ اسمُ اللهِ العليمِ فِي القرآنِ **157** مرَّةً وفِي هذَا دلائلُ علَى أهمِّتهِ.

معنَى اسمِ اللهِ العليمِ ودلالتهِ:

العليمُ منَ العلمِ وهوَ نقيضُ الجهلِ، وعَلِمتُ الشَّيءَ: أيْ عرفتهُ وخبرتهُ، فالعلمُ لَا يقتصرُ علَى معرفةِ الظَّاهرِ، وإنَّمَا ينضمُّ إليهِ معرفةُ حقيقةِ الشَّيءِ، وهذَا متعذِّرٌ فِي حقِّ العبدِ تجاهَ اللهِ تعالَى؛ لذَا لَا يصحُّ أنْ تقولَ: "عَلِمتُ اللهَ" وإنَّما تقولُ: "عرفتُ اللهَ". وشتَّانَ بينَ علمٍ مقيَّدٍ محدودٍ وعلمٍ مُطلقٍ بلَا حدودٍ، فسبحانهُ وتعالَى فِي كمالِ علمهِ وطلاقةِ وصفهِ، فعلمهُ فوقَ علمِ كلِّ ذِي علمٍ كمَا قالَ اللهُ تعالَى: {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}[يوسف:76]، فعلمُ اللهِ تعالَى: علمٌ بمَا كانَ، ومَا هوَ كائنٌ، ومَا سيكونُ، ومَا لمْ يكنْ لوَ كانَ كيفَ يكونُ. أحاطَ علمهُ سبحانهُ وتعالَى بجميعِ الأشياءِ

ظاهرهَا وباطنهَا، دقيقهَا وجليلهَا، فاسمُ اللهِ العليمِ، أشتملَ علَى مراتبِ العلمِ الإلهيِّ وهيَ أربعةٌ:

1) علمهُ سبحانهُ بالشَّيءِ قبلَ كونهِ:

وهوَ سرُّ اللهِ فِي خلقهِ، لَا يعلمهُ ملكٌ مُقرَّبٌ ولَا نبيٌّ مُرسلٌ، ويُسمَّى علمَ التَّقديرِ ومفتاحِ مَا سيصيرُ، فيعلمُ سبحانهُ منْ همْ أهلُ الجنَّةِ ومنْ همْ أهلُ السعيرِ، فكلُّ أمورِ الغيبِ قدَّرهَا اللهُ فِي الأزلِ ومفتاحهَا عندهُ وحدهُ، لذلكَ قالَ تعالَى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}[الأنعام:59]، وقالَ سبحانهُ: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[لقمان:34].

2) علمهُ تعالَى بالشَّيءِ وهوَ فِي اللَّوحِ المحفوظِ بعدَ كتابتهِ وقبلَ إنفاذِ أمرهِ ومشيئتهِ:

فاللهُ عزَّ وجلَّ كتبَ مقاديرَ الخلائقِ فِي اللَّوحِ المحفوظِ قبلَ أنْ يخلقهمْ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، والمخلوقاتُ فِي اللَّوحِ قبلَ إنشائهَا عبارةٌ عنْ كلماتٍ، يقولُ اللهُ تعالَى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[الحج:70] وقالَ تعالَى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[الحديد:22].

3) علمهُ سبحانهُ وتعالَى بالشَّيءِ حالَ كونهِ وتنفيذهِ ووقتِ خلقهِ وتصنيعهِ:

يقولُ اللهُ تعالَى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}[الرعد: 8 – 9]، وقالَ تعالَى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ}[سبأ: 2].

4) علمهُ جلَّ جلالهُ بالشَّيءِ بعدَ كونهِ وتخليقهِ وإحاطتهِ بالفعلِ بعدَ كسبهِ وتحقيقهِ:

فاللهُ عزَّ وجلَّ يعلمُ مَا سيفعلُ المخلوقُ قبلَ أنْ يُخلقَ المخلوقُ وبعدَ أنْ يُخلقَ، ويعلمُ تفاصيلَ أفعالهِ وخواطرهِ وحديثَ نفسهِ، يقولُ تعالَى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[التوبة:78].

وتلكَ المراتبُ الأربعُ السَّابقةُ ذُكِرتْ فِي قولِ اللهِ جلَّ وعلَا: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[الأنعام:59].

فاللهُ سبحانهُ وتعالَى عالمٌ بكلِّ شيءٍ فِي كلِّ وقتٍ وفِي كلِّ حينٍ، يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى:

وَهُوَ العليمُ أَحَاطَ عِلْماً بِالَّذِي * فِي الكونِ مِنْ سِرٍّ ومنْ إِعْلَانِ

وبكلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَـــــهُ * فهوَ المحيطُ وليسَ ذَا نِسْيَـانِ

ويقولُ أيضًا:

وكذاكَ يَعْلَمُ ما يَكُونُ غداً ومَا * قدْ كانَ والموجودَ فِي ذَا الآنِ

وكذاكَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ لوْ كانَ كيـ * ـفَ يكونُ ذاكَ الأمرُ ذا إِمْكَانِ[1]

العلمُ وصفٌ للمخلوقاتِ:

1) علمُ الملائكةِ عليهمُ السَّلامُ:

قالَ تعالَى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[البقرة: 32]، ففِي الآيةِ إثباتٌ لعلمِ الملائكة عليهمُ السَّلامُ، فقولهُ تعالَى: (إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) يفيدُ سبقَ العلمِ لهمْ إلَّا أنَّ علمهمْ مقيَّدٌ محصورٌ وعلمُ اللهِ تعالَى مطلقٌ غيرُ محدودٍ، فلَا يحيطونَ بشيءٍ منْ علمهِ إلَّا بمَا شاءَ سبحانهُ.

2) علمُ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ:

قالَ تعالَى فِي حقِّ آدمَ: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}[البقرة: 31]، ففِي هذَا المقامِ ذكَرَ اللهُ تعالَى شرفَ آدمَ علَى الملائكةِ بمَا أختصَّهُ منْ علمِ أسماءِ كلِّ شيءٍ دونهمْ.

وقالَ تعالَى فِي حقِّ إبراهيمَ: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا}[مريم: 43].

وقالَ تعالَى فِي لوطٍ: {وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا}[الأنبياء: 47].

---

(1) القصيدة النونية (241).

وقالَ تعالَى فِي حقِّ يعقوبَ: {وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ}[يوسف: 68].
وقالَ تعالَى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا}[يوسف: 22].
وهكذَا بقيَّةُ الأنبياءِ وصولًا إلَى خاتِهمْ نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ، قالَ تعالَى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}[النساء: 113]، يقولُ البغوِي: قولهُ تعالَى: (ولولَا فضلُ اللهِ عليكَ ورحمتهُ) يقولُ للنبيِّ ﷺ:
(لهمَّتْ) لقدْ همَّتْ أيْ: أضمرتْ، (طائفةٌ منهمْ) يعنِي : قومَ طعمةَ، (أنْ يضلُّوك) يخطِّئوكَ فِي الحكمِ ويلبسُوا عليكَ الأمرَ حتَّى تدافعَ عنْ طعمةَ، (ومَا يضلُّونَ إلَّا أنفسهمْ) يعنِي يرجعُ وبالهُ عليهمْ، (ومَا يضرُّونكَ منْ شيءٍ) يريدُ أنَّ ضررهُ يرجعُ إليهمْ، (وأنزلَ اللهُ عليكَ الكتابَ) يعنِي: القرآنَ، (والحكمةَ) يعنِي: القضاءَ بالوحيِ – وأجمعُوا علَى أنَّ الحكمةَ هيَ السنَّةُ – (وعلَّمكَ مَا لمْ تكنْ تعلمُ) منَ الأحكامِ، وقيلَ: منْ علمِ الغيبِ، (وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيمًا)[1].
وأمَّ سببُ نزولِ هذهِ الآيةِ: قالَ السَّعدِي: وذلكَ أنَّ هذهِ الآياتِ الكريماتِ قدْ ذكرَ المفسِّرونَ أنَّ سببَ نزولهَا: أنَّ أهلَ بيتٍ سرقُوا فِي المدينةِ، فلمَّا اطُّلِعَ علَى سرقتهمْ خافُوا الفضيحةَ، وأخذُوا سرقتهمْ فرموهَا ببيتِ منْ هوَ بريءٌ منْ

(1) تفسير البغوي.

ذلكَ، واستعانَ السَّارقُ بقومهِ أنْ يأتُوا رسولَ اللهِ ﷺ ويطلُبوا منهُ أنْ يبرِّئَ صاحبهمْ علَى رءوسِ النَّاسِ، وقالُوا: إنَّهُ لمْ يسرقْ وإنَّمَا الذِي سرقَ منْ وُجدتِ السَّرقةُ ببيتهِ وهوَ البريءُ، فهَمَّ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يبرِّئَ صاحبهمْ، فأنزلَ اللهُ تعالَى هذهِ الآياتِ تذكيرًا وتبيينًا لتلكَ الواقعةِ وتحذيرًا للرَّسولِ ﷺ منَ المخاصمةِ عنِ الخائنينَ...[1].

3) علمُ المؤمنينَ:

قالَ تعالَى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}[آل عمران: 7]، قالَ الطَّبرِي: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال : حدثنا خالد بن نزار عن نافع عن ابن أبي مليكة عن عائشة قوله: " والراسخون في العلم يقولون آمنا به " قالت : كان من رسوخهم في العلم أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه ، ولم يعلموا تأويله[2].

وبهذَا أثبتَ اللهُ تعالَى لهم بعضَ العلمِ ونفَى عنهمُ الإحاطةَ بكلِّهِ.

---

1) تفسير السعدي.

2) تفسير الطبري.

4) علمُ الجنِّ والشَّياطينِ:

قالَ تعالَى: {وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ}[الصافات: 158]، وفِي هذَا دليلٌ علَى علمِ الجنِّ وأنَّهمْ محضرونَ بينَ يدي اللهِ تعالَى.

وقالَ تعالَى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}[البقرة: 102]، وفي هذه الآية دليلٌ على أن العلم نوعان، منه ما هو حقٌّ، ومنه ما هو باطلٌ، فتعليم السحر باطلٌ باتفاق(1).

5) علمُ الطيورِ والحيواناتِ:

قالَ تعالَى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغائبين * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لاَذْبَحَنَّهُ أَوْ ليأتيني بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَث غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سبأ بنبأ يَقِينٍ}[النمل: 20 – 22].

أي: أنَّ الهدهدُ غادرَ زمنًا ثمَّ حضرَ فعاتبهُ سليمانُ علَى مغيبهِ وتخلُّفهِ, فقالَ لهُ الهدهدُ: علمتُ مَا لمْ تعلمهُ منَ الأمرِ علَى وجهِ الإحاطةِ, وجئتكَ منْ مدينةِ "سبأٍ" باليمنِ بخبرٍ خطيرِ الشَّأنِ, وأنَا علَى يقينٍ منهُ، وفِي هذَا إثباتٌ لعلمِ الطُّيورِ، ومنهُ سائرُ الحيواناتِ والحشراتِ لقولهِ تعالَى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}[النمل: 18].

---

(1) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/٢٧٧.

6) علمُ الإنسانِ عمومًا المسلمِ والكافرِ:

قالَ تعالَى: {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[العلق: 5].

قالَ السَّعدِي: (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فإنَّهُ تعالَى أخرجهُ منْ بطنِ أمؤهِ لَا يعلمُ شيئًا، وجعلَ لهُ السَّمعَ والبصرَ والفؤادَ، ويسَّرَ لهُ أسبابَ العلمِ، فعلَّمهُ القرآنَ، وعلَّمهُ الحكمةَ، وعلَّمهُ بالقلمِ، الذِي بهِ تحفظُ بهِ العلومُ...[1].

وهذَا العلمُ الذِي اختصَّ اللهُ تعالَى بهِ النَّاسِ جميعًا، فهوَ إمَّا حجَّةٌ لهمْ وإمَّا حجَّةٌ عليهمُ، فهمْ فِي هذهِ الحالِ علَى أربعةِ أقسامٍ:

1) فأمَّا منِ استعملهُ فِي طاعةِ اللهِ منَ المسلمينَ فهوَ حجَّةٌ لهُ، ولهُ أجرُ مَا عملَ بعلمهِ وأجرُ منْ علَّمهُ ولَا ينقطعُ أجرهُ ولوْ بعدض موتهِ، فعنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رضيَ اللهُ عنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ"[2]، وقالَ ﷺ: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"[3].

2) وأمَّا منِ استعملهُ فِي غيرِ طاعةِ اللهِ منَ المسلمينَ فهوَ حجَّةٌ عليهِ، فعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَعْنِي رِيحَهَا"[4].

---

(1) تفسير السعدي.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه مسلم.

(4) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

3) وأمَّا منْ استعملَ العلمَ فِي مَا يوافقُ رضوانَ اللهِ منْ غيرِ المسلمينَ فيُجزَى بهِ فِي دنياهُ ومَالهُ فِي الآخرةِ منْ نصيبٍ، ففِي صحيحِ مسلمٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: "إنَّ اللهَ لَا يظلمُ مؤمناً حسنةً يعطَى بهَا فِي الدُّنيَا ويجزَى بهَا فِي الآخرةِ، وأمَّا الكافرُ فيُطعمُ بحسناتِ مَا عملَ بهَا للهِ فِي الدُّنيَا حتَّى إذَا أفضَى إلَى الآخرةِ لمْ تكنْ لهُ حسنةٌ يجزَى بهَا[1].

4) وأمَّا منِ استعملهُ فِي مَا لَا يرضِي اللهَ منْ غيرِ المسلمينَ فعقابهُ يومَ القيامةِ ضعفينِ، عذابُ الخلدِ بكفرهِ، وعذابٌ لاستعمالهِ مَا علَّمهُ اللهُ فِي غيرِ مرضاةِ اللهِ تعالَى، قالَ تعالَى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[آل عمران: 19].

{أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ}[هود: 20].

(1) صحيح مسلم.

العلمُ النَّافعُ:

إنَّ أهمَّ وأنفعَ أسبابِ زيادةِ الإيمانِ تعلُّمِ العلمِ النَّافعِ علمُ الشَّريعةِ المستمَّدِ منْ كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولهِ ﷺ[1].

مَا هوَ العلمُ النَّافعُ؟

قالَ ابنُ رجبٍ معرِّفَا بهذَا العلمِ: فالعلمُ النَّافعُ هوَ ضبطُ نصوصِ الكتابِ والسنَّةِ وفهمِ معانيهَا، والتقيُّدُ فِي ذلكَ بالمأثورِ عنِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ وتابعيهمْ فِي معانِي القرآنِ والحديثِ، وفيمَا وردَ عنهمْ منَ الكلامِ فِي مسائلِ الحلالِ والحرامِ والزُّهدِ والرَّقائقِ والمعارفِ وغيرِ ذلكَ، والاجتهادُ علَى تمييزِ صحيحهِ منْ سقيمهِ أوَّلاً، ثمَّ الاجتهادُ علَى الوقوفِ علَى معانيهِ وتفهُّمهِ ثانياً، وفِي ذلكَ كفايةٌ لمنْ عقلَ، وشغلٌ لمنْ بالعلمِ النَّافعِ عنيَ واشتغلَ...[2].

وقالَ ابنُ حجرٍ: والمرادُ بالعلمِ: العلمُ الشرعيِّ الذِي يفيدُ مَا يجبُ علَى المكلِّفِ منْ أمرِ دينهِ فِي عبادتهِ ومعاملاتهِ، والعلمِ باللهِ وصفاتهِ، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه)[3].

---

(1) ((الفتاوى)) (80/28).

(2) ((فضل علم السلف على علم الخلف)) (ص: 45).

(3) ((فتح الباري)) (141/1).

فمنْ وفِّقَ لهذَا العلمِ، فقدْ وفِّقَ لأعظمِ أسبابِ زيادةِ الإيمانِ، ومنْ تأمَّلَ نصوصَ الكتابِ والسنَّةِ علمَ ذلكَ:

قالَ اللهُ تعالَى: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[آل عمران: 18].

وقالَ تعالَى: {لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا}[النساء: 162].

وقالَ تعالَى: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[سبأ: 6].

وقالَ تعالَى: {وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[فاطر: 28].

وقالَ تعالَى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[المجادلة: 11].

وفِي الصَّحيحينِ منْ حديثِ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ يردِ اللهُ بهِ خيراً يفقِّههُ فِي الدِّينِ"[1].

(1) أخرجه البخاري (71)، ومسلم (1037).

وفِي المسندِ وغيرِهِ منْ حديثِ أبِي الدَّرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ سلكَ طريقاً يطلبُ فيهِ علماً، سلكَ اللهُ بهِ طريقاً منْ طرقِ الجنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتهَا لطالبِ العلمِ رضاً بمَا يصنعُ، وإنَّ العالمَ ليستغفرُ لهُ منْ فِي السَّمواتِ ومنْ فِي الأرضِ والحيتانُ فِي جوفِ الماءِ، وإنَّ فضلَ العالمِ علَى العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةِ البدرِ علَى سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لمْ يورِّثُوا ديناراً ولَا درهماً، إنَّمَا ورَّثُوا العلمَ، فمنْ أخذهُ أخذَ بحظٍّ وافرٍ"[1].

وفِي التِّرمذِي وغيرِهِ منْ حديثِ أبِي أمامةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "فضلُ العالمِ علَى العابدِ كفضلِي علَى أدناكُمْ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وملائكتَهُ وأهلَ السَّمواتِ والأرضِ، حتَّى النَّملةَ فِي جحرهَا وحتَّى الحوتَ ليصلُّونَ علَى معلِّمِ النَّاسَ الخيرَ"[2].

فهذهِ النَّصوصُ المذكورةُ فيهَا بيانُ منزلةِ العلمِ ومكانتهِ، وعظمِ شأنهِ وأهميَّتهِ، ومَا يترتَّبُ عليهِ منْ آثارٍ حميدةٍ وخصالٍ كريمةٍ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، ومَا ينتجُ عنهُ منْ خضوعٍ وانقيادٍ لشرعِ اللهِ تعالَى، وإذعانٍ وامتثالٍ لأمرهِ تعالَى، فالعالمُ عرفَ ربَّهُ، وعرفَ نبيَّهُ، وعرفَ أوامرَ اللهِ وحدودهِ، وميَّزَ بينَ مَا يحبُّهُ اللهُ تعالَى ويرضاهُ وبينَ مَا يكرههُ ويأباهُ، فهوَ يعملُ بأمرِ اللهِ تعالَى فيمَا يأتِي ويذرُ، هذَا إنْ وفِّقَ للعملِ بمَا علمَ وإلَّا فعلمهُ وبالٌ عليهِ.

---

(1) رواه أحمد (5/196) (21763). ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان. والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الترمذي: ليس هو عندي بمتصل، وقال ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (4/106): لا يصح، وقال ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (25/247): له طرق كثيرة، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (1/151)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)): صحيح.

(2) رواه الترمذي (2685). وقال: غريب، وصححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي).

قالَ الآجرِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي مقدِّمةِ كتابهِ (أخلاقُ العلماءِ): إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وتقدَّستْ أسماؤهُ اختصَّ منْ خلقهِ منْ أحبَّ فهداهمْ للإيمانِ، ثمَّ اختصَّ منْ سائرِ المؤمنينَ منْ أحبَّ فتفضَّلَ عليهمْ فعلَّمهمُ الكتابِ والحكمةَ وفقَّههمْ فِي الدِّينِ وعلَّمهمُ التَّأويلَ، وفضَّلهمْ علَى سائرِ المؤمنينَ، وذلكَ فِي كلِّ زمانٍ وأوانٍ، رفعهمْ بالعلمِ وزيَّنهمْ بالحلمِ، بهمْ يُعرفُ الحلالُ منَ الحرامِ، والحقُّ منَ الباطلِ، والضَّارُ منَ النَّافعِ، والحسنُ منَ القبيحِ، فضلهمْ عظيمٌ وخطرهمْ جزيلٌ، ورثةُ الأنبياءِ، وقرَّةُ عينِ الأولياءِ، الحيتانُ فِي البحارِ لهمْ تستغفرُ، والملائكةُ بأجنحتهَا لهمْ تخضعُ، والعلماءُ فِي القيامةِ بعدَ الأنبياءِ تشفعُ، مجالسهمْ تقيدُ الحكمةَ، وبأعمالهمْ ينزجرُ أهلُ الغفلةِ، همْ أفضلُ منَ العبَّادِ، وأعلَى درجةً منَ الزُّهادِ، حياتهمْ غنيمةٌ، وموتهمْ مصيبةٌ، يذكِّرونَ الغافلَ، ويعلِّمونَ الجاهلَ، لَا يُتوقَّعُ لهمْ بائقةٌ، ولَا يُخافُ منهمْ غائلةٌ، بحسنِ تأديبهمْ يتنازعُ المطيعونَ، وبجميلِ موعظتهمْ يرجعُ المقصِّرونَ، جميعُ الخلقِ إلَى علمهمْ محتاجٌ ... إلَى أنْ قالَ: فهمْ سراجُ العبادِ، ومنارُ البلادِ، وقوامُ الأمَّةِ، وينابيعُ الحكمةِ، همْ غيظُ الشَّيطانِ، بهمْ تحيَا قلوبُ أهلِ الحقِّ، وتموتُ قلوبُ أهلِ الزَّيغِ، مثلهمْ فِي الأرضِ كمثلِ النُّجومِ يُهتدَى بهَا فِي ظلماتِ البرِّ والبحرِّ، إذَا انطمستِ النُّجومُ تحيَّرُوا، وإذَا أسفرَ عنهَا الظَّلامُ أبصرُوا[1].

---

(1) ((أخلاق العلماء)) (ص: 13).

ثمَّ ساقَ رحمهُ اللهُ تعالَى منْ نصوصِ الكتابِ والسنَّةِ وأقوالِ أهلِ العلمِ مَا يؤيِّدُ مَا ذكرهُ.

فالعلمُ لهُ منزلةٌ عاليةٌ، ومكانةٌ سامقةٌ، ومنْ أعظمِ مَا يبيِّنُ فضلهُ وعظمَ شأنهِ، قولُ اللهِ تعالَى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[المجادلة: 11].

قيلَ فِي تفسيرهَا: يرفعُ اللهُ المؤمنَ العالمَ علَى المؤمنِ غيرِ العالمِ، ورفعةُ الدَّرجاتِ تدلُّ علَى الفضلِ، إذِ المرادُ بهِ كثرةُ الثَّوابِ وبهَا تُرتفعُ الدَّرجاتُ، ورفعتهَا تشملُ المعنويَّةَ فِي الدُّنيَا بعلوِّ المنزلةِ وحسنِ الصيتِ، والحسيَّةِ فِي الآخرةِ بعلوِّ المنزلةِ فِي الجنَّةِ[1].

وكذلكَ قولُ اللهِ تعالَى: {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا}[طه: 114].

ودلالةُ هذهِ الآيةِ علَى فضلِ العلمِ ظاهرةٌ، لأنَّ اللهَ لمْ يأمرْ نبيَّهُ ﷺ بطلبِ الازديادِ منْ شيءٍ إلَّا منَ العلمِ، لمَا يترتَّبُ عليهِ منْ زيادةِ الإيمانِ والثَّباتِ عليهِ، قالَ تعالَى: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ}[آل عمران: 7].

وقالَ تعالَى: {لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ}[النساء: 162].

وقالَ تعالَى: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[آل عمران: 18].

---

(1) ((فتح الباري)) لابن حجر (141/1).

وهذهِ الآيةُ الأخيرةُ كتبَ فيهَا ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى بحثاً حافلاً بيَّنَ فيهِ دلالتهَا علَى فضلِ العلمِ منْ وجوهٍ كثيرةٍ جدًا، تربُو علَى مائةٍ وخمسينَ وجهاً، فِي كتابهِ "مفتاح دار السعادة"[1].

وقولُ النبيِّ ﷺ: "منْ يردِ اللهُ بهِ خيرًا يفقِّههُ فِي الدِّينِ"[2] فهذَا الحديثُ منْ أعظمِ مَا يُبيِّنُ فضلَ العلمِ وأهلهِ، قالَ ابنُ القيِّمِ: وهذَا يدلُّ علَى أنَّ منْ لمْ يفقِّههُ فِي دينهِ لمْ يردْ بهِ خيراً، كمَا أنَّ منْ أرادَ بهِ خيراً فقَّههُ فِي دينهِ، ومنْ فقَّههُ فِي دينهِ فقدْ أرادَ بهِ خيراً، إذَا أريدُ بالفقهِ العلمِ المستلزمِ للعملِ، وأمَّا إنْ أُريدَ بهِ مجرَّدَ العلمِ فَلَا يدلُّ علَى أنَّ منْ فَقِهَ فِي الدِّينِ فقدْ أُريدَ بهِ خيراً، فإنَّ الفقهَ حينئذٍ يكونُ شرطاً لإرادةِ الخيرِ وعلَى الأوَّلِ يكونُ موجباً واللهُ أعلمُ[3].

وكمَا تحدَّثنَا سابقًا، يجبُ أنْ يكونَ العملُ مقترنًا بالعلمِ وإنْ لَا فهوَ حجَّةٌ علَى صاحبهِ.

قالَ شيخُ الإسلامِ: ... ولهذَا يقالُ: العلمُ علمانِ: علمٌ فِي القلبِ، وعلمٌ علَى اللِّسانِ، فعلمُ القلبِ هوَ العلمُ النَّافعُ، وعلمُ اللِّسانِ هوَ حجَّةُ اللهِ علَى عبادهِ[4]، فالفقيهُ الذِي تفقَّهَ قلبهُ، غيرَ الخطيبِ الذِي يخطبُ بلسانهِ، وقدْ يحصلُ للقلبِ منَ الفقهِ والعلمِ أمورٌ عظيمةٌ، ولَا يكونُ صاحبهُ مخاطباً بذلكَ لغيرهِ، وقدْ يخاطبُ غيرهُ بأمورٍ كثيرةٍ منْ معارفِ القلوبِ وأحوالهَا، وهوَ عارٍ عنْ ذلكَ، فارغٌ منهُ[5].

(1) ينظر صـ 52 وما بعدها من كتاب مفتاح دار السعادة.

(2) أخرجه البخاري (71)، ومسلم (1037).

(3) ((مفتاح دار السعادة)) (ص: 65)، وانظر: ((الفتاوى)) (80/28).

(4) هذا من كلام الحسن البصري رحمه الله، أخرجه الدارمي (102/1) وغيره وذكره شيخ الإسلام في ((الفتاوى)) وعزاه للحسن انظر: (23/7).

(5) ((درء التعارض)) (453/7).

وبمَا تقدَّمَ يُعرفُ قدرُ العلمِ ومكانتهِ، وعظمِ منافعهِ وعوائدهِ، وقوَّةِ أثرهِ علَى قوَّةِ الإيمانِ وثباتهِ، وأنَّهُ أعظمُ أسبابِ زيادتهِ ونمائهِ وقوَّتهِ، وذلكَ لمنْ عملَ بهِ، بلْ إنَّ الأعمالَ إنَّمَا تتفاوتُ فِي زيادتهَا ونقصهَا، وقبولهضا وردِّهَا منْ جهةِ موافقتهَا للعلمِ ومطابقتهَا لهُ، كمَا قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: والأعمالُ إنَّمَا تتفاوتُ فِي القبولِ والردِّ بحسبِ موافقتهَا للعلمِ ومخالفتهَا لهُ، فالعملُ الموافقُ للعلمِ هوَ المقبولُ، والمخالفُ لهُ هوَ المردودُ؛ فالعلمُ هوَ الميزانُ، وهوَ المحكُّ[1].

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وكلُّ علمٍ وعملٍ لَا يزيدُ الإيمانَ قوَّةً فمدخولٌ...[2].

وزيادةُ الإيمانِ الحاصلةِ منْ جهةِ العلمِ تكونُ منْ وجوهٍ متعدِّدةٍ: منْ جهةِ خروجِ أهلهِ فِي طلبِ العلمِ، وجلوسهمْ فِي حلقِ الذِّكرِ، ومذاكرةِ بعضهمْ بعضاً فِي مسائلِ العلمِ، وزيادةِ معرفتهمْ باللهِ وشرعهِ، وتطبيقهمْ لمَا تعلَّموهُ، وفيمنْ تعلَّمَ منهمُ العلمَ لهمْ فيهِ أجرٌ، فهذهِ جوانبُ متعدِّدةٌ يزدادُ بهِ الإيمانُ بسببِ العلمِ وتحصيلهِ.

قالَ ابنُ رجبٍ: فمتَى كانَ العلمُ نافعاً ووقرَ فِي القلبِ فقدْ خشعَ القلبُ للهِ وانكسرَ لهُ وذلَّ هيبةً وإجلالاً وخشيةً ومحبَّةً وتعظيماً، ومتَى خشعَ القلبُ للهِ وذلَّ وانكسرَ لهُ قنعتِ النَّفسُ بيسيرِ الحلالِ فِي الدُّنيَا وشبعتْ بهِ فأوجبَ لهَا ذلكَ القناعةَ والزُّهدَ فِي الدُّنيَا ... وأوجبَ لهُ علمهُ المسارعةَ إلَى مَا فيهِ محبَّةَ اللهِ ورضاهُ والتَّباعدَ عمَّا يكرههُ ويسخطهُ[3].

(1) ((مفتاح دار السعادة)) (ص: 89).
(2) ((الفوائد)) (ص: 162).
(3) ((فضل علم السلف على علم الخلف)) (ص: 46) بتقديم وتأخير في النقل.

مطلب

فِي الإعرضِ عنْ تعلُّمِ العلمِ النَّافعِ

إنَّ الإعراضَ عنْ تعلُمِ علمِ اللهِ تعالَى مصيبةٌ كبيرةٌ للفردِ والمجتمعِ، ولهَا أثارٌ سلبيَّةٌ تقودُ إلَى التَّهلكِ فِي الدُّنيا والآخرة، وقبلَ الخوضِ فِي هذَا المطلبِ نستعرضُ، بعضَ الأحاديثِ، لتكونَ أصلًا نبنِي عليهِ فروعَ المطلبِ:

1) عنْ أنسٍ بنِ مالكٍ قالَ: لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لا يُحَدِّثُكُمْ أحَدٌ بَعْدِي، سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: "مِن أشْراطِ السَّاعَةِ: أنْ يَقِلَّ العِلْمُ، ويَظْهَرَ الجَهْلُ..."[1].

2) وفِي روايةٍ أخرَى: "لا تَقومُ السَّاعةُ حتى يُرفَعَ العِلمُ، ويَظهَرَ الجهلُ..."[2].

3) وفِي روايةٍ: "لا تَقومُ السَّاعةُ حتى يُقبَضَ العِلْمُ، ويَظهَرَ الجَهلُ[3]".

4) وعنْ أنسٍ بنِ مالكٍ قالَ: "قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ، وإِنَّ طالبَ العلمِ يستغفِرُ له كلُّ شيءٍ، حتى الحيتانِ في البحرِ"[4].

5) وعنْ أبِي هريرةَ وابنِ مسعودٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "الدُّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلا ذكرَ اللهِ ومَا والاهُ، وعالِمًا أو متعلمًا"[5].

---

(1) أخرجه البخاري (81)، ومسلم (2671).

(2) تخريج المسند الصفحة 13883 إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(3) تخريج المسند 9527 صحيح.

(4) أخرجه ابن ماجه (224) أوله في أثناء حديث، والبزار (6746) مختصراً، وابن عبدالبر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (17) واللفظ له.

(5) صحيح الجامع 3414.

6) وعنْ أبِي واقدٍ اللَّيثِي: أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ بيْنَمَا هوَ جَالِسٌ في المَسْجِدِ والنَّاسُ معهُ إذْ أقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فأقْبَلَ اثْنَانِ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وذَهَبَ واحِدٌ، قالَ: فَوَقَفَا علَى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فأمَّا أحَدُهُمَا: فَرَأَى فُرْجَةً في الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وأَمَّا الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وأَمَّا الثَّالِثُ: فأدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ قالَ: ألَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أمَّا أحَدُهُمْ فأوَى إلى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ منه، وأَمَّا الآخَرُ فأعْرَضَ فأعْرَضَ اللَّهُ عنْه[1].

وَلَا نطيلُ فِي سردِ الأحاديثِ ونكتفِي بشرحِ مَا سبقَ.

فأمَّا الحديثُ الأوَّلُ: فقدْ أشارَ المعلِّمُ ﷺ أنَّ منْ جملةِ أشراطِ السَّاعةِ أن يقلَّ العلمُ، فكلَّمَا قلَّ العلمُ اقتربتِ السَّاعةُ فإذَا مَا عُدمَ العلمُ منَ الأرضِ قامتِ السَّاعةُ، والدَّليلُ علَى ذلكَ:

الحديثُ والثَّاني والثَّالثُ: وفيهمَا "لَا تقومُ السَّاعةُ حتَّى يُرفعُ العلمُ"، ولَا تقومُ السَّاعةُ حتَّى يُقبَضَ العِلْمُ" فكأنَّ قيامَ السَّاعةِ مقيَّدٌ بزوالِ العلمِ منَ الأرضِ، وكيفَ لَا والعملُ مقيَّدٌ بالعلمِ فبلَا علمٍ لَا يُدرَى مَا الصَّلاةُ ولَا الزَّكاةُ ولَا الصَّومُ والحجُّ بلْ بلَا علمٍ لَا يُدرَى معنَى لَا إلهَ إلَّا اللهُ، ودليلهُ قولهُ ﷺ: يَدْرُسُ الإسلامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوبِ، حتَّى لَا يُدرَى مَا صيامٌ و لَا صلاةٌ و لَا نُسُكٌ ولا صدقةٌ، وليَسْرِى على كتابِ اللهَ عزَّ وجلَّ في ليلةٍ فلَا يبقَى فِي الأرضِ منهُ آيةٌ، وتبقَى طوائفٌ منَ النَّاسِ: الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ، يقولونَ: أدْرَكْنا آباءَنَا علَى هذهِ الكلمةِ: "لا إلهَ إلا اللهُ"، فنحنُ نقولُها[2].

---

(1) صحيح البخاري.

(2) رواه حذيفة بن اليمان وأخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة وقال: صحيح على شرط مسلم.

ومَا تنفعُ الدُّنيَا وقدْ بلغَ أهلهَا هذَا المبلغِ، فزوالهَا أولَى لهَا، فهؤلاءِ النَّاسِ همْ بدايةُ شرارِ الخلقِ الذِينَ تقومُ عليهمُ السَّاعةُ، ودليلهُ قولهُ ﷺ: "تقومُ السَّاعةُ أوْ لَا تقومُ السَّاعةُ إلَّا علَى شرارِ النَّاسِ"[1].

وقولهُ تقومُ السَّاعةُ أوْ لَا تقومُ: هذَا منْ حسنِ أدبِ الصَّحابةِ حالَ سردِ حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ فإنَّ الرَّاوِي ينسَى اللَّفظَ علَى أصلهِ أحيانًا ويتذكَّرُ لفظينِ متقاربينِ فيذكرهمَا فيقولُ تقومُ السَّاعةُ أولَا تقومُ السَّاعةُ، أيْ تقومُ السَّاعةُ علَى شرارِ الخلقِ، أو لَا تقومُ السَّاعةُ إلَّا علَى شرارِ الخلقِ، والمعنَى واحدٌ.

وبهذَا الحديثِ الأخيرِ يتبَّنُ أنَّ السَّاعةُ لَا تقومُ حتَّى يُرفعَ العلمُ بالكليَّةِ ولَا يبقَى شخصُ يذكرُ كلمةَ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، فيفنَى جيلُ الشُّيوخِ والعجَّزِ الذينَ يذكرونَ كلمةً سمعوهَا منْ آبائهمْ وهي لَا إلهَ إلَّا اللهُ، فإذَا كانَ الجيلُ الذِي يليهمْ ونسُوا تلكَ الكلمةِ قامتْ عليهمُ السَّاعةُ، ودليلهُ قولهُ ﷺ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ علَى أَحَدٍ يقولُ: اللَّهُ، اللَّهُ"[2].

ونخلصُ منْ كلِّ هذَا أنَّ بدايةُ الطَّامةِ هوَ الإعراضُ عنْ علمِ اللهِ تعالَى، فينجرُ عنهُ ولابدَّ الإعراضُ عنِ العملِ، وكيفَ يعملُ وهوَ لَا يعلمُ؟ فكيفَ سيوحِّدُ اللهَ وكيفَ سيصلِّي ويصومُ؟ ونخرجُ منْ هذهِ الأحاديثِ الثَّلاثةِ بأحكامٍ كثيرةٍ،

أوَّلهَا: أنَّ منْ لَا علمَ لهمْ همْ شرارُ الخلقِ إنْ كانَ عدمُ عِلمِهمُ سببهُ الإعرضُ، ولَا همَّ إنْ كانَ سببُ الإعراضِ هوَ الكِبْرُ أوْ اللَّهوُ.

---

(1) رواه عبدالله بن مسعود في مسند أحمد: 91/6 وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(2) رواه أنس بن مالك وأخرجه مسلم في صحيحه رقم: 148.

والثَّانِي: أنَّ قيامَ قيامَ السَّاعةِ مرتبطٌ بزوالِ العلمِ.

والثَّالثُ: أنَّ فِي قلَّةِ العلمِ ظهورُ نقيضهِ وهوَ الجهلُ ومَا ينجرُ عنهُ منْ تحليلِ المحرَّماتِ وغيرِ ذلكَ.

أمَّا الحديثُ الرَّابعُ: وفيهِ قولهُ ﷺ: "طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ" والحديثُ صحيحٌ فقدْ رواهُ أئمَّةُ الحديثِ وصحَّحهُ الألبانيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى، فقولهُ ﷺ "فريضةٌ" هوَ منْ صيَغِ الوجوبِ أيِ الأمرِ، فتوجدُ ألفاظٌ كثيرةٌ تدلُّ علَى الوجوبِ فِي الكتابِ والسنَّةِ أهمُّها:

صيغة الأمرِ بلفظِ الإنشاءِ أي: الطلبِ، بفعلِ الأمرِ (افْعَلْ) كقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}[الأنعام: 72].

المضارعُ المجزومِ بلامِ الأمرِ كقولهِ تعالَى: {فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا}[النساء: 9].

اسمُ فعلِ الأمرِ كقولهِ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}[المائدة: 105]، (عليكم) اسمُ فعلِ أمرٍ.

المصدرُ النَّائبُ عنْ فعلِ الأمرِ (أيِ: الذِي قامَ مقامَ فعلِ أمرٍ، كقولهِ تعالَى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ}[محمد:4].

صيغةُ (كتبَ) و(كُتِبَ)، كقولهِ ﷺ: "إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ..."[1].

---

(1) أخرجه مسلمٌ من حديثِ شدَّاد بنِ أوسٍ.

وقولهُ تعالَى: {يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}[البقرة :183].

صيغةُ (يوصيكمْ) و(فُرِضَ) منهَا قولهُ تعالَى: {يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}[النساء: 11].

وغيرِ ذلكَ منْ صيغِ الأمرِ تجدونهَا فِي مظانهَا منْ كتبِ أصولِ الفقهِ.

وبهذَا يكونُ قولهُ ﷺ: "طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ"، أمرٌ والأمرُ يقتضِي الوجوبَ أيِ اللُّزومُ، والسؤالُ هلْ طلبِ العلمِ فريضةٌ عينيَّةٌ أوْ كفائيَّةٌ؟

الجواب: منَ العلمِ الشَّرعِي مَا هوَ فرضُ عينِ علَى كلِّ مكلَّفٍ، وهوَ معلومٌ منَ الدِّينِ بالضَّرورةِ، كتعلُّمِ العقيدةِ وأنواعِ المياهِ والوضوءِ والصَّلاةِ والصَّومِ والحجِّ، ومنهُ مَاهوَ منْ فروضِ الكفايةِ كفروعِ علمِ الشَّرعيةِ منْ بيوعٍ والجناياتِ ونكاحٍ إلَى سائرِ العلومِ النَّافعةِ، وكذلكَ علومُ الآلةِ فهوَ منَ فروضِ الكفاياتِ، كالنَّحوِ والصَّرفِ واللُّغةِ والبلاغةِ والأصولِ والقواعدِ وغيرهَا، ويبقَى أمرٌ فِي مَا يخصُّ فروعَ العلمِ الشَّرعيِّ أنَّهُ فِي أصلهِ منْ فروضِ الكفايةِ ولكنَّهُ يدورُ حولَ حالِ المكلَّفِ، مثالٌ: علمُ أحكامِ الأسرةِ منْ نكاحٍ وظهارٍ وإيلاءٍ وطلاقٍ وغيرهِ، هوَ فِي أصلهِ فرضُ كفايةٍ، ولكنْ إنْ أرادَ المسلمُ الزَّواجَ وجبَ عليهِ تعلُّمُ مَا يكفيهِ

منْ هذَا، لكيْ لَا يقعَ فِي كبيرةٍ دونَ علمٍ أوْ يُطلِّقَ زوجتهُ ولَا يدرِي مَا الرَّجعةُ وكيفَ هيَ وتمرُّ قروءُ العدَّةِ ثمَّ يرجعُ إليهَا دونَ عقدٍ جديدٍ وهيَ قدْ بانتْ بينونةً صغرى، فيقعُ فِي الزِّنَا وإيَّاهَا دونَ علمٍ، وكذلكَ علمُ البيوعِ هوَ فِي أصلِ منْ فروضِ الكفاياتِ، ولكنْ أنْ أرادَ المسلمُ أنْ يتاجرَ وجبَ عليهِ تعلُّمُ مَا يكفيهِ منهُ كيْ لَا يقعَ فِي مثلِ مَا وقعَ فيهِ السَّابقُ، وكذلكَ الحدودُ والجناياتُ، فيحرمُ شرعًا أنْ يتقلَّدَ مسلمٌ منصبَ القاضِي بلَا علمٍ بالجناياتِ.

ونخرجُ منْ هذَا أنَّ العلمِ الشَّرعِي علَى قسمينِ منهُ فرضُ عينٍ ومنهُ فرضُ كفايةٍ، وأمَّا فرضُ الكفايةِ فهوَ فِي يدورُ معَ حالِ المكلَّفِ كمَا سبقَ وبيَّنَا.

وإنْ أعرَضَ عنِ العلمِ النَّافعِ كُرهًا فيهِ فقدْ خرجَ منَ الملَّةِ قولًا واحدًا والأدلَّةُ علَى ذلكَ كثيرةٌ جدًا، ويفِي أنْ نقولَ أنَّ العلمَ النَّافعَ هوَ علمُ الكتابِ والسنَّةِ فإنْ أبغَضَ هذَا العلمَ أبغضَ الكتابَ والسَّنةَ، وكرههمَا مخرجٌ منَ الملَّةِ، قالَ تعالَى: {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}[محمد: 9]، قالَ السَّعدِي: ذلكَ الإضلالُ والتّعسُ للذِينَ كفرُوا، بسببِ أنَّهمْ (كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)[1].

وبهِ قالَ ابنُ عبدِ الوهَّابِ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي النَّاقضِ الخامسِ، قالَ: منْ أبغضَ شيئاً ممَّا جاءَ بهِ الرُّسولُ ﷺ ولوْ عملَ بهِ فقدْ كفرَ لقولهِ تعالَى {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}[محمد: 9][2]، وقدْ ذكرتُ هذَا

(1) تفسير السعدي.

(2) نواقض الإسلام لمحمد بن عبد الوهاب.

النَّاقضَ فِي بيتين فقلت:

والهاء: بغضُ ما أتى بهِ الرَّسولْ * كأنَّهُ لا يدري ما المنزولْ

مرتدٌّ هالكٌ لا مِريـــــــــــــــةِ * وإن تمسَّك بدربِ السنَّةِ

وبهذَا القولِ قالَ علماءُ الأمَّةِ وعامَّتهَا إلَّا منْ ضلَّ الصَّوابَ[1].

وأمَّا الحديثُ الخامسُ: فقالَ فيهِ رسولَ اللهِ ﷺ: "الدُّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلَّا ذكرَ اللهِ وما والاه، وعالِمًا أو متعلمًا".

واللَّعنُ لغةً:

الطَّردُ والإبعادُ علَى سبيلِ السَّخطِ، أوِ الطَّردِ، والإبعادِ منَ الخيرِ، وكلاهمَا بمعنًى واحدٍ، لكنْ قدْ يختلفُ المعنَى بحسبِ قائلِ اللَّعنِ:

فإذَا كانتِ اللَّعنةُ منَ اللهِ تعالَى فِي الآخرةِ؛ فهيَ العقوبةُ والعذابُ والطَّردُ منْ رحمتهِ.

وإذَا كانتْ منهُ سبحانهُ فِي الدُّنيَا؛ فهيَ انقطاعٌ منْ قبولِ رحمتهِ وتوفيقهِ.

وإذَا كانتْ منَ الإنسانِ؛ فهيَ بمعنَى الدُّعاءِ علَى غيرهِ.

وقدْ تكونُ منَ الإنسانِ بمعنَى السبِّ لغيرهِ[2].

والذِي يتعلَّقُ بالحديثِ السَّابقِ بشكلٍ خاصٍ هوَ اللَّعنُ منَ الإنسانِ؛ إمَّا بمعنَى الدُّعاءِ عليهِ بالطَّردِ والإبعادِ منْ رحمةِ اللهِ علَى المعنَى الأقوَى، أوْ بمجرَّدِ السبّ علَى مَا ذكرهُ ابنُ منظورٍ بصيغةِ التَّضعيفِ.

---

(1) منظومة نواقض الإسلامِ لأبي فاطمة عصام الدين.

(2) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (5/252-253)؛ لسان العرب لابن منظور: (13/387)؛ مفردات ألفاظ القرآن للأصبهاني، ص: (741)؛ المصباح المنير للفيومي، ص: (212)، كلهم مادة لعن.

اللَّعنُ اصطلاحاً:

جاءَ فِي "المفهمِ للقرطبِي" قالَ: وهوَ فِي الشَّرعِ البعدُ عنْ رحمةِ اللهِ تعالَى وثوابهِ إلَى نارهِ وعقابهِ[1].

وقدْ عرَّفهُ ابنُ عابدينَ نقلاً عنِ القُهُستان رحمهمَا اللهُ تعالَى[2] بقولِهِ: وشرعاً فِي حقِّ الكفارِ: الإبعادُ عنْ رحمةِ اللهِ، وفِي حقّ المؤمنينَ: الإسقاطُ عنْ درجةِ الأبرارِ[3].

وموضوعنَا كمَا قلتُ هوَ لعنُ الإنسانِ فقولهُ ﷺ: "الدُّنيَا ملعونةٌ، ملعونٌ مَا فيهَا" والدُّنيَا ومَا فيهَا أيْ كلَّهَا، والدُّنيَا فِيهَا الكافرُ وفيهَا المسلمُ، فتكونُ اللعنةُ للكافرينَ فيهَا إبعادهمْ عنْ رحمةِ اللهِ تعالَى وللمسلمينَ سقوطهمْ منْ درجةٍ عليَا، ثمَّ جاءَ الاستثناءُ بقولهِ ﷺ: "إلَّا ذكرَ اللهِ ومَا والاهُ، وعالِمًا أوْ مُتعلِّمًا" فهذَا الاستثناءُ يُري مُبصِرَهُ هولَ موقفِ المنصرفِ عنِ ذكرِ اللهِ وعلمهِ، ولكنَّ الأهمَّ أنَّ العلمَ النَّافعَ منْ جملةِ ذكرِ اللهِ تعالَى ومَا والاهُ، وجاءَ الخطابُ معطوفًا بالنَّصبِ علَى ذكرِ اللهِ تعالَى، فذكرُ اللهِ لفظٌ عامٌ، والعالمُ والمتعلِّمُ لفظٌ خاصٌ، وكمَا هوَ معلومٌ أنَّ عطفَ الخاصِ علَى العامِ يُعطِي الخاصَّ فضلًا ومزيَّةً علَى غيرهِ، قالَ ابنُ المنيرِ رحمهُ اللهُ تعالَى: عطفُ الخاصِ علَى العامِ يؤذِّنُ بمزيدِ اعتناءِ بالخاصِ لَا محالةَ، إذَا اقتصرَ علَى بعضِ متناولاتِ العامِ؛ لأنَّ الاقتصارَ علَى تخصيصِ مَا يُفردُ بالذِّكرِ يفيدهُ تمييزًا عنْ غيرهِ منْ بقيَّةِ المتناولاتِ[4].

---

(1) المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم للقرطبي أبي العباس: (579/6).

(2) محمد القُهُستاني، شمس الدين ت 95 هـ فقيه حنفي، كان مفتياً ببخارى، الأعلام للزركلي: (11/7).

(3) حاشية ابن عابدين: (416/3).

(4) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف – لابن المنير الإسكندري.

وقالَ السُّيوطِي رحمهُ اللهُ تعالَى: فائدتهُ التَّنبيهُ علَى فضلهِ، حتَّى كأنَّهُ ليسَ منْ جنسِ العامِ، تنزيلًا للتَّغايرِ فِي الوصفِ منزلةَ التَّغايرِ فِي الذَّاتِ"[1].

ومثالهُ فِي قرآنٍ قولهُ عزَّ وجلَّ: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ}[البقرة: 98]، فقولهُ سبحانهُ: (وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) عطفٌ علَى (المَلَائِكةِ) منْ بابَ عطفِ الخاصِ علَى العامِ؛ وذلكَ لأنَّ جبريلَ وميكالَ منْ جملةِ عمومِ الملائكةِ، ولكنْ مَا السَّببُ فِي إفرادِ جبريلَ وميكالَ بالذِّكرِ وهمْ منْ جملةِ والملائكةِ ومنْ جملةِ الرُّسلِ؟

الجَّوابُ هوَ: التَّنبيهُ علَى فضلهمَا وتميُّزهمَا عنْ غيرهمَا.

وكذلكَ الأمرُ فِي عطفِ العالمِ أوِ المتعلِّمِ علَى ذكرِ اللهِ تعالَى ومَا والاهُ، فهوَ منْ بابِ عطفِ الخاصِ علَى العامِ بيانًا لفضلِ العلمِ منْ عمومِ ذكرِ اللهِ وأنَّهُ عمودهُ وذروةُ سنامهِ ورأسُ الأمرِ فِي التقرُّبِ منَ اللهِ تعالَى.

وبهِ قالَ الأشرفِي: المرادُ بمَا يوالِي ذكرَ اللهِ: طاعتهُ واتِّباعُ أمرهِ، وتجنُّبِ نهيهِ؛ لأنَّ ذكرَ اللهِ يقتضِي ذلكَ، وعالمًا أوْ متعلِّمًا أيْ: هيَ ومَا فيهَا مبعدٌ عنِ اللهِ تعالَى إلَّا العلمَ النافعَ الدَّالِ علَى اللهِ، فهذَا هوَ المقصودُ منهَا، قولهُ: عالمَا أوْ متعلِّمًا بالنَّصبِ عطفًا علَى ذكرِ اللهِ كأنَّهُ قيلَ: الدُّنيَا مذمومةٌ لَا يحمدُ ممَّا فيهَا إلَّا ذكرُ اللهِ، وعالمٌ ومتعلِّمٌ، وكانَ حقَّ الظَّاهرِ أنْ يكتفِي بقولهِ: ومَا والاهُ؛

(1) معترك الأقران في إعجاز القران المؤلف : السيوطي، جلال الدين.

لاحتوائهِ علَى جميعِ الخيراتِ والفاضلاتِ، ومستحسناتِ الشَّرعِ، لكنَّهُ خصَّصَ بعدَ التَّعميمِ دلالةً علَى فضلِ العالمِ والمتعلِّمِ، وتفخيمًا لشأنهمَا صريحًا، وإيذانًا بأنَّ جميعَ النَّاسِ سِواهمَا همجٌ، وتنبيهًا علَى أنَّ المعنَى بالعالمِ والمتعلِّمِ العلماءُ باللهِ، الجامعونَ بينَ العلمِ والعملِ فيخرجُ الجهلاءُ، وعالمٌ لمْ يعملْ بعلمهِ، ومنْ يعملُ عملَ الفضولِ ومَا لَا يتعلَّقُ بالدِّينِ، وفيهِ أنَّ ذكرَ اللهِ أفضلُ الأعمالِ، ورأسُ كلِّ عبادةٍ، والحديثُ منْ كنوزِ الحكمِ وجوامعِ الكلمِ، لدلالتهِ بالمنطوقِ علَى جميعِ الخلالِ الحميدةِ، وبالمفهومِ علَى رذائلهَا القبيحةِ[1].

وأمَّا الحديثُ السَّادسُ: فقدْ قالَ فيهِ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: (ألَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أمَّا أحَدُهُمْ فأوَى إلى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ منه، وأَمَّا الآخَرُ فأعْرَضَ فأعْرَضَ اللَّهُ عنْه) وهمُ ثلاثتهمْ حضرُوا مجلسَ علمٍ، لقولِ الرَّاوي: (أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ بيْنَمَا هوَ جَالِسٌ في المَسْجِدِ والنَّاسُ معهُ) والنَّاسُ معهُ يلتمسونَ منهُ العلمَ والفهمَ والإرشادَ، وهؤلاءِ الثَّلاثةُ أحدهمْ رأَى فُرجةً فِي الحلقةِ فسارعَ لعلمِ اللهِ تعالَى وأقبلَ عليهِ بكلِّهِ فأقبلَ اللهُ عليهِ وآواهُ، وأمَّا الثَّانِي جلسَ خلفَ الحلقةِ يستمعُ الحكمةِ ويتعلَّمُ منْ علمِ اللهِ تعالَى ولكنَّهُ استحَيا منَ اللهِ تعالَى فاستحَيا اللهُ تعالَى منهُ، وأمَّا الأخيرُ فلمْ يأبهْ للعلمِ ولمْ يرفعْ بهِ رأسًا وأدبرَ وأعرضَ عنهُ فأعرضَ اللهُ عنهُ والعياذُ باللهِ، ونخرجُ منْ هذَا الحديثِ المباركِ بفوائدَ لَا تُحصَى ولَا تُعدُّ:

---

(1) فيض القدير شرح الجامع الصَّغير للمناوي.

أوَّلها: أنَّ من أقبلَ علَى اللهِ تعالَى وآوَا إليهِ أقبلَ اللهُ عليهِ وآواهُ لامحالةَ، ويشهدُ لهُ حديثٌ مباركٌ دمعُ لهُ العيونُ يقولُ اللَّهُ تَعالَى علَى لسانِ رسولهِ ﷺ فِي حديثٍ قدسيٍّ مباركٍ: أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وأنَا معهُ إذا ذَكَرَنِي، فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعًا، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِراعًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ باعًا، وإنْ أتانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً[1].

وبمفهومِ الموافقةِ فكذلكَ منْ أرادَ العلمَ لوجهِ اللهِ علَّمهُ اللهُ تعالَى، وبمفهومِ المخالفةِ منْ أعرضَ عنْ علمِ اللهِ أعرضَ اللهُ عنهُ، فالجزاءُ منْ جنسِ العملِ.

والفائدةُ الثَّانيةُ: أنَّ الحياءَ لَا يمنعُ منْ طلبِ العلمِ، بلْ طلبُ العلمِ إذَا كانَ معهُ حياءٌ زادتْ بركتهُ وارتفعتْ درجةُ طالبهِ، والحياءُ منْ بابِ التواضعِ ويشهدُ لهُ قولهُ ﷺ: ... ومَا تواضعَ عبدُ للهِ إلَّا رفعهُ[2].

والفائدةُ الثَّالثةُ: أنَّ الشرَّ كلَّ الشرِّ فِي الإعراضِ عنْ علمِ اللهِ تعالَى، بلْ علَى العاقلِ أنْ يشغلَ كلَّ يومهِ وليلهِ بطلبِ العلمِ النَّافعِ، فإنْ لمْ يستطعْ فكلَّ وقتَ فراغهِ، فإنْ لمْ يستطعْ فليُخصِّصْ سُويْعاتٍ منْ يومهِ، هذَا حتَّى وإنْ طلبَ العلمَ ولمْ يُتقنهُ لمظنَّة قولهِ ﷺ: منْ طلبَ علمًا فأدركَهُ كتبَ اللَّهُ لَهُ كفلينِ منَ الأجرِ، ومنْ طلبَ علمًا فلمْ يدركْهُ كتبَ اللَّهُ لَهُ كفلًا منَ الأجرِ[3]. (الحديث فيه كلام – ينظر الحاشية)

---

(1) صحيح رواهُ أبو هريرة وأخرجه البخاري في صحيحه 7405 ومسلم 2675 باختلاف يسير.

(2) رواهُ أبو هريرة وأخرجه مالك في الموطأ (1000/2).

(3) رواه واثلة بن الأسقع الليثي أبو فسيلة – الترغيب والترهيب 75/1 – رواته ثقات، وثَّقهم الهيثمي في مجمع الزَّائد – وفيهم كلام. وضعَّفه غيرُ واحدٍ منهم الألباني وابن حجر وقال البوصيري في "إتحاف الخيرة المهرة": إسناده ضعيف لضعف يزيد بن ربيعة الدمشقي (انتهى كلام البوصيري)، وقيلَ أنَّ الأصلَ فيهِ موقوفٌ علَى واثلة بن الأسقع، قال ابن حبان في "المجروحين": فيه مجاشع بن يوسف يقلب الأسامي في الأخبار ويرفع الموقوف من الآثار لا تحل كتابة حديثه رفعه وهو قول واثلة (انتهى كلام ابن حجر). وحتى إن كان

الحديث ظعيفًا بضعف يزيد ابن ربيعة، فإنَّه يشهدُ على معناه حديثُ "الماهر بالقرآن" فيرتقِي بذلكَ إلى الحسنِ لغيرِهِ، والحديثُ يشهدُ لمعناهُ عدَّةٌ من الأحاديثِ والآياتِ منهَا قولهُ تعالَى: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}[البقرة: 196] قال القرطبي: لا إشكال فيها (أي معنى: الإحصار)، ونحن نبيُّنها غاية البيان فنقول: الإحصار هو المنع من الوجه الذي تقصده بالعوائق جملة، أي بأي عذر كان، كان حصر عدو أو جور سلطان أو مرض أو ما كان. (انتهى كلام القرطبي) فلمَّا تبيَّن أنَّ معنَى الإحصار هو المنع من فعل القربى مع العزمِ على فعلهَا، وأنَّ من أحصر فقدْ وقع أجره على الله تعالى لقولهِ تعالَى: {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}[النساء: 10] قال ابن كثير: ومن خرج من منزله بنية الهجرة، فمات في أثناء الطريق، فقد حصل له من الله ثواب من هاجر، (انتهى كلام ابن كثير)، وكذلك من طلبَ علمًا فلم يدركهُ بأيِّ مانعٍ كانَ كبلادةِ الذهنِ وصعوبةِ الفهمِ أو بعد المسافة أو عذر كان فقد وقعَ أجرهُ علَى اللهِ تعالَى، ومن الأحاديث قوله ﷺ: "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى" (رواه البخاري)، ومنهُ قولهُ ﷺ: "إِنَّ أَقْوَامَاً خلْفَنَا بالمدِينةِ مَا سَلَكْنَا شِعْباً وَلاَ وَادِياً إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا، حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ" (رواه البخري)، وبهذَا يكون من طلب علمًا فلم يدركه وهو عازمٌ على طلبه، فهوَ كمن أراد الحج وأحصر وكالذي أراد الهجرة فمات في الطريق وكالمجاهد الذي أراد الجهاد ومنعه العذر، فإنما الأعمال بالنِّيات وثبت أجره ونرجو أن يحشر يومَ القيامة في زمرة أهل العلم، وبهذَا يكون الحديث حسنًا لغيرِهِ إن شاء الله تعالَى ويجوز الإخبار به، وإنْ كان الحديثُ ضعيفًا بضعف مشاجع بن يوسفَ، فيُحمل الحديث على الوقف لا على الرَّفع، ويصبحُ الحديث حسنا لغيرِهِ موقوفًا على واثلةَ، ولكن للعلمِ أنَّ الصَّحابةَ إذَا تحدَّثوا علَى الغيبِ والأجورِ تُحملُ أحاديثهم على الرَّفع، فإن قول الصحابي الذي لا مجال فيه للاجتهاد ولا له علاقة بلغة العرب له حكم الرفع، وذلك مثل الإخبار عن الأمور الماضية وقصص الأنبياء، والملاحم والفتن، وأحوال الآخرة، والإخبار عن ثواب مخصوص أو عقاب مخصوص فكل هذا مما يحكم له بالرفع، لأنه لا مجال فيه للاجتهاد، ومن ذلك: حكمه على فعل من الأفعال بأنه طاعة لله أو لرسولهﷺ أو معصية (انظر نزهة النَّظر صـ 53 وتدريب الراوي صـ 121) وواثلة رضي اللهُ عنه تحدَّث عن الجزاء والأجر بقوله: "ومنْ طلبَ علمًا فلمْ يدرِكْهُ كتبَ اللَّهُ لَهُ كفلًا منَ الأجرِ" وهذَا ممَّا لَا مجالَ فيهِ للإجتهاد ولا للرأي، ويستحيلُ أنْ يقعَ صحابيٌّ في مثلِ هذَا وأن يقولَ على الله تعالَى بعلمٍ، ونخرج من هذا المبحث، أنَّ ضعف الحديثِ بضعفِ يزيد بن ربيعة فقدْ حسنَ بغيرِهِ من شواهد الآيات والأحاديثِ وإنْ كانَ الحديثُ ضعيفًا بضعف مشاجعِ لأنه يرفع الموقوفَ فبمَا سبقَ نرى أنَّ الحديث مرفوعٌ حكمًا بما بينَّا سابقًا، ونخرجُ منْ هذا المبحث بأنَّ الحديثَ مرفوع حكما وهو حسنٌ لغيرِهِ ويجوز بهذَا روايتهُ والاستدلالُ بهِ، وما نظن إلَّا ظنًّا وما نحن بمستيقنين، واللهُ أعلمُ.

وقياسًا علَى قولهِ ﷺ: الماهِرُ بالقُرآنِ مع السَّفَرةِ الكِرامِ البَرَرةِ، والذي يَقرَؤُه وهوَ يَشُقُّ عليهِ لهُ أجْرُهُ مرَّتَينِ[1].

فيجبُ علَى المؤمنِ أنْ يطلبَ العلمَ ويحاولَ الفهمَ، فإنْ لمْ يدركهُ فهمهُ فقدْ برئتْ ذمَّتهُ ونالَ أجرهُ وبركتهُ.

---

(1) روته عائشة أم المؤمنين وأخرجه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند 26028 وقال إسناده صحيح على شرط الشيخين.

ثمَّ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: لفظُ "الأمَّةِ" فِي القرآنِ علَى أربعةِ أوجهٍ: يرادُ بِهِ "الطَّائفةُ منَ النَّاسِ" وهوَ الغالبُ، ويرادُ بِهِ "المدَّةُ"، ويرادُ بِهِ "الدِّينُ" و "الملَّةُ"، ويرادُ بهِ "الإمامُ" فِي الخيرِ.

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ وردَ لفظُ الأمَّةِ فِي القرآنِ مرارًا منهَا قولهُ تعالَى:{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}[البقرة: 128].

وقولهُ سبحانهُ: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ}[البقرة: 134].

وقولهُ جلَّ جلالهُ: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ}[البقرة: 143].

وقولهُ سبحانهُ وتعالَى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ}[البقرة: 213].

وقولهُ جلَّ منْ قائلٍ: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ}[آل عمران: 104].

وقولهُ تباركَ وتعالَى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ}[آل عمران: 110].

وقولهُ جلَّ وعلاَ: {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ}[آل عمران: 113].
~~~~~~~~~~~

{معنى الأمة}

المعنَى اللُّغوي للأمَّةِ:

الأمَّةُ مشتقَّةٌ منْ (أم) وجذرُ هذهِ المادَّةِ، كمَا قالَ ابنُ فارسٍ: الهمزةُ والميمُ أصلٌ واحدٌ، يتفرَّعُ منهُ أربعةُ أبوابٍ، وهيَ: الأصلُ والمرجعُ والجماعةُ والدِّينُ، وهذهِ الأربعةُ متقاربةٌ، وبعدَ ذلكَ أصولٌ ثلاثةٌ، وهيَ القامةُ والحينُ والقصدُ[1]، والأمَّةُ فِي الأصلِ راجعةٌ إلَى القصدِ، وهيَ: الجماعةُ التِي تقصدُ الأمرَ بتضافرٍ وتعاونٍ[2].

وقالَ ابنُ قتيبةَ: أصلُ الأمَّةِ: الصنفُ منَ النَّاسِ والجماعةُ[3].

وقالَ الكفوِي: الأمَّةُ فِي الأصلِ: المقصودُ، كالعمدةِ والعدَّةِ فِي كونهمَا معمودًا ومعدًّا، وتسمَّى بهَا الجماعةُ منْ حيثُ تؤمُّهَا الفرقُ، كقولهِ تعالَى: {أُمَّةٌ مِن النَّاسِ يَسْقُونَ}[القصص: 23][4].

وكلُّ مشتقَّاتِ هذهِ المادَّةِ ترجعُ إلَى معنَى القصدِ، ولَا يخرجُ شيءٌ منهَا عنْ ذلكَ[5].

---

(1) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/٢١.

(2) انظر: الوجوه والنظائر، العسكري ص ٣١.

(3) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٢٤٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ١٤٢.

(4) الكليات، الكفوي ص ١٨١.

(5) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/٢٧.

المعنَى الاصطلاحِي للأمَّةِ:

قالَ الرَّاغبُ الأصفهانِي: والأمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعهمْ أمرٌ مَا إمَّا دينٌ واحدٌ، أوْ زمانٌ واحدٌ، أوْ مكانٌ واحدٌ سواءٌ كانَ ذلكَ الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أوِ اختيارًا[1].

وقالَ ابنُ عاشورٍ: والأمَّةُ: اسمٌ للجماعةِ الذينَ أمرهمْ واحدٌ، مشتقَّةٌ منَ الأمِّ بفتحِ الهمزةِ وهوَ القصدُ، أيْ: يؤمُّونَ غايةً واحدةً[2].

وقالَ سيِّدُ قطبٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: (الأمَّةُ) عبارةٌ عنْ طائفةٍ منَ النَّاسِ، متوافقةٌ فيمَا بينهَا، اجتمعتْ وتألَّفتْ وامتازتْ منْ بينَ طوائفَ أخرَى؛ لاشتراكهَا فِي بعضِ الأمورِ الجوهريَّةِ[3].

وإنَّمَا تكونُ الجماعةُ أمَّةً إذَا اتَّفقُوا فِي الموطنِ، أوِ الدِّينِ، أوِ اللُّغةِ، أوْ فِي جميعهَا[4].

وبعدَ هذهِ التَّعريفاتِ التِي كلُّهَا تصبُّ فِي معنًى واحدٍ نرَى أنَّ أقربَ التَّعريفاتِ للاستعمالِ القرآنِي هوَ تعريفُ شيخنَا السَّعدِي وأيَّدهُ تعريفُ ابنُ فارسٍ رحمهمَا اللهُ تعالَى حينَ قسَّمَا لفظَ الأمَّةِ أربعةَ أقسامٍ علَى حسبِ السِّياقِ.

---

(1) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٦، وانظر: الكليات، الكفوي ص ١٧٦.

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/٣٠٠.

(3) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١٤٤٦/٣.

(4) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/٣٠٠.

الأمَّةُ فِي الاستعمالِ القرآني:

وردَ لفظُ (الأمَّةُ) فِي القرآنِ الكريمِ (64) مرَّةً[1].

وجاءَ فِي القرآنِ علَى أربعةِ أوجهٍ[2]:

1) الوجه الأوَّلُ: العصبةُ والقومُ والجماعةُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: "رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ"[البقرة: 128] يعنِي عصبةً أوْ قومًا أوْ جماعةً.

قالَ البغوِي: (أمَّةً) جماعةً والأمَّةُ أتباعُ الأنبياءِ[3].

2) الثَّاني: الملَّةُ والدِّينُ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً}[البقرة: 213] يعني ملَّةً ودينًا واحدًا.

قالَ القرطبِي: قولهُ تعالَى: كانَ النَّاسُ أمَّةً واحدةً أيْ علَى دينٍ واحدٍ[4].

3) الثَّالثُ: المدَّةُ منَ الزَّمنِ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ}[هود: 8] يعنِي سنينَ معدودةٍ.

قال الطَّبرِي: وبنحوِ الذِي قلنَا منْ أنَّ معنَى "الأمَّةِ" فِي هذَا الموضعِ، الأجلُ والحينُ، قالَ أهلُ التَّأويلِ.

ذكرَ منْ قالَ ذلكَ: ... بسندهِ إلَى ابنِ عبَّاسٍ قالَ: (ولئنْ أخَّرنَا عنهمُ العذابَ إلَى أمَّةٍ معدودةٍ)، قالَ: إلَى أجلٍ محدودٍ[5].

---

(1) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٨٠.

(2) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ٤٧.

(3) تفسير البغوي.

(4) تفسير القرطبي.

(5) تفسير الطبري.

4) **الرَّابعُ**: الإمامُ فِي الخيرِ: ومنهُ قولهُ تعالَى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[النحل:120] يعنِي إمامًا يُقتدَى بهِ فِي الخيرِ.

قالَ القرطبِي: قولهُ تعالَى : قولهُ تعالَى: إنَّ إبراهيمَ كانَ أمَّةً قانتًا للهِ حنيفًا دعَا (عليهِ السَّلامُ) مشركِي العربَ إلَى ملَّةِ إبراهيمَ؛ إذْ كانَ أباهمْ وبانِي البيتَ الذِي بهِ عزُّهمْ؛ والأمَّةُ: الرَّجلُ الجامعُ للخيرِ، وقدْ تقدَّمَ محاملهُ، وقالَ ابنُ وهبٍ وابنُ القاسمِ عنْ مالكٍ قالَ: بلغنِي أنَّ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ قالَ: يرحمُ اللهَ معاذًا! كانَ أمَّةً قانتًا، فقيلَ لهُ: يَا أبَا عبدِ الرَّحمنِ، إنَّماَ ذكرَ اللهُ تعالَى بهذَا إبراهيمَ (عليهِ السَّلامُ)، فقالَ ابنُ مسعودٍ: إنَّ الأمَّةَ الذِي يعلِّمُ النَّاسَ الخيرَ، وإنَّ القانتَ هوَ المطيعُ[1].

---

(1) تفسير القرطبي.

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالأمَّةِ:

1) الجمعُ:

الجمعُ لغةً:

ضمُّ الشَّيءِ بتقريبِ بعضهِ منْ بعضٍ، يقالُ: جمعتهُ فاجتمعَ[1]، وجمعتُ الشَّيءَ: إذَا جئتَ بهِ منْ هاهنَا وهاهنَا، وتجمَّعَ القومُ: اجتمعُوا أيضًا منْ هاهنَا وهاهنَا[2].

الجمعُ اصطلاحًا:

قالَ ابنُ عاشورٍ: والجمعُ: الجماعةُ منَ النَّاسِ[3].

الصِّلةُ بينَ الأمَّةِ والجمعِ:

هوَ أنَّ الأمَّةَ هيَ الجماعةُ التِي تقصدُ الأمرَ بتضافرٍ وتعاونٍ، لكنَّ الجمعَ هوَ فقطِ الجماعةُ منَ النَّاسِ، فالعلاقةُ بينهمَا أنَّ لفظَ الجمعِ أخصُّ منْ لفظِ الأمَّةِ.

2) الحزبُ:

الحزبُ لغةً:

قالَ الأزهرِي: والحزبُ: الصِّنفُ منَ النَّاسِ.

---

(1) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٩٦.

(2) لسان العرب، ابن منظور ٥٣/٨.

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨٢/٢٠.

وقالَ ابنُ الأعرابِي: الحزبُ: الجماعةُ منَ النَّاسِ[1]، وقدْ وردَ لفظُ (الحزبِ) فِي القرآنِ الكريمِ بصيغةِ الإفرادِ والجمعِ دونَ التَّثنيَةِ؛ للدَّلالةِ علَى مفهومِ الأمَّةِ.

الحزبُ اصطلاحًا:

والحزبُ: الجماعةُ المجتمعونَ علَى أمرٍ منِ اعتقادٍ أوْ عملٍ، أوِ المتِّفقونَ عليهِ[2].

الصِّلةُ بينَ الأمَّةِ والحزبِ:

بينهمَا عمومٌ وخصوصٌ؛ فلفظُ الأمَّةِ أعمُّ منْ لفظِ الحزبِ، فكلاهمَا يدلُّ علَى الصِّنفِ والجماعةِ، إلَّا أنَّ الحزبَ خاصٌّ بجماعةِ البشرِ، والأمَّةُ عامَّةٌ فِي جماعةِ البشرِ وغيرِهَا، كمَا قالَ تعالَى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ}[الأنعام: 38].

3) القومُ:

القومُ لغةً:

القافُ والواوُ والميمُ: أصلانِ صحيحانِ، يدلُّ أحدهمَا علَى جماعةِ ناسٍ، وربَّمَا استُعيرَ فِي غيرِهمْ، والآخرُ علَى انتصابٍ أوْ عزمٍ[3].

(1) تهذيب اللغة، الأزهري ٤/٢١٧.

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/٧٣.

(3) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/٤٣.

القومُ اصطلاحًا:

قالَ الرَّاغبُ: والقومُ: جماعةُ الرِّجالِ فِي الأصلِ دونَ النِّساءِ، ولذلكَ قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ}[الحجرات: 11]، وفِي عامَّةِ القرآنِ أريدُوا بِهِ والنِّساءُ جميعًا[1].

قالَ الرَّازِي: القومُ: اسمٌ يقعُ علَى جمعٍ منَ الرِّجالِ ولَا يقعُ علَى النِّساءِ ولَا علَى الأطفالِ، والقائمُ بالأمورِ همُ الرِّجالُ؛ فعلَى هذَا الأقوامُ الرِّجالُ لَا النِّساءُ[2].

الصِّلةُ بينَ الأمَّةِ والقومِ:

لفظُ الأمَّةِ أعمُّ منْ لفظِ القومِ، فكلُّ أمَّةٍ قومٌ، ولَا عكسٌ.

4) الثلَّةُ:

الثلَّةُ لغةً:

الثَّاءُ واللَّامُ أصلانِ متباينانِ: أحدهمَا التجمُّعُ، والآخرُ السُّقوطُ والهدمُ والذلُّ، والثلَّةِ: الجماعةُ منَ النَّاسِ.

قالَ اللهُ تعالَى: {ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}[الواقعة: 39 – 40][3].

---

(1) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٩٣.

(2) مفاتيح الغيب، ١٠٨/٢٨ بتصرف يسير.

(3) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣٦٨/١.

الثلَّةُ اصطلاحًا:

قالَ القاسِمِي: أي: جماعةُ وأمَّةٍ[1].

وقالَ السَّعدِي: أي: جماعةٌ كثيرونَ[2].

الصلِّةُ بينَ الأمَّةِ والثلَّةِ:

أنَّ الثلَّةَ جزءٌ منَ الأمَّةِ، فكلُّ أمَّةٍ ثلَّةٌ وليسَ كلُّ ثلَّةٍ أمَّةٌ.

---

(1) محاسن التأويل ٩/١٢٣.

(2) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٣٢.

ثمَّ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: لفظُ "استوَى" فِي القرآنِ علَى ثلاثةِ أوجهٍ:

إنْ عُدِّيَ بِ "علَى" كانَ معناهُ العلوُّ والارتفاعُ، {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}[الأعراف: **54].**

وإنْ عدِّيَ بـ "إلَى"، فمعناهُ قصدٌ، كقولهِ: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}[البقرة: **29].**

وإنْ لمْ يعد بشيءٍ، فمعناهُ "كَمُلَ"، كقولهِ تعالَى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى}[القصص: **14].**

~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى لفظَ "استوَى" ومشتقَّاهِ فِي مواقعَ كثيرةٍ منَ القرآنِ، نذكرُ منهَا مَا يهمُّنَا فِي هذَا المبحثِ، قالَ تعالَى:

{ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}[البقرة: **29].**

وقالَ سبحانهُ: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا}[الأعراف: **54].**

وقالَ جلَّ جلالهُ: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ}[يونس: **3].**

وقالَ جلَّ وعلَا: {الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ}[طه: **5].**

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى}[القصص: **14].**

وغيرِ ذلكَ منَ المواقعِ التِي ذكرَ فيهَا لفظُ استوَى أو أحدِ مشتقَّاتهِ.

{معنى الاستواء}

الاستواءُ لغةً:

اِسْتَوَى وجذعهَا سوي، وهوَ فعلٌ: خماسيٌّ، لازمٌ ومتعدٍّ. مزيدٌ بحرفٍ، تقولُ: اِسْتَوَيْتُ، أَسْتَوِي، اِسْتَوِ، والمصدرُ: اِسْتِواءٌ.

واسْتَوَى الطَّعامُ، أَوِ التَّمْرُ، أَوِ الفاكِهَةُ: نَضِجَ.

واسْتَوَتِ الأَرْضُ: صارَتْ مُنْبَسِطَةً.

واسْتَوَتْ بِهِ الأَرْضُ: هلَكَ فِيهَا.

واسْتَوَى الوَلَدانِ: تَسَاوَيا[1].

واستوتِ الأرضُ: صارت جَدْبًا.

واستوَى علَى كذَا، أوْ فوقهُ: علَا وصَعدَ.

واستوَى: استقرَّ وثبتَ.

واستوَى إِليهِ: قَصَدَ وتوجَّهَ لَا يَلوِي علَى شيءٍ[2].

الاستواءُ فِي اصطلاحِ الشَّرعِ:

قالَ تعالَى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ}[يونس: 3]، استواءً يليقُ بجلالهِ، ومعنَى استوَى صعدَ وارتفعَ وعلَا، ولَا يقال كيف؟

{الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اِسْتَوَى}[طه: 5]، استوَى: ارتفعَ، استواءً يليقُ به تعالَى.

{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ}[القصص: 14]، استوَى: انتهَى شبابهُ واستقرَّ، أوِ اعتدلَ عقلهُ و كمُلَ[3].

---

(1) المعجم الغني.

(2) المعجم الوسيط.

(3) معجم المعاني.

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالاستواءِ فِي اللُّغةِ:

اِنْصَاتَ:

اِنْصاتَ الْمُعْوَجُّ: اِسْتَقامَ بَعْدَ انْحِناءٍ، اِسْتَوَى.

اِسْتَقَامَ:

استقامَ الأبُ علَى الأريكةِ اعتدلَ.

اعْتَدَلَ:

اِعْتَدَلَ السَّيِّدُ على كُرْسِيِّهِ: اِسْتَقَامَ.

اسْتَدَّ:

اسْتدَّ: استقام وانتظَم.

اطَّرَد:

اطَّرَد النهرُ، جرى مجرىً واحدًا، تتابعَ فاستقام وتماثلت أحكامُه.

أَيْنَعَ:

أينعَ الثَّمرُ طابَ و"نضجَ" وحانَ قطافهُ.

اتَّسَقَ:

اتَّسق القمرُ: استوى وامتلأ واكتمل واستدار.

تَسَاوَقَ:

تساوقَ الشَّيئانِ :تسايرَا، تقارنَا، تناسَقَا، تلاءمَا، تساوقَ اللَّونُ معَ مَا يحيطُ بهِ.

تَسَدَّدَ:

استقامَ وانتظَمَ.

نَضِجَ:

نضِجَ الشَّخصُ: اكتملَ نموُّهُ واكتسبَ خبرةَ التَّفكيرِ[1].

---

(1) معجم المعاني.

علاقةُ لفظِ استوَى بالارتفاعِ والعلوِّ:

هيَ علاقةٌ لغويَّةٌ وشرعيَّةٌ معًا، إذَا قُيِّدَ الاستواءُ بحرفِ "على".

قالَ سبحانهُ: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا}[الأعراف: 54].

علاقةُ لفظِ استوَى بالقصدِ:

هيَ علاقةٌ لغويةٌ فقطْ، إذَا قُيِّدَ الاستواءُ بحرفِ "إلى" وأمَّا شرعًا فهوَ العلوُّ والارتفاعُ معَ قبولِ القصدِ.

قالَ تعالَى: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}[البقرة: 29].

علاقةُ لفظِ استوَى بالمعيَّةِ:

هيَ علاقةٌ لغويَّةٌ وشرعيَّةٌ معًا، إذَا قُرنَ الاستواءُ بحرفِ "الواو" (واو المعيَّة) التِي تعدِّي الفعلَ إلَى المفعولِ معهُ؛ نحوَ: استوَى الماءُ والخشبةُ، بمعنَى: ساواهَا[1].

علاقةُ لفظِ استوَى بالتَّمامِ والكمالِ والنُّضجِ:

هيَ علاقةٌ لغويَّةٌ وشرعيَّةٌ معًا، مَا لمْ يوصلْ معناهُ بحرفٍ قالَ تعالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾[القصص: 14].

---

(1) مختصر الصواعق، للموصلي.

وقد بيَّنَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى أنَّ لفظَ استوَى فِي القرآنِ يأتِي علَى ثلاثةِ أوجهٍ:

إنْ عُدِّيَ بِ "علَى" كانَ معناهُ العلوُّ والارتفاعُ.

وإنْ عدِّيَ بـ "إلَى"، فمعناهُ قصدٌ.

وإنْ لمْ يعد بشيءٍ، فمعناهُ "كَمُلَ".

وضربَ رحمهُ اللهُ تعالَى أمثلةً علَى ذلكَ بآياتٍ بيِّناتٍ كمَا فِي البابِ.

وقبلَ كلِّ شيءٍ يجبُ أنْ نعلمَ أنَّ لفظَ الاستواءِ علَى قسمينِ:

- مطلقُ
- ومقيَّدُ

أمَّا المطلقُ:

مَا لمْ يوصلْ معناهُ بحرفٍ؛ مثلَ قولهِ تعالَى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى}[القصص: 14].

وأمَّا المقيَّدُ فعلَى ثلاثةِ وجوهٍ:

أحدهَا: مقيَّدٌ بـ "إلى" كقولهِ تعالَى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}[البقرة: 29].

والثَّانِي: مُقيَّد بـ "على" كقولهِ تعالَى: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ}[الزخرف: 13].

والثَّالثُ: المقرونُ بواوٍ (واو المعيَّة) التِي تعدِّي الفعلَ إلَى المفعولِ معهُ؛ نحوَ: استوَى الماءُ والخشبةُ، بمعنَى: ساواهَا[1].

(1) مختصر الصواعق، للموصلي.

ولكنَّهمُ اختلفُوا فِي إنْ عدِّيَ الاستواءُ بـ "إلى" هلْ يفيدُ القصدَ كمَا قالَ السَّعدِي أمْ هوَ العلوُّ كمَا إنْ عدِّيَ بـ "على".

واختلفوا أيضًا في إضافة معنَى القَصْدِ والعَمْدِ والإقبالِ إلَى معنَى العلوِّ والارتفاعِ إنْ أُريدَ بـ "إلَى" العلوُّ والارتفاعُ كمَا فِي جملةِ (استوَى إلَى) فِي بعضِ مواضعِ القرآنِ مثلَ قولهِ تعالَى: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}[البقرة: 29]، والظَّاهرُ واللهُ أعلمُ أنَّ لفظَ استولَى إنْ عديَ بـ "إلَى" كانَ معناهُ العلوُّ والإرتفاعُ ويضافُ لهُ القصدُ والإقبالُ فِي السِّياقِ، هذَا لأنَّهُ يوجدُ فرقٌ بينَ أهلَ السنَّةِ وبينَ أهلِ التَّأويلِ المذمومِ فِي هذَا البابِ، فأهلُ السنَّةِ لَا ينفونَ المعنَى الأصليِّ لـ (استوَى إلَى)؛ وإنَّمَا يُضيفونَ إليهِ معنًى يُناسبُ حرفَ الجرِّ (إلى)، فيكونُ المعنَى أنَّهُ سبحانهُ ارتفعَ علَى السَّماءِ قاصدًا عامدًا.

بخلافِ المؤوِّلينَ فإنَّهمْ يقولونَ: استوَى بمعنَى (قصد) وينفونَ معنَى العلوِّ، وهذَا ليسَ منْ طريقةِ أهلِ السنَّةِ.

فالقومُ فِي بابِ التَّضمينِ يقولونَ: أنَّ المعنَى الأوَّلَ مرادٌ، ومعهُ المعنَى الثانِي الذِي يُناسبُ التَّعديةَ بـ (إلى)، وأمَّا أهلُ البدعةِ فيقصدونَ إلَى التَّفسيرِ بالمعنَى الثَّانِي لأجلِ نفيِ المعنَى الأوَّلِ وهوَ الارتفاعُ[1].

والخلافُ الذِي بينَ أهلِ السنَّةِ فِي هذَا البابِ علَى قولينِ[2]:

القولُ الأوَّلُ: أنَّ المعنَى المناسبَ لـ (استوَى إلَى) هوَ علَا وارتفعَ.

---

(1) مقالة: د. زياد بن حمد العامر – "سلسلة آيات العقيدة المتوهم إشكالها (8)" شبكة الألوكة – بتصرُّف.

(2) يُنظَر: شرح القواعد المثلى لابن عثيمين ص 253.

واختارَ هذَا القولَ أبُو العاليةَ[1]، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ[2]، وقولٌ للحسنِ البصرِي[3]، والخليلِ بنِ أحمدَ اللُّغوي[4] وغيرهمْ.

وقالَ الموصلِي فِي مختصرِ الصَّواعقِ: (لفظُ الاستواءِ فِي كلامِ العربِ الذِي خاطبنَا اللّٰهُ تعالَى بلُغتهِمْ، وأنزلَ بهَا كلامهُ "نوعانِ": مطلقٌ، ومقيَّدٌ، فالمطلقُ: مَا لمْ يوصلْ معناهُ بحرفٍ؛ مثلَ قولهِ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾[القصص: 14] وهذَا معناهُ كَمَل وتمَّ، يُقالُ: استوَى النَّباتُ واستوَى الطعامُ.

أمَّا المقيَّدُ فثلاثةُ أضربٍ:

أحدهَا: مقيَّدٌ بـ "إلى"؛ كقولهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾[البقرة: 29]، وهذَا بمعنَى العلوِّ والارتفاعِ بإجماعِ السَّلفِ.

الثَّانِي: مُقيَّد بـ "على"؛ كقولهِ تعالَى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾[الزخرف: 13]، وهذَا أيضًا معناهُ العلوُّ والارتفاعُ والاعتدالُ بإجماعِ أهلِ اللُّغةِ.

الثَّالثُ: المقرونُ بواوٍ (واو المعيَّة) التِي تعدِّي الفعلَ إلَى المفعولِ معهُ؛ نحوَ: استوَى الماءُ والخشبةُ، بمعنَى: ساواهَا

وهذهِ معانِي الاستواءِ المعقولةِ فِي كلامهمْ[5].

---

(1) يُنظَر: تفسير ابن أبي حاتم 1/ 75، وصحيح البخاري تعليقًا (كتاب: التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء) 9/ 124، العرش للذهبي، رقم (9) 2/ 15.

(2) يُنظَر: تفسير الطبري 1/ 456، والعرش للذهبي، رقم (10) 2/ 15.

(3) يُنظَر: تفسير ابن أبي حاتم 1/ 75.

(4) يُنظَر: تفسير البغوي 1/ 78، ونسبه إليه ابنُ القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية 1/ 168، وأحال على ابن عبدالبر في "التمهيد" 7/ 132.

(5) مختصر الصواعق، للموصلي 3/ 888.

ومنَ النُّقولِ عنْ أصحابِ القولِ الأوَّلِ مَا قالهُ الخليلُ بنُ أحمدَ: أتيْتُ أبَا ربيعةَ الأعرابيِّ، وكانَ منْ أعلمِ مَنْ رأيتُ، فإذَا هوَ علَى سطحٍ، فسلَّمْنَا فردَّ علينَا السَّلامَ، وقالَ لنَا استوُوا فبقينَا مُتحيِّرينَ، ولمْ نَدْرِ مَا قالَ، قالَ: فقالَ لنَا أعرابيٌّ إلَى جنبهِ أنَّهُ أمركمْ أنْ ترتفعُوا، قالَ الخليلُ: هوَ منْ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[فصلت: 11] فصعدنَا إليهِ[1].

وقالَ الطَّبرِي: وأولَى المعانِي بقولِ اللهِ جلَّ ثناؤهُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾[البقرة: 29] علَا عليهنَّ، وارتفعَ فدبرهنَّ بقدرتهِ وخلقهنَّ سبعَ سمواتٍ.

والعجبُ ممَّنْ أنكرَ المعنَى المفهومَ منْ كلامِ العربِ فِي تأويلِ قولِ اللهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ الذِي هوَ بمعنَى العلُوِّ والارتفاعِ؛ هربًا عندَ نفسهِ منْ أنْ يلزمهُ بزعمهِ إذَا تأوَّلَهُ بمعناهُ المفهمِ؛ كذلكَ أنْ يكونُ إنَّمَا علَا وارتفعَ بعدَ أنْ كانَ تحتهَا، إلَى أنْ تأوَّلهُ بالمجهولِ منْ تأويلهِ المستنكرِ، ثمَّ لمْ يَنْجُ ممَّا هربَ منهُ.

فيُقالُ لهُ: زعمتَ أنَّ تأويلَ قولهِ: ﴿اسْتَوَى﴾ أقبلَ، أفكانَ مُدبرًا عنِ السَّماءِ فأقبلَ إليهَا؟! فإنْ زعمَ أنَّ ذلكَ ليسَ بإقبالِ فعلٍ، ولكنَّهُ إقبالُ تدبيرٍ، قيلَ لهُ: فكذلكَ فقلْ: علَا عليهَا عُلُوَّ ملكٍ وسلطانٍ، لَا عُلُوَّ انتقالٍ وزوالٍ[2].

(1) ذكر هذه القصة ابن عبدالبر في التمهيد 7/ 132، والقرطبي في التفسير 15/ 470، والذهبي في العلوّ، رقم (398) 2/ 1042، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية 1/ 79، وكذا في حاشيته على سنن أبي داود 13/ 28.

(2) تفسير الطبري 1/ 457، ويُنظَر: 20/ 391.

القولُ الثَّانِي: أنَّ المعنَى المناسبَ لـ (استوَى إِلَى) هوَ قَصَدَ وأقْبَلَ وعمَدَ.

واختارَ هذَا القولَ سفيانُ بنُ عيينةَ[1]، وقولٌ للحسنِ البصرِي[2]، وثعلب اللُّغوِي، وابنِ كيسانَ[3]، والفرَّاءِ[4]، وابنِ قتيبةَ، وابن أبِي زمنينَ[5]، والبغوِي[6]، وأبِي القاسمِ الأصبهانِي[7]، والسمعانِي[8]، وابنِ جزِي[9]، وابنِ كثيرٍ، والسَّعدِي[10]، وابنِ عثيمينَ[11]، وغيرهِمْ[12].

قالَ ثعلبَ اللُّغوي: (استوَى): أقبلَ عليهِ وإنْ لمْ يكنْ معوجًّا، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أقبلَ، و﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾[فصلت: 11]، ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[الفرقان: 59]: علَا، واستوَى وجههُ: اتَّصلَ، واستوَى القمرُ: امتلأَ، واستوَى زيدٌ وعمرٌو: تشابهَا، واستوَى فعلاهمَا وإنْ لمْ تتشابهْ شخوصُهمَا، هذَا الذِي يُعرَفُ منْ كلامِ العربِ[13].

---

(1) يُنظَر: تفسير القرطبي 1/ 382.

(2) يُنظَر: تفسير ابن أبي زمنين 1/ 131.

(3) يُنظَر: تفسير البغوي 1/ 78، وتفسير القرطبي 1/ 382.

(4) يُنظَر: تفسير البغوي 1/ 78، واجتماع الجيوش الإسلامية 1/ 167.

(5) يُنظَر: تفسير ابن أبي زمنين 1/ 4،131/ 147.

(6) يُنظَر: تفسير البغوي 7/ 165.

(7) يُنظَر: الحجة في بيان المحجة 2/ 258.

(8) يُنظَر: تفسير السمعاني 5/ 39.

(9) يُنظَر: التسهيل لابن جزي 1/ 61، 2/ 289.

(10) يُنظَر: تفسير السعدي، ص 48، 745.

(11) يُنظَر: شرح القواعد المثلى لابن عثيمين، ص 257.

(12) يُنظَر: الدر المصون للسمين الحلبي 1/ 242.

(13) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، رقم (668) 3/ 443، والعلو للذهبي، رقم (490) 2/ 1227، واجتماع الجيوش الإسلامية 1/ 167.

وقالَ ابنُ قتيبةَ: وأمَّا قولهُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ فإنَّهُ أرادَ عَمَدَ لهَا وقَصَدَ، فكلُّ منْ كانَ فِي شيءٍ ثمَّ تركهُ لفراغٍ أوْ غيرِ فراغٍ، وعَمَدَ لغيرهِ فقدْ استوَى إليهِ[1]، وقالَ ابنُ كثيرٍ: أيْ: قَصَدَ إلَى السَّماءِ، والاستواءُ هَا هنَا تَضَمَّنَ معنَى القَصْدِ والإقبالِ؛ لأنَّهُ عُدِّيَ بإلَى[2].

وخرجنَا منْ هذَا البابِ أنَّ لفظَ "استوَى" إن عدِّيَ بـ "علَى" فهوَ العلوُّ والارتفاعُ فقطْ، وإنْ عدِّيَ بـ "إلَى" فهوَ العلوُّ والارتفاعُ أيضًا معَ القصدِ والإقبالِ.

ولعلَّ أصحابَ القولِ الأوَّلِ المانعينَ لمعنَى القصدِ إنْ عدِّي الاستواءُ بـ "إلى" لَا يخالفونَ فِي ذلكَ؛ وإنَّمَا يمنعونَ تفسيرَ لفظَ (استوَى)، وهوَ مجرَّدٌ عنِ الإضافةِ بمعنَى القَصْدِ والعَمْدِ والإقبالِ، وهذَا حقٌّ لأنَّ لفظ "استوى" المقيَّدُ بـ "إلى" في اللُّغةِ هوَ القصدُ والإقبالُ ولكنَّهُ فِي القرآنِ غيرُ مرادٍ ولعلَّهُ مرادٌ واللهُ أعلمُ، أوْ يمنعونَ منْ تفسيرهِ بذلكَ عندَ إضافتهِ لحرفِ الجرِّ (على) لأنَّ هذَا لَا يفيدُ إلَّا الارتفاعَ فقطْ، أوْ يمنعونَ منْ تفسيرهِ بذلكَ عندَ إضافتهِ لحرفِ الجرِّ (إلى) معَ نفيِ المعنَى الأصليِّ للاستواءِ وهوَ العلوُّ والارتفاعُ وهوَ المعنَى المرادُ.

وإنِّي لَا أرَى حرجًا فِي اختيارِ أئمَّتنَا مثلَ السَّعدِي وابنِ عثيمينَ لمعنَى القصدِ، إنْ كانَ المرادُ ليسَ نفيَ الارتفاعِ (ثمَّ استوَى إلَى السَّماءِ) أقبلَ عليهَا وقصدهَا وعلَا وارتفعَ.

---

(1) الاختلاف في اللفظ، والرد على الجهمية والمشبهة ص 37، وتفسير غريب القرآن ص 45، 388.

(2) تفسير ابن كثير 1/ 213.

كمَا أنَّ تفسيرَ الاستواءِ بمعنَى الارتفاعِ معَ زيادةِ معنَى "القَصْدِ" خاصٌّ بإضافتهِ إلَى حرفِ الجرِّ (إلى) دونَ إضافتهِ لحرفِ الجرِّ (على)[1]، وإلَّا سيكونُ المعنَى الارتفاعُ فقطْ.

وممَّا يتعلَّقُ بهذهِ المسألةِ أنَّهُ لوْ قيلَ: إذَا كانَ اللهُ لَا يزالُ عاليًا علَى المخلوقاتِ، فكيفَ يُقالُ: ثمَّ ارتفعَ إلَى السَّماءِ وهيَ دخانٌ؟

قيلَ: هذَا كمَا أخبرَ أنَّهُ ينزلُ إلىَ السَّماءِ الدُّنيَا، ثمَّ يصعدُ ، ورُويَ ثمَّ يعرجُ وهوَ سبحانهُ لمْ يزلْ فوقَ العرشِ، فإنَّ صعودهُ منْ جنسِ نزولهِ، وإذَا كانَ فِي نزولهِ لمْ يصرْ شيءٌ منَ المخلوقاتِ فوقهُ، فهوَ سبحانهُ يصعدُ، وإنْ لمْ يكنْ منهَا شيءً فوقهُ[2]، والمرادُ أنَّهُ يرتفعُ ارتفاعًا يليقُ بهِ سبحانهُ لَا يشبهُ ارتفاعَ المخلوقينَ، ولَا نعلمُ كيفيَّتهُ، وهوَ مثلَ استوائهِ علَى العرشِ بعدَ أنْ لمْ يكنْ مستويًا عليهِ؛ فسبحانَ اللهِ وتعالَى علوًّا كبيرًا[3].

---

(1) يُنظَر: التسهيل لابن جزي 1/ 303، والحجة في بيان المحجة 2/ 258، والكليات للكفوي ص 109، والمواقف للإيجي 3/ 144، ومختصر الصواعق المرسلة للموصلي 3/ 941.

(2) مجموع الفتاوى 5/ 521.

(3) مقالة: د. زياد بن حمد العامر – "سلسلة آيات العقيدة المتوهم إشكالها (8)" شبكة الألوكة – بتصرُّف.

ثمَّ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: "التَّوبةُ": وردَ فِي آياتٍ كثيرةٍ الأمرُ بهَا، ومدحَ التَّائبينَ وثوابهمْ، وهيَ: الرُّجوعُ عمَّا يكرههُ اللهُ ظاهرًا وباطنًا، إلَى مَا يحبُّهُ اللهُ ظاهرًا وباطنًا.

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى التَّوبةَ فِي مواضعَ كثيرةٍ منَ القرآنِ، بينَ الأمرِ بهَا، ومدحٍ لأهلهَا وتبشيرهمْ بجزيلِ ثوابهمْ.

قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا}[التحريم: 8].

وقالَ سبحانهُ: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 160].

وقالَ جلَّ وعلَا: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}[البقرة: 222].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}[النساء: 146].

وقالَ جل جلالهُ: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[الأنعام: 54].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}[التوبة: 112].

وقالَ اللهُ تعالَى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}[هود: 52].
~~~~~~~~~~~

{معنى التوبة}

التَّوبةُ لغةً:

توب: التّاءُ والواوُ والباءُ كلمةٌ واحدةٌ تدلّ علَى الرّجوعِ. يقالُ: تابَ منْ ذنبهِ، أيْ رجعَ عنهُ، يتوبُ إلَى اللّهِ توبةً ومتابًا، فهوَ تائبٌ، والتّوبُ: التّوبةُ...[1].

وتابَ إلَى اللهِ توبًا وتوبةً ومتابًا وتابةً وتتوبةً: رجعَ عنْ المعصيةِ، وهوَ تائبٌ وتوّابٌ، وتابَ اللهُ عليهِ: وفّقهُ للتّوبةِ، أوْ رجعَ بهِ منَ التّشديدِ إلَى التّخفيفِ، أوْ رجعَ عليهِ بفضلهِ وقبولهِ، وهوَ توّابٌ علَى عبادهِ[2].

والتَّائبُ يقالُ لباذلِ التَّوبةِ ولقابلِ التَّوبةِ؛ فالعبدُ تائبٌ إلَى اللهِ، واللهُ تائبٌ علَى عبدهِ.

والتّوّابُ: العبدُ الكثيرُ التَّوبةِ، وذلكَ بتركهِ كلّ وقتٍ بعضَ الذُّنوبِ علَى التَّرتيبِ حتَّى يصيرَ تاركًا لجميعهِ، وقدْ يُقالُ ذلكَ للهِ تعالَى؛ لكثرةِ قبولهِ توبةَ العبادِ حالًا بعدَ حالٍ[3].

التَّوبةُ اصطلاحًا:

التَّوبةُ فِي الشَّرعِ: الرُّجوعُ عنِ الأفعالِ المذمومةِ إلَى الممدوحةِ.

والتَّوبةُ النَّصوحُ: ألَّا يبقيَ علَى عملهِ أثرًا منَ المعصيةِ، سرًّا وجهرًا[4].

---

(1) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٥٧.

(2) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٦٢.

(3) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٦٩.

(4) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٧٠.

قالَ الطبرِي رحمهُ اللهُ تعالَى: التَّوبةُ منَ العبدِ إلَى ربِّهِ: إنابتهُ إلَى طاعتهِ، وأوبتهُ إلَى مَا يرضيهِ بتركهِ مَا يسخطهُ منَ الأمورِ التِي كانَ عليهَا مقيمًا ممَّا يكرههُ ربُّهُ، فكذلكَ توبةُ اللهِ علَى عبدهِ هوَ أنْ يرزقهُ ذلكَ، ويتوبَ منْ غضبهِ عليهِ إلَى الرِّضَا عنهُ، ومنَ العقوبةِ إلَى العفوِ والصَّفحِ عنهُ[1].

وهذَا التَّعريفُ فِي الاصطلاحِ لَا يخرجُ عنْ معناهُ فِي اللُّغةِ.

التَّوبةُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ مادَّةُ (توب) فِي القرآنِ (87) مرَّةً[2].

وجاءتِ التَّوبةُ فِي القرآنِ علَى وجهينِ[3]:

أحدهَا: النَّدمُ علَى فعلِ الشَّيءِ والرُّجوعِ عنهُ، ومنهُ قولهُ تعالَى: {فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}[الأعراف: 143]، يعنِي: ندمتُ ورجعتُ إليكَ.

والثَّانِي: التَّجاوزُ، ومنهُ قولهُ تعالَى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ}[النساء: 27]، يعنِي: يتجاوزُ عنكمْ.

---

(1) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥٨٧.

(2) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٥٦– ١٥٨، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٣٦٩–٣٧١.

(3) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٣٢.

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالتَّوبةِ:

الإنابةُ:

الإنابةُ لغةً:

تدورُ مادّةُ (ن وب) حولَ الرّجوعِ، يقولُ ابنُ فارسٍ: "النّونُ والواوُ والباءُ، كلمةٌ واحدةٌ تدلّ علَى اعتيادِ مكانٍ ورجوعٍ إليهِ"[1]، وقالَ ابنُ الأثيرِ: "يقالُ أنابَ ينيبُ إنابةً، فهوَ منيبٌ، إذَا أقبلَ ورجعَ"[2].

الإنابةُ اصطلاحًا:

الإنابةُ: إخراجُ القلبِ منْ ظلماتِ الشّبهاتِ. وقيلَ: الإنابةُ: الرّجوعُ منْ الكلّ إلَى منْ لهُ الكلّ، وقيلَ: الإنابةُ: الرّجوعُ منَ الغفلةِ إلَى الذّكرِ، ومنَ الوحشةِ إلَى الأنسِ، وقالَ الكفويّ: "الإنابةُ: الرّجوعُ عنْ كلّ شيءٍ إلَى اللّهَ تعالَى".

وقالَ ابنُ القيّمُ: "الإنابةُ: الإسراعُ إلَى مرضاةِ اللّهِ معَ الرّجوعِ إليهِ فِي كلّ وقتٍ، وإخلاصُ العملِ لهُ"[3].

وهذَا أصحُّ التَّعريفاتِ.

---

(1) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/٥٩٠.

(2) مقاييس اللغة.

(3) النهاية لابن الأثير.

ومنْ ذلكَ قولهُ تعالَى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}[هود: 75].

قالَ الطبريُّ: (منيب)، رَجَّاعٌ إلَى طاعتهِ[1].

الإيابُ والأوَّابُ:

الإيابُ لغةً:

من: آبَ أَوْباً، وأَوْبَةً، وإياباً، ومآباً فهو آئب، وآيب، وأَوَّابٌ، وآبَ يؤوبُ: إيابًا وأيُّوبًا، آبَ إليهِ: رَجَعَ وعادَ، وآبَ إلَى اللهِ: رَجَعَ عنْ ذنبهِ وتاب، والأوَّابُ: المسبِّحُ بلسانِ الحبشةِ.

وفِي قولهمْ "رجلٌ أوّابٌ" سبعةُ أقوالٍ:

1- الرَّاحمُ، 2 – والمسبِّحُ، 3 – والتَّائبُ الذِي يذنبُ ثمَّ يتوبُ ثمَّ يذنبُ ثمَّ يتوبُ، 4 – والمطيعُ الذِي يذكرُ ذنبهُ فِي الخلاءِ فيستغفرُ اللهَ منهُ، 5 – والرُّجوعُ الذِي يرجعُ إلَى التَّوبةِ، 6 – والطَّاعةِ، 7 – والتّوابُ.

وقيلَ هوَ كثيرُ الرُّجوعِ إلَى ربِّهِ ويمتثلُ أوامرهُ ويجتنبُ نواهيهِ.

والأوبُ: ضربٌ منَ الرُّجوعِ، وذلكَ أنَّ الأوبَ لَا يقالُ إلَّا فِي الحيوانِ الذِي لهُ إرادةٌ، والرُّجوعُ يقالُ فيهِ وفِي غيرهِ، يقالُ:آبَ أوبًا وإيابًا ومآبًا[2].

---

(1) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم.

(2) تفسير الطبري.

الأوَّابُ اصطلاحًا:

قالَ تعالَى: "اِصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاودَ ذَا الأَيْدِ"[ص: 17]، أي القوَّةُ فِي العبادةِ كانَ يصومُ يومًا ويفطرُ يومًا ويقومُ نصفَ اللَّيلِ وينامُ ثلثهُ ويقومُ سدسهُ "إِنَّهُ أوَّابٌ" رجّاعٌ إلَى مرضاةِ اللهِ[1].

(إنَّهُ "أوَّابٌ") كثيرُ الرُّجوعِ إلَى مَا يرضِي اللهَ[2].

الاعتذارُ:

الاعتذارُ لغةً:

اِعتذرَ فلانٌ: صارَ ذَا عذرٍ، وإليهِ: طلبَ قبولَ معذرتهِ، ويقالُ: اعتذَرَ منْ ذنبهِ واعتذرَ عنْ فعلهِ: تنصَّلَ واحتجَّ لنفسهِ[3].

الاعتذارُ اصطلاحًا:

تحرِّي الإنسانَ مَا يمحُو بهِ أثرَ ذنبهِ، وذلكَ ثلاثة: الأوَّلُ: أنْ يقولَ: لمْ أفعلْ أوْ فعلتُ لأجلِ كذَا، فيذكرُ مَا يخرجهُ عنْ كونهِ ذنبًا، الثَّانِي: أنْ يقولَ: فعلتُ ولَا أعودُ ونحوَ ذلكَ، والثَّالثُ: هوَ التَّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عذرٌ ولَا عكسٌ[4].

---

(1) معجم المعاني.

(2) تفسير الجلالين.

(3) تفسير الميسر.

(4) انظر: التوقيف، المناوي ص ٧٤.

الصِّلةُ بينَ التّوبةِ والاعتذارِ:

التَّوبةُ منَ الذَّنبِ الذِي لَا عذرَ فِي اقترافهِ، والمعتذرُ يذكرُ أنَّ لهُ فِي مَا أتاهُ منَ المكروهِ عذرًا، ولوْ كانَ الاعتذارُ هوَ التّوبةُ لجازَ أنْ يقالَ: اعتذرْ إلَى اللهِ، كمَا يقالُ: تابَ إليهِ، وأصلُ العذرِ: إزالةُ الشّيءِ عنْ جهتهِ، أيْ: أزالَ مَا كانَ فِي نفسهِ عليهِ فِي الحقيقةِ أوْ فِي الظّاهرِ[1].

وأمَّا قولُ اللهِ تعالَى فِي كتابهِ: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[الأعراف: 164].

قالَ السَّعدِي فِي قولهِ تعالَى"قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ": فقالَ الواعظونَ: نعظهمْ وننهاهمْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ أيْ: لنُعذرَ فيهمْ ... إلَى أنْ قالَ: وهذَا المقصودُ الأعظمُ منْ إنكارِ المنكرِ ليكونَ معذرةً، وإقامةِ حجَّةٍ علَى المأمورِ المنهيِّ[2].

فهذَا هوَ معنَى المعذرةِ إلَى اللهِ تعالَى وهوَ علَى مَا قالَ السَّعدِي إقامةُ الحجَّةِ عليهِمْ فلمْ يعدْ لهمْ عذرٌ، معَ أداءِ الواجبِ تجاهَ اللهِ تعالَى وهوَ وعظهمْ لعلَّهمْ يرجعونَ.

النَّدمُ:

النّدمُ لغةً:

(ندم) علَى الأمرِ ندمًا وندامةً: أسفَ وكرهةُ بعدمَا فعلهُ فهوَ نادمٌ[3].

---

(1) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٣٥.

(2) تفسير السعدي.

(3) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/٩١١.

النّدمُ اصطلاحًا:

التّحسّرُ منْ تغيّرِ رأيٍ فِي أمرِ فائتٍ[1].

الصِّلةُ بينَ النّدمِ والتّوبةِ:

التّوبةُ منَ النّدمِ؛ وذلكَ أنّكَ قدْ تندمُ علَى الشّيءِ ولَا تعتقدُ قبحهُ، ولَا تكونُ التّوبةُ منْ غيرِ قبحٍ، فكلُّ توبةٍ ندمٌ، وليسَ كلُّ ندمٍ توبةٌ[2]، فالنَّدمُ عامٌّ فِي فعلِ شيءٍ قبيحٍ أو غيرِ قبيحٍ، كمنْ رأَى دابَّتينِ فاشترَى إحداهَا ثمَّ ندمَ وقالَ ليْتنِي اشتريتُ الأخرَى، فهذَا شيءٌ غيرُ قبيحٍ ولَا يحتاجُ إلَى توبةٍ، والتَّوبةُ خاصَّةٌ بفعلِ شيءٍ قبيحٍ، كمنْ فعلَ ذنبًا فيندمُ عليهِ ويتوبُ، ولا يوجدُ شرطٌ فِي تلازمِ التَّوبةِ معَ النَّدمِ، بلِ الأصحُّ أنَّ النَّدمَ سابقٌ للتَّوبةِ، وإنْ توافقَا فِي الوقتِ كانَ خيرًا، ومنْ ناحيةٍ أخرَى يُشترطُ النَّدمُ فِي التَّوبةِ، حيثُ لَا توبةَ بَلا ندمٍ، ولَا تُشترطُ التَّوبةُ فِي النَّدمِ.

الاستغفارُ:

الاستغفارُ لغةً:

(استغفر): أيْ طلبَ المغفرةَ، واستغفرَ اللّهَ ذنبهُ: طلبَ منهُ غفرهُ[3]، وفِي اللُّغةِ العربيَّةِ إذَا دخلتِ السِّينُ والتَّاءُ علَى الفعلِ أفادتْ معنَى الطَّلبِ.

وبهذَا، فإنّ معنَى الاستغفارِ فِي اللُّغةِ: طلبُ السّترِ، وطلبُ تركِ المؤاخذةِ علَى الذّنبِ.

---

(1) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٩٦.

(2) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٣٥.

(3) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/٣٢٧٤.

الاستغفارُ اصطلاحًا:

طلبُ سترِ الذَّنبِ بالعفوِ عنهُ، وعدمِ العقوبةِ عليهِ[1].

الصِّلةُ بينَ التَّوبةِ والاستغفارِ:

قالَ ابنُ القيِّمِ: الاستغفارُ يتضمَّنُ التَّوبةُ، والتَّوبةُ تتضمَّنُ الاستغفارَ، وكلٌّ منهمَا يدخلُ فِي مسمَّى الآخرِ عندَ الإطلاقِ، وأمَّا عندَ اقترانِ إحدَى اللَّفظتينِ بالأخرَى، فالاستغفارُ: طلبُ وقايةِ شرٍّ مَا مضَى، والتَّوبةُ: الرُّجوعُ وطلبُ وقايةِ شرٍّ مَا يخافهُ فِي المستقبلِ منْ سيِّئاتِ أعمالِهِ[2].

العفوُ لغةً:

العفوُ يُطلقُ علَى معنيينِ أصليَّينِ: أحدهمَا: تركُ الشَّيءِ، والآخرُ: طلبهُ.

فمنَ المعنَى الأوَّلِ: عفوُ اللهِ تعالَى عنْ خلقهِ، وذلكَ تركهُ إيَّاهمْ فلَا يعاقبهمْ فضلًا منهُ.

ومنَ المعنَى الثَّانِي: قولُ: اعتفيتُ فلانًا، إذَا طلبتُ معروفهُ وفضلهُ، فهوَ القصدُ لتناولِ الشَّيءِ[3].

والعفوُ أيضًا: خيارُ الشَّيءِ وأجودهُ، والعفوُ منَ الماءِ: مَا فضلَ عنِ الشَّاربةِ وأُخذَ بلَا كلفةٍ ولَا مزاحمةٍ، العفوُ منَ البلادِ: مَا لَا أثرَ لأحدٍ فيهَا بملكٍ[4].

فهذانِ همَا المعنيانِ الأصليَّانِ للعفوِ، وعليهمَا يدورُ جميعُ معانِي العفوِ، فيفسَّرُ فِي كلِّ مقامٍ بمَا يناسبهُ.

---

(1) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨٥/٣، روح المعاني، الألوسي ٢٠٧/١١.

(2) مدارج السالكين ٣٠٨/١.

(3) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥٦/٤، جمهرة اللغة، ابن دريد ٩٣٨/٢.

(4) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٧٢/١٥، الصحاح، الجوهري ٢٤٣١/٦، تاج العروس، الزبيدي ٦٩/٣٩.

العفوُ اصطلاحًا:

العفوُ اصطلاحًا: التَّجاوزُ عنِ الذَّنبِ وتركُ العقابِ[1].

وقالَ الرَّاغبُ: العفوُ هوُ التَّجافِي عنِ الذَّنبِ[2].

والعفوُ: كفُّ الضَّررِ معَ القدرةِ عليهِ، وكلُّ منِ استحقَّ عقوبةً فتركهَا، فقدْ عفَا[3].

فالمعنَى الاصطلاحِي متفِّقٌ معَ المعنَى الأوَّلِ منَ المعنيينِ اللُّغويين للعفوِ، وهوَ: تركُ الشَّيءِ، أي: عفوُ اللهِ تعالَى عنْ خلقهِ، وذلكَ ترْكُهُ إيَّاهمْ فلَا يعاقبهمْ فضلًا منهُ.

الصِّلةُ بينَ التَّوبةِ والعفوِ:

العفوُ هوَ الحلقةُ الثَّالثةُ منْ سلسلةِ الخيرِ، وهيَ نتاجُ الحلقتينِ الأولتينِ، فالمذنبُ يتوبُ أوَّلًا، ثمَّ يستغفرُ، ثمَّ ينالُ العفوَ.

---

(1) انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري ٦/١٤٣.

(2) المفردات، الراغب ص ٥٧٤.

(3) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٣، ٥٩٨.

{شروطُ التَّوبةِ}

شروطُ التَّوبةِ كمَا ذكرهَا العلماءُ هيَ:

1) أن يُقلعَ عنِ الذَّنبِ.

2) أنْ يندمَ علَى مَا قدْ مضَى.

3) أنْ يعزمَ فِي المستقبلِ علَى ألَّا يعودَ إليهِ.

4) وإذَا كانَ الأمرُ يتعلَّقُ بحقوقِ الآدميينَ، سواءً بأموالهمْ، أوْ أعراضهمْ، أوْ أبدانهمْ، فعليهِ أنْ يطلبَ العفوَ ممَّنْ لهُ عليهِ حقٌّ، أو يؤدِّي الحقوقَ إلَى أهلهَا.

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: والظُّلمُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ لهُ دواوينُ ثلاثةٌ: ديوانٌ لَا يغفرُ اللهُ منهُ شيئًا، وهوَ الشِّركُ بهِ، فإنَّ اللهَ لَا يغفرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ، وديوانٌ لَا يتركُ اللهُ تعالَى منهُ شيئًا، وهوَ ظلمُ العبادِ بعضهمْ بعضًا، فإنَّ اللهَ تعالَى يستوفيهِ كلَّهُ، وديوانٌ لَا يعبأُ اللهُ بهِ شيئًا، وهوَ ظلمُ العبدِ نفسهُ بينهُ وبينَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّ هذَا الدِّيوانَ أخفُّ الدَّواوينِ وأسرعهَا محوًا، فإنَّهُ يُمحَى بالتَّوبةِ والاستغفارِ، والحسناتِ الماحيةِ، والمصائبِ المكفِّرةِ، ونحوِ ذلكَ، بخلافِ ديوانِ الشِّركِ؛ فإنَّهُ لَا يُمحَى إلَّا بالتَّوحيدِ، وديوانٌ المظالمِ لَا يُمحَى إلَّا بالخروجِ منهَا إلَى أربابهَا واستحلالهمْ منهَا[1].

---

(1) ((الوابل الصيب)) (24/1).

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ كانتْ عندهُ مظلمةٌ لأخيهِ منْ عرضهِ، أوْ منْ شيءٍ، فليتحلَّلهُ منهُ اليومَ، قبلَ أنْ لَا يكونَ دينارٌ ولَا درهمٌ، إنْ كانَ لهُ عملٌ صالحٌ أُخذَ منهُ بقدرِ مظلمتهِ، وإنْ لمْ يكنْ لهُ حسناتٌ، أُخذَ منْ سيِّئاتِ صاحبهِ فحملَ عليهِ"[1].

وعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "لتؤدنَّ الحقوقَ إلَى أهلهَا يومَ القيامةِ، حتَّى يُقادُ للشَّاةِ الجلحاءِ منَ الشَّاةِ القرناءِ"[2].

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ أنيسٍ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: "يحشرُ العبادُ يومَ القيامةِ حفاةً عراةً غرلًا بهمًا[3]، فيناديهمْ منادٍ بصوتٍ يسمعهُ مَنْ بعُدَ كمَا يسمعهُ مَنْ قرُبَ: أنَا الملكُ، أنَا الديَّانُ، لَا ينبغِي لأحدٍ منْ أهلِ الجنَّةِ أنْ يدخلَ الجنَّةَ وأحدٍ منْ أهلِ النَّارِ يطلبهُ بمظلمةٍ، حتَّى اللَّطمةُ فمَا فوقهَا، ولَا ينبغِي لأحدٍ منْ أهلِ النَّارِ أنْ يدخلَ النَّارَ وعندهُ مظلمةٌ، حتَّى اللَّطمةُ فمَا فوقهَا {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[الكهف: 49]، قلنَا: يَا رسولَ اللهِ، كيفَ وإنَّمَا نأتِي حفاةً عراةً غرلًا [4] بهمًا؟ قالَ: بالحسناتِ والسيِّئاتِ جزاءً وفاقًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا"[5].

---

(1) رواه البخاري (6534) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) رواه مسلم (2582).

(3) البهم جمع بهيم، وهو في الأصل الذي لا يخالط لونه لون سواه، يعني ليس فيهم شيء من العاهات والأعراض التي تكون في الدنيا كالعمى والعور والعرج وغير ذلك. انظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (167/1).

(4) الغرل: جمع الأغرل، وهو الأقلف. انظر ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (362/3).

(5) رواه أحمد (495/3) (16085)، والحاكم (475/2)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (265/8). وحسن إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (218/4)، والعراقي في تخريجه للإحياء (283/5)، والهيثمي في ((المجمع)) (354/10)، وحسنه ابن القيم كما في ((مختصر الصواعق المرسلة)) (489).

وقالَ أبُو الزِّنادِ: كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يردُّ المظالمَ إلَى أهلهَا بغيرِ البيِّنةِ القاطعةِ، كانَ يكتفِي باليسيرِ، إذَا عرفَ وجهَ مَظْلِمةِ الرَّجُلِ ردَّهَا عليهِ، ولمْ يكلِّفْهُ تحقيقَ البيِّنةِ، لمَا يعرفُ منْ غشمِ الوُلَّاةِ قبلهُ علَى النَّاسِ، ولقدْ أنفدَ بيتَ مالَ العراقِ فِي ردِّ المظالمِ حتَّى حُمِلَ إليهَا منَ الشَّامِ[1].

هذَا فِي شروطِ التَّوبةِ، وأمَّا فِي مَا يخصُّ قبولَ اللهِ تعالَى لتوبةِ عبدهِ، فعدُّوا لهَا شروطًا ملازمةً لمَا سبقَ، نذكرُ منهَا:

شروطُ قبولِ التَّوبةِ:

قالَ تعالَى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[النساء: 17].

ذكرتِ الآيةُ لقبولِ التَّوبةِ قيدينِ: (بِجَهَالَةٍ) و(مِنْ قَرِيبٍ).

والجهالةُ تُطلقُ علَى سوءِ المعاملةِ، وعلَى الإقدامِ علَى العملِ دونَ رويَّةٍ، وهيَ مَا قابَلَ الحلمَ؛ ولذلكَ تُطلقُ الجهالةُ علَى الظلمِ، قالَ عمرُو بنُ كلثومٍ:

ألَا لَا يجهلنَّ أحدٌ علينَا * فنجهلُ فوقُ جهلِ الجاهلينَا[2].

وقالَ تعالَى حكايةً عنْ يوسفَ: {وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ}[يوسف: 33].

(1) ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (ص 241)
(2) البيت من معلقته المشهورة. انظر: ديوان عمرو بن كلثوم ص ٧٨.

والمرادُ هنَا ظلمُ النَّفسِ[1]، وعلَى ذلكَ فالجهالةُ: سفاهةٌ وقلَّةُ تحصيلٍ أدَّى إلَى المعصيةِ[2].

وقولهُ: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ إلَى وقتِ الذَّنبِ، ومدَّةِ الحياةِ كلِّهَا.

وجمهورُ المفسِّرينَ علَى أنَّ التَّوبةُ تُبلُ قبلَ المعاينةِ، قالَ عكرمةُ: قبلَ الموتِ، وقالَ الضحَّاكُ: قبلَ معاينةِ ملكِ الموتِ، وقالَ السدِّي والكلبِي: أنْ يتوبَ فِي صحَّتهِ قبلَ مرضِ موتهِ[3]، وهذَا مرجوحٌ.

فقدْ روَى التِّرمذِي بسندهِ عنِ ابنِ عمرَ، عنْ النّبيّ ﷺ قالَ: "إنّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ مَا لمْ يغرغرْ"[4].

وإنَّماَ صحَّتِ التَّوبةُ منَ العبدِ فِي هذَا الوقتِ؛ لأنَّ الرَّجاءَ فيهِ باقٍ، ويصحُّ منهُ النَّدمُ، والعزمُ علَى تركِ الفعلِ[5].

ولَا خُلْفَ فِي وعدهِ سبحانهِ وتعالَى علَى قبولِ توبةِ العبدِ (إذَا كانتْ بشروطِ قبولهَا، وهيَ أربعةٌ: النَّدمُ بالقلبِ، وتركُ المعصيةِ فِي الحالِ، والعزمِ علَى ألَّا يعودَ إلَى مثلهَا، وأنْ يكونَ ذلكَ حياءً وخوفًا منَ اللهِ تعالَى لَا منْ غيرهِ) وقدْ قيلَ منْ شروطهَا: الاعترافُ بالذَّنبِ وكثرةُ الاستغفارِ[6].

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢٧٨.

(2) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٤.

(3) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٩٥.

(4) أخرجه الترمذي في سننه رقم ٣٥٣٧. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٩٠٣.

(5) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/٢٥.

(6) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٩١.

وإنْ أتَى المذنبُ بشروطِ التَّوبةِ وشروطِ قبولِهَا، ثمَّ عادَ إلَى الذَّنبِ، وجبَ عليهِ العودُ إلَى التَّوبةِ، وإنْ تابَ أوَّلًا حياءً منَ المسلمينَ لَا منَ اللهِ تعالَى فليستمرَّ فِي ذلكَ حتَّى يأذنَ اللهُ فِي توبتهِ، ثمَّ إذَا صفتْ سريرتهُ وتابَ اللهُ عليهِ، قُبلتْ توبتهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالَى، وفِي وصفٍ قريبٍ منْ ذلكَ قالُوا: طلبنَا العلمَ لغيرِ اللهِ فأبَى أنْ يكونَ إلَّا للهِ[1] ومنْ أرادَ التَّوبةَ ولمْ يستطعِ الاقلاعَ عنِ الذَّنبِ يستمرُّ في طلبِ التَّوبةِ ولَا ييأسْ حتَّى يأذنَ اللهُ فِي توبتهِ.

عدمُ قبولِ التَّوبةِ:

أخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ لَا يكونُ قبولُ التَّوبةِ منَ الذينَ يصرّونَ علَى ارتكابِ المعاصِي، ولَا يرجعونَ إلَى ربِّهمْ إلَى أنْ تأتيهمْ سكراتُ الموتِ، ولَا تُقبلُ توبةُ الذينَ يموتونَ وهمْ كافرونَ.

قالَ تعالَى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[النساء: 18].

يعنِي بذلكَ جلَّ ثناؤهُ: (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) منْ أهلِ الإصرارِ علَى معاصِي اللهِ، (حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) يقولُ: إذَا حشرجَ أحدهمْ بنفسهِ، وعاينَ ملائكةَ ربِّهِ قدْ أقبلُوا إليهِ لقبضِ روحهِ قالَ: وقدْ غلبَ

(1) المجموع شرح المهذب.

علَى نفسهِ، وحيلَ بينهُ وبينَ فهمهِ بشغلهِ بكربِ حشرجتهِ وغرغرتهِ: (قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)، يقولُ: فليسَ لهذَا عندَ اللهِ تباركَ وتعالَى توبةٌ؛ لأنَّهُ قالَ مَا قالَ فِي غيرِ حالِ توبةٍ[1].

وسنُّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ أنَّ العبدَ إذَا عاينَ الانتقالَ الَى اللهِ تعالَى لمْ ينفعهُ توبةٌ ولَا إقلاعٌ[2]؛ وذلكَ أنَّ التَّوبةَ فِي هذهِ الحالةِ توبةُ المضطرِّ، لجّتْ بهِ الغوايةُ، وأحاطتْ بهِ الخطيئةُ، توبةُ الذِي يتوبُ لأنَّهُ لمْ يعدْ لديهِ متَّسعٌ لارتكابِ الذُّنوبِ، ولَا فسحةٌ لمقارفةِ الخطيئةِ، وهذهِ لَا يقبلهَا اللهُ؛ لأنَّهَا لَا تنشيءُ صلاحًا فِي القلبِ ولَا صلاحًا فِي الحياةِ، ولَا تدلُّ علَى تبدُّلٍ فِي الطَّبعِ ولَا تغيُّرٍ فِي الاتِّجاهِ.

(وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ)، وهؤلاءِ قدْ قطعُوا كلَّ مَا بينهمْ وبينَ التَّوبةِ منْ وشيجةٍ، وضيّعُوا كلَّ مَا بينهمْ وبينَ المغفرةِ منْ فرصةٍ[3].

وأخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّهُ لَا يقبلُ التَّوبةَ عندمَا يأتِي بعضُ أشراطِ السَّاعةِ وعلاماتهَا الدَّالةِ علَى مجيئهَا، وهيَ طلوعُ الشَّمسِ منْ مغربهَا، قالَ تعالَى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ}[الأنعام: 158].

(1) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥١٦.

(2) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٨٣.

(3) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٦٠٤

والحكمةُ فِي هذَا ظاهرةٌ، فإنَّهُ إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانًا بالغيب، وكان اختيارًا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة؛ لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أقلع عما هو فيه، كما قال تعالى: "فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}[غافر: 84 – 85][1].

قالَ جمهورُ أهلِ التَّأويلِ: الآيةُ التِي لَا تنفعُ التَّوبةَ منَ الشِّركِ أوْ منَ المعاصِي بعدهَا، هيَ طلوعُ الشَّمسِ منَ المغربِ[2].

وقدْ روَى البخاريُّ بسندهِ، عنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: "لَا تقومُ السّاعةُ حتّى تطلعَ الشّمسُ منْ مغربِهَا، فإذَا رآهَا النّاسُ آمنَ منْ عليهَا، فذاكَ حينَ (لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ)"[3].

ونخرجُ بهذَا أنَّ شروطَ التوبةِ مع قبولهَا:

1) النَّدمُ منَ القلبِ، ومنهُ العزمُ علَى عدمِ العودةِ.

2) الاستغفارُ لإدراكِ عفوِ اللهِ تعالَى.

3) أنْ تكونَ التَّوبةُ قبلَ الغرغرةِ وقبلَ أشراطَ السَّاعةِ.

---

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨١.

(2) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٧.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الأنعام، باب لا ينفع نفس إيمانها، ١٤/ ١٧٤، رقم ٤٢٦٩.

اقترانُ التَّوبةِ بالإصلاحِ والاستغفارِ:

أوَّلًا: اقترانُ التَّوبةِ بالإصلاحِ:

قرنَ اللهُ سبحانهُ بينَ التَّوبةِ والإصلاحِ فِي مواضعَ منْ كتابهِ، منهَا: قوله تعالَى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 160].

وقوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[النور: 5].

فالآياتُ تدلُّ دلالةً واضحةً علَى أنَّهُ ليسَ المقصودُ بالتَّوبةِ تركُ القبيحِ فحسبُ، بلْ يجبُ فعلُ الحسنِ، وهوَ الإصلاحُ.

ومنْ أجلِ ذلكَ شرطَ سبحانهُ وتعالَى فِي توبةِ أهلِ الكتابِ الذينَ كانَ ذنبهمْ كتمانُ مَا أنزلَ اللهُ منَ البيِّناتِ والهدَى؛ ليضلُّوا النَّاسَ بذلكَ، شرطَ أنْ يُصلحُوا العملَ فِي نفوسهمْ، ويبيِّنُوا للنَّاسِ مَا كانُوا يكتمونهمْ إيَّاهُ، فقالَ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 159 – 160].

وشرطَ سبحانهُ فِي توبةِ المنافقينَ الذينَ كانَ ذنبهمْ إفسادُ قلوبِ ضعفاءِ المؤمنينَ، وتحيُّزهمْ واعتصامهمْ باليهودِ والمشركينَ أعداءِ الرَّسولِ ﷺ، وإظهارهمُ الإسلامَ رياءً وسمعةً: أنْ يصلحُوا بدلَ إفسادهمْ، وأنْ يعتصمُوا باللهِ بدلَ اعتصامهمْ بالكفَّارِ منْ أهلِ الكتابِ والمشركينَ، وأنْ يخلصُوا دينهمْ للهِ

بدلَ إظهارهمْ رياءً وسمعةً، فهكذَا تفهمُ شرائطَ التَّوبةِ وحقيقتهَا[1]، كمَا قالَ تعالَى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}[النساء: 146].

وتجدرُ الإشارةُ هنَا إلَى أنَّ هناكَ أعمالًا طلبَ اللهُ فيهَا التَّوبةَ فقطْ، وأعمالًا طلبَ فيهَا التَّوبةَ والإصلاحَ، وأعمالًا طلبَ فيهَا التَّوبةَ والإصلاحَ والبيانَ.

ثانيًا: اقترانُ التَّوبةِ بالاستغفارِ:

قرنَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى بينَ التَّوبةِ والاستغفارِ علَى ألسنةِ رسلهِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}[هود: 3].

وقالَ هودُ عليهِ السَّلامُ: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}[هود: 52].

وقالَ صالحٌ عليهِ السَّلامُ: {فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}[هود: 61].

وقالَ شعيبٌ عليهِ السَّلامُ: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}[هود: 90].

فالاستغفارُ: طلبُ وقايةِ شرّ مَا مضَى، والتَّوبةُ: الرُّجوعُ وطلبُ وقايةِ شرِّ مَا يخافهُ فِي المستقبلِ منَ سيِّئاتِ أعمالهِ[2].

---

(1) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١٧.

(2) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٣٤٥

وقيلَ فِي العلاقةِ بينهمَا: التَّوبةُ: هيَ الرُّجوعُ إلىَ اللهِ ممَّا يكرههُ اللهُ ظاهرًا وباطنًا إلَى مَا يحبُّهُ اللهُ ظاهرًا وباطنًا؛ ندمًا علَى مَا مضَى، وتركًا فِي الحالِ، وعزمًا علَى أنْ لَا يعودَ، والاستغفارُ: طلبُ المغفرةِ منَ اللهِ، فإنِ اقترنَ بهِ توبةٌ فهوَ الاستغفارُ الكاملُ الذِي رتّبتَ عليهِ المغفرةَ، وإنْ لمْ تقترنْ بهِ التَّوبةُ فهوَ دعاءٌ منَ العبدِ لربِّهِ أنْ يغفرَ لهُ، فقدْ يُجابُ دعاؤهُ وقدْ لَا يُجابُ، وهوَ بنفسهِ عبادةٌ منَ العباداتِ، فهوَ دعاءُ عبادةٍ، ودعاءُ مسألةٍ[1].

اسمُ اللهِ التوَّابِ:

التوَّابُ منْ أسماءِ اللهِ تعالَى فقدِ اشتقّ اللهُ سبحانهُ وتعالَى منَ التَّوبةِ اسمًا لهُ، وهوَ التوّاب؛ دلالةً علَى عظمِ التَّوبةِ وفضلهَا:

أولًا: معنَى اسمِ اللهِ التوَّابِ:

قالَ الطبريُّ رحمهُ اللهُ تعالَى: إنَّ اللهَ جلَّ ثناؤهُ هوَ التوّابُ علَى منْ تابَ إليهِ منْ عبادهِ المذنبينَ منْ ذنوبهِ، التَّاركِ مجازاتهِ بإنابتهِ إلَى طاعتهِ بعدَ معصيتهِ بمَا سلفَ منْ ذنبهِ[2].

وجاءَ (توّاب) علَى أبنيةِ المبالغةِ لقبولهِ توبةَ عبادهِ، وتكريرُ الفعلِ منهمْ دفعةً بعدَ دفعةٍ، وواحدًا بعدَ واحدِ علَى طولِ الزَّمانِ، وقبولهِ عزَّ وجلَّ ممَّنْ يشاءُ أنْ يقبلَ منهُ؛ فلذلكَ جاءَ علَى أبنيةِ المبالغةِ، فالعبدُ يتوبُ إلَى اللهِ عزَّ وجلَّ ويقلعُ عنْ ذنوبهِ، واللهُ يقبلُ توبتهُ، فالعبدُ تائبٌ واللهُ توّابٌ[3].

---

(1) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ٢/ ٣٦٤.

(2) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥٨٧

(3) اشتقاق أسماء الله، ص ٦٢.

وقالَ ابنُ القيِّمِ فِي نونيَّتهِ:

وكذلكَ التوّابُ منْ أوصافهِ * والتوّابُ فِي أوصافهِ نوعانِ

إذنٌ بتوبةِ عبدهِ وقبولـهَا * بعدَ المتابِ بمنَّةِ المنَّــانِ[1]

ويقولُ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: فهوَ التَّائبُ علىَ التَّائبينَ أوَّلًا بتوفيقهمْ للتَّوبةِ، والإقبالِ بقلوبهمْ إليهِ، وهوَ التَّائبُ عليهمْ بعدَ توبتهمْ قبولًا لهَا، وعفوًا عنْ خطاياهمْ[2].

ثانيًا: الأسماءُ المقترنةُ باسمهِ تعالَى التوّابُ:

وردَ اسمُ اللهِ سبحانهُ وتعالَى (التَّوَّابُ) فِي إحدَى عشرةَ آيةً فِي القرآنِ الكريمِ[3]**:**

1) اسمُ اللهِ الرَّحيمِ:

اقترنَ اسمُ اللهِ التَّوابُ باسمِ اللهِ الرَّحيمِ فِي تسعِ آياتٍ، منهَا:

قولهُ تعالَى: {فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 37].

---

(1) الكافية الشافية، ابن القيم ص٢٠٩.

(2) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٦.

(3) المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٣٧٠.

وقوله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[التوبة: 104].

وقوله تعالى: {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}[الحجرات: 12].

ومناسبةُ هذَا الاقترانِ: أنَّ توبةَ اللهِ تعالَى علَى عبادهِ وتوفيقهمْ إليهَا ثمَّ قبولهَا منهمْ، هوَ منْ آثارِ رحمتهِ تعالَى وبرِّهِ وإحسانهِ.

قالَ الطَّبريُّ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ قولهِ تعالَى: {إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[التوبة: 118]: إنَّ اللهَ هوَ الوهَّابُ لعبادهِ الإنابةَ إلَى طاعتهِ، الموفِّقِ منْ أحبَّ توفيقهُ منهمْ لمَا يرضيهِ عنهُ، الرَّحيمِ بهمْ أنْ يعاقبهمْ بعدَ التَّوبةِ، أوْ يخذلَ منْ أرادَ منهمْ التَّوبةَ والإنابةَ ولَا يتوبُ عليهِ[1].

وقالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: (إِنَّ اللهَ هوَ التَّوَّابُ) أيْ: كثيرُ التَّوبةِ والعفوِ، والغفرانِ عنِ الزلَّاتِ والعصيانِ، (الرَّحِيمُ) وصفهُ الرَّحمةُ العظيمةُ التِي لَا تزالُ تنزلُ علَى العبادِ فِي كلِّ وقتٍ وحينٍ، فِي جميعِ اللَّحظاتِ، مَا تقومُ بهِ أمورهمُ الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ[2].

---

(1) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٥٤.

(2) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٤.

2) اسمُ اللهِ الحكيمِ:

واقترنَ اسمُ اللهِ التوَّابِ باسمهِ تعالَى الحكيمِ مرَّةً واحدةً، فِي قولِهِ تعالَى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ}[النور: 10].

فهوَ (توَّابٌ) يقبلُ العاصينَ منكمْ، ويردّهمْ إلَى دائرةِ المؤمنينَ الصَّالحينَ، إذَا همْ تابُوا وأصلحُوا، وهوَ سبحانهُ: (حكيمٌ) فيمَا حدّ منْ حدودٍ ورصدٍ منْ عقوباتٍ، للمعتدينَ علَى حدودهِ[1].

وفِي ذكرِ وصفِ (حكيمٍ) هنَا معَ وصفِ (توَّابٍ) إشارةٌ إلَى أنَّ فِي هذهِ التَّوبةِ حكمةٌ، وهيَ استصلاحُ النَّاسِ[2].

---

(1) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١٢٢٦.

(2) التحرير والتنوير، ١٨/ ١٣٥.

ثمراتُ التَّوبةِ وعاقبةُ الإعراضِ عنهَا:

للتَّوبةِ إلَى اللهِ تعالَى ثمراتٌ جزيلةٌ، وللمعرضينَ عنهَا عواقبُ وخيمةٌ، نذكرُ منهَا مَا يلِي:

أوَّلًا: ثمراتُ التَّوبةِ:

ذكرَ القرآنُ الكريمُ ثمرات للتَّوبةِ؛ لحضِّ العبادِ علَى المسارعةِ إليهَا، منهَا:

1) الفلاحُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ:

علّقَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى الفلاحَ علَى التَّوبةِ، فقالَ تعالَى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[النور: 31] فمنْ سُبلِ الفلاحِ التَّوبةُ، وهيَ الرُّجوعُ ممَّا يكرههُ اللهُ، ظاهرًا وباطنًا، إلَى مَا يحبُّهُ ظاهرًا وباطنًا، ودلَّ هذَا أنَّ كلَّ مؤمنٍ محتاجٌ إلَى التَّوبةِ؛ لأنَّ اللهَ خاطبَ المؤمنينَ جميعًا، وفيهِ الحثُّ علَى الإخلاصِ بالتَّوبةِ فِي قولهِ: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ) أي: لَا لمقصدِ غيرِ وجههِ، منْ سلامةٍ منْ آفاتِ الدُّنيَا، أوْ رياءٍ وسمعةٍ، أوْ نحوِ ذلكَ منَ المقاصدِ الفاسدةِ[1].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٦٦.

2) دعاءُ حملةِ العرشِ للتَّائبينَ:

ذكرَ سبحانهُ وتعالَى دعاءَ الذينَ يحملونَ عرشَ الرَّحمنِ منَ الملائكةِ ومنْ حولَ العرشِ ممَّنْ يحفُّ بهِ منهمْ، بالمغفرةِ للذينَ تابُوا منَ الشِّركِ والمعاصِي.

قالَ تعالَى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}[غافر: 7].

أي: فاصفحْ عنِ المسيئينَ إذَا تابُوا وأنابُوا، وأقلعُوا عمَّا كانُوا فيهِ، واتَّبعُوا مَا أمرتهمْ بهِ منْ فعلِ الخيراتِ وتركِ المنكراتِ[1].

3) المتاعُ الحسنُ:

ذكرَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى أنَّ هودًا عليهِ السَّلامُ دعَا قومهُ أنْ يسألُوا اللهَ أنْ يغفرَ لهمْ ذنوبهمْ، ثمَّ يرجعُوا إليهِ نادمينَ يمتعّهمْ فِي دنياهمْ متاعًا حسنًا بالحياةِ الطَّيِّبةِ فيهَا، إلَى أنْ يحينَ أجلهمْ.

قالَ تعالَى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ}[هود: 3].

---

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١١٩.

أيِ: استغفرُوا ربَّكمْ، ثمَّ توبُوا إليهِ، فإنَّكمْ إذَا فعلتمْ ذلكَ بسطَ عليكمْ منَ الدُّنيَا، ورزقكمْ منْ زينتهَا، وأنسأَ لكمْ فِي آجالكمْ إلَى الوقتِ الذِي قضَى فيهِ عليكمْ الموتَ[1].

وهذهِ القاعدةُ التِي يقرِّرهَا القرآنُ فِي مواضعَ متفرِّقةٍ، قاعدةٌ صحيحةٌ تقومُ علَى أسبابهَا منْ وعدِ اللهِ، ومنْ سنَّةِ الحياةِ، كمَا أنَّ الواقعَ العمليَّ يشهدُ بتحقُّقهَا علَى مدارِ القرونِ. والحديثِ فِي هذهِ القاعدةِ عنِ الأممِ لَا عنِ الأفرادِ، ومَا منْ أمَّةٍ قامَ فيهَا شرعُ اللهِ، واتَّجهتِ اتِّجاهًا حقيقيًا للهِ بالعملِ الصَّالحِ والاستغفارِ المنبيءِ عنْ خشيةِ اللهِ، مَا منْ أمَّةٍ اتَّقتِ اللهَ وعبدتهُ وأقامتْ شريعتهُ، فحقَّقتِ العدلَ والأمنَ للنَّاسِ جميعًا، إلَّا فاضتْ فيهَا الخيراتُ، ومكّنَ اللهُ لهَا فِي الأرضِ، واستخلفهَا فيهَا بالعمرانِ وبالصَّلاحِ سواءً[2].

ووصفَ المتاعَ "بالحسنِ" إنَّمَا هوَ لطيبِ عيشِ المؤمنِ برجائهِ فِي اللهِ عزَّ وجلَّ وفِي ثوابهِ وفرحهِ بالتقرُّبِ إليهِ بمفترضاتهِ والسُّرورِ بمواعيدهِ[3]، وفِي الآيةِ دلالةٌ علَى أنَّ ثمرةَ الاستغفارِ والتَّوبةِ، سعةُ الرِّزقِ ورغدِ العيشِ.

---

(1) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣١٣.

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٧١٣.

(3) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٤٩.

4) إبدالُ السيِّئاتِ حسناتٍ:

ذكرَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى أنَّ منْ تابَ منَ الذُّنوبِ توبةً نصوحًا وآمنَ إيمانًا جازمًا مقرونًا بالعملِ الصَّالحِ، فأولئكَ يمحُو اللهُ عنهمْ سيِّئاتهمْ ويجعلُ مكانهَا حسناتٍ؛ بسببِ توبتهمْ وندمهمْ.

قالَ تعالَى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[الفرقان: 70].

أيْ: تتبدَّلُ أفعالهمْ وأقوالهمْ السيِّئةُ تتبدَّلُ حسناتٍ، فيتبدَّلُ شركهمْ إيمانًا، ومعصيتهمْ طاعةً، وتتبدَّلُ نفسُ السيِّئاتِ التِي عملوهَا ثمَّ أحدثُوا عنْ كلِّ ذنبٍ منهَا توبةً وإنابةً وطاعةً تبدّلُ حسناتٍ[1]، وهوَ فيضٌ منْ عطاءِ اللهِ لَا مقابلَ لهُ منْ عملِ العبدِ إلَّا أنَّهُ اهتدَى ورجعَ عنِ الضَّلالِ، وثابَ إلَى حمَى اللهِ، ولاذَ بهِ بعدَ الشُّرودِ والمتاهةِ[2].

وفِي الآيةِ دلالةٌ علَى أنَّ بابَ التَّوبةِ دائمًا مفتوحٌ، يدخلُ منهُ كلُّ منِ استيقظَ ضميرهُ، وأرادَ العودةَ والمآبَ، لَا يُصدُّ عنهُ قاصدٌ، ولَا يُغلقُ فِي وجهِ لاجئٍ، أيًا كانَ، وأيًا مَا ارتكبَ منَ الآثامِ.

وقدْ روَى مسلمٌ بسندهِ عنْ أبِي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: "إنّي لأعرفُ آخرَ أهلَ النّارِ خروجًا منَ النّارِ، وآخرَ أهلِ الجنّةِ دخولًا إلَى

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٨٧.
(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٥٧٩.

الجنّةِ، يؤتَى برجلٍ فيقولُ: نحّوا كبارَ ذنوبهِ، وسلوهُ عنْ صغارهَا، قالَ: فيقالُ لهُ: عملتَ يومَ كذَا، كذَا وكذَا، وعملتَ يومَ كذَا، كذَا وكذَا، فيقولُ: نعمَ، لَا يستطيعُ أنْ يُنكرَ منْ ذلكَ شيئًا، فيقالُ: فإنّ لكَ بكلّ سيّئةٍ حسنةً، فيقولُ: يَا ربّ عملتُ أشياءً لَا أراهَا هاهنَا قالَ: فضحكَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى بدتْ نواجذهُ[1].

5) الإمدادُ بالمطرِ وقتِ الحاجةِ إليهِ والرزق:

أخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّ هودًا عليهِ السَّلامُ قالَ لقومهِ: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}[هود: 52].

يقولُ سبحانهُ: فإنَّكمْ إنْ آمنتمْ باللهِ، وتبتمْ منْ كفركمْ بهِ، أرسلَ قطرَ السَّماءِ عليكمْ، يدرّ لكمُ الغيثَ فِي وقتِ حاجتكمْ إليهِ، وتحيَا بلادكمْ منَ الجدبِ والقحطِ، ورزقكمُ المالَ والولدَ[2].

قيلَ: إنَّهمْ كانُوا أصحابَ زروعٍ وبساتينَ، وعماراتٍ، حراصًا عليهَا أشدَّ الحرصِ، فكانُوا أحوجَ شيءٍ إلَى الماءِ، وكانُوا مدلينَ بمَا أوتُوا منْ هذهِ القوَّةِ والبطشِ والبأسِ، مهيَّئينَ فِي كلِّ ناحيةٍ[3].

وفِي الآيةِ دلالةٌ علَى أنَّ منْ ثمرةِ التَّوبةِ حياةُ البلادِ منَ الجدبِ والقحطِ، وحياةِ العبادِ بزيادةِ الأموالِ والأولادِ.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب، ما أدنى أهل الجنة منزلة، رقم ٣٠٨.

(2) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٤٤.

(3) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٦٦.

ثانيًا: عاقبةُ المعرضينَ عنِ التَّوبةِ:

ذكرَ القرآنُ الكريمُ عاقبةَ المعرضينَ عنِ التَّوبةِ، والتِي منهَا:

1) عذابُ جهنَّمَ:

عرضَ اللّٰهُ سبحانهُ وتعالَى علَى منْ قتلَ أولياءهُ التَّوبةَ، وهدّدهمْ إنْ لمْ يتوبُوا بالعذابِ الشَّديدِ، فقالَ تعالَى: {إنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا المُؤمِنينَ والمؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ}[البروج: 10].

أي: ثمَّ لمْ يتوبُوا، أيْ لمْ يقلعُوا عمَّا فعلُوا، ويندمُوا علَى مَا أسلفُوا، (فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ) وذلكَ أنَّ الجزاءَ منْ جنسِ العملِ، قالَ الحسنُ رحمهُ اللّٰهُ تعالَى: انظرُوا إلَى هذَا الكرمِ والجودِ، همْ قتلُوا أولياءهُ وأهلَ طاعتهِ، وهوَ يدعوهمْ إلَى التَّوبةِ والمغفرةِ[1].

وفِي الآيةِ تعريضٌ للمشركينَ بأنَّهمْ إنْ تابُوا وآمنُوا سلمُوا منْ عذابِ جهنَّمَ[2].

---

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٣٦٥.

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٤٦.

2) استحقاقُ العقابِ:

وأخبرَ سبحانهُ وتعالَى أنَّ علَى العبدِ أنْ يتوبَ إلىَ اللهِ تعالَى، ويخرجَ منْ حقِّ أخيهِ المسلمِ، باستحلالهِ، والاستغفارِ، والمدحِ لهُ مقابلَ ذمِّهِ، وإلَّا أصبحَ ظالمًا لنفسهِ مستحقًا لعقابِ اللهِ تعالَى.

قالَ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[الحجرات: 11].

قولهُ تعالَى: (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)، يقولُ تعالَى ذكرهُ: ومنْ لمْ يتبْ منْ نبزِهِ أخاهُ بمَا نهَى اللهُ عنْ نبزهِ بهِ منَ الألقابِ، أوْ لمزهِ إيَّاهُ، أوْ سخريتِهِ منهُ، فأولئكَ همُ الذينَ ظلمُوا أنفسهمْ، فأكسبوهَا عقابَ اللهِ بركوبهمْ مَا نهاهمْ عنهُ[1].

وإذَا كانَ كلٌّ منَ السُّخريةِ واللَّمزِ والتَّنابزِ معاصٍ، فقدْ وجبتِ التَّوبةُ منهَا، فمنْ لمْ يتبْ فهوَ ظالمٌ؛ لأنَّهُ ظلمَ النَّاسَ بالاعتداءِ عليهمْ، وظلمَ نفسهُ بأنْ رضيَ لهَا عقابَ الآخرةِ معَ التمكُّنِ منَ الإقلاعِ عنْ ذلكَ، فكانَ ظلمهُ شديدًا جدًّا، فلذلكَ جيءَ لهُ بصيغةِ قصرِ الظَّالمينَ عليهمْ، كأنَّهُ لَا ظالمَ غيرهمْ؛ لعدمِ الاعتدادِ بالظالمينَ الآخرينَ فِي مقابلةِ هؤلاءِ علَى سبيلِ المبالغةِ ليزدجرُوا، والتَّوبةُ واجبةٌ منْ كلِّ ذنبٍ، وهذهِ الذُّنوبُ المذكورةُ مراتبُ، وإدمانُ الصَّغائرِ كبيرةٌ[2].

---

(1) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٣٧٣.

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٢٥٠.

3) العذابُ الأليمُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ:

دعاَ اللهُ سبحانهُ المنافقينَ الذينَ أساءُوا للرَّسولِ ﷺ وحاولُوا الإضرارَ بهِ وارتدُّوا عنِ الإسلامِ أنْ يرجعُوا إلَى الإيمانِ والتَّوبةِ، فإنْ رجعُوا فهوَ خيرٌ لهمْ، وإنْ يعرضُوا، أوْ يستمرُّوا علَى حالهمْ، يعذّبهمُ اللهُ العذابَ الموجعَ فِي الدُّنيَا علَى أيدِي المؤمنينَ، وفِي الآخرةِ بنارِ جهنَّمَ، قالَ تعالَى: {يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مْنْ فَضْلِهِ فإِنَ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَّتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخرةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}[التوبة: 74].

أي: وإنْ يستمرُّوا علَى طريقهمْ (يُعَذِّبْهُمْ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا) أي: بالقتلِ والهمِّ والغمِّ، (وَالآخرةِ) أي: بالعذابِ والنَّكالِ والهوانِ والصَّغارِ، (وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) أي: وليسَ لهمْ أحدٌ يسعدهمْ ولَا ينجدهمْ، لَا يحصّلُ لهمْ خيرًا، ولَا يدفعُ عنهمْ شرًّا[1].

وفِي الآيةِ دليلٌ علَى قبولِ توبةِ الزِّنديقِ المسرّ الكفرِ، المظهرِ للإيمانِ، وهوَ مذهبُ أبِي حنيفةَ والشَّافعيِّ وقالَ مالكٌ: لَا تقبلُ، فإنْ جاءَ تائبًا منْ قبلِ نفسهِ قبلَ أنْ يُعثرَ عليهِ قبلتْ توبتهُ بلَا خلافٍ[2]، والإمامُ مالكٌ لَا يقْصُدُ أنَّ اللهَ لَا

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٦١.

(2) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٤٦٦.

يقبلُ توبةَ المرتدِّ والمنافقِ إذَا عادَ، فهذَا غيرُ واردٍ، ولكنَّهُ يقصدُ الحدَّ، أيْ إنْ عادَ لدينهِ تائبًا لوحدهِ سقطَ عليهِ الحدُّ، وإنْ عُثرَ عليهِ أقيمَ عليهِ الحدُّ ولوْ قالَ أنَّهُ عادَ، وهذهِ المسألةُ فيهَا خلافٌ، وأنَا أرَى أنْ يخلَّى سبيلهُ فِي هذهِ الحالةِ ونوكِّلُ سريرتهُ إلَى اللهِ تعالَى، إلَّا إنْ كانَ محاربًا ذُو مكانةٍ فِي عسكرهِ ويُخشَى أنْ يكونَ كاذبًا وقالَ هذا خشيةَ الموتِ ثمَّ يعودُ فيهاجمُ المسلمينَ، أوْ كانَ كثيرَ الارتدادِ والعودِ، فهذانِ الإثنانِ إنْ عُثرَ عليهمَا قبلَ التَّوبةِ وإنْ قالَا أنَّهمَا تائبانِ، فإنَّهمَا يُقامُ عليهمَا الحدُّ وتُوكَّلُ سريرتهمَا إلَى اللهِ تعالَى، كنقيضِ حالِ الأوَّلِ الذِي ليسَ محاربًا ولَا كثيرَ الارتدادِ وعثرَ عليهِ وقالَ أنَّهُ تائبٌ فيُتركُ وتوكَّلُ سريرتهُ إلَى اللهِ تعالَى.

4) العذابُ الكبيرُ:

دعَا هودٌ عليهِ السَّلامُ قومهُ للرُّجوعِ إلَى اللهِ نادمينَ، وهدّدهمْ إنْ أعرضُوا عمّا يدعوهمْ إليهِ فسوفَ يحلُّ عليهمْ عذابٌ كبيرٌ، وهوَ يومَ القيامةِ.

قالَ تعالَى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٌ} [هود: 3].

يقولُ تعالَى ذكرهُ: وإنْ أعرضُوا عمَّا دعوتهمْ إليهِ منْ إخلاصِ العبادةِ للهِ، وتركِ عبادةِ الآلهةِ، وامتنعُوا منِ الاستغفارِ للهِ، والتَّوبةِ إليهِ فأدبرُوا مولِّينَ عنْ ذلكَ، فإنِّي أيُّهَا القومُ أخافُ عليكمْ عذابَ يومٍ كبيرٍ شأنهُ، عظيمٌ هولهُ[1]، ووصفهُ بالكبيرِ لزيادةِ تهويلهِ[2].

---

(1) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣١٥.

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١/ ٣١٩.

ثمَّ قالَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى: الصِّراطُ المستقيمُ: الذِي أمرَ اللهُ بلزومهِ وأثنَى علَى المستقيمينَ عليهِ، هوَ: الطَّريقُ المعتدلُ الموصلُ إلَى رضوانِ اللهِ وثوابِهِ، وهوَ متابعةُ النَّبيِّ ﷺ فِي أقوالِهِ وأفعالِهِ وكلِّ أحوالِهِ.

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ ذكرَ اللهُ سبحانهُ الصِّراطَ المستقيمَ فِي القرآنِ فِي مواضعَ عدَّةٍ، وأمرَ بطلبه ولزومهِ وعدمِ الخروجِ عنهُ، وأثنَى علَى المستقيمينَ عليهِ فقالَ تعالَى: {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الحَمدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَالكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِينَ}[الفاتحة].

وقالَ سبحانهُ: {إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ}[آل عمران: **51**].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}[الأنعام: **153**].

وقالَ سحانهُ وتعالَى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيَهُمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا}[النساء: **175**].
~~~~~~~~~~~

{مفهوم الصراط المستقيم}

الصِّراطُ المستقيمُ لغةً:

أوَّلًا لفظُ الصِّراطُ المستقيمُ: هوَ لفظٌ مركَّبٌ منْ جزئَيْنِ، فوجبَ منْ تعريفهِ تعريفُ جزئَيْهِ، "الصِّراطُ" و"المستقيمُ".

الصِّراطُ لغةً:

أصلُ الصِّراطِ بالسِّينِ، لأنَّهُ منَ السَّرَطِ والصَّادُ لغةً، قالَ الفرَّاءُ: وهيَ بالصَّادِ لغةُ قريشٍ الأوَّلينَ التِي جاءَ بهَا الكتابُ، وعامَّةُ العربِ تجعلهَا سينًا[1].

والصِّراطُ بالكسرِ: الطَّريقُ، وجسرٌ ممدونٌ علَى متنِ جهنَّمَ[2].

قالَ الرَّاغبُ: السِّراطُ: الطَّريقُ المستهلُّ، أصلهُ منْ سَرَطْتُ الطَّعامَ، وزَرَدْتُهُ: ابتلعتهُ، فقيلَ: سراطٌ، تصوُّرًا أنْ يبتلعهُ سالكهُ، أوْ يبتلعَ سالكهُ[3].

والأصلُ التِي تفيدهُ كلمةُ الصِّراطِ فِي اللُّغةِ هوَ البلعُ، ففِي لسانِ العربِ: سَرَطُ الطَّعامَ سراطًا: بلعهُ، وانسرطَ الشَّيءُ فِي حلقهِ سارَ فيهِ سيرًا سهلًا[4].

---

(1) لسان العرب – ابن منظور.

(2) القاموس المحيط – الفيروز آبادي.

(3) المفردات – الرَّغاب.

(4) لسان العرب – ابن منظور.

الصِّراطُ اصطلاحًا:

الصِّراطُ منَ السَّبيلِ: مَا لَا التواءَ فيهِ ولَا اعوجاجٌ، بلْ علَى جهةِ القصدِ فهوَ أخصُّ منَ السَّبيلِ (الذِي هوَ بذاتهِ) أخصُّ منَ الطَّريقِ[1].

وعرَّفهُ بعضهمْ بأنَّهُ: الطَّريقُ، مستقيمًا كانَ أوْ غيرهُ، ويُطلقُ علَى الجسرِ الممدودِ علَى متنِ جهنَّمَ، يعبرهُ أهلُ الجنَّةِ علَى حسبِ أعمالهمْ[2].

المستقيمَ لغةً:

المستوِي القويمُ الذِي لَا اعوجاجَ فيهِ ولَا التواءَ، يقالُ: طريقٌ مستقيمٌ، كمَا يُطلقُ علَى العادلِ الذِي لَا يميلُ فيهِ عنِ الحقِّ، فيُقالُ: ميزانٌ مستقيمٌ[3].

المستقيمُ اصطلاحًا:

المستويُّ، والمرادُ بهِ طريقُ الحقِّ، وهيَ الملَّةُ الحنيفيَّةُ السَّمحة المتوسِّطةُ بينَ الإفراطِ والتَّفريطِ[4].

وقالَ ابنُ عاشورٍ: المستقيمُ اسمُ فاعلٍ، استقامَ مطاوعًا، قوَّمتهُ فاستقامَ، والمستقيمُ الذِي لَا عوجَ فيهِ ولَا تعاريجَ، وأحسنُ الطُّرقِ الذِي يكونُ مستقيمًا وهوَ الجادَّةُ، لأنَّهُ باستقامتهِ يكونُ أقربُ إلَى المكانِ المقصودِ منْ غيرهِ، فلَا يضلُّ فيهِ سالكهُ، ولَا يتردَّدُ ولَا يتحيَّرُ، والمستقيمُ مستعارٌ للحقِّ البيِّنِ الذِي لَا تخلطهُ شبهةٌ باطلٌ فهوَ كالطَّريقِ الذِي لَا تتخلَّلهُ بنياتٍ[5].

(1) التوقيف على مهمَّات التعاريف – المناوي.

(2) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون – القاضي نكري.

(3) معجم ألفاظ القرآن الكريم – مجمع اللغة العربية.

(4) إرشاد العقل السليم – أبو السُّعود.

(5) التحرير والتنوير – ابن عاشور.

الصراطُ المستقيمُ اصطلاحًا:

تبيَّنَ أنَّ الصِّراطَ المستقيمَ هوَ: الطَّريقُ المستقيمُ الذِي لَا اعوجاجَ فيهِ[1]، وهوَ المعارفُ الصَّالحاتُ كلُّهَا من اعتقادٍ وعملٍ[2].

وفائدةُ وصفِ الصِّراطِ فِي الفاتحةِ بالمستقيمِ هوَ: أنَّ الصِّراطَ يُطلقُ علَى مَا فيهِ صعودٌ وهبوطٌ، والمستقيمُ: مَا لَا ميلَ فيهِ إلَى جهةٍ منَ الجهاتِ الأربعِ[3].

ووردتْ لفظةُ الصِّراطِ فِي القرآنِ خمسٍ وأربعينَ مرَّةً[4].

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالصِّراطِ:

الطَّريقُ:

الطَّريقُ لغةً:

السَّبيلُ، يُذكَّرُ ويؤنَّثُ، تقولُ: الطَّريقُ الأعظمُ، والطَّريقُ العظمَى، والجمعُ أطرقةٌ وطرقٌ، وطرقاتٌ: جمعُ الجمعِ.

وطريقةُ الرَّجلِ: مذهبُهُ، يقالُ: مَا زالَ فلانٌ علَى طريقةٍ واحدةٍ، أي: حالةٍ واحدةٍ[5].

---

(1) جامع البيان – الطبري.

(2) التَّحرير والتنوير.

(3) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢١٥.

(4) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص٤١٢-٤١٤، المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص٧٠٣-٧٠٥.

(5) انظر: الصحاح، الجوهري ١٥١٣/٤، مختار الصحاح، الرازي ص ١٨٩، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢٧٣/٦.

الطَّريقُ اصطلاحًا:

لَا يختلفُ معناهُ الاصطلاحِي عنْ معناهُ اللُّغوِي.

الصِّلةُ بينَ الصِّراطُ والطَّريقُ:

الطَّريقُ أعمُّ، فمنهُ السَّهلُ ومنهُ الصَّعبُ، ومنهُ المستقيمُ ومنهُ المعوجُّ، وأمَّا الصِّراطُ فهوَ طريقٌ سهلٌ لَا اعوجاجَ فيهِ[1].

السَّبيلُ:

السَّبيلُ لغةً:

الطَّريقُ ومَا وضحَ منهُ، يُذكَّرُ ويؤنَّثُ، وسبيلُ اللهِ: طريقُ الهدَى الذِي دعَا إليهِ[2].

السَّبيلُ اصطلاحًا:

السَّبيلُ: طريقُ الجادةِ السَّائلةِ عليهِ الظَّاهرِ لكلِّ سالكِ منهجهُ، فهوَ أخصُّ منَ الطَّريقِ، فإنَّهُ كلُّ مَا يطرقُ الطَّارقُ معتادًا كانَ أوْ غيرهُ، وسبيلُ اللهِ: طريقهُ التِي أمرَ بسلوكهَا، واشتقاقهُ منَ الجريانِ منْ قولكَ سبلَ السَّحابُ مطرًا، والسّترَ أرسلهُ وطولهُ فسمِّي الطَّريقُ سبيلًا؛ لكثرةِ الجريانِ فيهِ بالمشيِ[3].

(1) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٩٨.

(2) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١٤١، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٥٠٦/٨.

(3) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٠.

الصِّلةُ بينَ الصِّراطِ والسَّبيلِ:

الصِّراطُ طريقٌ سهلٌ، والسَّبيلُ: اسمٌ يقعُ علَى مَا يقعُ عليهِ الطَّريقُ، وعلَى مَا لَا يقعُ عليهِ الطَّريقُ، تقولُ: سبيلُ اللهِ، وطريقُ اللهِ.

والفرقُ بينهمَا كالفرقِ بينَ الصِّراطِ والطَّريقِ.

وأمَّا صراطُ اللهِ وطريقُ اللهِ وسبيلُ اللهِ تعالَى، فكلُّهَا واحدٌ.

والصِّراطُ يأتِي بمعنَى المنهجِ، والصِّراطُ بمعنَى السنَّةِ.

الاستقامةُ:

الاستقامةُ لغةً:

ضدُّ الطُّغيانِ، وهوَ مجاوزةُ الحدِّ فِي كلِّ شيءٍ[1].

وقدْ أُطلقَ علَى معنَى الاستقامةِ عدَّةُ معانٍ، منهَا: القصدُ، والإصابةُ، والاستواءُ، والنِّظامُ، والاعتدالُ، والرُّشدُ، والالتزامُ، وغيرُ ذلكَ[2].

وقدِ اتَّفقَ كثيرٌ منْ أهلِ اللُّغةِ (منْ خلالِ ذكرِ جذرهَا الذي هوَ "قام" حتَّى الألفاظُ القريبةُ) علَى أنَّهَا ترجعُ إلَى معنَى الاعتدالُ والتوسُّطِ، والسَّلامةِ منْ غضبِ اللهِ تعالَى[3].

---

(1) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ٢/١٠٤.

(2) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري، ٢/١٢٦، الصحاح، للجوهري، ٥/٢٠١٧، مقاييس اللغة، لابن فارس، ٥/٣.

(3) انظر: المصادر السابقة.

الاستقامةُ اصطلاحًا:

الاستقامةُ: هيَ سلوكُ الصِّراطِ المستقيمِ، وهوَ الدِّينُ القويمُ منْ غيرِ تعويجٍ عنهُ يمنةً ولَا يسرةً، ويشملُ ذلكَ فعلَ الطَّاعاتِ كلِّهَا الظَّاهرةِ والباطنةِ، وتركِ المنهيَّاتِ كلِّهَا كذلكَ[1].

وقدْ عرَّفهَا الجرجانيُّ بأنَّهَا: الوفاءُ بالعهودِ كلِّهَا، وملازمةِ الصِّراطِ المستقيمِ برعايةِ حدِّ التوسُّطِ فِي كلِّ الأمورِ، منَ الطَّعامِ والشَّرابِ واللِّباسِ، وفِي كلِّ أمرٍ دينيٍّ ودنيويٍّ، فذلكَ هوَ الصِّراطُ المستقيمُ، كالصِّراطِ المستقيمِ فِي الآخرةِ[2].

وبهذَا تكونُ الاستقامةُ هيَ: لزومُ صراطِ اللهِ المستقيمِ، والطغيانُ هوَ: الزَّيغُ عنْ صراطِ اللهِ المستقيمِ.

---

(1) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص ١٩٣.

(2) التعريفات، الجرجاني، ص١٩.

{حقيقةُ الصِّراطِ المستقيمِ}

المتأمِّلُ فِي آياتِ القرآنِ الكريمِ، يجدُ أنَّ كلمةَ الصِّراطِ المستقيمِ قدْ وسعتْ كلَّ شيءٍ أحبَّهُ اللهُ لعبادهِ، فالداخلُ فِي الإسلامِ يقولُ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}[الفاتحة: 6].

وراسخُ القدمِ فيهِ يقولُ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)، والنَّبيُّونَ والشُّهداءُ والصَّالحونَ كلُّهمْ يقولونَ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ).

فالواجبُ علَى كلِّ عبدٍ أنْ يقولَ ويقرأَ فِي صلاتهِ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآلِّينَ)[الفاتحة: 6-7].

وهذَا دعاءٌ ورغبةٌ منَ المربوبِ إلَى الربِّ، والمعنَى: دُلَّنَا علَى الصِّراطِ المستقيمِ وأرشدنَا إليهِ، وأرنَا طريقَ هدايتكَ الموصلةِ إلَى أُنسكَ وقُربكَ[1].

وقدْ بيَّنَ اللهُ تعالَى حقيقةَ الصِّراطِ المستقيمِ فِي آياتٍ عديدةٍ منْ كتابهِ، فقالَ فِي سورةِ الأنعامِ: {وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ}[الأنعام: 126].

أي: هذَا الذِي بيَّنَا، طريقُ ربِّكَ، والذِي ارتضاهُ لنفسهِ دينًا وجعلهُ مستقيمًا لَا عوجَ فيهِ، وهوَ الإسلامُ[2].

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/١٤٧.

(2) الكشف والبيان، الثعلبي ٤/١٨٩.

قالَ ابنُ الجوزِي: (وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ) فيهِ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدهَا: أنَّهُ القرآنُ، قالهُ ابنُ مسعودٍ.

والثَّانِي: التَّوحيدُ، قالهُ ابنُ عبَّاسٍ.

والثَّالثُ: مَا هوَ عليهِ منَ الدِّينِ، قالهُ عطاءٌ[1].

وقالَ ابنُ عاشورٍ: والإشارةُ بهذَا إلَى حاضرٍ فِي الذِّهنِ وهوَ دينُ الإسلامِ، ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلَى حاضرٍ فِي الحسِّ وهوَ القرآنُ[2].

قالَ تعالَى: " وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"[الأنعام: 153].

فيهِ قولانِ:

أحدهمَا: القرآنُ.

والثَّانِي: الشَّرعُ وسمِّيَ ذلكَ صراطًا[3].

(1) زاد المسير ٢/٧٦.

(2) التحرير والتنوير ٨/٦٢.

(3) النكت والعيون، الماوردي ٢/١٨٨.

وقالَ ابنُ عاشورٍ رحمهُ اللهُ تعالَى: والإشارةُ إلَى الإسلامِ: أي: وأنَّ الإسلامَ صراطِي، فالإشارةُ إلَى حاضرٍ فِي أذهانِ المخاطبينَ منْ أثرِ تكرُّرِ نزولِ القرآنِ وسماعِ أقوالِ الرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، بحيثُ عرفهُ النَّاسُ وتبيَّنوهُ، فنزلَ منزلةَ المشاهدِ، فاستعملَ فيهِ اسمَ الإشارةِ الموضوعُ لتعيينِ ذاتٍ بطريقِ المشاهدةِ معَ الإشارةِ، ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلَى جميعِ التَّشريعاتِ والمواعظِ التِي تقدَّمتْ فِي هذهِ السُّورةِ، لأنَّهَا صارتْ كالشَّيءِ الحاضرِ المشاهدِ[1].

وبيَّنَ النبيُّ ﷺ حقيقةَ الصِّراطِ المستقيمِ فِي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: "خطَّ رسولُ اللهِ ﷺ، خطًّا بيدهِ، ثمَّ قالَ: (هذَا سبيلُ اللهِ مستقيمًا)، قالَ: ثمَّ خطَّ عنْ يمينهِ، وشمالهِ، ثمَّ قالَ: (هذهِ السُّبلُ، ليسَ منهَا سبيلٌ إلَّا عليهِ شيطانٌ يدعُو إليهِ) ثمَّ قرأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[الأنعام: 153][2].

فوَّحدَ لفظَ الصِّراطِ، وجمعَ السُّبلَ المخالفةِ لهُ، وهذَا لأنَّ الطَّريقَ الموصلَ إلَى اللهِ تعالَى واحدٌ، وهوَ مَا بعثَ بهِ رسلهُ وأنزلَ بهِ كتبهُ، لَا يصلُ إليهِ أحدٌ إلَّا منْ هذهِ الطَّريقِ، ولوْ أتَى النَّاسُ منْ كلِّ طريقٍ، واستفتحُوا منْ كلِّ بابٍ، فالطُّرقُ عليهمْ مسدودةٌ، والأبوابُ عليهمْ مغلقةٌ إلَّا منْ هذَا الطَّريقِ الواحدِ، فإنَّهُ متصِّلٌ باللهِ، موصلٌ إلَى اللهِ تعالَى[3].

---

(1) التحرير والتنوير ١٧٢/٨.

(2) أخرجه أحمد، ٤٣٦/٧، رقم ٤٤٣٧. وصححه الألباني في صحيح ابن حبان رقم ٦.

(3) مدارج السالكين، ابن القيم ٣٧/١-٣٨.

قالَ تعالَى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[الأنعام: 161].

قالَ ابنُ عاشورٍ: قولهُ: (إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي) متَّصلٌ بقولهِ: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ)[الأنعام: 153].

الذِي بيَّنهُ بقولهِ: (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) [الأنعام: 92].

فزادهُ بيانًا بقولهِ هذَا: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، ليبيِّنَ أنَّ هذَا الدِّينَ إنَّمَا جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ بهديٍ منَ اللهِ تعالَى، وأنَّهُ جعلهُ دينًا قيِّمًا علَى قواعدِ ملَّةِ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ، إلَّا أنَّهُ زائدَ عليهِ بمَا تضمَّنهُ منْ نعمةِ اللهِ عليهِ؛ إذْ هداهُ إلَى ذلكَ الصِّراطِ الذِي هوَ سبيلُ النَّجاةِ، وافتتحَ الخبرَ بحرفِ التَّأكيدِ؛ لأنَّ الخطابَ للمشركينَ المكذِّبينَ[1].

قالَ تعالَى: {الر ۚ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[إبراهيم: 1].

فكشفتْ هذهِ الآيةُ عنْ حقيقةِ الكتابِ الذِي دلَّتِ الآياتُ السَّابقةُ علَى أنَّهُ صراطُ اللهِ المستقيمِ وخاصِّيتهُ فِي إخراجِ النَّاسِ منَ الظُّلماتِ إلَى النُّورِ، بتوفيقِ اللهِ وهدايتهِ حيثُ الانطلاقُ إلَى رحابِ المعيَّةِ الإلهيَّةِ بكلِّ مَا فيهَا منْ عزَّةٍ وكرامةٍ وحمدٍ وثناءٍ وشكرٍ وولاءٍ.

(1) التحرير والتنوير ١٩٧/٨-١٩٨.

وقدْ أخرجَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمَّتهُ منْ ظلماتٍ عديدةٍ إلَى أنوارٍ متعدِّدةٍ:
أوَّلهَا: ظلمةُ الكفرِ والشِّركِ إلَى نورِ الإيمانِ والإسلامِ، ثمَّ منْ ظلمةِ الجهلِ والتَّقليدِ إلَى نورِ العلمِ والتَّحقيقِ، ثمَّ منْ ظلمةِ الذُّنوبِ والمعاصِي إلَى نورِ التَّوبةِ والاستقامةِ، ثمَّ منْ ظلمةِ الغفلةِ والبطالةِ إلَى نورِ اليقظةِ والمجاهدةِ، ثمَّ منْ ظلمةِ الحظوظِ والشَّهواتِ إلَى نورِ الزُّهدِ والعفَّةِ، ثمَّ منْ ظلمةِ رؤيةِ الأسبابِ، والوقوفِ معَ العوائدِ، إلَى نورِ شهودِ المسبِّبِ، وخرقِ العوائدِ، ثمَّ منْ ظلمةِ الوقوفِ معَ الكراماتِ وحلاوةِ الطاعاتِ إلَى نورِ شهودِ المعبودِ، ثمَّ منْ ظلمةِ الوقوفِ معَ حسِّ الأكوانِ الظَّاهرةِ إلَى شهودِ أسرارِ المعانِي الباطنةِ، فيغيبُ عنِ الأكوانِ بشهودِ المكوِّنِ[1]. (يُنظر الهامش)

قالَ تعالَى: {قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ}[الحجر: 41-42].

أي: هذَا الطَّريقُ الذِي سلكهُ أهلُ الإخلاصِ فِي عبوديَّتهمْ هوَ طريقٌ واردٌ عليَّ، وموصلٌ إلَى جوارِي، لَا سبيلَ لكَ علَى أهلهِ؛ لأنَّهُ مستقيمٌ لَا عوجَ فيهِ[2].

وقالَ تعالَى: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[الزخرف: 43].

والمعنَى: فتمسَّكْ يَا محمَّدُ بمَا يأمركَ بهِ هذَا القرآنُ الذِي أوحاهُ إليكَ ربُّكَ، (إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ومنهاجٍ سديدٍ، وذلكَ هوَ دينُ اللهِ الذِي أمرَ بهِ، وهوَ الإسلامُ[3].

---

(1) البحر المديد، ابن عجيبة ٤٢/٣. (لا يعتمدُ كثيرا على تفسير ابن عجيبة فمرجعُ تفسيره هو صوفي إشاريٌّ وهو ككتاب الألوسي، وبما قلتُ، قال الشيخ مساعد الطيَّار، وبهِ قال الدكتور الطرهوني وغيره.).
(2) المصدر السابق ٨٩/٣.
(3) جامع البيان، الطبري ٦١٠/٢١.

وقدْ لخَّصَ الماوردِي رحمهُ اللهُ تعالَى أقوالَ المفسِّرينَ فِي المرادِ بالصِّراطِ المستقيمِ فِي أربعةِ أقاويلَ:

أحدهَا: أنَّهُ كتابُ اللهِ تعالَى، وهوَ قولُ عليٍّ وعبدِ اللهِ، ويروَى نحوهُ عنِ النبيِّ ﷺ.

والثَّانِي: أنَّهُ الإسلامُ، وهوَ قولُ جابرٍ بنِ عبدِ اللهِ، ومحمَّدٍ بنِ الحنفيَّةِ.

والثَّالثُ: أنَّهُ الطَّريقُ الهادِي إلَى دينِ اللهِ تعالَى، الذِي لَا عوجَ فيهِ، وهوَ قولُ ابنُ عبَّاسَ.

والرَّابعُ: هوَ رسولُ اللهِ ﷺ وأخيارُ أهلِ بيتهِ وأصحابهِ، وهوَ قولُ الحسنِ البصرِي وأبِي العاليةَ الرِّياحِي[1].

والمتأمِّلُ فِي الأقوالِ المتعدِّدةِ التِي أوردهَا المفسِّرونَ للصِّراطِ المستقيمِ يجدُ: أنَّ اختلافهمْ فِي تعريفِ الصِّراطِ اختلافُ تنوُّعٍ لَا اختلافَ تضادٍ، فتفسيرُ بعضِ أهلِ العلمِ للصِّراطِ المستقيمِ بالقرآنِ والبعضُ الآخرُ بالإسلامِ قولانِ متَّفقانِ؛ لأنَّ دينَ الإسلامِ هوَ اتِّباعُ القرآنِ، حيثُ نبَّهَ أحدهمَا علَى وصفٍ غيرَ الوصفِ الآخرِ.

وبعدَ أنْ نقلَ الإمامُ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى قولَ الإمامِ الطبرِي: أجمعتِ الأمَّةُ منْ أهلِ التَّأويلِ جميعًا علَى أنَّ الصِّراطَ المستقيمَ، هوَ الطَّريقُ الواضحُ الذِي لَا اعوجاجَ فيهِ[2].

---

(1) النكت والعيون، الماوردي ١/٥٩.

(2) جامع البيان، الطبري ١/١٧٠.

قالَ: ثمَّ اختلفتْ عباراتُ المفسِّرينَ منَ السَّلفِ والخلفِ فِي تفسيرِ الصِّراطِ، وإنْ كانَ يرجعُ حاصلهَا إلَى شيءٍ واحدٍ، وهوَ المتابعةُ للهِ تعالَى وللرَّسولِ ﷺ[1].

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وقيلَ: هوَ الإسلامُ ونسبهُ إلَى ابنِ عبَّاسٍ وابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهم، ثمَّ أوردَ عنْ مجاهدٍ تفسيرهُ للصِّراطِ بأنَّهُ الحقُّ، ثمَّ قالَ: وهذَا أشملُ ولَا منافاةَ بينهُ وبينَ مَا تقدَّمَ، ونسبَ إلَى أبِي العاليةَ تفسيرهُ للِّصراطِ المستقيمِ بأنَّهُ النبيُّ ﷺ وصاحبهُ منْ بعدهِ، وأنَّهُ ذكرَ ذلكَ للحسنِ فقالَ: صدقَ أبُو العاليةَ ونصحَ.

ثمَّ عقَّبَ علَى هذَا الذِي أوردهُ منَ الأقوالِ بقولهِ: وكلُّ هذهِ الأقوالِ صحيحةٌ، وهيَ متلازمةٌ، فإنَّ منِ اتَّبعَ النَّبيَّ ﷺ، واقتدَى باللَّذيْنِ منْ بعدهِ أبِي بكرٍ وعمرَ، فقدِ اتَّبعَ الحقَّ، ومنِ اتَّبعَ الحقَّ فقدِ اتَّبعَ الإسلامَ، ومنِ اتَّبعَ الإسلامَ فقدِ اتَّبعَ القرآنَ، وهوَ كتابُ اللهِ تعالَى وحبلهُ المتينُ، وصراطهُ المستقيمُ، فكلُّهَا صحيحةٌ يصدِّقُ بعضهَا بعضًا، وللهِ الحمدُ.

ثمَّ يتبعُ ابنُ كثيرٍ ذلكَ برأيِ الإمامِ الطبريِّ رحمهمَا اللهُ تعالَى الذِي رجَّحَ فيهِ منَ الأقوالِ بأنَّهُ التَّوفيقُ للثَّباتِ علَى مَا ارتضاهُ اللهُ ووفَّقَ لهُ منْ أنعمَ عليهمْ منَ النَّبيينَ والصدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ معَ بيانهِ لوجهِ كونهِ جامعًا لغيرهِ حيثُ قالَ: فقدْ وُفِّقَ للإسلامِ[2].

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/١٣٧.

(2) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/١٣٩. وانظر: جامع البيان، الطبري ١/١٧١.

وتابعَ الإمامُ القرطبي ابنَ جريرٍ فِي التَّرجيحِ بالمرادِ بالصِّراطِ المستقيمِ، بأنَّهُ صراطُ النَّبيينَ والصدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ ونسبهُ إِلَى جمهورِ المفسِّرينَ وعقبَ عليهِ بقولهِ: وجميعُ مَا قيلَ إِلَى هذَا يرجعُ، فلَا معنَى لتعديدِ الأقوالِ واللهُ المستعانُ[1].

وقالَ ابنُ عاشورٍ: المرادُ بالصِّراطِ المستقيمِ المعارفُ الصَّالحاتُ كلُّهَا منِ اعتقادٍ وعملٍ بأنْ يوفِّقهمْ إِلَى الحقِّ والتَّمييزِ بينهُ وبينَ الضَّلالِ علَى مقاديرِ استعدادِ النُّفوسِ وسعةِ مجالِ العقولِ النَّيِّرةِ والأفعالِ الصَّالحةِ، بحيثُ لَا يعتريهمْ زيغٌ وشبهاتٌ فِي دينهمْ وهذَا أولَى ليكونَ الدُّعاءُ طلبُ تحصيلِ مَا ليسَ بحاصلٍ وقتَ الطَّلبِ، وإنَّ المرءَ بحاجةٍ إِلَى هذهِ الهدايةِ فِي جميعِ شؤونهِ كلِّهَا حتَّى فِي الدَّوامِ علَى مَا هوَ متلبِّسٌ بهِ منَ الخيرِ للوقايةِ منَ التَّقصيرِ فيهِ أوِ الزَّيغِ عنهُ، والهدايةُ إِلَى الإسلامِ لَا تقصرُ علَى ابتداءِ اتِّباعهِ وتقلُّدهِ بلْ هيَ مستمرَّةٌ باستمرارِ تشريعاتهِ وأحكامهِ بالنصِّ أوِ الاستنباطِ[2].

وقالَ ابنُ القيِّمِ: فإنَّ النَّاسَ قدْ تنوَّعتْ عباراتهمْ فيهِ وترجمتهمْ عنهُ بحسبِ صفاتهِ ومتعلِّقاتهِ وحقيقتهِ شيءٌ واحدٌ، وهوَ طريقُ اللهِ الذِي نصَّهُ لعبادهِ علَى ألسنِ رسلهِ وجعلهُ موصلًا لعبادهِ إليهِ، ولَا طريقَ لهمْ إليهِ سواهُ، بلْ الطُّرقُ كلُّهَا مسدودةٌ إلَّا هذَا، وهوَ إفرادهُ بالعبوديَّةِ وإفرادُ رسولهِ بالطَّاعةِ، فلَا يشركُ بهِ أحدًا فِي عبوديَّتهِ، ولَا يشركُ برسولهِ أحدًا فِي طاعتهِ، فيجرِّدُ التَّوحيدَ، ويجرِّدُ متابعةَ الرَّسولِ ﷺ.

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/١٤٩.
(2) التحرير والتنوير ١/١٩١.

وهذَا معنَى قولِ بعضِ العارفينَ: إنَّ السَّعادةَ والفلاحَ كلَّهُ مجموعٌ فِي شيئينِ: صدقُ محبَّتهِ، وحسنِ معاملتهِ.

وهذَا كلُّهُ مضمونُ شهادةِ أن لَا إله إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، فأيُّ شيءٍ فسَّرَ بهِ الصِّراطَ فهوَ داخلٌ فِي هذينِ الأصلينِ.

ونكتةُ ذلكَ وعقدهُ: أنْ تحبَّهُ بقلبكَ كلَّهُ، وترضيهِ بجهدكَ كلَّهُ، فلَا يكونُ فِي قلبكَ موضعٌ إلَّا معمورٌ بحبِّهِ، ولَا تكونُ لكَ إرادةٌ إلَّا متعلِّقةٌ بمرضاتهِ الأوَّلُ يحصلُ بالتَّحقيقِ بشهادةِ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ، والثَّانِي يحصلُ بالتَّحقيقِ بشهادةِ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وهذَا هوَ الهادِي، ودينُ الحقِّ وهوَ معرفةُ الحقِّ والعملُ لهُ، وهوَ معرفةُ مَا بعثَ اللهُ بهِ رسلهُ والقيامُ بهِ، فقلْ ماَ شئتَ منَ العباراتِ التِي هذَا أحسنهَا وقطبُ رحاهَا[1].

فتبيَّنَ ممَّا سبقَ: أنَّ الصِّراطَ المستقيمَ هوَ عبادةُ اللهِ تعالَى وحدهُ لَا شريكَ لهُ، وعبادتهُ تتضمَّنُ كمالَ الحبِّ معَ كمالِ الذلِّ لهُ سبحانهُ، فكلُّ مَا تتقرَّبُ بهِ، وكلُّ فعلٍ يفعلهُ العبدُ يرجُو بهِ ثوابًا، وكلُّ تركٍ يتركهُ يخافُ منْ تركهِ عقابًا، فإنَّ هذَا داخلٌ فِي معنَى الصِّراطِ المستقيمِ.

وخلاصةً: صراطُ اللهِ المستقيمِ هوَ: الإئتمارُ بأوامرِ اللهِ تعالَى والانتهاءُ بنواهيهِ، رغبًا ورهبةً.

---

(1) بدائع الفوائد ٢/٤٠.

الصِّراطُ جسرٌ ممدودٌ علَى متنِ جهنَّمَ:

والصِّراطُ هوَ: جسرٌ ممدودٌ علَى متنِ جهنَّمَ، والإيمانُ بهِ واجبٌ، وهوَ فرعٌ منَ الرُّكنِ الخامسِ منْ أركانِ الإيمانِ، ألَا وهوَ: الإيمانُ باليومِ الآخرِ، وعدمُ الإيمانِ بالصِّراطِ ينفِي عنْ صاحبهِ الإيمانَ باليومِ الآخرِ وبالتَّالِي هوَ غيرُ مؤمنٍ بالكلِّيَّةِ، لفقدهِ الرُّكنَ الخامسَ منَ أركانِ الإيمانِ، ولهذَا وجبَ علَى كلِّ مسلمٍ أنْ يُؤمنَ بهِ إيمانًا جازمًا، لَا شكَّ فيهِ، ويجبُ أنْ يؤمنَ أنَّ الصِّراطَ، وهوَ جسرٌ علَى جهنَّمَ، إذَا انتهَى النَّاسُ بعدَ مفارقتهمُ الموقفَ إلَى الظُّلمةِ التِي دونَ الصِّراطِ، كمَا قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا: "إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: أينَ النَّاسُ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسَّماواتِ؟ فقالَ: همْ فِي الظُّلمةِ دونَ الجسرِ"[1]، وقدْ بيّنَ السفارينِي رحمهُ اللهُ تعالَى: موقفَ الفرقِ منَ الصِّراطِ، وهلْ هوَ صراطٌ مجازيٌّ أمْ حقيقيٌّ؟ ثمَّ قرَّرَ مذهبَ أهلِ الحقِّ الذِي دلَّتْ عليهِ النُّصوصُ فيهِ، فقالَ: اتَّفقتِ الكلمةُ علَى إثباتِ الصِّراطِ فِي الجملةِ، لكنَّ أهلَ الحقِّ يثبتونهُ علَى ظاهرهِ منْ كونهِ جسراً ممدوداً علَى متنِ جهنَّمَ، أحدّ منَ السَّيف وأدقُّ منَ الشَّعرِ، وأنكرَ هذَا الظَّاهرُ القاضِي عبدُ الجبَّارِ المعتزلِي، وكثيرٌ منْ أتباعهِ زعماً منهمْ أنَّهُ لَا يُمكنُ عبورهُ، وإنْ أمكنَ ففيهِ تعذيبٌ، ولَا عذابَ علَى المؤمنينَ والصُّلحاءِ يومَ القيامةِ، وإنَّمَا المرادُ طريقُ الجنَّةِ المشارِ إليهِ بقولهِ تعالَى: {سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ}[محمد: 5]، وطريقُ النَّارِ المشارِ إليهِ

---

(1) رواه مسلم (315).

بقولهِ تعالَى: {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ}[الصافات: 23]، ومنهمْ منْ حملهُ علَى الأدلَّةِ الواضحةِ والمباحاتِ والأعمالِ الرَّديئةِ التِي يسألُ عنهاَ ويؤاخذُ بهاَ، وكلُّ هذَا باطلٌ وخرافاتٌ لوجوبِ حملِ النُّصوصِ علَى حقائقهَا، وليسَ العبورُ علَى الصِّراطِ بأعجبَ منَ المشيِ علَى الماءِ أوِ الطَّيرانِ فِي الهواءِ، أوِ الوقوفِ فيهِ، وقدْ أجابَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ سؤالِ حشرِ الكافرِ علَى وجههِ بأنَّ القدرةَ صالحةٌ لذلكَ، وأنكرَ العلَّامةُ القرافِي كونَ الصِّراطَ أدقُّ منَ الشَّعرِ وأحدُّ منَ السَّيفِ، وسبقهُ إلَى ذلكَ شيخهُ العزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ، والحقُّ أنَّ الصِّراطَ وردتْ بهِ الأخبارُ الصَّحيحةُ وهوَ محمولٌ علَى ظاهرهِ بغيرِ تأويلٍ كمَا ثبتَ فِي (الصَّحيحينِ) و(المسانيدِ) و(السُّننِ الصِّحاحِ) ممَّا لَا يحصَى إلَّا بكلفةٍ منْ أنَّهُ جسرٌ مضروبٌ علَى متنِ جهنَّمَ يمرُّ عليهِ جميعُ الخلائقِ، وهمْ فِي جوازهِ متفاوتونَ.

وذكرَ القرطبيُّ مذهبَ القائلينَ بمجازيةِ الصِّراطِ، المأوّلينَ للنُّصوصِ المصرِّحةِ بهِ، فقالَ: ذهبَ بعضُ منْ تكلَّمَ علَى أحاديثِ وصفِ الصِّراطِ بأنَّهُ أدقُّ منَ الشَّعرِ، وأحدُّ منَ السَّيفِ أنَّ ذلكَ راجعٌ إلَى يسرهِ وعسرهِ علَى قدرِ الطَّاعاتِ والمعاصِي، ولَا يعلمُ حدودَ ذلكَ إلَّا اللهُ تعالَى: لخفائهَا وغموضهَا، وقدْ جرتِ العادةُ بتسميةِ الغامضِ الخفيِّ دقيقًا، فضربَ المثلَ بدقَّةِ الشَّعرِ، فهذَا منْ هذَا البابِ...

ثمَّ ردَّ عليهمْ مقالتهمْ، فقالَ: ماَ ذكرهُ هذَا القائلُ مردودٌ بمَا ذكرنَا منَ الأخبارِ وأنَّ الإيمانَ يجبُ بذلكَ، وأنَّ القادرَ علَى إمساكِ الطَّيرِ فِي الهواءِ قادرٌ علَى أنْ يمسكَ عليهِ المؤمنَ، فيجريهِ أوْ يمشيهِ، ولَا يعدلُ عنِ الحقيقةِ إلَى المجازِ إلَّا عندَ الاستحالةِ، ولَا استحالةَ فِي ذلكَ للآثارِ المرويَّةِ فِي ذلكَ، وبيانهَا بنقلِ الأئمَّةِ العدولِ، ومنْ لمْ يجعلِ اللهُ لهُ نوراً فمَا لهُ منْ نورٍ[1].

(1) القيامة الكبرى لعمر بن سليمان الأشقر – ص 279. باختصارٍ وتصرف.

صفةُ الصِّراطِ الذِي هوَ جسرٌ علَى متنِ جهنَّمَ:

وردتْ فِي السنَّةِ أحاديثُ صحيحةٌ فِي صفةِ الصِّراطِ، ووصفتهُ وصفاً جلياً فينبغِي علَى المسلمِ أنْ يعرفَ هذهِ الصِّفاتِ ويستشعرهَا فِي فؤادهِ حتَّى ينجُو منْ عذابِ الجبَّارِ سبحانهُ وتعالَى وذلكَ بالوقوفِ عندَ أوامرهِ واجتنابِ سخطهِ وغضبهِ، وهذهِ الصِّفاتُ هيَ:

1) الصِّراطُ زلقٌ: وذلكَ منْ حديثِ أبِي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ: قلنَا مَا الجسرُ يَا رسولَ اللهِ قالَ: "مدحضةٌ مزلَّةٌ"[1][2].

قالَ أبُو إسحاقَ الحربِي: والجِسرُ: مَا عُبرَ عليهِ منْ قنطرةٍ ونحوهَا[3].

وقالَ العينِي: مدحضةٌ منْ دُحضتْ رجلهُ دحضاً زلقتْ، ودحضتِ الشَّمسُ عندَ كبدِ السَّماءِ: زالتْ، ودحضتْ حجَّتهُ بطلتْ، مزلَّةٌ: منْ زلَّتِ الأقدامُ سقطتْ، وقالَ الكرمانِي: بكسرِ الزَّاي وفتحهَا[4]، قالَ ابنُ الجوزِي، دحضَ: زلقَ[5]، وقالَ الفيُّومِي: دحضَ الرَّجلُ: زلقَ[6].

2) ولهُ جنبتانِ أوْ حافتانِ: كمَا فِي حديثِ أبِي بكرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "يُحملُ النَّاسُ علَى الصِّراطِ يومَ القيامةِ فتتقادعُ بهمْ جنبتَا الصِّراطِ تقادعَ الفراشِ فِي النَّارِ"[7].

(1) رواه البخاري (7439) واللفظ له، ومسلم (183).

(2) ((فتح الباري)) (421/13).

(3) (غريب الحديث لأبي إسحاق إبراهيم الحربي 3/1 باب جسر).

(4) ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني)) (320/20).

(5) ((غريب الحديث لابن الجوزي)) (326/1).

(6) ((المصباح المنير)) (190).

(7) رواه أحمد (43/5) (20457)، والطبراني في ((المعجم الصغير)) (142/2). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (362/10): رجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في ((البدور السافرة)) (251): إسناده صحيح.

قالَ ابنُ الأثيرِ: قوله: "فتتقادعُ بهمْ جنبتَا الصِّراطِ تقادعَ الفراشِ فِي النَّارِ" أي تسقطهمْ فيهَا بعضهمْ فوقَ بعضٍ، وتقادعَ القومُ: إذَا ماتَ بعضهمْ إثرَ بعضٍ[1].

3) ولحافتيِ الصِّراطِ كلاليب: وذلكَ منْ حديثِ أبِي هريرةَ وحذيفةَ رضيَ اللهُ عنهمَا عندَ مسلمٍ عنِ النبيِّ ﷺ: "وفِي حافتيِ الصِّراطِ كلاليبَ معلَّقةٌ مأمورةٌ بأخذِ منْ أُمرتْ بهِ[2].

ومنْ حديثِ أبِي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ: "قلنَا يَا رسولَ اللهِ مَا الجسرُ؟ قالَ: "مدخضةٌ مزلَّةٌ، عليهِ خطاطيفُ وكلاليبُ، وحسكةٌ مفلطحةٌ لهَا شوكةٌ عقيفاءُ تكونُ بنجدٍ يقالُ لهَا السَّعدانُ"[3].

ومنْ حديثِ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ: "وبهِ كلاليبُ مثلَ شوكِ السَّعدانِ أمَّا رأيتمْ شوكَ السَّعدانِ؟ قالُوا: بلَى يَا رسولَ اللهِ قالَ: فإنَّهَا مثلَ شوكِ السَّعدانِ، غيرَ أنَّ لَا يعلمُ قدرَ عظمهَا إلَّا اللهُ[4].

قالَ العينِي: كلاليبُ جمعُ كلُّوبٍ بفتحِ الكافِ وهوَ حديدةٌ معطوفةُ الرَّأسِ يعلَّقُ عليهَا اللَّحمُ، وقيلَ: الكلَّوبُ الذِي يتناولُ بهِ الحدَّادُ الحديدَ منَ النَّارِ، كذَا فِي كتابِ ابنِ بطَّالٍ.

وقالَ أيضاً رحمهُ اللهُ: خطاطيفُ: جمعُ خطَّافٍ بالضمِّ وهوَ الحديدةُ المعوجَّةُ كالكلُّوبِ يُختطفُ بهَا الشَّيءُ[5].

(1) النهاية لابن أثير (24/4).
(2) رواه مسلم (195).
(3) رواه البخاري (7439) واللفظ له، ومسلم (183).
(4) رواه البخاري (7437)، ومسلم (182).
(5) (عمدة القاري)(316/20)

وقولهُ: حسكةٌ: بفتحاتٍ وهيَ شوكةٌ صلبةٌ معروفةٌ.

وقالَ صاحبُ التَّهذيبِ: الحسكُ نباتٌ لهُ ثمرٌ خشنٌ يتعلَّقُ بأصوافِ الغنمِ، وربَّمَا اتُّخذَ مثلهُ منْ حديدٍ وهوَ منْ آلاتِ الحربِ، مفلطحةٌ: أي عريضةٌ، عقيفاءُ: معوجَّةٌ[1].

وقولهُ شوكُ السَّعدانِ: قالَ الحافظُ: جمعُ سعدانةٍ وهوَ نباتٌ ذُو شوكٍ يُضربُ بِهِ المثلُ فِي طيبِ مرعاهُ قالُوا: مرعَى ولَا كالسَّعدانِ، وقولهُ: أمَا رأيتمْ شوكَ السَّعدانِ: هوَ استفهامُ تقريرٍ لاستحضارِ الصُّورةِ المذكورةِ[2].

قالَ الزَّينُ بنُ المنيرِ: تشبيهُ الكلاليبِ بشوكِ السَّعدانِ خاصٌ بسرعةِ اختطافهَا وكثرةِ الانتشابِ فيهَا معَ التحرُّزِ والتصوُّنِ تمثيلاً لهمْ بمَا عرفوهُ فِي الدُّنيَا وألفوهُ بالمباشرةِ[3].

وقولهُ: "لَا يعلمُ قدرَ عظمهَا إلَّا اللهُ" فِي روايةِ مسلمٍ: لَا يعلمُ مَا قدرَ عظمهَا إلَّا اللهُ.

قالَ الجوهريُّ، عظمَ الشَّيءِ عظماً: أيْ كبرَ فتقديرهُ لَا يعلمُ قدرَ كبرهَا إلَّا اللهُ وعظمَ الشَّيءِ أكثرهُ[4].

---

(1) ((عمدة القاري)) (**320/20**).

(2) ((فتح الباري كتاب الرقاق)) (**453/11**).

(3) ذكره الحافظ في (الفتح)(**453/11**).

(4) ((عمدة القاري)) (**98/19**). كتاب الرقاق باب الصراط جسر جهنم (**453/11**).

4) والصِّراطُ مثلَ حدِّ الموسَى أو حدِّ السَّيفِ: كمَا فِي حديثِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ وفيهِ يقولُ النبيُّ ﷺ: "ويمرُّونَ علَى الصِّراطُ والصِّراطُ كحدِّ السَّيفِ[1].

ومنْ حديثَ سليمانَ، وفيهِ: ويوضحُ الصِّراطُ مثلَ حدِّ الموسَى، فتقولُ الملائكةُ: منْ يجيزُ علَى هذَا؟ فيقولُ: منْ شئتُ منْ خلقِي: فيقولونَ: مَا عبدناكَ حقَّ عبادتكَ[2][3].

---

(1) رواه الحاكم (408/2). وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ، ووافقه الذهبي، وقال السيوطي في ((البدور السافرة)) (158): طريقه صحيحة متصلة رجالها ثقات، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (3629).

(2) رواه الحاكم (629/4). وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقال ابن رجب في ((التخويف من النار)) (ص: 224): المعروف أنه موقوف على سلمان الفارسي من قوله، وأورده الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (941) وإسناده صحيح موقوفا وله حكم الرفع.

(3) المصدر: صفة الصراط لحاي الحاي – ص 14.

وختامًا قالَ الإمامُ السَّعديُ رحمهُ اللهُ تعالَى: الذِّكرُ للهِ الذِي أمرَ بهِ، وأثنَى علَى الذَّاكرينَ، وذكرَ جزاءهمْ العاجلَ والآجلَ، هوَ: عندَ الإطلاقِ، يشملُ جميعَ مَا يقرّبُ إلَى اللهِ: منْ عقيدةٍ، أوْ فكرٍ نافعٍ، أوْ خلُقٍ جميلٍ، أوْ عملٍ قلبيٍّ أوْ بدنيٍّ، أوْ ثناءٍ علَى اللهِ، أوْ تسبيحٍ ونحوهِ، أوْ تعلُّمِ أحكامِ الشَّرعِ الأصوليَّةِ والفروعيَّةِ، أوْ مَا يعينُ علَى ذلكَ، فكلُّهُ داخلٌ فِي ذكرِ اللهِ.

~~~~~~~~~~~ *الشَّرح* ~~~~~~~~~~~

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بالذِّكرِ فِي كتابهِ الكريمِ فِي كثيرٍ منَ المواقعِ وأثنَى علَى الذَّاكرينَ، وذكرَ ثوابهمُ الجزيلَ فِي الدُّنيَا والأخرَى، وكذلكَ توعَّدَ المعرضينَ عنِ الذِّكرِ بالعقابِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، فقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}[آل عمران: 41].

وقالَ سبحانهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}[الأحزاب: 41، 42].

وقال تعالى: {فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا}[البقرة: 198: 200].

وقال جلَّ جلالهُ: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ}[النساء: 103].
~~~~~~~~~~~

وأثنَى سبحانهُ وتعالَى الذَّاكرينَ بقولهِ:

{وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[الأحزاب: 35].

وقالَ تعالَى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ}[آل عمران: 190 – 191].

وقالَ تعالَى: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ}[النور: 37].

وتوعَّدَ سبحانهُ المعرضينَ عنِ الذِّكرِ بقولهِ: {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[الزمر: 22].

وقالَ تعالَى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}[الزخرف: 36].

وقال سبحانهُ: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ}[المجادلة: 19].

وقال جلَّ علَا: {يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا}[النساء: 142].

{مفهوم الذكر}

المعنَى اللُّغوِي للذِّكرِ:

(ذ ك ر) الذَّالُ والكافُ والرَّاءُ أصلانِ، عنهمَا يتفرَّعُ كَلِمُ البابِ.

فالأصلُ الأوَّلُ: الذَّكرُ (بالفتحِ): خلافُ الأنثَى، والأصلُ الآخرُ: الذِّكرُ (بالكسرِ): الحفظُ للشَّيءِ، تذكَّرهُ، والذِّكرُ: جريُ الشَّيءِ علَى اللِّسانِ، وذكرتَ الشَّيءَ: خلافَ نسيتهُ، ثمَّ حُملَ عليهِ الذِّكرُ باللِّسانِ، ويقولونَ: اجعلهُ منكَ علَى ذُكرٍ، بضمِّ الذَّالِ، أي: لَا تنسهُ، والذِّكرُ: العلاءُ والشَّرفُ، وهوَ قياسُ الأصلِ.

فعلَى الأصلِ الثَّانِي (الذِّكرُ) بالكسرِ لهُ معنيانِ:

أحدهمَا: التلفُّظُ بالشَّيءِ.

والثَّانِي: إحضارهُ فِي الذِّهنِ، بحيثُ لَا يغيبُ عنهُ، وهوَ ضدُّ النِّسيانِ.

و(الذُّكرُ) بالضمِّ للمعنَى الثَّانِي لَا غيرَ، أي: أنَّ الذِّكرَ بالكسرِ مَا يكونُ باللِّسانِ، وبالضمِّ مَا يكونُ بالجنانِ.

وإذَا أريدَ بالذِّكرِ الحاصلِ بالمصدرِ جمعَ علَى (أذكارٍ) وهوَ الإتيانُ بألفاظٍ وردَ التَّرغيبُ فيهَا، ويُطلقُ ويُرادُ بهِ المواظبةُ علَى العملِ بمَا أوجبَ أوْ نُدبَ إليهِ، كالتِّلاوةِ، وقراءةِ الأحاديثِ، ودرسِ العلمِ، والنَّفلِ بالصَّلاةِ[1].

---

(1) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/٩٤ – ومقاييس اللغة، ابن فارس ٢/٣٥٨ – وتاج العروس، الزبيدي ١١/٣٨٧.

المعنَى الاصطلاحِي للذِّكرِ:

قالَ ابنُ علَّانَ: أصلُ وضعِ الذِّكرِ هوَ مَا تعبَّدنَا الشَّارعُ بلفظِهِ، ممَّا يتعلَّقُ بتعظيمِ الحقِّ، والثَّناءِ عليهِ(1).

ونَجدُ أنَّ الذِّكرَ عندَ ابنِ تيميَّةَ واسعُ الدَّلالةِ؛ إذْ هوَ عندهُ: كلُّ مَا تكلَّمَ بهِ اللِّسانُ، وتصوَّرهُ القلبُ، ممَّا يقرِّبُ إلَى اللهِ منْ تعلُّمِ علمٍ، وتعليمهِ، وأمرٍ بمعروفٍ، ونهيٍ عنْ منكرٍ فهوَ منْ ذكرِ اللهِ؛ ولهذَا منِ اشتغلَ بطلبِ العلمِ النَّافعِ بعدَ أداءِ الفرائضِ، أوْ جلسَ مجلسًا يتفقَّهُ، أوْ يفقهُ فيهِ الفقهَ الذِي سمَّاهُ اللهُ ورسولهُ فقهًا، فهذَا أيضًا منْ أفضلِ ذكرِ اللهِ(2).

وعرَّفهُ ابنُ القيِّمِ فِي الوابلِ الصيِّبِ بقولهِ: الذِّكرُ ثناءٌ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ بجميلِ أوصافهِ وآلائهِ وأسمائهِ(3).

والمقصودُ: أنَّ الذِّكرَ فِي الاصطلاحِ يُستعملُ بمعنَى ذكرِ العبدِ لربِّهِ عزَّ وجلَّ، سواءٌ بالإخبارِ المجرَّدِ عنْ ذاتهِ أو صفاتهِ أو أفعالهِ أو أحكامهِ، أو بتلاوةِ كتابهِ، أو بمسألتهِ ودعائهِ، أو بإنشاءِ الثَّناءِ عليهِ بتقديسهِ، وتمجيدهِ وتوحيدهِ وحمدهِ وشكرهِ، وتعظيمهِ، ويستعملُ الذِّكرُ اصطلاحًا بمعنَى أخصَّ منْ ذلكَ، فيكونُ بمعنَى إنشاءِ الثَّناءِ بمَا تقدَّمَ دونَ سائرِ المعانِي الأخرَى المذكورةِ، ويشيرُ إلَى الاستعمالِ بهذَا المعنَى الأخصِّ قولهُ تعالَى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}[العنكبوت: 45].

(1) الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية ١/٣٩٦.

(2) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/٦٦١.

(3) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٨٩.

فبعدَ أنْ ذكرَ الصَّلاةَ وهيَ ذكرٌ بالمعنَى العامِ، قالَ بعدهَا: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) أي: بالمعنَى الأخصِّ.

ويلحظُ أنَّ الذِّكرَ اصطلاحًا مخصوصٌ بذكرِ العبدِ ربَّهُ عزَّ وجلَّ، بالثَّناءِ عليهِ.

ووردتْ مادَّةُ (ذكر) فِي القرآنِ الكريمِ (242) مرَّةً[1].

وجاءَ الذِّكرُ فِي القرآنِ علَى ثمانيةِ أوجهٍ:

الأوَّلُ: الطَّاعةُ والعملُ الصَّالحُ، قالَ تعالَى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}[البقرة:152]، يعنِي: اذكرونِي بالطَّاعةِ وأطيعونِي، أذكركمْ بخيرٍ.

الثَّانِي: الحفظُ، قالَ تعالَى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة: 63]، يعنِي: احفظُوا مَا فِي التَّوراةِ.

الثَّالثُ: التَّوحيدُ، قالَ تعالَى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ}[طه:124]، يعنِي: عنْ توحيدهِ سبحانهُ، وقالَ القرطبِي: ومنْ أعرضَ عنْ ذكرِي أي دينِي ...[2].

الرَّابعُ: الشَّرفُ، قالَ تعالَى: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ}[الأنبياء: 10]، يعنِي: شرفكمْ.

(1) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٧٠- ٢٧٥..

(2) تفسير القرطبي.

قالَ الطَّبرِي: وقالَ آخرونَ: بلْ عنيَ بالذِّكرِ فِي هذَا الموضعِ: الشَّرفُ، وقالُوا: معنَى الكلامِ: لقدْ أنزلنَا إليكمْ كتابًا فيهِ شرفكمْ، وهذَا القولُ الثَّانِي أشبهُ بمعنَى الكلمةِ، وهوَ نحوُ ممَّا قالَ سفيانُ الذِي حكينَا عنهُ، وذلكَ أنَّهُ شرفٌ لمنْ اتَّبعهُ وعملَ بمَا فيهِ[7].

الخامسُ: الوعظُ، قالَ تعالَى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ}[الأنعام: 44]، يعنِي: مَا وعظُوا بهِ.

السَّادسُ: الخبرُ، قالَ تعالَى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا}[الكهف: 83]، يعنِي: خبرًا.

السَّابعُ: الوحيُ، قالَ تعالَى: {أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا}[ص: 8]، يعنِي: الوحيُ.

الثَّامنُ: البيانُ، قالَ تعالَى: {ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ}[ص: 1]، يعني: ذي البيان[1].

قالَ القرطبِي: قالَ ابنُ عبَّاسٍ ومقاتلٌ: معنَى ذِي الذِّكرِ ذِي البيانِ[2][3].

---

(1) تفسير الطبري.

(2) تفسير القرطبي.

(3) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن، مقاتل بن سليمان، ص٥١- ٥٥، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢١٧- ٢٢٠، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٣٠١- ٣٠٥.

الألفاظُ ذاتُ صلةٍ بالذِّكرِ:

التَّسبيحُ:

التَّسبيحُ لغةً:

تدلُّ مادَّةُ (سبح) علَى التَّنزيهِ والتَّبرئةِ منَ السُّوءِ.

ومعنَى: (سُبحانَ اللهِ): تنزيهُ اللهِ تعالَى وبراءتهُ منَ السُّوءِ[1].

التَّسبيحُ اصطلاحًا:

التَّنزيهُ والتَّعظيمُ للهِ تعالَى[2].

الصَّلةُ بينَ التَّسبيحِ والذِّكرِ:

أنَّ الذِّكرَ أعمُّ منَ التَّسبيحِ، والتَّسبيحُ أخصُّ منَ الذِّكرِ، فكلُّ تسبيحٍ ذكرٌ وليسَ العكسُ.

الدُّعاءُ:

الدُّعاءُ لغةً:

مأخوذٌ منْ مادَّةِ (د ع و) التي تدلُّ فِي الأصلِ علَى إمالةِ الشَّيءِ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ، ومنْ هذَا الأصلِ الدُّعاءُ فِي معنَى الرَّغبةِ إلَى اللهِ عزَّ وجلَّ، وهوَ واحدُ الأدعيةِ، والفعلُ منْ ذلكَ دعاَ يدعُو، والمصدرُ الدُّعاءُ والدَّعوَ[3].

(1) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١٢٥/٣، لسان العرب، ابن منظور ١٩١٤/٣.

(2) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٢٢٣، لسان العرب، ابن منظور ٤٧٢/٢.

(3) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢٨٠/٢.

الدُّعاءُ اصطلاحًا:

هوَ سؤالُ العبدِ ربَّهُ حاجتهُ، وقدْ سبقَ تعريفُهُ فِي أبوابٍ سابقةٍ.

الصِّلةُ بينَ الدُّعاءِ والذِّكرِ:

بينهمَا عمومٌ وخصوصٌ، فكلُّ دعاءٍ ذكرٌ للهِ، وليسَ كلُّ ذكرٍ دعاءٌ.

قالَ ابنُ القيِّمِ: إنَّ الدُّعاءَ هوَ ذكرٌ للمدعوِّ سبحانهُ، متضمِّنٌ للطَّلبِ منهُ والثَّناءِ عليه بأسمائهِ وأوصافهِ، فهوَ ذكرٌ وزيادةٌ، كمَا أنَّ الذِّكرَ سمِّيَ دعاءً لتضمُّنهِ الطَّلبَ، كمَا قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "أفضلُ الدُّعاءِ الحمدُ للهِ"، فسمَّى الحمدَ للهِ دعاءً، وهوَ ثناءٌ محضٌ؛ لأنَّ الحمدَ يتضمَّنُ الحبَّ والثَّناءَ، والحبُّ أعلَى أنواعِ الطَّلبِ للمحبوبِ، فالحامدُ طالبٌ لمحبوبهِ، فهوَ أحقُّ أنْ يسمَّى داعيًا منَ السَّائلِ الطَّالبِ منْ ربِّهِ حاجةً مَا[1].

ويندرجُ تحتَ مسمَّى الذِّكرِ كلُّ قولٍ باللِّسانِ يُرادُ بهِ القربةَ للهِ سبحانهُ وتعالَى كالاستغفارِ والتهليلِ والصَّلاةِ علَى الرَّسولِ وقراءةِ القرآنِ وغيرهِ، كمَا يندرجُ تحتَ مسمَّى الذِّكرِ كلُّ الأعمالِ البدنيَّةِ التِي يرادُ بها القربةُ إلَى اللهِ تعالَى كالصَّلاة والجهادِ والحجِّ وغيرهِ، كمَا يندرجُ تحتَ مسمَّى الذكرِ كلُّ الأعمالِ القلبيَّةِ التِي يرادُ بهَا وجه اللهِ تعالَى كالتَّفكُّرِ فِي خلقِ السَّمواتِ والأرضِ وغيرهِ، ونخلصُ منْ هذَا المبحثِ أنَّ الذِّكرَ كمَا عرَّفهُ السَّعدِي: عندَ الإطلاقِ، يشملُ جميعَ مَا يقرِّبُ إلَى اللهِ: منْ عقيدةٍ، أوْ فكرٍ نافعٍ، أوْ خلُقٍ جميلٍ، أوْ عملٍ قلبيٍّ أوْ بدنيٍّ، أوْ ثناءٍ علَى اللهِ، أوْ تسبيحٍ ونحوهِ، أوْ تعلُّمِ أحكامِ الشَّرعِ الأصوليَّةِ والفروعيَّةِ، أوْ مَا يعينُ علَى ذلكَ، فكلُّهُ داخلٌ فِي ذكرِ اللهِ.

---

(1) بدائع الفوائد ٣/٩.

{أنواع الذكر}

1 – الذِّكرُ المطلقُ.

2 – الذِّكرُ المقيَّدُ.

إنَّ الأذكارَ تنقسمُ إلَى قسمينِ:

أذكارٌ مطلقةٌ، وأذكارٌ مقيَّدةٌ، وجمعَ ذلكَ قولهُ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً}[الأحزاب:41-42]، فأطلقَ الذِّكرَ بقولهِ (ذِكْرًا كَثِيرًا) وقيَّدهُ فِي الثَّانيةِ بقولهِ (بُكرةً وأصيلًا).

– **فالذِّكرُ المطلقُ:** أنْ تذكرَ اللهَ تعالَى علَى كلِّ حالٍ بلَا وقتٍ محدَّدٍ ولَا وصفٍ محدَّدٍ ولَا مكانٍ محدَّدٍ، ويكونُ ذلكَ قائماً أوقاعداً أوعلَى جنبٍ، كمَا قالَ اللهُ تعالَى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ}[آل عمران: 191].

وأخرجَ مسلمٌ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ تعالَى عنهَا قالتْ: كانَ النبيُّ ﷺ يذكرُ اللهَ علَى كلِّ أحيانهِ[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لله وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ[2].

وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَحَبّ الكَلاَمِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ لله، وَلاَ إِلهَ إِلاّ اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لاَ يَضُرّكَ بِأَيّهِنّ بَدَأْتَ[3].

---

(1) أخرجه مسلم.

(2) أخرجه مسلم.

(3) أخرجه مسلم.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ"[1].

وكلُّ مَا سبقَ منَ الأذكارِ التِي ندبَ لهَا رسولُ اللهِ ﷺ لمْ تقيَّدْ بزمانٍ ولَا مكانٍ ولَا حالٍ، فهيَ أذكارٌ مطلقةٌ، تُذكرُ فِي كلِّ وقتٍ وعلَى أيِّ حالٍ.

– وأمَّا الذِّكرُ المقيَّدُ فهوَ علَى أربعةِ أقسامٍ:

1) مقيَّدٌ بزمانٍ.

2) مقيَّدٌ بمكانٍ.

3) مقيَّدٌ بعددٍ.

4) مقيَّدٌ بحالٍ.

وهذَا التَّقييدُ قيَّدهُ الشَّارعُ، فيُندبُ التقيُّدُ بهِ، لَا علَى وجهِ الوجوبِ.

فأوَّلهُ المقيَّدُ بزمانٍ: كأذكارِ الصَّباحِ والمساءِ، فأمَّا أذكارُ الصَّباحِ قُيِّدَ وقتهَا منْ طلوعِ الفجرِ إلَى شروقِ الشَّمسِ ومنهمْ منْ يرَى أنَّهُ إلَى وقتِ الضُّحَى، وأذكارُ المساءِ منَ العصرِ إلَى المغربِ ومنهمْ منْ يرَى أنَّهُ إلَى ثلثِ اللَّيلِ، والأمرُ فِي هذَا واسعٌ، لكنَّ الصَّحيحَ الرَّاجحَ أنَّهُ قبلَ طلوعِ الشَّمسِ وقبلَ الغروبِ، استنادًا لقولهِ تعالَى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}[ق: 39]، وقولهُ تعالَى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا}[طه: 130]، وبهِ قالَ ابنُ القيِّمِ: قالَ تعالَى: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ

---

(1) متفق عليه.

وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)، وهذَا تفسيرُ مَا جاءَ فِي الأحاديث: منْ قالَ كذَا وكذَا حينَ يصبحُ، وحينَ يُمسِي، أنَّ المرادَ بِهِ: قبلَ طلوعِ الشَّمسِ، وقبلَ غروبهَا وأنَّ محلَّ ذلكَ مَا بينَ الصُّبحِ وطلوعِ الشَّمسِ، وَمَا بينَ العصرِ والغروبِ، وقالَ تعالَى: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)[غافر: 55]، والإبكارُ أوَّلُ النَّهارِ، والعشيِّ آخرهُ، وأنَّ محلَّ هذهِ الأذكارِ بعدَ الصُّبحِ، وبعدَ العصرِ[1].

منْ ذلكَ مَا رواهُ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي البَارِحَةَ، قَالَ: "أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ تَضُرَّكَ"[2].

هنَا قيَّدَ رسولُ اللهِ ﷺ هذَا الذِّكرَ بزمانٍ محدَّدٍ وهوَ المساءُ.

والثَّانِي المقيَّدُ بمكانٍ: كأذكارِ دخولِ المسجدِ والخروجِ منهُ، الخ... منْ ذلكَ مَا رواهُ أَبُو حُمَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (أَوْ عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ، فَلْيَقُلِ: اللَّهمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيَقُل: اللَّهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ"[3]. وهنَا قيَّدَ رسولُ اللهِ ﷺ هذَا الذِّكرَ بمكانٍ ألَا وهوَ المسجدُ.

والثَّالثُ المقيَّدُ بعددٍ: منْ ذلكَ مَا رواهُ أبُو هريرةَ قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ:"مَنْ قالَ حِينَ يُصبحُ و حِينَ يُمسِي: سُبحانَ اللهِ العظيمِ و بِحمدِهِ، مِائةَ مَرَّةٍ، لمْ يأتِ أحدٌ يومَ القِيامةِ بأفْضلَ مِمَّا جاء به، إلَّا أحَدٌ قال مِثلَ ذلِكَ، وزادَ عليْهِ"[4].

---

(1) ملخصا من الوابل الصيب (200) ويراجع شرح الأذكار النووية لابن علان (3 / 74 , 75 ، 100).

(2) أخرجه مسلم.

(3) أخرجه مسلم.

(4) صحيح الجامع.

وهنَا قيَّدَ رسولُ اللهِ ﷺ هذَا الذِّكرَ بعددٍ وزمانٍ كمَا هوَ واضحٌ.

والرَّابعُ المقيَّدُ بحالٍ: كالأذكارِ حالَ المرضِ وغيرِهِ، ومنْ ذلكَ مَا رواهُ كعبُ بنُ مالكٍ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: "إذا وجَد أحدُكم ألمًا فلْيضَعْ يدَه حيث يجِدُ ألمَه ثم ليقُلْ سبعَ مراتٍ: أعوذُ بعزةِ اللهِ وقدرتِه على كلِّ شيءٍ مِن شرِّ ما أجِدُ وأُحاذِرُ"[1]. وهنَا قيَّدَ رسولُ اللهِ ﷺ هذَا الذِّكرَ بحالِ المرضِ والعددِ.

(1) إتحاف الخيرة المهرة.

{حكمُ ذكرِ اللهِ تعالَى}

حكمُ ذكرِ اللهِ تعالَى الوجوبُ، وذلكَ منْ حديثِ أبِي هريرةَ قالَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "مَا مِنْ قَوْمٍ يَقومونَ منْ مَجْلسٍ لاَ يَذكُرُون الله تَعَالَى فِيهِ إِلاَّ قَاموا عَنْ مِثلِ جيفَةِ حِمَارٍ وكانَ لَهُمْ حَسْرَةً"[1].

وقالَ أبو هريرةُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ قعدَ مقعدًا لمْ يَذكرِ اللهَ فيهِ، كانَ عليهِ منَ اللهِ تِرَةٌ، ومنِ اضطجعَ مضجعًا لَا يذكرِ اللهَ فيهِ، كانتْ عليهِ منَ اللهِ تِرَةٌ، ومَا مشَى أحدٌ ممشًى لمْ يذكرِ اللهَ فيهِ، إلَّا كانَ عليهِ منَ اللهِ تِرَةٌ"[2].

وعنهُ عنِ النبيِّ ﷺ قَالَ: "مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكرُوا الله تَعَالَى فِيهِ ولَم يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهم فِيهِ إلاَّ كانَ عَلَيّهمْ تِرةٌ، فإِنْ شاءَ عَذَّبَهُم، وإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُم"[3].

فقولهُ ﷺ: (إنْ شاءَ عذَّبهمْ وإنْ شاءَ غفرَ لهمْ) يدلُّ بظاهرهِ علَى وجوبِ الذِّكرِ فِي كلِّ مجلسٍ، لأنَّ العذابَ والمغفرةَ لَا يكونُ إلَّا عنْ ذنبٍ، إمَّا بتركِ واجبٍ، وإمَّا بفعلِ محرَّمٍ، قالَ ابنُ علَّانَ رحمهُ اللهُ تعالَى: (فإنْ شاءَ عذَّبهمْ) جزاءُ مَا قصَّرُوا فِي ذلكَ بتركهَا (وإنْ شاءَ غفرَ لهمْ) ذلكَ النَّقصَ، وهذَا يقتضِي وجوبَ وجودِ الذِّكرِ والصَّلاةِ علَى النبيِّ ﷺ فِي المجلسِ، لأنَّهُ رُتِّبَ العذابَ علَى تركِ

(1) أخرجه أبو داود (4855)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (10241)، وأحمد (10680) باختلاف يسير، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (207/7) واللفظ له.

(2) أخرجه أبو داود (4856)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (10237).

(3) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

ذلكَ وهوَ آيةُ الوجوبِ، ولمْ أرَ منْ ذكرَ عنهُ القولَ بوجوبِ ذلكَ فِي كلِّ مجلسٍ، والحديثُ يقتضيهِ[1].

قالَ ابنُ دقيقِ العيدِ: وقدِ اتَّفقُوا علَى وجوبِ الصَّلاةِ علَى النبيِّ ﷺ فقيلَ: تجبُ فِي العمرِ مرَّةً وهوَ الأكثرُ[2].

وجاءَ فِي حاشيةِ العدوِي والفواكهِ الدَّوانِي علَى رسالةِ ابنِ أبِي زيدٍ القيروانِي: وحكمُ الصَّلاةِ والسَّلامِ علَى سيِّدنَا محمَّدٍ ﷺ الوجوبُ فِي العمرِ مرَّةً وكذلكَ الحمدُ للهِ، ومَا زادَ علَى ذلكَ فهوَ مستحبٌّ أوْ سنَّةٌ، وممَّا هوَ واجبٌ فِي العمرِ مرَّةً الاستغفارُ والتَّهليلُ والتَّسبيحُ والتَّكبيرُ والتَّعوُّذُ والحوقلةُ والدُّعاءُ للوالدينِ وللسَّلفِ الصَّالحِ.

وقدْ نظمَ ذلكَ بعضُ الفضلاءِ فقالَ:

هاكَ جميعَ مَا منَ القولِ يجبْ * فِي العمرِ مرَّةً ومَا زادَ استحبْ
بسملةٌ حمدلةٌ والهَيللةْ * استغفرِ اللهَ، كذَا والحوقلةْ
والحكمُ فِي التَّسبيحِ والتَّكبيرِ * كذَا، وتعويذُ بذَا القديرِ
كذَا الصَّلاةُ معهَا السَّلامُ * علَى الذِي اقتدي بهِ الأنامُ
لولديكَ المؤمنينَ استغفرَا * حيَّينِ أو ميِّتينِ ذاكَ استظهرَا
وجوبهُ فِي العمرِ مرَّةً، كمَا * يجبْ مرَّةً لمنْ تقدَّمَا
منْ سلفٍ إنْ كانَ صالحًا، نقلْ * إمامُنَا العدوِي ذَا، فلتمتثلْ[3].

---

(1) دليل الفالحين شرح رياض الصالحين (127/6).

(2) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام.

(3) منقول من العقد الجوهري على النظم المسمى العبقري للطاهر بن عبد المعطي السباعي الإدريسي الحسني.

وقالَ تعالَى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[الأحزاب: 56].

هنَا أمرَ اللهُ تعالَى أهلَ الإيمانِ بالصَّلاةِ علَى الرَّسولِ ﷺ بعدَ أنْ حدَّث عنْ نفسهِ وملَائكتهِ بأنهمْ يصلُّونَ عليهِ توكيدًا للأمرِ، والأمرُ فِي أصلهِ يقتضِي الوجوبَ ومعَ التَّوكيدِ يرتقِي إلَى أعلَى درجاتِ الوجوبِ.

قالَ القرطبِي: ولَا خلافَ فِي أنَّ الصَّلاةَ عليهِ فرضٌ فِي العمرِ مرَّةً، وفِي كلِّ حينٍ منَ الواجباتِ وجوبَ السُّننِ المؤكَّدةِ التِي لَا يسعُ تركهَا ولَا يغفلهَا إلَّا منْ لَا خيرَ فيهِ[1].

ومنَ المعلومِ أنَّ الصَّلاةَ علَى الرَّسولِ ﷺ منْ جملةِ الأذكارِ فإنْ كانتِ الصَّلاةُ علَى الرَّسولِ ﷺ واجبةٌ فإنَّ ذكرَ اللهِ الخالصِ منْ بابِ أولَى، أي هوَ أولَى بالوجوبِ.

وقالَ تعالَى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلً}[النساء: 142].

قالَ السَّعدِي: (لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) لامتلاءِ قلوبهمْ منَ الرِّياءِ، فإنَّ ذكرَ اللهِ تعالَى وملازمتهُ لَا يكونُ إلَّا منْ مؤمنٍ ممتلئٌ قلبهُ بمحبَّةِ اللهِ وعظمتهِ[2].

---

(1) تفسير القرطبي.

(2) تفسير السعدي.

فيكفِي المؤمنَ تخويفًا أنْ يكونَ مثلَ المنافقينَ، هذَا إنْ لمْ يكنْ منهمْ بتركِ مَا أُمرَ بهِ منَ الذِّكرِ.

والأوامرُ بالذِّكرِ علَى التَّفصيلِ فِي القرآنِ تكادُ تكونُ شاملةً لكلِّ الذِّكرِ، قالَ تعالَى:

1) {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}[لاإسارء: 111].

2) وقالَ سبحانهُ: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ}[محمد: 19].

3) وقالَ جلَّ جلالهُ: {قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}[الزمر: 38].

4) وقالَ سبحانهُ وتعالَى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ}[الإسراء: 110].

5) وقالَ جلَّ وعلَا: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ}[النمل: 559].

6) وقالَ تباركَ وتعالَى: {وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}[آل عمران: 41].

7) وقالَ تعالَى: {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}[الكهف: 39].

ففِي هذهِ الآياتِ أوامرُ مباشرةٌ صريحةٌ تُشير إلَى وجوبِ الذِّكرِ،

ففِي الآيةِ الأولَى: أمرَ سبحانهُ بالحمدِ والتَّكبيرِ.

وفِي الثَّانيةِ: أمرَ تعالَى بتعلُّمِ لَا إلهَ إلَّا اللّه، وهوَ أعلَى منْ مجرَّدِ التلفُّظِ بهَا، وأمرَ فِي ذيلهَا بالاستغفارِ.

وفِي الآيةِ الثَّالثةِ: أمرَ بالحَسْبلَةِ.

وفِي الرَّابعةِ: أمرَ بالدُّعاءِ عمومًا ولَا يخفَى وجوبُ الدُّعاءِ علَى مؤمنٍ.

وفِي الخامسةِ: أمرَ بالدُّعاءِ لعبادِ اللهِ الصَّالحينَ بالسَّلامةِ ممَّا يخافونَ بقولهِ تعالَى: (وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ) فمعنَى "السَّلام" هوَ دعاءٌ بالسَّلامةِ منْ كلِّ آفةٍ، وبهِ قالَ ابنُ عثيمينَ: قولهُ: السَّلامُ عليكَ، السَّلام قيلَ: إنَّ المرادَ بالسَّلامِ: اسمُ اللهِ عزّ وجلّ، لأنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: "إنَّ اللَّهَ هوَ السَّلامُ..."[1] كمَا قالَ عزّ وجلّ فِي كتابهِ: {الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ}[الحشر: 23]، وبناءً علَى هذَا القولِ يكونُ المعنَى: أنَّ اللهَ علَى الرَّسولِ ﷺ بالحِفظِ والكَلاءةِ والعنايةِ وغيرِ ذلكَ، فكأنَّنَا نقولُ: اللَّهُ عليكَ، أي: رقيبٌ حافظٌ مُعْتَنٍ بكَ، ومَا أشبهَ ذلكَ، وقيلَ: السَّلامُ: اسمُ مصدرِ سَلَّمَ بمعنَى التَّسليمُ، كمَا قالَ تعالَى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[الأحزاب: 56] فمعنَى التَّسليمِ علَى الرَّسولِ ﷺ: أنَّنَا ندعُو لهُ بالسَّلامةِ مِنْ كُلِّ آفةٍ[2].

وفِي الآيةِ السَّادسةِ: أمرَ سبحانهُ بالتَّسبيحِ أمرًا مباشرًا.

---

(1) صحيح البخاري.

(2) الشرح الممتع على زاد المستقنع للشيخ محمد بن صالح العثيمين.

وفِي الآيةِ الأخيرةِ: أمرَ بالحوقلةِ.

فكلُّ هذهِ الأوامرِ تقتضِي الوجوبَ وهذَا مجمعٌ عليهِ، لكنْ هلْ هذَا الوجوبُ هوَ مرَّةٌ فِي العمرِ كمَا قالُوا؟ الصَّحيحُ أنَّ الأمرَ فيهِ تفصيلٌ، فليسَ كلُّ الذِّكرِ يجبُ مرَّةً فِي العمرِ، بل منَ الأذكارِ مَا هوَ مرتبطٌ بحالِ المسلمِ، فالتَّسميةُ واجبةٌ كلَّ مَا أرادَ المسلمُ الطَّعامَ، إلَّا لمَا أمرَ الرَّسولُ ﷺ بقضائهَا لمنْ نسيهَا، فعنْ عائشةَ مرفوعاً: إذَا أكلَ أحدكمْ طعاماً فليقلْ: بسمِ اللهِ، فإنْ نسيَ فِي أوَّلهِ، فليقلْ: بسمِ اللهِ فِي أوَّلهِ وآخرهِ[1]، وقالَ فِي الهديِ: والصَّحيحُ وجوبُ التَّسميةِ عندَ الأكلِ وهوَ أحدُ الوجهينِ لأصحابِ أحمدَ، وأحاديثُ الأمرِ بهَا صحيحةٌ صريحةٌ لَا معارضَ لهَا ولَا إجماعَ يسوِّغُ مخالفتهَا ويخرجُ عنْ ظاهرهَا[2].

والصَّلاةُ علَى رسولِ اللهِ ﷺ واجبةٌ كلَّ مَا ذُكرَ رسولُ اللهِ ﷺ، فإنَّ المسلمَ مطالبٌ بالصَّلاةِ علَى النبيِّ ﷺ كلَّمَا ذكرَ اسمهُ، ولوْ كثرَ ذلكَ، بلْ ذهبَ بعضُ العلماءِ كابنِ عبدِ البرِّ منَ المالكيَّةِ، وابنِ بطةَ منَ الحنابلةِ، إلَى وجوبِ الصَّلاةِ عليهِ ﷺ كلَّما ذُكرَ، بدليلِ حديثِ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكرتُ عندهُ، فلمْ يصلِّ عليَّ"[3].

ويدلُّ علَى المطالبةِ بالصَّلاةِ عليهِ ﷺ كلَّما ذُكرَ، حديثُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "البخيلُ منْ ذُكرتُ عندهُ، فلمْ يصلِّ عليَّ"[4].

---

(1) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(2) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي.

(3) رواه الترمذي، وقال حديث حسن.

(4) رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

وقالَ ابنُ علَّانَ: وأصلُ البخلِ إمساكُ الشَّيءِ عنْ مستحقِّهِ، وهوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يستحقُّ علَى أمَّتهِ أنْ يصلُّوا عليهِ، فمنْ أمسكَ منهمْ عنهَا كانَ أشرَّ الممسكينَ، وأشحَّ البخلاءِ المحرومينَ، فيُخشَى عليهِ المقتَ والبوارَ، أجارنَا اللهُ منْ ذلكَ[1].

والاستغفارُ واجبٌ علَى كلِّ منْ فعلَ ذنبًا، وهكذَا علَى حسبِ الحالِ، فإنْ قلنَا في الاستغفارِ بمَا جاءَ فِي حاشيةِ العدوِي والفواكهِ الدَّواني علَى رسالةِ ابنِ أبِي زيدٍ القيرواني بأنَّ الاستغفارَ واجبٌ مرَّةً فِي العمرِ والمسلمُ لَا يخلُوا منْ ذنبٍ لهلكةِ الأمَّةُ قاطبةً، لكنَّ الصَّحيحَ أنَّ وجوبَ الذِّكرِ عمومًا يكونُ علَى حسبِ نوعِ الذِّكرِ وحالِ المسلمِ، وهذَا أسلمُ للمسلمِ أنْ يتركَ واجبًا مستمرًّا ظنًّا منهُ أنَّهُ يكفيهِ مرَّةً فِي العمرِ، فإنْ كانَ وهوَ مستبعدٌ أنْ يكونَ مرَّةٌ فِي العمرِ فقدْ فازَ بالنَّفلِ وكثرةِ الحسناتِ، وبهذَا يكونُ فِي كلَا الحالتينِ سالمًا، واللهُ أعلمُ.

---

(1) دليل الفالحين لابن علان.

{فوائدُ الذِّكرِ}

ذِكرُ اللهِ تباركَ وتعالَى لهُ فوائدُ عظيمةٌ، ومنافعُ كثيرةٌ منهَا:

- أنَّ ذكرَ اللهِ سبحانهُ قوتُ القلوبِ، وغذاءُ الأرواحِ، وشفاءٌ منَ الأسقامِ.
- وذكرُ اللهِ يليِّنُ القلبَ ويقوِّي البدنَ، وينوِّرُ القلبَ والوجهَ، ويفتحُ أبوابَ المعرفةِ باللهِ، ويورِّثُ القربَ منَ اللهِ.
- وذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ يرضِي الرَّحمنَ، ويطردُ الشَّيطانَ، ويجلبُ الخيرَ، ويزيلُ الشرَّ، ويسهِّلُ الحزنَ، ويُزيلُ الحُزنَ، وييسِّرُ العسيرَ، ويذهبُ الهمَّ والغمَّ، ويثمرُ الطمأنينةَ والسَّكينةَ.
- وذكرُ اللهِ جلَّ جلالهُ يعطِي الذَّاكرَ قوَّةً، ويكسوهُ ومهابةً.
- وذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ يورِّثُ حياةَ القلوبِ، وحصولَ الرِّزقِ، ونزولَ النَّصرِ، ومغفرةَ الذُّنوبِ.
- وذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ يورِّثُ ذكرَ اللهِ تعالَى لعبدهِ، ومحبَّةَ اللهِ لهُ، والأنسَ بهِ، والقربَ منهُ، ورضاهُ عنهُ، والإنابةَ إليهِ، والتلذُّذِ بعبادتهِ، والفوزَ بجنَّتهِ.

والأهمُّ أنَّ ذكرَ اللهِ تعالَى سببٌ لتسهيلِ العلمِ النَّافعِ لطابهِ، فكلمَا ذكرَ الطَّالبُ ربَّهُ كلَّمَا انشرحَ صدرهُ واستنارَ عقلهُ، فقبلَ منَ العلومِ مَا لَا يقدرُ علَى استعابهَا غيرهُ.

فالذِّكرُ لهُ فوائدُ جليلةٌ، شاملةٌ للدِّينِ والدُّنيَا والآخرةِ، أوصلهَا ابنُ القيِّمِ فِي كتابهِ "الوابلُ الصيِّبُ" إلَى أكثرِ منْ سبعينَ فائدةٍ، والذِي يهمُّنَا هنَا ذكرُ فوائدهِ المذكورةِ فِي القرآنِ:

أوَّلًا: ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ لعبدهِ الذاكرِ:

منْ أعظمِ فوائدِ الذِّكرِ ذكرُ اللهِ تعالَى للذَّاكرِ، قالَ تعالَى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}[البقرة: 152].

فقولهُ تعالَى: (فَاذْكُرُونِي) الفاءُ هنَا هيَ فاءُ السَّببيَّةِ، وهيَ التِي يكونُ مَا قبلهَا سببًا لمَا بعدهَا، وهيَ للتَّفريعِ، عاطفةً جملةَ الأمرِ بذكرِ اللهِ وشكرهِ علَى جملِ النِّعمِ المتقدِّمةِ، أي: إذْ قدْ أنعمتُ عليكمْ بهاتهِ النِّعمِ فأنَا آمركمْ بذكرِي.

وهذَا الأمرُ (فَاذْكُرُونِي) جوابهُ (أَذْكُرْكُمْ) وفيهِ: معنَى المجازاةِ[1] والجزاءُ منْ جنسِ العملِ فِي الخيرِ والشرِّ.

قالَ أبُو عثمانَ النَّهدِي: إنِّي لأعلمُ حينَ يذكرنِي ربِّي عزَّ وجلَّ، قيلَ: كيفَ ذلكَ؟ قالَ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) وإذَا ذكرتُ اللهَ تعالَى ذكرنِي»[2]، وقالَ الحكماءُ: إنَّمَا كانَ الذِّكرُ أفضلَ الأشياءِ؛ لأنَّ ثوابَ الذِّكرِ الذِّكرُ، قالَ اللهُ تعالَى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)[3].

---

(1) فتح القدير، الشوكاني ١/١٨٢.
(2) الكشف والبيان، الثعلبي ٢/٢١.
(3) المصدر السابق ٧/٢٨٣.

والذِّكرُ هنَا يُحملُ علَى العمومِ، فيشملُ الذِّكرَ باللِّسانِ، وهوَ: الحمدُ والتَّسبيحُ والتَّمجيدُ وقراءةُ كتابِ اللهِ، وبالقلبِ، وهوَ: الفكرُ فِي الدَّلائلِ الدَّالةِ علَى التَّكاليفِ والأحكامِ، والأمرُ والنَّهيُ والوعدُ والوعيدُ، والفكرُ فِي الصِّفاتِ الإلهيَّةِ، والفكرُ فِي أسرارِ مخلوقاتِ اللهِ تعالَى ....، وبالجوارحِ بأنْ تكونَ مستغرقةً فِي الأعمالِ المأمورِ بهَا، خاليةً عنِ الأعمالِ المنهيِّ عنهَا، وعلَى هذَا الوجهِ سمَّى اللهُ الصَّلاةَ ذكرًا بقولهِ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ}[الجمعة: 9][1].

وسمِّيَ الثَّوابُ المترتِّبُ علَى ذلكَ ذكرًا علَى سبيلِ المقابلةِ لمَا كانَ نتيجةُ الذِّكرِ وناشئًا عنهُ سمَّاهُ ذكرًا[2]، وهذَا ذكرُ العبدِ لربِّهِ.

وأمَّا ذكرُ اللهِ تعالَى لعبدهِ: فهوَ ثناؤهُ عليهِ فِي الملإِ الأعلَى بينَ الملائكةِ، ومباهاتهمْ بهِ، وتنويههِ بذكرهِ[3].

قالَ أبو جعفرَ: أذكركمْ برحمتِي إيَّاكمْ، ومغفرتي لكمْ[4].

وعنِ السدِّي قالَ: ليسَ منْ عبدٍ يذكرُ اللهَ إلَّا ذكرهُ اللهُ، لَا يذكرهُ مؤمنٌ إلَّا ذكرهُ برحمةٍ[5].

---

(1) البحر المحيط ٢/٤٩.
(2) المصدر السابق ٢/٥٠.
(3) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/١٢٨.
(4) جامع البيان ٣/٢١١.
(5) أخرجه الطبري في تفسيره ٢/٦٩٦.

فإذَا ذكرَ المؤمنُ ربَّهُ وجدَ ربَّهُ تجاههُ، وكأنَّهُ بتفلُّتهِ عنْ ذكرِ ربِّهِ قدْ بعدَ عنِ اللهِ تعالَى، فإذَا ذكرَ ربَّهُ، وأشرقَ عليهِ بنورهِ السنيِّ البهيِّ، وفِي الحديثِ القدسيِّ: منْ تقرَّبَ إليَّ شبرًا تقربتُ إليهِ ذراعًا، ومنْ تقرَّبَ إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ إليهِ باعًا، ومنْ أتانِي يمشِي أتيتهُ هرولةً[1]، فذكرَ اللهَ وامتلاءَ القلبُ بهذَا الذِّكرِ يفيضُ علَى الذَّاكرِ أنوارًا منْ جلالِ اللهِ وبهائهِ، وإذَا هوَ فِي حمَى عزيزٍ لَا يُنالُ، وفِي ضمانٍ وثيقٍ منْ أنْ يهونَ، أوْ يذلَّ لغيرِ اللهِ الواحدِ القهَّارِ...[2].

ثانيًا: الحصولُ علَى المغفرةِ والأجرِ العظيمِ:

ومنْ فوائدِ الذِّكرِ: المغفرةُ، ودخولُ الجنَّةِ، قالَ تعالَى: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ" إلى قوله: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[الأحزاب: 35].

فالذَّاكرونَ اللهَ بقلوبهمْ وألسنتهمْ وجوارحهمْ والذَّاكراتِ كذلكَ أعدَّ اللهُ لهمْ مغفرةً لذنوبهمْ، و(وَأَجْرًا عَظِيمًا) يعنِي: ثوابًا فِي الآخرةِ علَى ذلكَ منْ أعمالهمْ عظيمًا؛ وذلكَ الجنَّةُ[3].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، ٢٠٦٧/٤، رقم ٢٦٧٥.

(2) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١١٥/٧.

(3) المصدر السابق ٢٦٩/٢٠.

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً) أي: لهؤلاءِ الموصوفينَ بتلكَ الصِّفاتِ الجميلةِ، والمناقبِ الجليلةِ، التِي هيَ مَا بينَ اعتقاداتٍ وأعمالِ قلوبٍ، وأعمالِ جوارحٍ، وأقوالِ لسانٍ، ونفعٍ متعدٍ وقاصرٍ، ومَا بينَ أفعالِ الخيرِ وتركِ الشرِّ الذِي منْ قامَ بهنَّ فقدْ قامَ بالدِّينِ كلِّهِ، ظاهرهِ وباطنهِ، بالإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ، فجازاهمْ علَى عملهمْ بالمغفرةِ لذنوبهمْ؛ لأنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيِّئاتِ (وَأَجْرًا عَظِيمًا) لَا يقدرُ قدرهُ إلَّا الذِي أعطاهُ، ممَّا لَا عينٌ رأتْ، ولَا أذنٌ سمعتْ، ولَا خطرَ علَى قلبِ بشرٍ، نسألُ اللهَ أنْ يجعلنَا منهمْ[1].

ثالثًا: الفلاحُ:

ومنْ فوائدِ الذِّكرِ: الحصولُ علَى الفلاحِ، وهوَ الفوزُ بالمطلوبِ، والنَّجاةِ منَ المرهوبِ.

قالَ تعالَى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[الجمعة: 10].

وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[الأنفال: 45].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٥.

وقدْ علَّمَ اللهُ عبادهُ هنَا فِي هذهِ الآيةِ الثَّانيةِ إذَا التقُوا بالفئةِ (وهيَ الجماعةُ منَ المحاربينَ) نوعينِ منَ الأدبِ، الأوَّلُ: الثَّباتُ، وهوَ أنْ يوطنُوا أنفسهمْ علَى اللِّقاءِ ولَا يحدثوهَا بالتولِّي، والثَّانِي: أنْ يذكرُوا اللهَ كثيرًا، وفِي تفسيرِ هذَا الذِّكرِ قولانِ:

القولُ الأوَّلُ: أنْ يكونُوا بقلوبهمْ ذاكرينَ اللهَ، وبألسنتهمْ ذاكرينَ اللهَ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: أمرَ اللهُ أولياءهُ بذكرهِ فِي أشدِّ أحوالهمْ تنبيهًا علَى أنَّ الإنسانَ لَا يجوزُ أنْ يخلِي قلبهُ ولسانهُ عنْ ذكرِ اللهِ، ولوْ أنَّ رجلًا أقبلَ منَ المغربِ إلَى المشرقِ ينفقُ الأموالَ سخاءً، والآخرُ منَ المشرقِ إلَى المغربِ يضربُ بسيفهِ فِي سبيلِ اللهِ كانَ الذَّاكرُ للهِ أعظمَ أجرًا.

والقولُ الثَّانِي: أنَّ المرادَ منْ هذَا الذِّكرِ الدُّعاءُ بالنَّصرِ والظَّفرِ؛ لأنَّ ذلكَ لَا يحصلُ إلَّا بمعونةِ اللهِ تعالَى[1].

والآيةُ محتملةٌ للمعنيينِ.

وهنَا أيضًا قالَ: (كَثِيرًا) أي: ذكرًا كثيرًا، فعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا فِي قولهِ: (وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا) قالَ: لَا يفرضُ اللهُ علَى عبادهِ فريضةً إلَّا جعلَ لهَا

(1) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/٤٨٩.

حدًا معلومًا، ثمَّ عذرَ أهلهَا فِي حالِ عذرٍ، غيرِ الذِّكرِ، فإنَّ اللهَ لمْ يجعلْ لهُ حدًا ينتهِي إليهِ، ولمْ يعذرْ أحدًا فِي تركهِ إلَّا مغلوبًا علَى عقلهِ، فقالَ: {فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ}[النساء: 103].

باللَّيلِ والنَّهارِ، فِي البرِّ والبحرِ، وفِي السَّفرِ والحضرِ، والغنَى والفقرِ، والسَّقَمِ والصحَّةِ، والسرِّ والعلانيَةِ، وعلَى كلِّ حالٍ[1]، وهذَا دليلٌ آخر علَى وجوبِ الذِّكرِ.

(لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) يقولُ: كيْمَا تنجحُوا فتظفرُوا بعدوِّكمْ، ويرزقكمْ اللهُ النَّصرَ والظَّفرَ عليهمْ[2]؛ لأنَّ مقاتلةَ الكافرِ إنْ كانتْ لأجلِ طاعةِ اللهِ تعالَى كانَ ذلكَ جاريًا مجرَى بذلِ الرُّوحِ فِي طلبِ مرضاةِ اللهِ تعالَى، وهذَا هوَ أعظمُ مقاماتِ العبوديَّةِ، فإنْ غلبَ الخصمُ فازَ بالثَّوابِ والغنيمةِ، وإنْ صارَ مغلوبًا فازَ بالشَّهادةِ والدَّرجاتِ العاليةِ، أمَّا إنْ كانتِ المقاتلةُ لَا للهِ، بلْ لأجلِ الثَّناءِ فِي الدُّنيَا، وطلبِ المالِ لمْ يكنْ ذلكَ وسيلةً إلَى الفلاحِ والنَّجاحِ[3].

فالفلاحُ فِي هذهِ الآيةِ لهُ أوجهٌ:

أحدهَا: علَى رجاءِ الفلاحِ.

والثَّانِي: أي: لكيْ تفلحُوا.

والثَّالثُ: علَى قطعِ وجوبِ الفلاحِ إذَا فعلَ ذلكَ؛ بمَا قالُوا: إنْ (لعل) و(عسى) منَ اللهِ تعالَى واجبةٌ[4].

(1) أخرجه الطبري في تفسيره ٩/١٦٤.
(2) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/٢١٣.
(3) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/٤٨٩.
(4) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/١٤.

والحاصلُ: أنْ (تُفْلِحُونَ) مضارعُ (أفلحَ الرَّجلُ يُفلحُ فهوَ مفلحٌ): إذَا نالَ الفلاحَ، والفلاحُ يطلقُ فِي لغةِ العربِ إطلاقينِ معروفينِ مشهورينِ:

أحدهمَا: تطلقُ العربُ الفلاحَ بمعنَى الفوزِ بالمطلوبِ الأكبرِ، فكلُّ منْ فازَ بالمطلوبِ الذِي كانَ يهتمُّ بهِ جدًا، وهوَ منْ أكبرِ مطالبهِ، تقولُ العربُ: أفلحَ هذَا، أي: فازَ بمَا كانَ يطلبُ، وهذَا معنًى معروفٌ فِي كلامِ العربِ.

والإطلاقُ الثَّانِي: هوَ إطلاقُ العربِ الفلاحَ علَى البقاءِ السَّرمدِي فِي النَّعيمِ، فالعربُ تقولُ: أفلحَ هذَا: إذَا كانَ باقيًا خالدًا فِي نعيمٍ سرمدِي، وهذَا المعنَى معروفٌ مشهورٌ فِي كلامِ العربِ أيضًا.

والخلاصةُ: أنَّنَا أمرنَا بالذِّكرِ علَى كلِّ حالٍ نكونُ عليهاَ فِي الحربِ، كمَا يدلُّ علَى ذلكَ السِّياقُ، فأجدرُ بأنْ نُؤمرَ بهِ فِي حالِ السِّلمِ، إلَّا أنَّ المؤمنينَ فِي جهادٍ مستمرٍّ، وحروبٍ دائمةٍ، فهمْ تارةً يجاهدونَ الأعداءَ، وأخرَى يجاهدونَ الأهواءَ، ومنْ ثَمَّ أمرهمُ اللهُ بالذِّكرِ فِي كثيرٍ منَ الآيِ[1].

رابعًا: النجاةُ منَ البلاءِ:

ومنْ فوائدِ الذِّكرِ: النَّجاةُ منَ البلاءِ، قالَ تعالَى: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[الصافات: 143 – 144].

---

(1) تفسير المراغي ٥/ ١٤٣.

يقولُ تعالَى ذكرهُ: (فَلَوْلَا أَنَّهُ) يعنِي: يونسَ عليهِ السَّلامُ (كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) منَ الذَّاكرينَ اللهَ قبلَ ذلكَ، وكانَ عليهِ السَّلامُ كثيرَ الذِّكرِ، وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: منَ المصلِّينَ، وقالَ وهبٌ: منَ العابدينَ، وقالَ الحسنُ: مَا كانتْ لهُ صلاةٌ فِي بطنِ الحوتِ، ولكنَّهُ قدمَ عملًا صالحًا، وقالَ الضحَّاكُ: شكرَ اللهَ تعالَى لهُ طاعتهُ القديمةَ، وقيلَ: فلولَا أنَّهُ كانَ منَ المسبِّحينَ فِي بطنِ الحوتِ، قالَ سعيدٌ بنُ جبيرٍ: يعنِي: قولهُ: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}[الأنبياء: 87][1]، وكلُّ الأقوالِ صحيحةٌ، والأخيرُ أقربُ.

قالَ سلمانُ الفارسِي رضيَ اللهُ عنهُ: إنَّ العبدَ إذَا كانَ لهُ دعاءٌ فِي السرِّ، فإذَا نزلَ بهِ البلاءُ قالتْ الملائكةُ: عبدكَ نزلَ بهِ البلاءُ، فيشفعونَ لهُ فينجيهِ اللهُ، فإذَا لمْ يكنْ لهُ دعاءٌ قالُوا: الآنَ فلَا تشفعونَ لهُ، بيانهُ: لفظةُ فرعونَ: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ}[يونس: 91][2].

والمقصودُ: أنَّ منْ فوائدِ الذِّكرِ النَّجاةُ منَ الكروبِ، كمَا ذكرَ اللهُ منْ حالِ يونسَ عليهِ السَّلامُ أنَّهُ كانَ منَ الذَّاكرينَ اللهَ قبلَ البلاءِ، وفِي البلاءِ، فذكرهُ اللهُ فِي حالِ البلاءِ، فأنقذهُ ونجَّاهُ.

---

(1) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/٤٧.

(2) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢٠/٢.

خامسًا: اطمئنانُ القلوبِ:

ومنْ فوائدِ الذِّكرِ: حصولُ الطُّمأنينةِ، وقدْ مدحَ اللهُ قومًا اطمأنتْ قلوبهمْ بذكرهِ.

قالَ تعالَى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[الرعد: 28].

قولهُ: (تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) أي: تسكنُ قلوبهمْ، وتستأنسُ بذكرِ اللهِ[1].

وفِي هذَا الذِّكرِ قولانِ:

أحدهمَا: أنَّهُ القرآنُ؛ لأنَّهُ يسمَّى ذكرًا، كمَا قالَ تعالَى: {وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ}[الأنبياء: 50].

وقالَ سبحانهُ: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الحجر: 9]، لأنَّهُ آيةٌ بيِّنةٌ تُسكنُ القلوبَ، وتثبتُ اليقينَ فيهَا.

والثَّانِي: ذكرُ اللهِ علَى الإطلاقِ.

وفِي معنَى هذهِ الطمأنينةِ قولانِ:

أحدهمَا: أنَّهَا الحبُّ لهُ والأنسُ بهِ.

والثَّانِي: السُّكونُ إليهِ منْ غيرِ شكٍّ، بخلافِ الذينَ إذَا ذُكرَ اللهُ اشمأزتْ قلوبهمْ، والمعنَى: تطمئنُّ القلوبُ التِي هيَ قلوبُ المؤمنينَ؛ لأنَّ الكافرَ غيرَ مطمئنّ القلبِ[2].

---

(1) جامع البيان، الطبري ١٣/٥١٨.

(2) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/٤٩٤.

والمعنيانِ مرادانِ، ولَا تعارضَ بينهمَا، فذكرُ اللهِ تسبيحهُ وتهليلهُ وتكبيرهُ، ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ القرآنُ.

قالَ السَّعدِي: ثمَّ ذكرَ تعالَى علامةَ المؤمنينَ، فقالَ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ﴾ أي: يزولُ قلقهَا واضطرابهَا، وتحضرهَا أفراحهَا ولذَّاتهَا ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: حقيقٌ بهَا وحريٌّ أنْ لَا تطمئنَّ لشيءٍ سوَى ذكرهِ، فإنَّهُ لَا شيءَ ألذُّ للقلوبِ، ولَا أشهَى ولَا أحلَى منْ محبَّةِ خالقهَا، والأنسِ بهِ ومعرفتهِ، وعلَى قدرِ معرفتهَا باللهِ ومحبَّتهَا لهُ يكونُ ذكرهَا لهُ، هذَا علَى القولِ بأنَّ ذكرَ اللهِ ذكرَ العبدِ لربِّهِ، منْ تسبيحٍ وتهليلٍ وتكبيرٍ وغيرِ ذلكَ. وقيلَ: إنَّ المرادَ بذكرِ اللهِ كتابهُ الذِي أنزلهُ ذكرَى للمؤمنينَ، فعلَى هذاَ معنَى طمأنينةِ القلوبِ بذكرِ اللهِ: أنَّهَا حينَ تعرفُ معانِي القرآنِ وأحكامهِ تطمئنُّ لهاَ، فإنَّهَا تدلُّ علَى الحقِّ المبينِ المؤيَّدِ بالأدلَّةِ والبراهينِ؛ وبذلكَ تطمئنُّ القلوبُ، فإنَّهَا لَا تطمئنُّ القلوبُ إلَّا باليقينِ والعلمِ؛ وذلكَ فِي كتابِ اللهِ، مضمونٌ علَى أتمِّ الوجوهِ وأكملهَا، وأمَّا مَا سواهُ منَ الكتبِ التِي لَا ترجعُ إليهِ فلَا تطمئنُّ بهَا، بلْ لَا تزالُ قلقةً منْ تعارضِ الأدلَّةِ، وتضادِ الأحكامِ[1].

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٧.

سادسًا: مغفرةُ الذُّنوبِ:

ومنْ فوائدِ الذِّكرِ: مغفرةُ الذُّنوبِ.

قالَ تعالَى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[آل عمران: 135 – 136].

فهؤلاءِ إذَا فعلُوا فاحشةً بادرُوا إلَى التَّوبةِ والاستغفارِ، وذكرُوا ربَّهمْ، ومَا توعَّدَ بهِ العاصينَ، ووعدَ بهِ المتَّقينَ، فسألوهُ المغفرةَ لذنوبهمْ، والسِّترَ لعيوبهمْ، معَ إقلاعهمْ عنهَا وندمهمْ عليهَا.

(أُولَئِكَ) الموصوفونَ بتلكَ الصِّفاتِ (جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ) تزيلُ عنهمْ كلَّ محذورٍ (وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) فيهَا منَ النَّعيمِ المقيمِ، والبهجةِ والسُّرورِ والبهاءِ، والخيرِ والسُّرورِ، والقصورِ والمنازلِ الأنيقةِ العالياتِ، والأشجارِ المثمرةِ البهيَّةِ، والأنهارِ الجارياتِ فِي تلكَ المساكنِ الطيِّباتِ (خَالِدِينَ فِيهَا) لَا يحولونَ عنهَا، ولَا يبغونَ بهَا بدلًا، ولَا يغيّرُ مَا همْ فيهِ منَ النَّعيمِ (وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) عملُوا للهِ قليلًا، فأجرُوا كثيرًا، وعندَ الجزاءِ يجدُ العاملُ أجرهُ كاملًا موفرًا[1].

والمقصودُ: أنَّهمْ حصلُوا علَى هذهِ المغفرةِ منَ اللهِ تعالَى، والجنَّاتِ، والخلودِ فيهَا بسببِ الاستغفارِ، وهوَ ذكرٌ منَ الأذكارِ.

وفضائلُ الذِّكرِ لَا تُحصَى ولَا تعدُّ.

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٩.

أسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يجعلَ هذَا الكتابَ خالصًا لوجههِ الكريمِ وأنْ يغفرَ لمؤلِّفهِ وقارئهِ وناشرهِ ووالديهمْ ومشايخهمْ

والمسلمينَ

آمين.

تمَّ الكتابُ، والحمدُ للهِ الذِي بنعمتهِ تتمُّ الصَّالحاتُ

المصادرُ والمراجعُ

كلُّ منْ لمْ نذكرْ وفاتهُ، فهوَ إمَّا معاصرٌ، أو أنَّنا ذكرناهُ سابقًا، أو أنَّهُ ذُكِرَ فِي وسطِ الكتاب، مثلَ أئمَّة التَّفسير.

1) القرآنُ الكريمُ.

2) صحيحُ الإمامِ البخاريِّ: لأبِي عبدِ اللهِ محمَّدٍ بنِ إسماعيلَ البخاريِّ، متوفَّى (1 شوال 256 هجري).

3) صحيحُ الإمامِ مسلمٍ: لمسلمٍ بنِ الحجَّجِ القشيرِي النَّسابورِي، متوفَّى (25 رجب 261 هجري).

4) سننُ أبِي داودَ: لأبِي داودَ سليمانَ بنِ الأشعثِ السَّجستانِي، متوفَّى (16 شوال 275 هجري).

5) سننُ النَّسائِي: لأبِي عبدِ الرَّحمنِ بنِ شعيبٍ النَّسائِي، متوفَّى (13 صفر 303 هجري).

6) سننُ الترمذي (الجامع الكبير): لأبِي عيسَى محمَّدٍ بنِ عيسَى بنِ سَوْرةَ بنِ موسَى بنِ الضَّحَّاكِ، السّلمِي التِّرمذِي، المتوفَّى (279 هجري).

7) سننُ البيْهقِي: لأبِي بكرٍ أحمدَ بنِ عليٍّ بنِ موسَى الخراسنِي البيْهقِي، المتفَّى (جمادى الأوَّل 458 هجري).

8) المسندُ: لأبِي عبدِ اللهِ أحمدَ بنِ محمَّدٍ بنِ حنبلَ الشَّيبانِي الذهلِي، المتوفَّى (241 هجري).

9) صحيحُ ابنِ حبَّانَ: لأبِي حاتمٍ محمَّدٍ بنِ حبَّانَ البستِي، المتوفَّى (354 هجري).

10) المصنَّفُ فِي الأحاديثِ والآثارِ: المعروفُ بمصنَّفِ ابنِ أبِي شيبةَ، لأبِي بكرٍ بنِ أبِي شيْبةَ، عبدِ اللهِ بنِ محمَّدٍ بنِ إبراهيمِ بنِ عثمانَ بنِ خواستِي العبسِي، المتوفَّى (235 هجري).

11) سننُ الدَّارقطنِي: لأبِي الحسنِ عليٍّ بنِ عمرَ بنِ أحمدَ بنِ مهدِي بنِ مسعودٍ بنِ النُّعمانَ بنِ دينارٍ البغدادِي الدَّارقطنِي، المتوفى (385 هجري).

12) فيضُ القديرِ شرحِ الجامعِ الصَّغيرِ: لزينِ الدِّين محمَّد المدعُو بعبدِ الرَّؤوفِ بنِ تاجِ العارفينَ بنِ عليٍّ بنِ زينِ العابدينَ الحدادِي ثمَّ المناوِي القاهرِي، المتوفى (1031 هجري).

13) سننُ ابنِ ماجهْ: لأبِي عبدِ اللهِ محمَّدٍ بنِ يزيدٍ بنِ ماجهْ الرَّبعِي القزوينِي، المتوفى (273 هجري).

14) السُّننُ الصُّغرَى: كتابُ المجتبَى (سننُ النَّسائِي الصُّغرَى).

15) مستدركُ الحاكمِ: لأبِي عبدِ اللهِ محمَّدٍ بنِ عبدِ اللهِ الحاكمِ النَّيسابورِي، المتوفى (405 هجري).

16) سننُ الدَّارمِي: لأبِي محمَّدٍ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ التَّميمِي الدَّارمِي السَّمرقندِي، المتوفى (255 هجري).

17) مسند أبي يعلى الموصلي: لأحمد بن علي بن المثنى بن يحيي التميمي الموصلي، واشتهر بأبي يعلى الموصلي، المتوفى (307 هجري).

18) تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: لزين الدين أبو الفضل عبد الرحيم العراقي الشافعي المتوفى (806 هجري).

19) السنة لابن أبي عاصم: لأبي بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، المتوفى (287 هجري).

20) فتح الباري: لشهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن أحمد الكناني العسقلاني، المتوفى (852 هجري).

21) المنهاج في شعب الإيمان: للحسين بن الحسن الحليمي أبو عبد الله، المتوفى (403 هجري).

22) شعبُ الإيمانِ: لأحمدَ بنِ الحسينِ بنِ عليٍّ بنِ موسَى الخُسْرَوْجِردِي الخراسانِي، أَبِي بكرٍ البيْهقِي، المتوفَّى (458 هجري).

23) السلسلة الظعيفة: لأبي عبد الرحمن محمد بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني الأرنؤوطي المعروف باسم محمد ناصر الدين الألباني، المتوفى (1420 هجري).

24) البدع والنهي عنها: لأبي عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع، المتوفى (287 هجري).

25) فضائل النبى ﷺ وشمائله من كتاب شرح السنة: للحسين بن مسعود البغوى، المتفى (516 هجري).

26) إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري: لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني، المتوفى (923 هجري).

27) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض السبتي اليحصبي، المتوفى (544 هجري).

28) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: المؤلف عدد من المتخصصين بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد وعبد الرحمن بن ملوح.
29) المفهم لما أشكل من تلخيص شرح صحيح مسلم: لأبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي المتوفى (656 هجري).
30) الترغيب والترهيب: لزكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة بن سعد المنذري، المتوفى (656 هجري).
31) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، المتوفى (807 هجري).
32) المهذب في اختصار السنن الكبير: لأبي عبد الله محمّد بن أحمد بن عُثمان الذّهَبيّ الشَّافعيّ، المتوفي (748 هجري).
33) جامع المسانيد والسند: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المتفى (774 هجري).
34) الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين: لمقبل بن هادي الوادعي، المتوفى (1422 هجري).
35) تفسير الطبري.
36) تفسير ابن كثير.
37) تفسير البغوي.
38) تفسير الطبراني.
39) تفسير ابن أبي حاتم.
40) تفسير القرطبي.
41) المختصر في التفسير.
42) تفسير السعدي.

43) تفسير الشوكاني.
44) تفسير الثعلبي.
45) تفسير الألوسي.
46) تفسير البيضاوي: ناصر الدين البيضاوي، المتوفى (685 هجري).
47) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور التونسي، المتوفى (1392 هجري).
48) كتاب التَّفسير مجموعة زاد للعلوم الشَّرعية محمد صالح المنجد.
49) عمدة التفسير: للحافظ ابن كثير.
50) تفسير البحر المحيط: لأبي حيان الغرناطي، المتوفى (745 هجري).
51) تفسير النكت والعيون: لأبي الحسن الماوردي، المتوفى (450 هجري).
52) جامع البيان في تفسير القرآن للشيرازي: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الإيجي الشيرازي، المتوفى (906 هجري).
53) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لعبد الحق بن غالب بن عطية، المتوفى (511 هجري).
54) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أحمد بن محمد بن المهدي بن الحسين بن محمد بن عجيبة، المتوفى (1224 هجري).
55) غريب القرآن: لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني، المتوفى (330 هجري).
56) الإتقان في علوم القرءان: لجلال الدين السيوطي.
57) الوحي والقرآن: لعبد الحميد إبراهيم سرحان.
57) تفسير الضَّحَّاك: للضحاك بن مزاحم الهلالي، المتوفى (102 أو 105 أو 106 هجري).

58) مناهل العرفان في علوم القرآن: لمحمد عبد العظيم الزرقاني، المتوفى (1122 هجري).
59) المفردات في غريب القرءان: للرَّاغب الأصفهاني، المتوفى (502 هجري).
60) مقدِّمة في أصول التَّفسير: لابن تيمية، المتوفى (728 هجري).
61) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير: للدكتور محمد لطفي الصباغ، المتوفى (1439 هجري).
62) البغوي ومنهجه في التفسير: عفاف عبد الغفور حميد.
63) البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين الزركشي، المتوفى (794 هجري).
64) مقدمة محمود شاكر من تفسير الطبري: محمود محمد شاكر، المتوفى (1418 هجري).
65) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: لأحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، المتوفى (834 هجري).
66) كليات الألفاظ في التفسير، رسالة ماجستير، لبريك القرني.
67) فصول في أصول التفسير: لمساعد بن سليمان الطيار.
68) تفسير القرآن الكريم أصوله وضوابطه: علي بن سليمان العبيد.
69) أثر معرفة الكليات والأفراد في القرآن الكريم – د. صالح بن سعود سليمان السعود.
70) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، للسعدي.
71) مقدِّمة تفسير السَّعدي.
72) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل: عبد الرحمن حبنكة الميداني، المتوفى (1425 هجري).

73) الشرح الكبير لمختصر الأصول: لأبي المنذر المنياوي.
74) شرح المفصل: لموفق الدين بن يعيش النحوي، المتوفى (643 هجري).
75) الكليات للكفوي، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي المتوفى (1093 أو 1094 أو 1095 هجري).
76) الأشباه والنظائر علَى مذهبِ أبي حنيفة النُّعمانِ: لزين العابدينَ بنِ إبراهيمَ بن نجيمٍ المتوفى (969 أو 970 هجري).
77) المحصول في علم الأصول: لمحمد بن عمر بن الحسين الرازي، المتوفى (606 هجري).
78) المجموع شرح المهذب: للنووي، يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين المتوفى (676 هجري).
79) الذخيرة: لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، المتوفى (684 هجري).
80) نهاية السول شرح منهاج الوصول: للإمام جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي، المتوفى (772 هجري).
81) الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة: لزكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى، المتوفى (926 هجري).
82) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: لشمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة ابن شهاب الدين الرملي الشهير بالشافعي الصغير، المتوفى (1004 هجري).

83) البحر الرائق شرح كنز الدقائق: لزين الدين ابن نجيم الحنفي – ابن عابدين، المتوفى (969 أو 970 هجري).

84) غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر، لابن نجيم.

85) مجموع الفتاوى: هو كتاب يجمع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، حوى العديد من كتب العقيدة والتوحيد، والفقه والأصول، والحديث والتفسير، وغيرها من العلوم الأخرى كُتِب في (37) مجلداً أصلياً وطبع في (20) مجلداً.

86) الأرجوزة المنظَّمة لخلاصة المقدِّمة في أصول التفسير: لأبي سهيل أنور عبد الله بن عبد الرَّحمن الفضفري.

87) القواعد في الفقه الإسلامي: ابن رجب؛ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي، أبو الفرج، زين الدين، المتوفى (795 هجري).

88) منظومة القواعد الفقهية: لعثمان بن سند المالكي البصري، المتوفى (1242 هجري).

89) قواعد الفقه: محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، المتوفى (1395 هجري).

90) شرح القواعد الفقهية: لأحمد محمد الزرقا، المتوفى (1357 هجري).

91) القواعد الفقهية مفهومها ونشأتها وتطورها ودراسة مؤلفاتها أدلتها مهمتها تطبيقاتها: لعلي أحمد الندوي.

92) الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية: لمحمد صدقي بن أحمد بن محمد البورنو أبو الحارث الغزي.

93) الموسوعة الفقهية الكويتية: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت.

94) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق: لعثمان بن علي الزيلعي فخر الدين، المتوفى (743 هجري).

95) العناية شرح الهداية: لمحمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين أبو عبد الله البابرتي المتوفى (786 هجري).

96) درر الحكام في شرح مجلة الأحكام، لعلي حيدر خواجه أمين أفندي، المتوفى (1353هجري).

97) فقه العقود المالية: للدكتور عبد الحق حميش – د. الحسين شواط.

98) مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر: للشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، المتوفى (1393 هجري).

99) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم – دراسة وموازنة: د. سليمان بن صالح القرعاوي.

100) نظم الورقات: للعمريطي، يحيى بن نور الدين أبي الخير بن موسى العِمْرِيطي، المتوفى (بعد 989 هجري).

101) مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني، المتوفى (502 هجري).

102) استدراكات الشوكاني على العلماء والمفسرين في فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية: لجميلة محمد البدوي بابكر.

103) المعتد في أصول الفقه: لأبي الحسن البصري "المعتزلي" (436 هجري).

104) تسهيل الوصول إلى الرسالة المختصرة في الأصول، للسعدي.

105) الفوز الكبير في أصول التفسير: لولي الله الدهلوي، المتوفى (1176 هجري).
106) الواضح في أصول الفقه: لابن عقيل، علي بن عقيل بن محمد بن عقيل أبو الوفاء، المتوفى (769 هجري).
107) إحكام الفصول في أحكام الأصول: للباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، المتوفى (474 هجري).
108) الذريعة إلى مكارم الشريعة: للراغب الأصفهاني.
109) معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): لياقوت الحموي، المتوفى (622 هجري).
110) تاريخ بغداد وذيوله: للخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي، المتوفى (463 هجري).
111) طبقات المفسرين: للداودي، محمد بن علي بن أحمد الداوودي شمس الدين، المتوفى (945 هجري).
112) إنباء الغمر بأبناء العمر: لابن حجر العسقلاني، المتوفى (852 هجري).
113) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي: ليوسف بن تغري بردي الأتابكي جمال الدين أبو المحاسن، المتوفى (874 هجري).
114) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: لابن حجر العسقلاني.
115) معجم المحدثين: لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المتوفى(748 هجري).
116) تذكرة الحفاظ: للذهبي.
117) سير أعلام النبلاء: للذهبي.

118) الأعلام: لخير الدين الزركلي، المتوفى (1396 هجري).

119) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لعبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العكري الحنبلي أبو الفلاح، المتوفى (1089 هجري).

120) طبقات الحفاظ: لجلال الدين السيوطي.

121) البداية والنهاية: لابن كثير.

122) ابن كثير الدمشقي الحافظ المفسر المؤرخ الفقيه: للدكتور محمد الزحيلي.

123) معجم البلدان: لياقوت الحموي.

124) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان: لشمس الدين بن خلكان، المتوفى (681 هجري).

125) الإرشاد في معرفة علماء الحديث: الخليل بن عبد الله بن أحمد ابن الخليل الخليلي القزويني أبو يعلى، المتوفى (446 هجري).

126) تاريخ دمشق: لابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، المتوفى (571 هجري).

127) التدوين في أخبار قزوين: للرافعي، عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، أبو القاسم الرافعي القزويني، المتوفى (623 هجري).

128) تاريخ الإسلام: لشمس الدين للذهبي.

129) الوافي بالوفيات: للصَّفَدي، صلاح الدين الصفدي؛ خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، المتوفى (764 هجري).

130) طبقات الشَّافعية الكبرى: للسُّبكي، تاج الدين السبكي؛ عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر، المتوفى (771 هجري).

131) طبقات الحنابلة: لمحمد بن أبي يعلى الفراء البغدادي الحنبلي أبو الحسين، المتوفى (458 هجري).
132) طبقات المفسرين: لجلال الدين السيوطي.
133) عظماء الإسلام: لمحمد سعيد مرسي.
134) مؤرخو مصر الإسلامية: لمحمد عبد الله عنان، المتوفى (1406 هجري).
135) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة: الغزي، نجم الدين محمد بن محمد، المتوفى (1061 هجري).
136) بدائع الزهور في وقائع الدهور: لزين العابدين محمد بن أحمد المعروف بـ بن إياس الحنفي، المتوفى (929 هجري).
137) الثغور الباسمة في مناقب السيدة فاطمة: لجلال الدين السيوطي.
138) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: لجلال الدين السيوطي.
139) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي.
140) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني.
141) الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير: للشيخ مشهور حسن محمود سلمان.
142) السيوطي النحوي: لعدنان محمد سلمان.
143) علماء نجد خلال ثمانية قرون: لعبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، المتوفى (423 هجري).
144) حياة الشيخ عبدالرحمن السعدي في سطور: لأحمد القرعاوي.
145) روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين: للشيخ محمد بن عثمان القاضي، المتوفى (1342 هجري).

146) تراجم لتسعة علماء: للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد.

147) طبقات الشافعية الكبرى: لتاج الدين السبكي؛ عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر، المتوفى (**771** هجري).

148) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي، المتوفى (**1397** هجري).

149) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي، المتوفى (**1111** هجري).

150) ابن رشيد الفهري: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة.

151) أسنى المقاصد وأعذب الموارد: علي بن أحمد بن عبدالواحد (البخاري)، المتوفى (**690** هجري).

152) الإمام الشَّوكاني مفسِّرا – رسالة مجستير ودكتوراه –لمحمد حسن بن أحمد الغماري.

153) معجم حفاظ القرآن عبر التّاريخ: محمد سالم محيسن، المتوفى (**1422** هجري).

154) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، المتوفى (**395** هجري).

155) لسان العرب: ابن منظور الأنصاري، المتوفى (**711** هجري).

156) مفردات ألفاظ القرآن: للرَّاغب الأصفهاني، وهو الحسين بن محمد بن الفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالرَّاغب، المتوفى (**502** هجري).

157) الأصمعيات: لعبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي أبو سعيد، المتوفى (216 هجري).
158) الفروق اللغوية: للحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد أبو هلال العسكري، المتوفى (395 هجري).
159) معجم اللغة العربية: لأحمد مختار عمر، المتوفى (1424 هجري).
160) معجم التعريفات: لعلي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، المتوفى (816 هجري).
161) التوقيف على مهمّات التعاريف: لعبد الرؤوف المناوي، المتوفى (1031 هجري).
162) تاج العروس من جواهر القاموس: للمرتضى الزبيدي، هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق، ينتهي نسبه إلى أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، اشتهر بالسيد المرتضى الحسيني الزبيدي اليماني الواسطي العراقي الحنفي، ويكنى أبا الفيض وأبا الجود وأبا الوقت، المتوفى (1205 هجري).
163) تاج اللغة وصحاح العربية: لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، المتوفى (393 هجري).
164) تهذيب اللغة: لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، المتوفى (370 هجري).
165) مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، المتوفى (660 هجري).
166) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن

حريز الزرعي، المشهور بابن القيم الجوزية، المتوفى (751 هجري).

167) العقيدة الطَّحاوية وشروحها: لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزديّ الطحاوي، المتوفى (321 هجري).

168) الصواعق المنزلة: لابن القيم الجوزية.

169) مجلة البيان العدد (5).

170) إظهار الحق: لرحمة الله الكيرانوي، المتوفى (1301 هجري).

171) هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: لإسماعيل باشا البغدادي، المتوفى (1339 هجري).

172) الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية: لوليد عبد الله المنيس.

173) الدرر السنية في الأجوبة النجدية: لمجموعة من العلماء: المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، المتوفى (1392 هجري).

174) الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة لأبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس بن الطائع الكتاني، المتوفى (1392 هجري).

175) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى، المتوفى (1353 هجري).

176) درر الحكام شرح مجلة الأحكام: لعلي حيدر.

177) المبسوط: لشمس الدين السرخسي محمد بن أحمد بن أبي سهل السَّرَ خْسِيّ الخزرجي الأنصاري، المتوفى (460 هجري).

178) المحيط البرهاني في الفقه النعماني فقه الإمام أبي حنيفة: لأبي المعالي برهان الدين محمود بن أحمد بن عبد العزيز بن عمر بن مَازَة البخاري الحنفي، المتوفى (616 هجري)، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي.

179) تبين الحقائق شرح كنز الدقائق: لفخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي، المتوفى (743 هجري).

180) العناية شرح الهداية: للإمام أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي، المتوفى (786 هجري).

181) حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين: لأبي بكر ابن السيد محمد شطا الدمياطي، المتوفى (1310 هجري).

182) السير الكبير: لمحمد بن الحسين الشيباني، المتوفى (198 هجري).

183) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: لعلاء الدين الكاساني، المتوفى (587 هجري).

184) تفسير أسماء الله الحسنى: لأبي إسحاق الزجَّاج، المتوفى (311 هجري).

185) العبودية: لشيخ الإسلام ابن تيمية.

186) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب: للدكتور صالح عبد الله العبود في عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

187) التوصل إلى حقيقة التوسل المشروع والممنوع: محمد نسيب الرفاعي، المتوفى (1412 هجري).

188) بغية السائل من أوبد المسائل: لوليد المهدي.

189) الرسل والرِّسالات: للدكتور عمر سليمان الأشقر، المتوفى (1433 هجري).

190) مقدِّمة الرِّسالة: لابن أبي زيد القيرواني، المتوفى (386 هجري).

191) البداية في العقيدة: لوحيد بالي، وشرحها: لخالد الجهني.

192) الاعتصام: لإبراهيم بن موسى الشاطبي، المتوفى (790 هجري).
193) الإخلاص والشرك الأصغر: لعبد العزيز عبد اللطيف.
194) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم الأصفهاني، المتوفى (430 هجري).
195) التَّقوى الدرَّة المفقودة والغاية المنشودة: للدكتور أحمد فريد.
196) صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال للقاضي حسين بن محمد المهدي.
197) الرسالة التبوكية (زاد المهاجر إلى ربه): لابن القيم الجوزية.
198) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار: للسعدي.
199) التوقيف على مهمات التعاريف: عبد الرؤوف المناوي، المتوفى (1031 هجري).
200) الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: لأيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، المتوفى (1094 هجري).
201) جامع الرسائل: تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المتوفى (728 هجري).
202) حاشية كتاب زينة النواظر وتحفة الخواطر من كلام الشيخ لابن عطاء الله السكندري (الصوفي)، المتوفى (709 هجري): جمعه رافع بن محمد بن محمد بن شافع.

203) الآداب الشرعية والمنح المرعية: للقاضي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج الراميني المقدسي الدمشقي الصالحي، المتوفى (763 هجري).

204) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه: لابن القيم الجوزية.

205) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد واياك نستعين: لابن القيم الجوزية.

206) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب النجدي.

207) رفع النقاب عن تنقيح الشهاب: حسين بن علي بن طلحة الرجراجي الشوشاوي أبو علي.

208) الإكراه وأثره في عقود المفاوضات المالية: للدكتور إبراهيم العروان.

209) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: لعلاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي، المتوفى (587 هجري).

210) رد المحتار على الدر المختار: ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، المتوفى (1252 هجري).

211) التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي: لعبد القادر عودة: المتوفى (1373 هجري).

212) الإكراه وأثره في التصرفات: د. محمد المعيني.

213) الإكراه وأثره في التصرفات: د. عيسى شقره.

214) كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، وبهامشه أصول البزدوي: لعبد العزيز أحمد بن محمد البخاري علاء الدين، المتوفى (730 هجري).

215) أبجدية نواقض الإسلام للدكتور عصام الدين بن إبراهيم النقيلي.
216) الملل والنحل: لمحمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني، المتوفى (548 هجري).
217) فيض القدير شرح الجامع الصغير: لعبد الرؤوف المناوي.
218) موقف الإسلام من الانحرافات المتعلقة بتوحيد العبادة: لعبد الرازق محمد بشر.
219) الأخلاق الإسلامية وأسسها: لعبد الرحمن الميداني، المتوفى (1425 هجري).
220) اشتقاق أسماء الله: لعبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، المتوفى (340 هجري).
221) الفوائد: لابن القيِّم الجوزية.
222) النهاية في غريب الحديث والأثر المؤلف: لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، المتوفى (660 هجري).
223) سلسلة أعمال القلوب، كتاب الإخلاص: لمحمد صالح المنجد.
224) كتاب مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب: الناشر، مكتبة ابن تيمية.
225) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: للدكتور، صالح عبد الله العبود.
226) القول السديد في مقاصد التوحيد: لعبد الرحمن السعدي.
227) عقيدة المؤمن: لأبي بكر الجزائري، المتوفى (1439 هجري).
228) تقوية الإيمان: لمحمد إسماعيل بن عبد الغني بن عبد الرحمن العمري، المتوفى (1246 هجري).

229) رسالة التوحيد: لمحمد عبده.
230) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: للإمام الشوكاني.
231) المهذب في اختصار السنن الكبير (البيهقي): للذهبي.
232) مجموع فتاوى ابن عثيمين: لمحمد صالح ابن عثيمين المتوفى (1421 هجري).
233) الشرك في القديم والحديث الجزء الأول: لأبي بكر محمد زكريًّا.
234) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى: لخالد عبد اللطيف.
235) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، المتوفى (770 هجري).
236) تهذيب الأخلاق للجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري، المتوفى (255 هجري).
237) مفاتيح الغيب (تفسير الرازي): لفخر الدين الرَّازي.
238) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: لأبي الحسن علي بن سلطان محمد، القارئ الهروي المكي المعروف بـ الملّا علي القاري، المتوفى (1014 هجري).
239) موقع الألوكة.
240) موقع الدرر السنية.
241) موقع صيد الفوائد.
242) الموقع الرسمي للإمام ابن باز.
243) موقع طريق الإسلام.
244) موقع الموسوعة الإسلامية.

245) موقع الإمام الشوكاني.
246) موقع الإمام السعدي.
247) موقع الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين.
248) موقع المكتبة الشاملة.
249) موقع الاسلام سؤال وجواب.
250) موقع خالد بن عبد الله المصلح.
251) موقع قاموس ومعجم المعاني.
252) موقع موسوعة التَّفسير الموضوعي.

ما تركناه من مصادر فهو في وسط الكتاب.

الفهرس

كتب للمؤلف

مجموعة أصول التفسير:

1 – تمهيد البداية في أصول التفسير (الجزء الأول)

2 – تمهيد البداية في أصول التفسير (الجزء الثاني)

3 – معية الله تعالى

4 – التفسير والمفسرون

5 – ورقات في أصول التفسير

مجموعة الحديث والسنة:

6 – المنة في بيان مفهوم السنة

7 – المختصر في وصف خير البشر ﷺ

8 – قصة الإسلام من سيرة خير الأنام ﷺ

9 – الأربعون في فضل الصحابة وخير القرون

10 – الأربعون الزجرية في أحاديث زجر النساء

11 – طريق الأبرار 20 حديثا تملؤها الأسرار

12 – الترويح والملح في شرح نظم غرامي صحيح لابن فرح

مجموعة علم الأصول:

13 – الخلاصة في علم الأصول من حد الفقه (الجزء الأول)

14 – الخلاصة في علم الأصول من حد الفقه (الجزء الثاني)

15 – الخلاصة في علم الأصول من حد الفقه (الجزء الثالث)

16 – الخلاصة في علم الأصول من حد الفقه (الجزء الرابع)

17 – التهذيب والتوضيح في شرح قواعد الترجيح

مجموعة الفقه:

18 – الأذان

19 – الحجاب

20 – الديوث

21 – حجة الوداع من صحيح مسلم مع الشرح

مجموعة علوم اللغة:

22 – البداية في الإملاء والترقيم

مجموعة العقيدة:

23 – أبجدية نواقض الإسلام

24 – الإيمان والعمل الصالح

25 – الإنفاق في القرآن الكريم

26 – التوكل على الله تعالى

27 – العقل في القرآن الكريم

مجموعة الرقية والطب البديل:

28 – الخطوات الأولية في الأعشاب الطبية

29 – الزيوت العطرية علاج وجمال

30 – التدليك علاج واسترخاء

31 – في كل بيت راق

32 – حقيقة الإصابات الروحية

33 – المفرد في علم التشخيص

34 – الاشتياق لرقية الأرزاق

35 – أسرار الترياق من مختصر في كل بيت راق

كتب متفرقة:

36 – التوكل على الله تعالى

37 – الإنفاق في القرآن الكريم

38 – ذكر الله تعالى

39 – العقل في القرآن الكريم

40 – العلم النافع

41 – التوبة

وغير ذلك...

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ.
اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ
إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ،
كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، فِي الْعَالَمِينَ
إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ
عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ